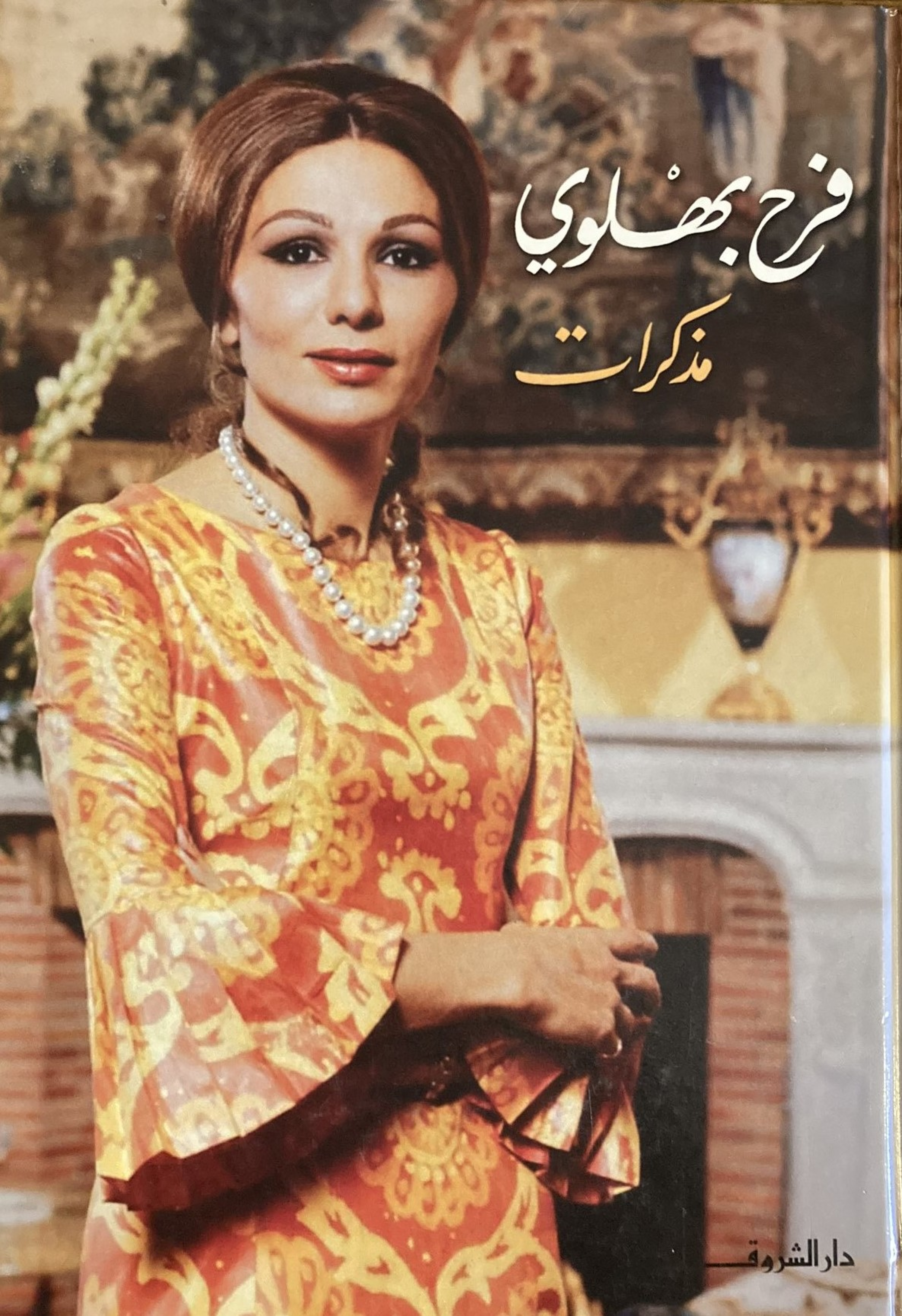
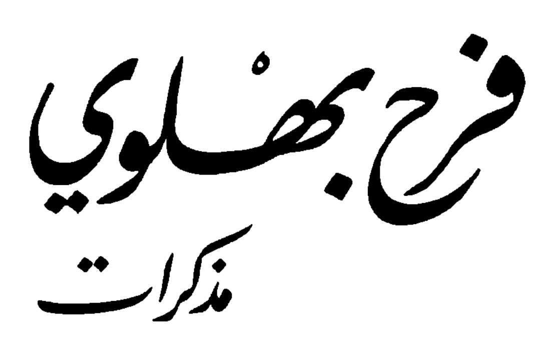

فرح بهلوي
مذكرات
دار الشروق



ترجمة إكرام يوسف

دار الشروق

فرح بهلوي

مذكرات

صدر هذا الكتاب باللغة الفرنسية تحت عنوان
Farah Pahlavi, Mémoires

الطبعة الأولى ٢٠١٠

رقم الإيداع ٣٥٣٤/ ٢٠١٠
ISBN 978-977-09-2765-0

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر - القاهرة - مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧(٢٠٢) +
email:dar@shorouk.com
www.shorouk.com

إهداء

أهدي الطبعة العربية من كتابي لشعب مصر
وأرضها، تلك البلد المضيافة التي يرقد فيها
اليوم زوجي الراحل محمد رضا شاه بهلوي.

فرح بهلوي



عندما أتذكر ذلك الصباح من يناير ١٩٧٩، يعاودني نفس إحساس الحزن الموجع بكل حدته. كانت طهران تعاني هجوما ضاريا منذ شهور، لكن صمتا متوترا يخيم الآن على المدينة كما لو أن عاصمة بلدنا تحبس أنفاسها فجأة. اليوم السادس عشر من الشهر، ونحن على وشك مغادرة بلدنا، بعدما ارتأينا أن انسحاب الملك[١] ـ مؤقتا ـ ربما يساعد في تهدئة العصيان المسلح.

وهكذا رحلنا. اتخذ القرار قبل عشرة أيام تقريبا: من الناحية الرسمية كنا مسافرين لقضاء بضعة أسابيع في الخارج للاستجمام. وهو الانطباع الذي أراد الملك أن يتركه. هل كان ـ هو ذاته ـ يصدق ذلك؟! الأسى العميق الذي كنت ألمحه أحيانا في عينيه يجعلني أعتقد العكس. تمنيت بشدة أن نكون ذاهبين للاستجمام فحسب، بيد أنني لم أقتنع بهذا. كما لم أستطع تصديق أن هذا الرجل الذي خدم شعبه طيلة سبعة وثلاثين عاما، ربما لا يسترد ثقته قريبا. ففي عهده حققت إيران تقدما ملحوظا، وسوف يقر الجميع بهذه الحقيقة ما أن يعود السلام. نعم كنت مسكونة بالأمل!

كان الثلج يتساقط، والرياح العاتية تندفع بقوة هابطة من أعلى قمم جبال «ألبورز» لتشكل رقائق كريستالية على صورة دوامات تحلق في ضوء الفجر. والليل مر هادئا، هدوءا غريبا، واستطاع الملك أن يقتنص بضع ساعات من النوم. وهو الذي فقد ـ خلال العام المنصرم ـ الكثير من وزنه، بعدما أضعفه المرض وأنهكته الظروف.

---

(١) فكرت في كتابة اللقب الذي درجنا على استخدامه في مصر للإشارة إلى إمبراطور إيران السابق، وهو «الشاه»ـ اللفظ الفارسي الذي يعني بالعربية «الملك» والإشارة إلى مؤلفة الكتاب باعتبارها «الشاهبانو»، لكنني وجدت أنها استخدمت هذين اللقبين في مرات محدودة ضمن الكتاب في طبعته الإنجليزية التي أترجم عنها، كما أشارت إلى اللقبين «الإمبراطور والإمبراطورة» مرات نادرة، وفي سائر المرات الأخرى كانت حريصة على اللقبين «ملك ـ ملكة» (king, queen)، فرأيت الالتزام بأسلوب الكتاب المترجم عنه، وعدم كتابة الشاه أو الشاهبانو أو الإمبراطور أو الإمبراطورة، إلا في المرات التي ذكرت فيها هذه الصيغة للألقاب. (المترجمة)

ورغم إعلان الأحكام العرفية، ينجح المتظاهرون كل ليلة في تحدي الجنود، ويتسلقون أسطح المنازل. حتى صرنا نسمع ونحن في القصر، هتافاتهم المفعمة بالكراهية: «الله أكبر، والموت للشاه»! وكنت على استعداد لبذل أي شيء من أجل حماية الملك من تلك الإهانات.

ومنذ ذلك الحين، صرنا بدون الأطفال: زيارات صغيرتي «ليلى» المفاجئة، النظرة القلقة في عيني «فرح ناز» ولكنها مليئة بالحب لوالدها، ضحكات «علي رضا» المنطلقة ودعاباته التي يتسامح معها زوجي في حنو، كل ذلك اختفى من القصر. وكنت أرجئ رحيل الأولاد حتى آخر دقيقة؛ مستشعرة أنه سيعني حتما نهاية الحياة الأسرية التي منحتنا الكثير من السعادة طوال عشرين عاما تقريبا.

ابننا الأكبر «رضا» (١٧ عاما في ذلك الوقت) في الولايات المتحدة يتلقى تدريبا كطيار مقاتل. ويحادثنا تليفونيا يوميا، والوضع ـ كما يذاع على التليفزيون الأمريكي ـ أثار قلقه على نحو بالغ. حاولت أن أطمئنه، وأشجعه ليظل رابط الجأش، والأهم ألا يفقد الأمل؛ على الرغم من أنني أرى البلاد تغرق في فوضى محتومة. فالعمل متوقف في كل مكان تقريبا، ومصافي تكرير البترول مغلقة، والمصالح الحكومية تكاد تكون خاوية. وكل يوم يجلب معه موجة من المظاهرات، والكراهية، والتحريض والتضليل.

تبادل الملك أطراف الحديث باقتضاب مع ابنه الأكبر، حريصا ـ مثلما فَعَلتُ ـ على ألا تشي محادثته التليفونية بأي قدر من قلقه الخاص. بيد أن هناك من يفرون من حولنا. ومن شهر لآخر، يغادر البلاد المزيد من رجال الأعمال البارزين، والمهندسين، والباحثين، والمديرين، حتى صرنا تقريبا آخر «السلطات الشرعية» في هذه السفينة الغارقة، التي يبدو أن هناك قوى معينة مصرة على تحطيمها.

تلك الأيام الأخيرة قبيل رحيل الأطفال، كانت مريعة. ولم تكن «ليلى» التي لم تتجاوز السنوات الثماني تبدو مدركة للتوتر البالغ الذي نواجهه، لكن «فرح ناز» ١٥ عاما و«علي رضا» ١٢ عاما لم يخفيا عدم ارتياحهما. رأيت ابنتنا الكبرى تقف طويلا خلف قضبان بوابة الحديقة الحديدية تحملق صامتة في الشوارع الخالية، في دهشة واضحة من أنها لم تعد ترى تجمعات الأطفال السعداء، التي اعتادت الحديث معهم يوما ما. أين ذهب الصغار جميعا؟!

وفي نفس الفترة، يتوافد على القصر طوفان لا ينتهي من الجنرالات، والساسة، وأساتذة الجامعات، وقليل من رجال الدين؛ لتقديم مقترحاتهم إلى زوجي. البعض يتبنى حلا سياسيا سلميا، وآخرون يتوسلون إليه أن يسمح للجيش بإطلاق النار، فيرد الملك بثبات: إن العاهل ليس بوسعه أن ينقذ عرشه، إذا كان الثمن دماء مواطنيه؛ يستطيع ذلك الديكتاتور، لا العاهل، ثم يصرفهم بحزم. وعندما بدا للملك أن الرحيل هو الحل الأكثر حكمة، اتخذنا قرارنا بإبعاد الأطفال.

كانت «فرح ناز» رحلت بالفعل قبل شهر، في منتصف ديسمبر ١٩٧٨، لتلحق بشقيقها الأكبر في الولايات المتحدة. وأيضا ذهبت «ليلى» و«علي رضا» إلى أمريكا في رعاية والدتي. أتذكر أن «علي رضا» أصر على أن يأخذ العلم الإمبراطوري وزيا عسكريا كنا أعددناه خصيصا له. فمتى سنرى الأطفال ثانية؟! بدأت الولايات المتحدة في المراوغة، بعد أن عرضت في البداية استقبالنا؛ وصار من الواضح أننا لم نعد نحظى بالترحيب. وتقرَّر أن تكون مصر وجهتنا الأولى، لكنها كانت بعيدة عن الأطفال.

في ذلك الصباح، تناولنا إفطارنا كل على حدة؛ حيث استيقظ الملك مبكرا جدًّا، وذهب إلى مكتبه، بالضبط كما يفعل في أي يوم عادي. هل كانت لديه أية فكرة عن أن تلك الساعات هي الأخيرة التي سيقضيها في البلد الذي أحبه بشدة؟! هل كانت لديه فكرة عن أنه قد لايعود إلى هناك أبدا في حياته؟! مازال التفكير في ذلك يحطم قلبي إلى اليوم.

كان عليَّ أن أجمع بعض الأشياء في الصباح. ظللت أفكر طوال الليل في صور الأطفال وألبومات العائلة. وكنت حزينة للغاية إزاء فكرة تركها وراءنا. أسرعي! اجمعي «الألبومات»! جميع ذكريات سعادتنا الماضية تحويها تلك الصفحات. ما الذي ينبغي أن آخذه أيضا؟ كنت في حالة جعلتني أركز انتباهي فجأة على زوج من الأحذية ذات الرقبة كنت أحب ارتداءه في الريف. من الآن فصاعدا سيصير لدينا كل الوقت المتاح في العالم للسير على الأقدام، والمشي ضروري إذا كان علينا الحفاظ على أن نبدو بمظهر متزن وألا نستسلم لليأس.

نعم، هذا الزوج من الأحذية سيصبح حليفي الأقرب. على نحو غريب، ساهم وجودهما في تهدئة خواطري. وقبل أيام قليلة، عندما اكتشفتهما في قاع خزانة،

أطلقت ضحكة مريرة: «بحق السماء! كيف لم يخطر ببالي وقتها أن زوجا من هذا النوع يمكن العثور عليه في أي مكان من العالم؟!» أي نوع من المنافي الباردة، نادرة السكان كنت أتخيله بانتظارنا؟!

ثم، تجولت في المكتبة، واخترت من أرففها بعضا من كتبي المفضلة. وجاء أحد موظفي القصر لمساعدتي. وكنا في مكتبي: «هذه الأشياء تخصك يا صاحبة الجلالة، تفضلي بأخذها».

أتذكر نفسي وأنا أنظر إلى الرجل بأسى بالغ: «لا، بالطبع لن آخذها. يجب أن يبقى كل شيء هنا». كنت ـ بالطبع ـ ممزقة بين الأمل في أننا ربما نعود، وبين المشهد المرعب والمهين الذي تشكل بالفعل في ذهني للمظاهرات الحاقدة تقتحم القصر، وتفتح أدراجنا وخزانات ملابسنا. لم أرغب في منحهم أي مبرر ليعتقدوا أننا رحلنا ومعنا كافة ممتلكاتنا. لا، إننا نرحل رافعي الرؤوس، واثقين من أننا عملنا دوما لصالح البلاد. وإذا كنا أخطأنا، فعلى الأقل، لم نكن نفكر إلا في الصالح العام.

طلبت في اليوم السابق من أمناء متاحفنا الحضور لاستلام بعض الأشياء الثمينة التي منحنا إياها عدد من الملوك ورؤساء الدول، فضلا عن بعض الممتلكات الشخصية. هي على الأقل لايمكن أن تسرق بهذا الشكل. لم أكن مهتمة بالاحتفاظ بمثل تلك النفائس لنفسي. أردت أن تظل جميع الأشياء الباقية مكانها ـ الصور، المتعلقات الشخصية، السجاد، كل شيء ـ حتى ملابسي الإيرانية، التي تركتها متعمدة، مثلما يخلف المرء وراءه بعضا من روحه. ولتفادي النهب أو الحقد، دعوت محطة التليفزيون للحضور وتصوير القصر من الداخل. كما دعوت أيضا صحفيين إيرانيين وأجانب. في ذلك الوقت، مثلت حياتنا جزءا من قَدَر إيران، وأنا أشعر بالفخر أن ممتلكاتنا الشخصية لم تغادر بلدنا أبدا.

مرت الساعات الأخيرة سريعة، سريعة جدًّا؛ بين فترات من النشاط المحموم، ولحظات طويلة أحملق فقط خلالها في أشجار الحديقة، ضوء طهران الساطع في الشتاء، وتلك الأماكن الدافئة الخاصة التي عشنا فيها جوا حميميا للغاية. أتذكر أننا هاتفنا «فرح ناز» في الولايات المتحدة بينما أنا في الحالة الثانية، وأدركت فجأة أن الطفلة المسكينة غادرت قبل شهر معتقدة أنها قد تعود لغرفة نومها وجميع مباهج

سنها. كيف يمكن لها أن تشك في أنها ربما لا ترى إيران مرة أخرى، حتى اليوم؟! وما الذي كانت تريدني أن أحضره لها؟!

ـ الآن، فكري جيدا، «ناناز دجون» (يا حياتي)، قولي لي، هل هناك شيء تحبينه بوجه خاص؟

فوجئت عندما سمعتها تطلب «بوستر» لِمُغَنٍّ اسمه «ستار»، محبوب في إيران بالفعل، حظي بمكان الصدارة في حجرتها. كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي أرادته. أعتقد أنها ـ مثلما هو حالي مع فردتي الحذاء ـ استردت الطمأنينة عندما وعدتها أن أحتفظ لها بالبوستر. وغطى ذلك على حجم سوء الحظ المتوقع، والذي كان لديها ـ بالتأكيد ـ شكوك بشأنه.

أما «رضا»، فكان يقيم في منزل منفصل ضمن محيط القصر. وبقيت نوافذ منزله مغلقة منذ رحيله قبل شهور قليلة. وكانت ملابسه وهو طفل، التي أحببت الاحتفاظ بها، والأشرطة المسجل عليها أول ما نطقه من كلمات، وأولى خطواته، وألبومات صوره، وجميع ذكرياته، مخزنة هناك. لم أمتلك حتى حضور الذهن للاتصال به. وتركت كل شيء.. كم أود اليوم العثور على هذه الكنوز مرة أخرى!

قاربت ساعات الصباح على الانتهاء، والملك لا يزال في مكتبه، غير أن الجو داخل القصر أصبح أكثر كآبة. أحسست بالأسى داخل نفوس الرجال والنساء من العاملين لدينا. كبار السن من بينهم خدموا «رضا شاه»، والد زوجي، وبعضهم حضر زفافنا قبل عشرين عاما. ظلوا يتحركون حول القصر في صمت غير معتاد، وبدوا جميعا مذهولين إزاء توقع رحيلنا. أدركت أن صمتهم يعني فقدانهم للأمل. وقلت لنفسي: «لايمكن أن نذهب هكذا، علينا ألا نفقد إيماننا».

جاءوا جماعة لتوديعنا. شرحت لهم أننا بالتأكيد سنشهد أياما حزينة أخرى، مرت إيران في تاريخها الطويل بأيام مثلها جاءت ومضت، لكن الربيع سيعود ثانية، ونلتقي مرة أخرى لنبتهج بعودة الملك. من كان يمكنه تخيل أن بلدنا سيغرق في مثل هذا الكابوس؟! حبسنا دموعنا، بل إن البعض وجد في نفسه القدرة على الابتسام، ثم منحت كلا منهم تذكارا أو بعض المال، كما يفعل المرء عادة قبل فراق طويل، لتوثيق العُرَى بيننا.

ظهر الملك أخيرا. وأخذ الجميع ينتحبون عندما رأوه. كان رجلا يمتلك في المعتاد سيطرة صارمة على انفعالاته، لكنه الآن بدا كما لو أنه يجاهد لإخفاء مشاعره. تحدث إلى كل منهم. انتحب العديد منهم وهم يتوسلون إليه أن يبقى ولا يتخلى عنهم. وعندما أُبلِغنا أن المروحيتين اللتين ستقلانا إلى مطار «مهر آباد» مستعدتان للإقلاع، تجمع موظفو القصر تلقائيا على سلم القصر. هذه المرة كنا نرحل بالفعل. كانت حقائبنا قد نقلت إلى الطائرة. وامتدت الأيدي لنا، ورأيت الوجوه تتقلص بالانفعال. ثم لوح لهم الملك للمرة الأخيرة، وقبّلتُ النساء اللواتي كن قريبات مني. ومع دوي أزيز الطائرة في أذني، سرعان ما شاهدت القصر يختفي خلف بنايات طهران.

هبطت المروحيتان (واحدة تقلنا والأخرى تقل أفراد الأمن) قرب المقصورة الإمبراطورية. وكان بانتظارنا مجموعة صغيرة من الناس: ضباط، وبضعة مدنيين احتشدوا معا، في مواجهة عصف الرياح الثلجية تكتسح أسفلت الطريق. وكان الملك قد طلب من الناس البقاء في مواقعهم في هذه الأيام الصعبة بدلا من المجيء إلى «مهر آباد». كنا نعرف هذا المطار زاخرا بالحركة، حافلا بالنشاط وضجيج الطائرات النفاثة المتواصل، ولكنه يبدو الآن كما لو توقفت فيه الحياة. وتشكل الطائرات الجاثمة على الأرض بفعل الإضراب، مشهدا كئيبا، والصوت الوحيد المسموع في السماء الخالية هو هزيم الرياح القادمة من جبال ألبورز. حيا زوجي الذي بدا متوترا ويقف مشدود القوام، هذه القلة من الأصدقاء، والتابعين المخلصين. ثم ألقى ضابط من الحرس الإمبراطوري بنفسه على قدمي الشاه، متوسلا إليه أن يبقى. وانحنى الملك فوقه ليعينه على الوقوف. وهذه المرة، غلبه الانفعال والمعاناة التي يكابدها.

ورأيت عيني زوجي غائمتين بالدموع، وهو الذي أظهر دائما الكثير من ضبط النفس. كما طلب منه عدة ضباط ـ عجزوا عن إخفاء انفعالهم ـ عدم الرحيل. وتبادل بضع كلمات بوجه خاص مع رئيس أركان الجيش.

وعلى مسافة قصيرة، وقف بضعة صحفيين إيرانيين، يبدو عليهم الذهول ـ ولم تكن هناك دعوة للصحافة الأجنبية ـ وبعد قليل لمحهم الملك وتحرك نحوهم. وكان قد عيَّن لِتَوِّه «شهبور بختيار» رئيسا للوزراء، وفي هذه اللحظة بالتحديد كان رئيس الوزراء ينتظر تصديق البرلمان على تنصيبه. ولم يرد الملك مغادرة البلاد قبل أن يصدِّق البرلمان على قراره. وقال للصحفيين: «**كما أخبرتكم عند تشكيل الحكومة،**

أنا متعب.. وأحتاج للراحة. قلت أيضا: إنه عندما تبدو الأمور على ما يرام، ويستقر تشكيل الحكومة سأقوم برحلة، والرحلة تبدأ الآن». وأضفت: «إن بلدنا مر خلال تاريخه الطويل بفترات أزمات، ولكني سأظل واثقة: سوف تسود الثقافة والهوية الإيرانية مرة أخرى».

وهكذا، كنا نغادر في «رحلة»؛ نختفي لبعض الوقت لنتيح للناس أن يستردوا وعيهم، ولغضبهم أن يهدأ. وبعد أسابيع قليلة سوف يتفهمون. نعم، كان علينا أن نعتقد ذلك وأن نؤمن بالمستقبل. رفضت أن أستسلم لليأس.

مرت لحظات قليلة مفعمة بالتوتر والألم، ثم أُبْلِغ الملك أن «المجلس» صدَّق على تعيين «شهبور بختيار». وأنه من المنتظر أن يصل إلى المطار بالمروحية في أي لحظة. وبالفعل رأيناه قادم من السماء، خرج ثم انحنى تحت أضلاع المروحية، يهندم ملابسه ويمسح شاربه قبل أن يتحرك باتجاه المقصورة، ومعه رئيس البرلمان، السيد «جواد سعيد». جاء الرجلان مباشرة وقدما لنا آيات الاحترام، والتحية بمشاعر جياشة.

بهدوء، قال زوجي للسيد «بختيار»: «أتمنى أن تنجح». واضطر السيد «بختيار» فيما بعد أن يفر بحياته، بعدما أطاحت حكومة «آية الله الخوميني» الإسلامية بإدارته.

باستطاعتنا الآن أن نرحل، شققنا طريقنا في مواجهة الريح، ووصلنا إلى الطائرة «فالكون» المخصصة للرحلات الرسمية، «بوينج ٧٠٧» ذات اللونين الأبيض والأزرق. وعندما وصلنا إلى أسفل سلم الطائرة، التفت الملك، وتوقفت المجموعة الصغيرة المصاحبة لنا. وتثير ذكرى هذه المواجهة الأخيرة انفعالا غير محتمل. وأبدى الرجال الحاضرون من الضباط والطيارين وموظفي البلاط والحرس الإمبراطوري شجاعة فائقة، ومع ذلك كان بإمكان المرء أن يستشعر ما يعانونه من أسى بالغ. وقبَّلوا يد الملك، واحدا إثر الآخر، والدموع تغرق وجوههم. حتى السيد «بختيار» ـ الذي كان مؤيدا لرحيلنا ـ امتلأت عيناه بالدموع.

فيما بعد، كتب الشاه في مذكراته[1]: **«هزتني مظاهر الثقة التي منحوني إياها بشدة.. ثم كان هناك صمت مؤلم، قطعه النشيج».**

---

(١) Mohammed Reza Phlavi, Réponse à l'Histoire, Paris, Albin Michel, 1979.
كل المقتبسات المتعلقة بمذكرات الملك مأخوذة من هذا الكتاب.

دلفنا إلى الطائرة أخيرا، يتبعنا بضعة أفراد طلبوا مرافقتنا، من بينهم الأمير «أصلان أفشار» رئيس المراسم، و«قمبيز عتابي» الذي خدم والده «أبو الفتح عتابي» كلا من «أحمد شاه» و«رضا شاه»، فضلا عن الكولونيل «كيومرز جهانبيني» و«يزدان نويسي»، المسئولين ـ ومعهما بعض ضباط الصف من الحرس ـ عن سلامتنا الشخصية. وانضم إليهم بضعة أفراد كانوا في خدمتنا لفترة طويلة. وفي اللحظة الأخيرة سألتُ الدكتورة «ليوسا بيرنيا» طبيبة الأطفال المسئولة عن أطفالي الأربعة عما إذا كانت تود مصاحبتنا في هذه الرحلة رغم عاقبتها غير المعروفة. فردت فورا بالإيجاب، وجاءت بحقيبة ملابس واحدة، تاركة خلفها أسرتها. وأخيرا جاء طاهينا، الذي ربما كان يحمل إحساسا داخليا بأنه قد لا يرى إيران، ومطبخه، قبل مضي شهور عديدة.

حتى أن هذا الرجل الحذر أحضر معه مجموعته الكاملة من قدور النحاس العالية، وحقائب من الحمص، والأرز والعدس. باختصار، تشبث كل واحد بكل ما يستطيع.

ما أن أصبحنا داخل الطائرة حتى ذهب الملك وجلس في كابينة القيادة ـ كان الطيران دائما من أعظم ما يبهجه ـ وهكذا وبرغم القنوط الذي ناله أو ربما بسبب هذا القنوط أراد أن يسيطر على جهاز قيادة الرحلة التي من المقرر أن تأخذه بعيدا عن إيران وعن شعبه للأبد. لا أتذكر شيئا عن الإقلاع، في غمرة صدمة الانفعال الحاد الذي عايشناه قبله مباشرة؛ لكنني أشعر بالارتياح والفخر في أعماقي لكوني لم أتحطم.

قاد زوجي الطائرة طوال الوقت الذي حلقنا فيه فوق إيران. وبمجرد أن تجاوز مجالنا الجوي، تخلى عن جهاز القيادة وانضم إلينا في المقصورة. أصبحت حينها مدركة تماما للهاوية التي يدفعنا إليها التاريخ، وأيقنت أنني سأُجَنّ إذا لم أقاوم فورا على نحو ما. وطرأت على ذهني فكرة مناشدة العالم مد يد العون لبلدنا التعيس. تركنا خلفنا عدة جماعات، في مواجهة المتمردين، تفتقر إلى الموارد، وربما تنهار. فكان ضروريا أن نحصل لهم على العون وأن ننبه رؤساء الدول القريبين إلينا. فورا، استسمحت الملك في إرسال رسائل لبعضهم، فنظر إلي متسائلا، ثم وافق على مضض. وهكذا، توليت مهمة كتابة هذه المناشدات، بمساعدة السيد «أفشار».

في ذلك اليوم، وبينما نطير نحو أسوان في جنوب مصر، بدأت للمرة الأولى في زمن منفانا الطويل أَخُطُّ - بصورة محمومة - أولى صفحات دفتر احتفظت به حتى وفاة الملك بعد ثمانية عشر شهرا، واقتطفت بعض فقرات منه:

السادس من يناير ١٩٧٩:

كان الأمر مريعا في القصر، مريعا تماما!... الأمور الأخيرة التي يتعين القيام بها، والمكالمات التليفونية الأخيرة التي يجب إجراؤها. العديد من الناس يبكون.... لا تستسلمي لليأس، لا تبكي، امنحيهم الأمل.... إنني أترك حياتي كلها ورائي، آمل أن أعود.. ولكن صدري في نفس الوقت، يقاسي حزنا ثقيلا. كل أولئك الأشخاص يلقون بأنفسهم على أقدامنا في القصر، تضرعاتهم، تساؤلاتهم: «إلى أين تذهبون؟ ومتى تعودون؟ لماذا تتركوننا؟ نشعر بالخذلان كالأيتام، الأيتام..». وكنت أصرخ بداخلي رغم أنهم لم يلحظوا ذلك: «لا، فضلا..انهضوا، ثقوا بالله، سوف نعود». ابتسمي بينما تهبطين من الطائرة، اختاري الكلمات المناسبة، كوني قوية. قلت للصحفيين: «أوقن أن الوحدة الوطنية سوف تنتصر، لدي ثقة في الشعب الإيراني». همس أحدهم: «الله معكم». ثم سار الجميع نحو الطائرة. وما أن وصلوا، حتى ركع الرجال عند قدمي الملك. كان زوجي قد هزم، عيناه اغرورقتا بالدموع. وأجهش جميع الطيارين والضباط والصحفيين والحرس في البكاء. ارتفعنا إلى عنان السماء. كان لدي شعور مخيف مؤلم بخسارة كل شيء: أطفالي، وأصدقائي، وبلدي. الشعور بأن قلبي تحطم، تمزق إربا، كنت أفضل الموت في بلدي عن خوض هذه الحياة العجيبة. إلى أين ستأخذنا؟! وكيف يمكن للمرء أن يواصل الحياة ويتنفس عندما يكون قلبه ممزقا؟!

في سنوات مراهقتي، عندما كنت أتساءل عما يمكن أن تكون عليه حياتي، تخيلت نفسي أحيا مع رجل مثقف أفخر به. بيد أنني لم أفكر إطلاقا في الزواج قبل الانتهاء من دراستي. كانت فترة نهاية الخمسينيات تتسابق فيها النساء أكثر فأكثر للمشاركة في تنمية إيران.

ومع ذلك، لم يكن هناك ما يجعلني أفكر في أنني قد أتزوج يوما ما أهم رجل في بلادي. ذات مرة سألت الملك: «لماذا اخترتني؟» فقال بطيف ابتسامة: «هل تذكرين

أحد لقاءاتنا الأولى، عندما كنا نلعب رمي الحلقات عند العصر؟ وكان هناك كثيرون منا، زحام حقيقي. سقطت معظم الحلقات على الأرض بدلا من أن تصيب الهدف. وكنتِ ـ أنت ـ من الكرم بحيث تجرين وتلتقطينها للجميع؛ كنتِ بالفعل قد سحرتني، ولكنني ـ في ذلك اليوم ـ أحببت طريقتك الطبيعية للغاية».

القسم الأول

الفصل الأول

مازلت أحتفظ بتسجيل والدي المندهش والفرح لأيام طفولتي الأولى: كرّاسة مدرسية زينها بنفسه على نحو يتدفق معه حبه من كل سطر فيها. سجل فيها بانفعال ينضح بالفرح وزني، وابتساماتي، وغمغمتي، أو ما اعتقد أنني أتلفظ به. ثم فجأة ينقلب كل هذا الافتتان إلى أسوأ كابوس. فهو يكتب في الصفحة الخامسة: «يوم الجمعة هذا، من أسوأ أيام حياتي، أصيبت «فرح» بالحمى. لم تعتن بها المربية الغبية العناية المناسبة. كنت في وسط «طهران» عندما سمعت الخبر، فاستأجرت سيارة فورا للعودة إلى «شميران». كانت فتاتي الصغيرة المسكينة راقدة في الفراش؛ بدت في حال فظيعة وهي تتنفس بصعوبة، ووالدتها تبكي. ثم وصل الدكتور «توفيق» أخيرا. مصابة بالتهاب حاد باللوزتين، وارتفاع في درجة الحرارة. أخذنا نضع الكمادات طوال الليل ولم نخلد للنوم حتى الصباح».

ثم، وضع علامة استفهام كبيرة وتحتها رسما كروكيا يصورني في الفراش وعلى جبهتي كمادة كبيرة ـ يبدو أن والدي كان يسائل نفسه: «هل ستعيش؟!» ـ ووالدتي تنشج على يدي اليسرى ثم اليمنى، ورسم الوالد نفسه واضعا رأسه بين كفيه، يغمره حزن بادٍ.

على أي حال، تحسنت صحتي بعد أيام قليلة. كتب والدي: «الحمد لله، تحسنت «فرح»، بيد أننا كنا قلقين للغاية».

حدث ذلك عام ١٩٣٩ . كنا في ذلك الوقت نعيش شمال طهران في منزل تحوطه حديقة، أنشئ مع بداية القرن. كبرت في ذلك البيت الذي يشاركنا فيه خالي «محمد علي قطبي»، وزوجته «لويز». ولكل من الأسرتين حجرة نوم كبيرة بالطابق الأول،

وتشتركان في غرفة معيشة واحدة. وفي طهران تقتصر غرف الاستقبال والطعام في الطابق الثاني تقليديا على استخدام الضيوف والحفلات. وكانت حجرة مكتب والدي بالطابق الثاني أيضا.

رزقت أسرة «قطبي» بطفل قبل ستة أشهر من مولدي، لذلك كان «رضا» ابن خالي أول من ابتسمت في وجهه من الأطفال. خطونا خطواتنا الأولى معا، وأصبح «رضا» الأخ الذي لم تلده أمي. وعندما كبرت اكتشفت أن والديَّ رغبا في إنجاب طفل آخر، غير أن تداعيات الحرب العالمية الثانية على إيران دفعتهما لتغيير رأيهما. فما أن احتلت الجيوش البريطانية والروسية البلاد في أغسطس ١٩٤١ حتى بدا المستقبل كئيبا لأربع سنوات تقريبا.

وهكذا، بقيت طفلة وحيدة، وربما صرت أعز على والدي مما في السابق. وقد علمت إلى أي مدى كان والدي قلقا بشأني، فلما كانت بعض اللقاحات غير متوفرة في بلدنا، اعتقد أنه من الأفضل منع الناس من لمسي، وبوجه خاص تقبيلي. غير أن ذلك لم يحل دون أن أصاب بجميع الأمراض المعتادة في الطفولة، وعلى أي حال، أصبح كلما كبرت وصرت أكثر استقلالا، تتراجع قدرته على منعي من الاختلاط بالناس.

وفضلا عن الأسرة، كان أقرب الناس إلينا، أولئك الذين يعملون لدينا في المنزل: مربيتي، «مونا فار»، وهي شابة ذات جاذبية شديدة، ومرح، أحببتها بشدة؛ والطاهي، والخادمة، ورجلان أيضا يتوليان بعض الأعمال حول المنزل. وكنت و«رضا» مغرمين للغاية بهم جميعا، خاصة أنهم أحبوا وجودنا معهم، وقاموا بتدليلنا على نحو بالغ. وأقام هؤلاء في مبنى حديث الإنشاء عند الطرف الآخر من باحة المنزل. وما أن يخرج أهلنا حتى نجري إليهم. فيجلسنا بعضهم على ركبتيه، ويحكي لنا أحيانا قصصًا مرعبة، منحتنا انطباعا أن العالم أكثر رعبا وغموضا مما علمتنا إياه والدتانا. وكنا نحتفظ في منزل ملحق بهذا المبنى، بطعام يكفي احتياجاتنا عدة أشهر: فول مجفف، وعدس، وأرز، وسكر، ومكسرات، وزيت للطهي، وما إلى ذلك. وأتذكر منظر والدتي واقفة ترتعش عندما دَخَلَت حجرة الخزين في أحد الأيام ووجدت فأرا يجري. وهرع الطاهي لمساعدتها، فانتهزنا ـ «رضا» وأنا ـ فرصة الارتباك، لنتسلل خلفه إلى حجرة الخزين الزاخرة بروائح قوية لم نعتدها بعد.

سمعنا عن عالم الأمراض والمخاطر، كما يراه والديَّ، يحتشد خلف الجدران الحجرية المرتفعة المحيطة بالحديقة. وكنا بالطبع ممنوعين من الخروج إلى الشارع، ولكن ما أن يدير أهلنا ظهورهم، حتى نربض على درجات الشرفة الناعمة المصقولة، ونتفرج على الناس يجيئون ويذهبون خلف البوابة الحديدية. كان ذلك أثناء الاحتلال؛ ولم تكن الحياة سهلة بالتأكيد. وكنا نستمع إلى الكبار يتحدثون عن الحرب الدائرة بعيدا، خلف الجبال في الاتحاد السوفييتي ـ جارنا المريب في الشمال. وافتتنّا دائما بسيارات «الجيب» التي يقودها الجنود البريطانيون. ويأتي إلينا بشكل منتظم العديد من المتسولين، الذين نعرفهم بالاسم، ولم يكن والديَّ يتخلصان من أي شيء تحسبًا لزياراتهم؛ فنمنحهم الطعام، والملابس، وحتى لعب الأطفال لأبنائهم. وعندما يتحسن الجو، تمتلئ الشوارع بالأطفال، ونتجاذب أطراف الحديث عبر البوابة مع أولئك الذين يُسْمح لهم باللعب في الخارج. وفي تلك الأيام، كان الناس مازالوا يتنقلون بعربات تجرها الخيول، قليلون جدًّا هم القادرون على شراء سيارة. وأتذكر من بين الألعاب المفضلة إلى الأطفال تسلُّق ظهر العربة التي يجرها الحصان، والتمتع برحلة مجانية. وكنا مأخوذين بذلك، خاصة عندما ينادي المارة على سائق العربة: «أحدهم على ظهر عربتك»، ويناول السائق المتسلل الصغير لسعة، بحركة دائرية من سوطه، فتنحبس أنفاسنا.

غير أن المشهد الذي سحرني من بين جميع مشاهد الشارع، منظر الباعة الجائلين، الذين يحملون فاكهة الموسم على عربة مزينة برسومات يدوية، يجرها حمار، أو يحملونها في صوانٍ كبيرة يحتفظون بها متزنة فوق رؤوسهم في الشتاء؛ اليوسفي والبرتقال والبنجر المشوي في الفرن، ثم ننتظر الربيع متلهفين لتذوق الفراولة، والخوخ، واللوز الطازج، والفجل، والبصل الأبيض، والأعشاب: النعناع، والطرخون، والريحان التي يرطبها الباعة بالماء دائما؛ وأخيرا في الأيام الأولى من الصيف ـ شديد الحرارة في طهران ـ يصل الكريز، والتفاح برائحة الورد، والمشمش. وبعد ذلك، هناك باعة البطيخ والشمام والآيس كريم، طبعا كنا مغرمين بها، لكننا ممنوعون بطبيعة الحال من الاقتراب منها. وظل أهلنا يشرحون لنا مرارا خطر الآيس كريم على صحتنا، بما يحويه من أسوأ الميكروبات التي يمكن تخيلها. غير أني مازلت أذكر كيف كنا نهرع عبر الشرفة لنتشارك ذلك السم اللذيذ بين شريحتين من

«الويفر». وكانت المصاصات ـ التي نسميها «دِيكَة السكر» ـ ممنوعة أيضا، حيث يشك أهلنا في أن أتربة الشارع الفظيعة تلتصق بها.

بيد أن الخطر الحقيقي جاء من الماء، الذي كان يعتبر سلعة نفيسة في بلدنا، وتجارة الماء في ذلك الوقت جزء من وتيرة الحياة اليومية. وتأتي مياه الشرب النادرة، من ينبوعين لتلبية حاجة العاصمة. ويُوزَّع الماء عبر المدينة بواسطة خيول تجر حاويات المياه. ومثلما يفعل باعة الخضراوات، يعلن السقاء عن وصوله بأغنية خاصة ينشدها. ويأتي الناس بالأواني التي يملؤها السقاء لقاء مبلغ ضئيل.

وتأتي مياه الاغتسال والأعمال المنزلية من أعالي جبال «ألبورز» المشرفة على «طهران» عبر شبكة من القنوات المفتوحة تمر بجميع الشوارع. ولكل ضاحية يوم لاستقبال هذه المياه العكرة الجارية، التي توجِّهها سدود صغيرة، لعدة ساعات نحو حاوية أسفل المنزل أو مستودع يحفر عادة في الفناء أو الحديقة. وكان لدينا حاوية ومستودع أيضا، وأتذكر نفسي وأنا أتابع بفضول شديد المياه وهي تتدفق إليهما، بما فيها من شوائب جمعتها خلال سيرها في القناة: قشر البطيخ، وأوراق الشجر الجافة، وأعقاب السجائر، ونشارة الخشب. وتستقر المياه خلال يوم أو اثنين، ثم ترفع إلى حاوية أسفل المنزل، لتلبية احتياجات المطبخ والحمامات. ورغم الجير الحي الذي يضاف للمياه في الحاوية، تتكاثر ديدان صغيرة فيها؛ وظل أهلنا دائما يحذروننا من شرب مياه الصنبور.

ومن حين لآخر، يظهر بائع اللعب فجأة، قادما من بين الحشد المبهر من أهل الشارع، حاملا متجره فوق رأسه؛ يحوي أخلاطا مجمعة من جميع الكنوز التي يحلم بها أطفال تلك الأيام: مزامير خشبية ومصنوعة من «التراكوتا»[1]، ومروحيات ورقية ملونة، وكُرَات، ومضارب راكيت، والصفاقات المصنوعة من قرصين من التراكوتا مشدودين بورق مقوى. وأحيانا ما يسمح لنا بشراء أشياء قليلة، لكننا نصنع معظم لُعبنا بأنفسنا أو بمساعدة من يعملون في المنزل. أتذكر أننا جررنا عرائسنا هنا وهناك في صناديق الأحذية، وأن الأولاد دحرجوا عجلات الدراجات القديمة لعمل أطواق، وزلاجاتنا صُنِعت من القطع والأجزاء المستخلصة بعناية من أدوات أخرى. غير أن

(١) نوع من الفخار ـ المترجمة.

هناك شيئين رائعين أتذكرهما جيدا؛ دمية تقول: «ماما» ودراجة أطفال حقيقية من شركة بي إس إيه البريطانية الراقية.

وخلف بائع اللعب، يأتي الساحر أحيانا، مع عارض صوره المتنقل؛ يدفع أمامه عربة صغيرة ذات بطانة نحاسية لامعة وأربع نوافذ صغيرة، يدفع الطفل مقابل النظر منها. ثم يدير الرجل سلسلة من الصور أو الرسومات بينما يحكي لنا قصة ساحرة بصوت مفعم بالمشاعر والتسلية. ويغني أحيانا أيضا. ولم نكن نتحمل الاستغناء عن هذا السحر المسمى «شهر إفرنج»، غير أنه كان ممنوعا كذلك، فأهلنا يتخوفون من إصابتنا بـ«التراكوما»، وهي بكتيريا فظيعة معدية تهاجم العيون، تسببت في ذلك الوقت في إصابة العديد من الأطفال بالعمى.

ونجونا أنا و«رضا» لحسن حظنا من التراكوما، غير أنني لم أفلت من «البقعة الشرقية»، وهي لدغة بعوضة، أقل خطورة من التراكوما، وتترك علامة يصعب إزالتها. وكانت إصابتي فوق ظهر كفي الأيمن. واعتبر والدي أننا محظوظون، حيث يصاب الكثيرون في الوجه؛ ومع ذلك طلب من الطبيب أن يفعل المستحيل، لتقليل حجم الندبة. وذكرت لي والدتي أنه قال: «**لعلك لا تعرف يا دكتور، ربما يقبل الناس يد ابنتي يوما ما**».

وعلى الرغم من الإغراءات الكثيرة المعروضة بالشارع كان أكثر ما يسعدني، كطفلة، مغادرة طهران في الصيف والذهاب إلى شميران على منحدرات جبال ألبورز. نترك الحر الذي يشبه سخونة الفرن وشوارع طهران المتربة الفاترة إلى نسيم الجبال والأمسيات الباردة المدهشة. وشميران اليوم ضاحية ثرية شمال «طهران» يفضلها الكثيرون. وعندما كنت طفلة، كانت هي قرية مبهجة على بعد نحو عشرة كيلومترات من وسط المدينة على ارتفاع ١٨٠٠ متر. وكانت الأسرة تستأجر فيلًا في هذه الجنَّة الريفية شهرين كل صيف. فننحشر داخل سيارة والدي الفورد الكبيرة، ويتبعنا بقية العاملين في المنزل في عربة تجرها الخيل، فيما يشبه نزوحا جماعيا حقيقيا في قافلة. وأُغْرمت بهذا الطريق الذي يتعرج بين أشجار الدُّلب الضخمة وشجيرات الورد الأصفر الصغيرة، التي تلتقط أمهاتنا براعمها لتصنع الحلوى.

وفي شميران، ننضم إلى فريق كامل من الأصدقاء الصغار أبناء الأقارب الذين

يمتلك أهاليهم أراضٍ هناك. وألعب أحيانا بالدُّمَى، ولكن لفترة ليست طويلة. كنت أقرب إلى المسترجلة، أفضل لعب كرة الدودج، والاستغماية، وركوب الحمير، أو التمشية في الريف والجبال، بمعنى أي شيء يعني أنني أستطيع تجنب نوم القيلولة. أحببت صنع البيوت من الطين بيدي في قوالب من الطمي أو خشب الجوز، مما كان يترك بقعا سوداء على يدي. أتذكر أننا كنا ننظف أنفسنا بفرك جلدنا بأوراق التوت. وأحببت تسلق الأشجار. كانت الأشجار صديقاتي؛ أشجار الكمثرى، والتفاح، والجوز، والبشملة، والتوت. كنت أعرفها واحدة واحدة، وما أن أجلس على فرع شجرة منها، حتى أنسى غالبا كل شيء، وأفقد الرغبة في النزول مرة أخرى، خاصة عندما أصنع لنفسي عشا مريحا باستخدام فروع الشجر مع سجادة. كنت أحملق في قبة السماء وأحلم، أحيانا حتى يحل المساء، أو حتى يبدأ الآخرون في القلق من أنهم ربما لن يجدونني أبدا.

كان للأمسيات في «شميران» سحر خالص. نتجمع كلنا في ساحة البلدة مثل أسرة واحدة كبيرة. وتعرض أكواخ صغيرة الطعام على أسياخ؛ ذرة مشوية، وثمار الجوز الطازجة، وجميع أنواع الكعك والحلوى، ناهيك عن الآيس كريم الذي كان مسموحا لنا بتناوله مرة واحدة. وبينما يتمشى أهلنا أو يجلسون في مقهى، كنا ـ نحن الأطفال ـ نلاحق بعضنا البعض حول الأكواخ، في غاية الاستثارة من تأثير الضحك الكثير جدًّا والحلوى. وعندما نعود للبيت، غالبا ما يسمح لنا جميعا بالنوم معا في حجرة معيشة كبيرة. فتوضع المراتب على الأرض، وكان ذلك بمثابة عالم آخر، أو حفلة مدهشة، بالنسبة لـ«رضا» ولي شخصيا، حيث كنا ننام كالأطفال الصغار الطيبين في حجرتي والدينا طوال الشتاء.

كنا في زمن الحرب، عندما ذهبت إلى المدرسة الإيطالية في «طهران». اختارها والداي لأن الفرنسية تدرس بها. فوالدي «صهراب ديبا» يتحدث الفرنسية، ومتعلق للغاية بفرنسا. وهو ينتمي لأسرة مرموقة في «أذربيجان»، خدمت في القصر في عهد القاجار[1]، ثم في ظل الشاه «رضا»، ونظرا لأنه ابن دبلوماسي يتحدث الفرنسية والروسية بطلاقة، أُرسِل والدي مع شقيقه الأصغر «بهرام» إلى مدرسة «سان ـ

(١) **القاجار سلالة تركمانية** حكمت في بلاد فارس (إيران) سنوات ١٧٧٩-١٩٢٥ ميلادية. وكان مقرهم في طهران منذ ١٧٨٦ ميلادية (المترجمة).

بطرسبرج» الابتدائية في سن الثانية عشرة وفاجأتهما ثورة ١٩١٧ البلشفية ـ كان والدي في السادسة عشرة حينها ـ ولكنهما استطاعا الخروج بمساعدة سفيرنا. ثم ذهب إلى فرنسا، حيث أنهى المدرسة الثانوية، ودرس القانون، ثم التحق بأكاديمية «سان ـ سير» العسكرية. وبعد التخرج عاد إلى إيران وسرعان ما بدأ خدمته مع جيش الشباب الذي يعده الشاه «رضا»، والد زوجي المستقبلي، لحماية العلم. وجاءت والدتي «فريدة» من «جيلان» على بحر قزوين، وهي سليلة القطب الصوفي «قطب الدين محمد الجيلاني». والتحقت بمدرسة «جان دارك» في طهران، التي تديرها راهبات فرنسيات، والتي التحقت بها لاحقا بعد سنوات.

كنت في السادسة عندما التحقت بالمدرسة الإيطالية. أتذكر أن والدتي ألبستني جونلة من صوف الطرطان وبلوزة بيضاء اللون. كنت متوترة. وأفهموني أنني يجب أن أختلط بالأطفال الآخرين، لكنني مكثت في ركن أحتضن حقيبتي المدرسية، التي وضعت لي أمي فيها دفترا مدرسيا وقلم رصاص، وتفاحة من أجل الفسحة.

ومع ذلك، اعتدت على المدرسة بسرعة كبيرة، وعلى الحرية، وفرصة الدخول إلى العالم الواسع الذي جلبته الحياة الجديدة معها. كان والدي يأخذني أحيانا في سيارته الفورد القديمة، ولكن كانت لديه خادمة تصحبني في العادة أثناء ذهابي وإيابي، ويمنحها النقود لسيارة الأجرة. ولابد أن الفتاة كانت تحتفظ بالمال لنفسها، لأنني أستطيع أن أتذكر السير مسافة طويلة عبر الطرق التي تحفها أشجار الخروب في طهران. أحببت أشجار السنط وقت تفتح براعمها، وحتى اليوم، مازالت رائحتها تتخلل شعوري بالحنين لطهران.

وفي المدرسة كان القرآن أحد المواد التي ندرسها. وللدقة، تعلمنا قراءة الكتاب الكريم من دون أي شرح لمعانيه. وأكثر ما أدهشني هو عدم قدرتي على متابعة السطور بأصابعي؛ فلم يسمح لنا بلمس القرآن؛ لذلك كان علينا أن نصنع مؤشرا صغيرا من الورق. وكان والداي مسلمين شيعيين مثلهما مثل معظم الإيرانيين، ولكن والدتي أكثر تدينا من والدي. فكانت تشارك في الطقوس حيث يأتي رجال دين ليرووا سير الشهداء بمشاعر فياضة.

وكانت والدتي وجميع النساء الحاضرات ينتحبن بغزارة، بحضور نائحات

محترفات أحيانا. وكنا ـ نحن الأطفال ـ أصغر من أن نفهم، لكننا أحببنا هذه التجمعات كثيرا، لأن السيدات في نهاية الطقوس، يخففن عن أنفسهن بالحلوى، ويدعوننا لمشاركتهن. وكانت والدتي تصوم رمضان، لكنها لم تجعلنا نفعل مثلها. كنا «رضا» وأنا نأكل أقل من المعتاد، ونمارس ما يسميه الإيرانيون «رمضان العصافير». لكنني صحبت والدتي في زيارة الأماكن المقدسة. وكانت تلك الأوقات للتدبر وطلب الأمنيات. أتذكر ذهابي وأنا طفلة إلى مدينة «قم» المقدسة، حيث دفن جدي. وفي وقت لاحق، وأنا في السابعة أو الثامنة، زرت مكانا للعبادة على «بحر قزوين»، فصرت ضحية أحد المشاهد التي لا تبدو مؤذية، لكنها تترك مع ذلك أثرا عميقا في ذهن طفلة. فلأن شعري لم يكن مغطى بالكامل، صرخ أحد الملالي في وجهي غاضبا: «**غطِّ شعرك، وإلا ستذهبين إلى جهنم**» لم أستطع أبدا أن أنسى الخوف الذي سببه لي ذلك المتعصب، خوفٌ سوف يحييه «آية الله خوميني» بعد ثلاثين عاما.

غالبا ما كنت أجد والدي يكتب أو يقرأ في حجرة مكتبه بالطابق الثاني. فكان يحب الاستماع إلى الإذاعات التي تبث عبر الراديو بالفارسية وبلغات أجنبية. لم أره أبدا يرتدي زيا واحدا. فهو يرتدي دائما حللا أنيقة، وحتى عندما يمارس التنس، رياضته المفضلة، يرتدي سترة بيضاء فوق سروال من القماش السادة. كان يعمل مستشارا قانونيا في الجيش، وأثناء الحرب عمل بالسفارة اليوغوسلافية. أستطيع أن أتذكر بوضوح أنني كنت أحزن عندما يترك المنزل، فيتقلص قلبي لفكرة ذهابه، وأشعر كما لو أنه لن يعود أبدا. هل كان لدي نوع من الحدس بسوء الحظ الذي ينتظرنا؟! على أي حال، بكيت كثيرا حتى قررت أمي ألا أُبَلَّغ عند مغادرته البيت. ولكنه في المساء، يجلس إلى جانبي بينما أؤدي واجبي المدرسي، فأنسى كل شيء. وعندما يخرج أحيانا للعشاء، كان يخفف عني غيابه بترك هدية صغيرة، أجدها في الصباح تحت وسادتي.

مع نهاية الحرب العالمية، بدأت أزمة «أذربيجان» في بلدنا. وعايشت هذه الأحداث باعتبارها مأساة شخصية، لأن «أذربيجان» موطن أبي، وأُجْبِر أعمامي وعماتي الذين عاشوا هناك على مغادرتها على عجل. وكان من المفترض بمجرد عودة السلام، أن تتحرر إيران التي احتلت القوات البريطانية القسم الجنوبي منها واحتلت القوات الروسية القسم الشمالي. فقد وقعت بريطانيا والاتحاد السوفييتي

اتفاقية في يناير ١٩٤٢ لسحب قواتهما من بلادنا في مدة لا تتجاوز ستة أشهر من نهاية الحرب العالمية الثانية. واحترم البريطانيون التزامهم، غير أن السوفييت واصلوا احتلال «أذربيجان». واستفاد حزب «توده» الشيوعي الإيراني، الذي أنشئ ١٩٤١، من الوجود السوفييتي هناك لتدعيم مركزه. وطالب زعيمه «جعفر بيشواري» بالحكم الذاتي للإقليم، وكان من الواضح أن الاتحاد السوفييتي ينتظر فقط سقوط «أذربيجان» في يديه. سيكون من المجحف أن أقول إن أزمة أذربيجان كانت تجربة مأساوية لوالديَّ. فخالاتي وأخوالي كانوا لا يزالون مجروحين بسبب الاجتياح الشيوعي فيما بين ١٩١٩ و١٩٢٠ الذي أجبرهم على النزوح من إقليم جيلان، وأعيدت تسميته في ذلك الوقت بـ «جمهورية جيلان الاشتراكية السوفييتية». وكان هذا الاضطراب سببا في أن أصبحت «طهران» مآل والدتي وهي طفلة. والآن يحدث نفس الشيء، هذه المرة لعائلة أبي في الإقليم القريب.

وبدا الخوف من الشيوعيين والذي استمر معي طويلا من هاتين السنتين ـ ١٩٤٥ إلى ١٩٤٦ ـ عندما شهدت حزن والديَّ، وسوء حظ أعمامي وعماتي. كرهت الشيوعيين لأنهم ضد الملك. كان ذلك هو التفكير السياسي الوحيد الذي امتلكته. أما والداي اللذان كانا مؤمنين بالملكية وبحكم القانون اعتبرا «توده» الحزب الذي خان إيران، ومن ثم فهو شر مطلق. حيث سعى كعميل لقوة أجنبية من أجل فصل إقليم عن إيران.

وإلى العام ١٩٤٦ أيضا تعود أولى الصور التي أحتفظ بها للملك الشاب، الذي سأربط حياتي به بعد ثلاثة عشر عاما. وكان «رضا بهلوي» قد تولى العرش منذ ١٦ سبتمبر ١٩٤١، خلفا لوالده الشاه «رضا الكبير»، ليتولى حكم أمة هدَّها الاحتلال. ولا شك أن تحرير «أذربيجان» كان أول عمل تاريخي يُكسِبه امتنان الشعب الإيراني. وأخيرا نجحت الحكومة الإيرانية بقيادة دبلوماسي هو رئيس الوزراء «أحمد قوام السلطنة»، ومدعومة من المجتمع الدولي ـ الأمم المتحدة والولايات المتحدة ـ مع صلابة الملك ـ في إقناع «ستالين» بالوفاء بتعهده. وفي العاشر من مايو ١٩٤٦، صدرت الأوامر للقوات الروسية بمغادرة الإقليم الإيراني. ولكن إقليم «أذربيجان» الذي منح نفسه الحكم الذاتي، ظل محتلا بمتمردي «توده». ثم أرسل الجيش لإقرار القانون، وفي ١٢ ديسمبر ١٩٤٦ تحررت أخيرا العاصمة «تبريز».

ابتهج والداي، فهو يوم عظيم. وعندما عرفنا أن الملك سيطوف خلال شوارع «طهران» في طريق عودته من «أذربيجان»، هُرِع الناسُ إلى الشوارع لتحيته. وخرجت المدينة عن بكرة أبيها. كان المفترض أن يسير في الطريق الواقع على رأس شارعنا، حيث يوجد مرآب للسيارات. تسلق الناس على سطح المرآب، وتدافع الجميع، يهتفون، ويصفقون، عندما ظهر الملك أخيرا. كان مشهدا مبهرا لطفلة الثامنة التي كُنْتُها حينذاك.

وفي ذلك المساء، أو مساء اليوم التالي، احتفلنا في البيت مع الأسرة.ولأنني لم أكن أعرف «أذربيجان»، وعدني والدي أن نذهب إلى هناك معا يوما ما. ورحل في العام التالي، قبل أن يستطيع اصطحابي إلى حيث تنتمي عائلته.

الفصل الثاني

جاء مرض أبي بينما يلوح شعاع أمل في أفق إيران وبقية العالم. كنا للتو قد بدأنا إعداد خطط للمستقبل. فجأة شعر بتعب؛ وهو الذي عاش حياة سليمة، صحية ومنظمة جيدا. وعندما ظهر الاصفرار في عينيه وبشرته، اعتقد الأطباء أنه التهاب الكبد. أكثر ما أذكره عن تلك الأسابيع الأولى حالة حك الجلد. لم يكن يستطيع التوقف عن خدش ذراعيه وساقيه، ما جعله سريع التوتر، ولم يكن يبدو أن هناك ما يمنحه راحة تدوم.

عولج بأحدث عقاقير الالتهاب الكبدي، لكنه تلقى أيضا علاجنا التقليدي. فعائلتنا لديها إيمان قوي بالعلاج الطبيعي الذي يستخدم على نطاق واسع في إيران، وأنا أفضل اللجوء إليه حتى اليوم عن المنتجات المصنعة معمليا. وهكذا شرب عصارة الهندباء، بل إنه أكل أسماك المياه العذبة الدقيقة بلا جدوى فلم تتوقف حاجته لحك جلده، ولا تحسنت حالته العصبية.

وانشغل جميع من بالمنزل بمرضه، غير أننا قررنا التكيف معه. وذات يوم، غطى فجأة على ما عداه، وبدد نظام حياتنا: ذهب أبي إلى المستشفى. توصل الأطباء إلى تشخيص جديد مقلق، فبعد أن أمضوا أسابيع يعالجونه من التهاب الكبد، اكتشفوا فجأة أنه يعاني من سرطان البنكرياس ويحتاج عملية جراحية. لم أعرف بالتشخيص إلا بعد وقت طويل، ولكن منذ ذلك الوقت، شعرت بقلق صامت لا يمكن التعبير عنه. ما الذي سيحدث؟! كانوا يصطحبونني لزيارته، لكن الرجل الذي رأيته يصعب التعرف عليه؛ نحيف للغاية، وبشرة وجهه مشدودة كورقة. كان أضعف من أن يستطيع التحدث إلي. وما أفزعني أكثر، الأنبوب ـ أطلقت عليه والدتي أنبوب الصرف ـ يتدفق

عبره سائل أصفر من بطنه. لماذا؟ ما الذي أصابه؟ ومتى سيعود للبيت؟ والتزمت أمي وخالي وخالتي الصمت، وبدا عليهم الإحباط، وتجنبوا جميعا الرد على أسئلتي، إلا بابتسامة متوترة: «**لا تقلقي يا عزيزتي، سيكون على ما يرام**».

وفجأة، لم تعد هناك زيارات للمستشفى ـ بالنسبة لأي شخص ـ وعندما أبديت دهشتي، قيل لي إن الوالد ذهب إلى أوروبا للعلاج. كانت كذبة فقد توفي، لكنني تشبثت بالكذبة بكل قوتي. بل إنني تعمدت أن أجعلها مدعاة للفخر في المدرسة. ففي تلك الأيام، لم يكن في إيران سوى قلة قليلة من الثراء أو الأهمية إلى الحد الذي يستطيعون معه الذهاب إلى أوروبا لتلقي العلاج.

وفي أحد الأيام شهدت والدتي وخالتي «لويز» تذرفان الدموع، قالتا لي إن إحدى خالات والدتي توفيت، وهو ما يفسر حالة الحداد التي يعيشها أهل المنزل، خاصة أمي. صدقت. أعتقد أنني كنت أستطيع ابتلاع أي شيء ولا أسمح لنفسي بالاعتراف بالحقيقة التي لا يمكن تحملها، ويحاول الجميع إخفاءها عني.

غير أن الأيام والأسابيع مرت من دون أخبار عن والدي.

ـ لماذا لا يكتب لنا أبي؟

ـ إنه مريض يا «فرح». والمرضى لا يستطيعون الكتابة.

ـ هذا غير صحيح. الخالة «عفت» مريضة وهي تكتب لأسرتها.

كانت الخالة بالفعل في أوروبا. وتتلقى أسرتها بانتظام رسائل طويلة منها.

جاء إدراك الأمر تدريجيا، دون ذكر ذلك بوضوح، فقد توقف الناس عن الحديث عن أبي، بمن فيهم أنا نفسي. وإذا دخلت حجرة على نحو غير متوقع، يصمت الجميع أو يغيِّرون موضوع الحديث بسرعة، بينما والدتي، بوجهها الشاحب الهزيل، ظلت تبكي، تبكي أكثر من خالتي.

لا أستطيع أن أصف كيف حدث ذلك، ولكن مع مرور الشهور، أدركت تدريجيا أنني لن أرى الوالد مرة أخرى. لم يكن والدي ميتا بالنسبة لي فعليا، لأنني لم أبلغ برحيله، ولم أذهب لزيارة قبره (سأذهب للمرة الأولى عندما أبلغ السابعة عشرة. وقد دفن والدي جنوب «طهران» في «إمام زاده عبد الله»). وهكذا لم يكن ميتا

رسميا، لكنني كنت قد فقدته، بالمعنى الحرفي للكلمة. حطت على كياني كله حالة من السوداوية، خلقتها مشاعر الخواء والترقب اللانهائي. فقد وقع ما لا يحتمل، من دون أن أستطيع ذرف دمعة. أعلم اليوم أن الناس يزورون قبره سرا، ويعتنون به، ويضعون الزهور هناك. وكانوا من الحكمة بحيث أزالوا الاسم «ديبا» حتى لا يتعرض للانتهاك.

وقدِّرَ للحزن أن يداهمني بعد أربعين عاما أثناء موعد مع طبيب. كنت قد ترملت قبل بضع سنوات، ودار حديثنا حول تلك الخسارة، الأليمة للغاية بالنسبة لي وللأولاد، بعد العديد من الاضطرابات. ولا بد أن شيئا ما بدا غريبا في الطريقة التي تحدثت بها عن «رحيل» والدي، لأن الطبيب سألني فجأة عن السبب في أنني لا أعبر عن ذلك بوضوح.

ـ ولكن والدك متوفى، أليس كذلك؟ لماذا لا تقولينها هكذا؟!

اعتقدت أنني لن أقدر أبدا على أن أفعلها. وعندما قررت أخيرا أن أقول تلك العبارة الصعبة للغاية على نفسي «والدي متوفى» ـ انفجرت في البكاء.

وبعد شهور قليلة من وفاة والدي، اضطررنا لترك المنزل الكبير الذي أمضيت فيه طفولتي، فلم تعد والدتي وشقيقها يملكان ما يضمن الحياة التي عشناها. انتقلنا إلى شقة في أعلى بناية، سرعان ما أحببتها بسبب شرفتها الكبيرة التي تطل على منظر خلاب لجزء كبير من «طهران»، وخصوصا حركة الإنشاءات الجارية في الجامعة. كان ذلك في بداية الخمسينيات، عندما احتاجت الجامعة مساحة أوسع لاستيعاب الأجيال الصاعدة. ولا أستطيع حساب الساعات التي أمضيتها في تلك الشرفة لمشاهدة الأوناش وهي تتلوى، والجرارات وهي تتحرك، وأراقب كيف تتحول بلدة من القرن التاسع عشر إلى عاصمة ضخمة عصرية، تزخر بالبنايات العالية والشوارع الواسعة لتلائم العدد المتزايد من السيارات. وبعد سنوات قليلة اخترت العمل في الهندسة المعمارية، وأعتقد أن اهتمامي بها يرجع إلى تلك الفترة. وكان خالي الذي يشاركنا الشقة، مهندسا معماريا أيضا، وأحببت مشاهدته في المساء وهو يرسم رسومه التخطيطية.

وفي الصيف كنا نأخذ وسائدنا إلى الشرفة لنتجنب حرارة الجو، وننام معا جميعا في

الهواء الطلق. وأتذكر لعبتي المفضلة قبل الخلود إلى النوم، وهي أن أمد ذراعي وأقتلع نجمة أو القمر بأحد أصابعي. كنت أغلق إحدى عيني لأضبط الصورة وأتظاهر أن لدي خاتما بحجر نفيس. وفي الأمسيات الأخرى تسحرنا ـ «رضا» وأنا ـ الشاشة العملاقة لسينما «ديانا» الصيفية، وهي ترسل انعكاسات تومض عبر السماء مثل ظلال سحرية.

واختفت أيضا من حياتنا الإجازات الصيفية الطويلة في «شميران»، لأن والدتي بالتأكيد لم تعد قادرة على تأجير فيلًا. فكنت أذهب لأيام قصيرة أمضيها مع أي من أعمامي الثلاثة، الذين يمتلكون عقارات هناك. وعالجت والدتي هذا الإحباط بأن قررت أننا سنمضي إجازاتنا من الآن فصاعدا مع أقاربنا في «جيلان» و«أذربيجان»، ولم نخسر شيئا بسبب تبديل الأماكن. وفي الحقيقة كانت تلك العطلات ـ وعلى الأخص الرحلات إلى الشمال ـ أسعد ذكريات سنواتي قبل المراهقة. وكنا نسافر بالحافلة. وفي تلك الأيام لم تكن الطرق معبدة والتراب الذي تذروه الرياح الحارة يندفع عبر النوافذ الواسعة المفتوحة. وعندما نتوقف لتناول كوب من عصير الليمون على جانب الطريق ـ لم يكن مسموحا لنا بشرب الماء ـ نضحك نحن الأطفال في صخب. لم يكن يسهل التعرف علينا؛ تحول لون شعرنا وحواجبنا إلى الأبيض، وتحولنا نحن إلى رجال ونساء عجائز صغار الحجم.

كنا في «أذربيجان» نقيم لدى عمي «منوشهر»، الذي يعيش في «تبريز»، في بيت عائلة كبير. ويأخذنا عمي للتنزه في ممتلكاته، الحافلة بأشجار الفاكهة، فأتخم نفسي بثمار المشمش والكريز. ومَثَّل الجفاف لجميع أبناء أعمامنا الذين يعيشون على ريع الأرض، مصدر قلق شديد مقيم. فكانوا يترقبون الأمطار، ويصلون صلاة الاستسقاء، وأتذكر أنني كنت أشكر الله سرا لأني لا أمتلك أرضا، حيث صار هذا الانتظار الدائم للمياه، مصدر قلق لي أيضا بالتدريج. اكتشفت الصعوبات التي يواجهها عالم آخر، وشاهدت الرجعية والظلم في حياة الريف. لم يكن الإصلاح الزراعي طُبِّق بعد، وعندما يسرق فلاح فقير القليل من الطحين ليطعم أسرته، أو يرتكب أي مخالفة أخرى، يؤذيه صاحب الأرض أو يعاقبه بقسوة. لم أستطع تفهم ذلك، بل أثارني، وأتذكر أنني ثرت مرة أو اثنتين على كبار الملاك، إلى حد الصراخ بغضب. وشعرت بنفس إحساس الظلم، عندما رأيتهم يصطادون الغزلان ليلا في سياراتهم الجيب التي تطلق أضواء غامرة. ولم يكن أمام الحيوانات المسكينة أي فرصة على الإطلاق

للنجاة بعد إمساكها من جذوع قرونها. ولأن أسرتي تحبني بشدة، أخذوا موقفي على سبيل الجدية، ولكن من دون تفهم حقيقي لما يمكن أن يسببه هذا السلوك المهين والقاسي من صدمة لطفلة المدينة، التي كنتُها.

وعندما نكون مع عمتي «عزيز»، التي تعيش في «زاندجان»، نذهب لزيارة القرى البعيدة في سيارة جيب، وتستغل عمتي هذه الرحلات، لتأخذ أدوية لبعض الأسر في المنطقة. وعرفتني هذه الرحلات على الأراضي النائية من إيران، ومنحتني المخاطر التي كنا نواجهها بعضا من خشونة الريف. فكان علينا أن نعبر الأنهار وتخوم الوديان التي تحبس الأنفاس. وكان الرجال مسلحين حيث يتعين أن نحمي أنفسنا من الأعداء؛ الذئاب بوجه خاص. وفي أيام أخرى، نركب الخيول عبر الحقول لنتحدث مع الفلاحين. وعندما ينتصف النهار، نجلس على النجيل، ويستل الرجال سكاكينهم، لنتناول معا ثمار البطيخ. وظل الناس يتحدثون في خوف عن الفترة التي سقطت فيها «أذربيجان» في يد المعسكر الشيوعي. وذات يوم، بينما نزور إسطبلا قديما، توقف رجل من القرية أمام كوخ وقال لي: «**انظري يا «فرح»، هذا هو الحصان الذي امتطاه عمك «محمد خان» عندما حارب رجال «توده» الشيوعيين**». رأيت حصانا أبيضا عجوزا للغاية، يقف في ضوء الشمس. كان مثل صورة متحركة جميلة، مازلت أستطيع تذكرها. وكان بعض كبار الملاك قد حملوا السلاح في مواجهة الشيوعيين.

وحتى نصل إلى «جيلان»، حيث عاشت عائلة والدتي، وخصوصا شقيقها الأكبر، خالي «حسين»، كان علينا أن نعبر سلسلة جبال «ألبورز»، التي يبلغ ارتفاع قمتها شمال «طهران» أربعة آلاف و٥٠٠ متر. وهي رحلة مدهشة. فأنت تتسلق لمسافة عدة ساعات فوق اليابسة، في أرض صخرية، ثم تتبع قاع نهر، وفجأة يهبط بك الطريق إلى واد أخضر ينبسط على امتداد البصر، ليصل بهدوء إلى شواطئ بحر قزوين. وهنا تأتي حقول الأرز، ومزارع الشاي، والجو الذي يصبح فجأة رطبًا تحت سحب تبدو غالبا منخفضة وثقيلة. وفي الصيف تكون رائحة الأرز وزهور البرتقال قوية. وعلى العكس من الأراضي جنوب «ألبورز» تستقبل سفوح «جيلان» أمطارا غزيرة. أستطيع أن أتذكر فرحتنا عندما نلمح أشجار التين، والبرتقال، والكستناء، والسنط، وأشجار الألبيزيا ذات الزهور قرنفلية اللون، التي نسميها «شجرة الحرير».

وكان لعمي مزارع شاي قرب «لاهيجان»؛ فقبل عدة قرون جاءنا نبات الشاي

مستوردا من الصين. واستمتعت، بوجه خاص، بالانضمام إلى أبناء عمي وقت الحصاد. وكل مساء تتقاضى النسوة أجورهن بحسب وزن ما جمعته كل منهن، ونحن نساعد في ملء سلال أكثرهن إعياء. ومازالت لدي ذكريات عن أمهات شابات اضطررن لإحضار أطفالهن معهن. واعتدن إعطاء الأطفال جرعات ضئيلة من الأفيون حتى يهدءوا ويستسلموا للنوم. وذات مرة ازرقَّ لون أحد الأطفال، ووقفنا عاجزين عن الحركة، نشهد أمه الشابة وهي تصب الماء على رأسه وتربت على خديه لتعيده إلى الحياة.

وهنا أيضا حكوا لنا عن الخوف والنزوح الذي سببه الاستيلاء الشيوعي على «جيلان». ومع ذلك كان واضحا أيضا أن الفلاحين لا يستطيعون تحمل الحياة في ظل النظام الحاضر الذي يملك الأثرياء في ظله معظم الأرض، بينما لا تملك الغالبية شيئا سوى عملها مقابل أجر. فكان الإصلاح الزراعي مطلوبا بشدة، ويقال إن الملك يسانده. وكان قد ألمح إلى نيته في الشهور الأولى من توليه العرش، عندما سلَّم الحكومة جزءا كبيرا من أرضه الخاصة وطالبها بتوزيعها. ونظر البعض بتخوف إلى الإصلاح الزراعي، بينما ترقبه آخرون بنفاد صبر. وفي ذلك الوقت لم يكن لديَّ فكرة أنه سيكون واحدا من القرارات المهمة التي سيتخذها الملك بعد فترة قصيرة من زواجنا.

كنت في الحادية عشرة أو الثانية عشرة فقط، لكنني فهمت أن بلدي أكبر كثيرا من «طهران» وسكانها، وتعلمت، مثل العديد من الأجيال التي سبقتني، معنى أن تكون إيرانيا. واكتشف أطفال المدارس في بلدنا هذا الشعور بالانتماء عبر الصفحات الرائعة لـ«كتاب الملوك: الشاهنامة» لـ«الفردوسي»، أحد أعظم شعرائنا، ومثَّل لنا نحن الأطفال تجسيد الهوية الإيرانية وفخرها. فتعلمت في المدرسة أن أحب «الفردوسي»، واعتدت قراءته مع «رضا» ابن خالي. ويحكي «كتاب الملوك» القصص الملحمية لمؤسسي إيران، والسلالات الملكية الأربع الأولى. وبعد مرور عشرة قرون، مازالت قوة وجمال أشعار «الفردوسي» يبعثان الحياة في صورة النضال للحفاظ على هوية إيران القومية. ويقال إن «الفردوسي» كتب رائعته نحو عام ١٠١٠ بعد الميلاد. ويسرد «كتاب الملوك» في شعر قوي القصص الملحمية لأبطال أسطوريين، ومؤسسي المملكة الإيرانية القديمة.

وأشعلت قصص «الفردوسي» خيالنا في المدرسة والبيت، حيث شاركني «رضا»

مشاعري. ففي سياق مشهد يصف معركة، إذ بكلمات تزخر بالرقة على نحو يشحن مشاعرنا: «**هل تستطيع أن تبرر استمتاعك بالحياة بينما تسلبها من شخص آخر؟ لا تؤذ نملة تجر حبة من قمح، لأنها تملك حياة والحياة حلوة، حتى بالنسبة لنملة**».

وخلال هذه القصص الأسطورية، التي تتنافس فيها الشجاعة والقوة مع الخلود، يمنح «كتاب الملوك» شباب إيران احتراما لهويتهم التي تبلغ ٢٥٠٠ عام؛ وهو أحد أهداف الشاعر. وفي إيران أيام طفولتي ظل الرواة يجوبون البلاد من قرية لأخرى، مثلما يفعلون دائما، يرددون ويغنون شعر «الفردوسي». وكان الغرض الآخر من «كتاب الملوك» هو المساهمة في التربية السياسية والأخلاقية للملوك أنفسهم؛ فكتب «الفردوسي»: «بعد أن تكتب هذا الكتاب أعطه للملوك». لأن «الفردوسي» آمن أن عظمة إيران ترتبط ارتباطا وثيقا بدوام الملكية، وبإحياء الملكية في حالة ضعفها أو اختفائها.

وألهم هذا القول «جوزيف سانتا كروس» المحاضر بجامعة «طهران» تعليقه في بداية زواجي عندما قال: «**يبدو أن مصير إيران يرتبط ارتباطا وثيقا بكتاب الملوك**» وكتب في أحد مؤلفاته: «**شهدنا ظهور سلالات ملكية جديدة تعيد استقلال البلاد ولغتها، وتثري مرة أخرى حضارة العالم. وليس من قبيل المبالغة أو غير المبرر أن نعتقد أن هذه النهضات المتوالية لها أساسها في شعر «الفردوسي» الذي أنار عقول رموز ملكية عظيمة**».

وبالنسبة للإيرانيين في فترة الخمسينيات تنسجم أسرة «بهلوي» التي خلفت أسرة «قاجار» عام ١٩٢٥ مع منطق كتاب «الفردوسي» الحافل بالنبوءة. وهل يمكن أن يكون الأمر غير ذلك؟! فعندما تقلد الشاه «رضا بهلوي»، والد زوجي المستقبلي، العرش بمرسوم برلماني، كانت إيران بلدا من بلدان العصور الوسطى بلا أي قيادة. فلم يحكم الشاه «أحمد» آخر ملوك «قاجار» سوى «طهران» وحدها، بينما بقية البلاد في أيدي زعماء القبائل، وكبار الملاك، والقانون الحاكم الوحيد هو قانون الأقوى. وسلمت مواردنا الرئيسية للأجانب؛ البريطانيون يديرون بترولنا، وجيشنا ـ أو ما تبقى منه ـ يتلقى الأوامر من الضباط الروس في الشمال، والضباط البريطانيين في الجنوب، والبلجيك يديرون دوائرنا الجمركية، والسويديون يديرون شرطتنا. وهكذا، كانت إيران من أكثر البلدان تمزقا في العالم. وانخفض العمر الافتراضي للإيرانيين إلى

ثلاثين عاما، وأصبح معدل وفيات المواليد من أعلى المعدلات عالميا. ولم يكن هناك سوى متعلم واحد بالكاد من كل مائة إيراني، ولا توجد حقوق للنساء، ولا حتى الذهاب للمدرسة. وباختصار، لم يكن لدى البلاد، على العكس من جاراتها الكبريات، مثل الهند وتركيا، طرق أو سكك حديد تذكر، ولا يوجد سوى مولِّد وحيد للكهرباء في «طهران».

وبعد ربع قرن من الزمان أصبح لدى إيران التي عرفْتُها مدارس، وجامعات، ومستشفيات؛ وإذا كانت الطرق لم تعَبَّدْ كلها بعد فقد شقت على الأقل، وأخيرا ربطت سكك الحديد بحر قزوين بالخليج الفارسي. ولاشك أنه كان هناك العديد مما يتعين بناؤه، ولكن بالنسبة لجيل والديَّ، الذي استطاع أن يرى حجم ما تم إنجازه، يعتبر ما منحه الشاه «رضا» للبلاد مماثلا لما منحه «مصطفى كمال أتاتورك» لتركيا من ثورة صناعية وثقافية بيضاء. فكيف لا يدينون له بالولاء؟! وبالنسبة لنا نحن الأطفال، الذين تعلمنا من «الفردوسي» أن نبجل الملك المستنير، هل كان من الممكن ألا نرى النهضة التي تنبأ بها الشاعر في سلالة «بهلوي» الفتية؟!

حفظنا أعمال «الفردوسي» وغيره من الشعراء عن ظهر قلب. فالإيرانيون يشتركون في حبهم المتأصل للشعر؛ فلم يكن لدينا شعراء كثر، والمناهج الدراسية كانت تتكون بالأساس من الشعر الكلاسيكي. وكان هذا الاهتمام بالشعر جزءا من إيقاع حياتي اليومية في المدرسة والبيت. ومن بين ألعابنا المفضلة مع والدتي، وابن خالي «رضا» ووالديه لعبة ـ كانت رائجة بين العديد من الأسر الإيرانية ـ تتكون من الربط بين أبيات الشعر، بحيث يشكل الحرف الأخير من البيت الحرف الأول من البيت التالي، حتى يعجز أحدنا عن التفكير في بيت جديد؛ فيخرج ـ أو تخرج ـ من اللعبة، التي نواصلها مرة أخرى. والشخص الذي يفوز هو بالطبع اللاعب الذي يمتلك أفضل ذاكرة وأكبر قدر من المعرفة.

وعلمني خالي «قطبي» ووالدتي أن أحب «حافظ» على وجه الخصوص، من بين جميع الشعراء الفرس. ولاحقا، عندما أصبحت ملكة، زرت ضريحه في «شيراز» لأستمتع بهدوء المساء، وأتدبَّر نعمة الحياة، مثلما يدعو «حافظ» زوار قبره: «**لا تجلس بجوار قبري دون خمر أو موسيقى، فربما أنهض من قبري راقصا، عندما أستشعر شذا وجودك**». و«حافظ» أكثر شعرائنا إنسانية ونبلًا وأروعهم. وعندما يكون المرء

في حالة تشوش تام، ولا يعرف ماذا يفعل، فكل ما عليه أن يفتح ديوانا من دواوينه عشوائيا على إحدى الصفحات، ولاشك أنه سيجد الإجابة هناك، يهمس بها على نحو غامض الشاعر الذي يطلق عليه بحق «صوت الغيب».

و«حافظ» هو من يكون معك عند الشدائد، ومن يمنحك القوة لتتغلب على الحزن والألم، أو لتتقبل حياتك مثلما هي، إذا لم تستطع تغييرها. وهو أيضا من كتب: «**إن كان عليك أن تعبر الصحراء لتصل إلى هدفك، امض، دون أن تلق بالا للأشواك الجارحة**». وكانت أمي مولعة بالشعر، مع كل حدث يقع في حياتها يرد إلى ذهنها قصيدة، فترددها، ويشع وجهها فجأة بالنور. وتكون سعادتي حينها عندما أستطيع أن أرد بقصيدة أخرى. كانت أكثر من لعبة، فهي وسيلة لكي نعترف أننا مجرد عابرين على هذه الأرض، ونشارك مفكرينا الحكمة في تواضع. أحببت أيضا «سعدي» وهو شاعر آخر من «شيراز»، ومولانا «جلال الدين الرومي»، و«عمر الخيام»، وشعراءنا المعاصرين: «فروق فروخزاد»، و«فيريدون موشيري»، و«صهراب سبهري»، وكثيرين غيرهم.

وبمرور الوقت، صار بيتنا أقل كآبة، رغم أن الحزن على رحيل والدي ظل كامنا داخل كل منا. عشنا طويلا داخل دائرة أبناء الأقارب في العائلة، والأعمام والأخوال، والعمات والخالات، والآن جيء بأصدقاء المدرسة إلى البيت، وهو ما أثرى حياتنا بوجه عام. وكان لديَّ الكثير من الصديقات، وتعاملت بصورة جيدة مع الأولاد، والأكثر من ذلك، تمتعت بحب غير محدود من الكبار المحيطين بي. وبعد فترة، بدأت أقلق من ذلك، لماذا يتعامل معي الجميع بهذا القدر من المراعاة؟! لم أعتقد أنني أكثر ذكاء أو جاذبية من الآخرين، فسرعان ما كنت أشعر إذا أبدى أحد الكبار اهتماما بالغا بسعادتي، أن ذلك ليس بسبب مظهري أو جاذبيتي الشخصية، ولكن لأن والدي لم يعد موجودا، وهم ببساطة يشفقون عليَّ، وأقلقني ذلك عدة شهور، وتأرجحت دائما بين الميل لقبول هذه الدلائل على المحبة، وبين صوت داخلي يهمس لي ألا يجب أن أصدق هذه الأمور التي يسعدني سماعها. وفي نهاية الأمر تغلبت على قلقي. غير أنني مازلت أميل إلى الشك فيما يسدى إلي من مجاملات. ولهذا السبب عندما أصبحت ملكة لم أثق أبدا بالمتملقين والمتوددين. ونادرا ما كنت أصدق ما يقولون، على الرغم من أنني كنت أخدع من حين لآخر. وأعتقد أن عادة

الشك ساعدتني على الوقوف على أرض صلبة. فأنا أعتبر التملق مع عدم الإخلاص إهانة لذكاء المرء، ونوعا من أنواع الخداع. لا أُكَذِّبُ من يجاملونني، لعدم رغبتي في إيذاء مشاعرهم، لكن ذلك يضايقني.

وجاءت مشاعر البهجة المشتركة في عطلات الإيرانيين، في أيامها المعتادة منذ آلاف السنين، كما لو أنها ترينا أن الحياة يجب أن تستمر رغم أي شيء. ولا شك أن أهم هذه العطلات «النوروز» (ومعناها الحرفي: اليوم الجديد) الذي يسبقه معظم الاستعدادات، وهو رأس السنة الذي يقع أول أيام الربيع. وينمي هذا الاحتفال دائما الانسجام العائلي، فنحن ـ الأطفال ـ نحتفل به معا في بيت العائلة الكبير، وهي مناسبة يتبادل فيها الآباء والأبناء إظهار مشاعر الحب بينهم بطرق مختلفة كثيرة.

وتستمر العطلة وقتا طويلا. حيث يبدأ التنظيف الربيعي للبيت من أعلاه لأسفله قبلها بأسبوعين، لأن «النوروز» أساسا رمز للتجدد؛ فأنت تقلب صفحة الماضي، وتغتسل، وترتدي ثيابا جديدة، وتنظف المنزل لتستهل فترة جديدة بحالة ذهنية جديدة. وتمثل جميع أعمال المنزل هذه أولى علامات الإثارة التي ستقلب مجتمعنا الصغير رأسا على عقب، وبمجرد أن ينظف البيت يبدأ الإعداد الطويل للحلوى الرائعة. ولذلك أحببنا التجمع في منزل خالتي «أمجد»، التي يعمل لديها طاه ممتاز. فنتخذ جميعا أماكننا في حجرة نوم كبيرة بالبدروم حتى نستطيع أن نساعده. ويمكن أن يستمر الطهي عدة أيام.

وأخيرا، نعد المائدة قبل يوم من الاحتفال، وتُقَدَّم رموز جميع أنواع السعادة في الدنيا يوم «النوروز»؛ البيض رمز الميلاد، والثوم رمز الصحة، وفواكه مجففة صغيرة رمزا للحب، والتفاح رمزا للحب، وعملات ذهبية رمزا للرخاء، وشموع ومرآة رمزا للنور، وقمح نابت في وعاء بديع رمزا للنمو، وثمرة النارنج في سلطانية بها ماء رمزا لقدرة الأرض على التحمل، فضلا عن زهرة الياقوتية رمزا لحياتنا القصيرة على الأرض. وأخيرا الكتاب المقدس، طبقا لديانة العائلة. ويختلف موعد الاعتدال الربيعي من عام لعام، ولكن عندما يأتي الموعد، يتجمع أفراد العائلة حول المائدة. يتبادلون القبلات والمجاملات، وأمنيات طيبة للعام الجديد، وعادة ما يقدم الكبار أموالا في صورة قطع معدنية أو أوراق نقد جديدة للأطفال.

وفي اليوم الأول يصبح البلد بأكمله في حالة احتفال. وتقليديا نزور أكبر الأفراد سنا في العائلة أولا، وبعد ذلك الباقين ـ الأجداد، والأعمام والعمات، والأخوال والخالات، وأبناء الأقارب ـ لذلك سرعان ما تعم بلدات إيران فورة من النشاط، وتغمرها الفرحة من كل ناحية، وجماعات الأسر في ثياب زاهية، يجيء أفرادها ويروحون والزهور في أيديهم، ويضحكون عندما يلتقون، ويقدم كل منهم للآخر الحلوى، وتستمر هذه الحركة حتى مغيب الشمس. وبعد ذلك ثلاثة عشر يوما اسمها «سيزدا»، يجب أن نقضيها خارج المنزل، حيث يعتبر البقاء في المنزل خلال تلك الفترة جالبا للنحس. وفي هذه الأيام الثلاثة عشر من العام، يذهب الجميع لنزهات خلوية؛ الأثرياء يذهبون إلى الريف في سيارات محملة بالطعام. والأقل ثراء يقيمون في الشوارع أو على ضفة جدول. فيفرشون سجادتهم تحت شجرة «الدُّلب»، ويجهزون عدة صنع الشاي، ويعزفون الموسيقى، ويطبخون شوربة الشعيرية «آشي رشتي» والكباب على نيران فحم نباتي مشتعل تحت الأشعة الأولى لشروق شمس الربيع. وفي كل مكان عازفون على «التومباك» (الطبلة)، و«التار» (قيثارتنا)، و«السورنا» (نوع من أنواع البوق). ويعتبر «سيزدا» أجمل وقت لتناول الطعام خارج البيت في طهران؛ فحرارة الجو ليست مرتفعة، وقمم «ألبورز» مازالت تعلوها الثلوج، فتغمر البلدة بضوء ناعم وصاف. وقبيل الغروب، ينبغي إلقاء القمح النابت، في مياه جارية ليجلب سنة سعيدة. اعتدنا أن نؤدي هذا الطقس مع والدتي، وحتى اليوم، بعيدا عن بلدي، تحمل أنهار أخرى حبوب قمحي النابتة. وأذكر ذات مرة في الولايات المتحدة، كنت بالمنفى ولا أعرف إلى أين أذهب، قررنا أن نلقي الحبوب في البحر. ولكن الشاطئ كان مغلقا، ووجد رجال الأمن المرافقين لي أنفسهم في مواجهة حارس الشاطئ. واضطررت أن أشرح للرجل أنه تقليد يخص رأس السنة الإيرانية ـ يحمل الأمريكيون احتراما كبيرا للتقاليد ـ فسمح لنا أن نذهب إلى حافة الشاطئ حيث الماء.

وقبل «النوروز» نحتفل أيضا بالثلاثاء الأخير من العام، «شهر شانبه سوري». وفي هذه المناسبة عليك أن تقفز فوق نار. وترمز الحركة لسحب كل ماهو سلبي من جسد المرء وروحه إلى اللهب، ونيل الدفء والنور بدلا منه. واعتدنا أن نوقد النار لهذه المناسبة في حدائق «طهران»، أو في الريف، أو في الشوارع إذا لم يكن هناك مكان آخر متاح. وهو طقس مسلٍّ، حتى أنني اليوم أوقد ببساطة شمعة وأقفز فوقها، بدلا

من أن أتخلى عن هذه التقاليد وهي جزء من هويتنا،، كما لو أن تلك اللمحة الصغيرة سوف تُثَبِّت تراثي الإيراني وتمنحني القوة للتكيف مع ألم المنفى.

بدأت أكبر. شيئا فشيئا أغادر الطفولة، تحت عيني والدتي اليقظة. وكنا نتشارك هي وأنا أسبوعيا ـ بقدر ما أتذكَّر ـ طقس «الحمَّام»، فتُعِد حقيبة بها ملابسي النظيفة، ونذهب يدا بيد إلى الحمامات. وكنت أخاف هذه اللحظة كفتاة صغيرة، عندما تمسكني السيدة التي تحمِّمُني بقوة بين ساقيها حتى لا أهرب، فتلتهب بشرتي ويؤذي الصابون عيني. كان اسمها «توبا»، وأذكر أنها اعتادت أن تغني لتهدئني: **«لن تتزوجي أي شخص، وإذا جاء الشاه مع جيشه ووزيره ليسأل عنك، فربما نعطيك له، وربما لا»**.

وبمرور الوقت، بدأت أحب «الحمَّام» واحتفاله. تجمع كل منا الحقيبة، ونأخذ معنا أيضا صينية مستديرة من الفضة لنجلس عليها، بالإضافة إلى وعاء نحاسي منقوش عليه أدعية «الدعاء الجامع»، لنسكب المياه على رأسينا في نهاية الحمام. وكان الغرض من الأدعية حمايتنا. ولأسباب صحية، لا نجلس مباشرة أبدا على الأرضية، وقيل للفتيات الصغيرات، إنهن إذا فعلن ذلك فسوف يصبحن حوامل. مازلت أستطيع تذكر رعبي من هذا الاعتقاد السخيف. أحببت الآن «توبا» وهي تحك جلدي في نشاط بقماشة الاستحمام المصنوعة من شعر الخيل. أحببت هذه الجلسات الطويلة للعناية بالجسد، والشعور بالانتعاش. وفي بلدنا يعتبر «الحمَّام» أيضا أحد الأماكن التي تنتقي منها الأمهات الفتيات اللاتي ربما ينلن شرف التقديم لأبنائهن، وربما امتياز أن يقع عليهن الاختيار. وذات يوم ذكرت أمامي امرأة من «أذربيجان» لصديقتها ـ معتقدة أنني لم أفهم لغتها ـ إلى أي مدى تراني جذابة: «**بو جيز جوزال دي**» بالتركية. منحني ذلك شعورا غريبا بالرضا، وفضولا جديدا حول المراهِقة، التي صِرتُها.

الفصل الثالث

بدأت فترة مراهقتي في سن العاشرة، عندما التحقت بمدرسة «جان دارك» الفرنسية في «طهران». وسبق أن تتلمذت والدتي فيها، وأنا في غاية الامتنان لاختيارها هذه المدرسة من أجلي؛ ففي تلك المرحلة الانتقالية المهمة من حياتي، أمضيت أكثر السنوات ثراء التي يمكن للمرء أن يتمناها. ويرجع ذلك جزئيا إلى علاقتي براهبة شابة، هي الأخت «كلير»، التي غيرت مبادراتُها من المدرسة القديمة كليا. فعلى سبيل المثال شكّلَت الأخت «كلير» فريق كرة السلة، الذي سيُحَوِّل في غضون سنتين أو ثلاث الطفلة المحافظة التي كُنْتُها إلى فتاة واثقة من نفسها، سهلة المعشر.

وما أن التحقت بمدرسة «جان دارك» حتى قررت الانضمام إلى الفريق، وهكذا وجدت نفسي وجها لوجه مع الراهبة الفرنسية النشيطة للمرة الأولى. وسأترك لها وصف لقائنا:

«كنت قررت ألا آخذ سوى الفتيات اللاتي يسبقن «فرح» بسنتين دراسيتين. فعندما يكون الأطفال أصغر سنا، يبدءون دائما الأمور ولا يكملونها أبدا. غير أنني لا أعرف السبب، لكنه كان حبا من النظرة الأولى. شعرت بشيء مميز بيننا. فلدينا نفس المِزاج، رغم أنها بدت أكثر اتزانا. فتاة صغيرة أنيقة ونظيفة، ذات طلاقة في التعبير. ارتدت مريلة سوداء بياقة ذات حواف حمراء. لديها لمحة من البسالة مع نوع خاص من الحياء والتحفظ. كما كانت لبقة للغاية، جوهرة متألقة حقيقية. لم تتعثر أبدا عند أداء أي شيء. هي أول من تذهب لتحضر الكرة التي أحتفظ بها دائما في جناح الراهبات. كانت طفلة سعيدة بلا مشاكل، على الرغم من فقد والدها وهي طفلة صغيرة للغاية. وبالنسبة لها، أعتقد أنها أحبتني أكثر من بقية الأخوات، لأنني أتميز بالمبادرة والنشاط الشديد».

وبعد عام واحد فقط، اختاروني قائدة لفريق كرة السلة. ولا شك أن ذلك بسبب قدراتي الرياضية، ولكنني أعتقد لطبيعتي السلسة أيضا. كنت صريحة تماما وتلقائية؛ لم أحب التكلف أو الجلبة، ولا أستمع للنميمة الخبيثة، ونتيجة لذلك صار الجميع ـ أو الجميع تقريبا ـ صديقاتي. وإذا أرادت إحداهن أن تضايقني لم أكن أعبأ، فقط أتركها دون كلام حتى تتجاوز الأمر. ونظرا لرئاستي لاعبات السلة في «جان دارك» سرعان ما اكتشفت أنني أصبحت بطلة، مثالا للقدوة. وكان فريقنا يفوز دائما في المباريات مع المدارس الأخرى، وبعد عدة شهور، حصلنا على لقب بطلات طهران. ونشرت الصحف صور مجموعة لاعباتنا، وكثيرا ما سمعت الأطفال يشيرون علي لآبائهم قائلين: **«انظر.. إنها فرح!»**.

كانت الأخت «كلير» تدعمنا، ونتخذها مثالا. فخضت مسابقات أخرى؛ القفز الطويل، والقفز العالي، والعدو. وفي تلك المسابقات، حصلت على المراكز الأولى في البطولات النسائية عام ١٩٥٤، وفزت بميداليتين وعلم إيراني صغير باسم الملك، تسلمتهم من يد الجنرال «عباس إزاد باناه»، المسئول عن الرياضة في إيران في ذلك الوقت. ومازلت أذكر الميداليتين وعليهما صورتا الملك والملكة «ثريا».

وفيما عدا ذلك، كنت أذهب إلى المدرسة سعيدة يوميا، فلديَّ العديد من الصديقات، وأحببت معظم مدرسيَّ، وأعتقد أنهم أحبوني. أُعجبت أيضا بروح الانضباط الذاتي والحميمية في «جان دارك»؛ فالمدرسة التي تشغل أبنية راقية على شكل حرف «ل»، عمرها قرن من الزمان، تفرض الاحترام والانضباط. كانت الأخوات يعشن في جناح واحد بحديقة خاصة، وحجرات الدراسة في الجناح الآخر، تُفتح على فناء من الأسفلت تحوطه أشجار الصنوبر. وأَضْفَت الكنيسة المبنية داخل أراضي المدرسة مرجعية دينية وقداسة. غير أن ذلك لم يمنعنا من المرح، خصوصا وقت الغداء. ولم يكن في أيامنا مقصف، لذلك صار على البنات أن يحضرن طعامهن في آنية معدنية. ونقوم بتسخين هذه الوجبات على مواقد قديمة تعمل بالفحم في حجرة بدروم، وجدناها مخيفة نوعا ما؛ فكنا نهرب منها بأسرع ما نستطيع.

فمن أي أنواع الأطفال كنت في سنوات إدراك نفسي والآخرين؟ هنا أعتمد على ذاكرة الأخت «كلير» المتفائلة والمحبة لي دون شك:

«لم تكن أكثر ذكاء من بقية الطالبات، لكنها ذكية، وموهوبة، وذات ضمير حي. كانت تتلقى دروسها بالفرنسية، مثلما تفعل الطالبات البارعات، وكان مستواها أفضل في الحساب والعلوم عن المواد الأدبية. تميزت بعقل راجح دقيق، ولم يكن هناك أي مثالب في ملبسها، ولا في عملها وعلاقتها بزميلاتها، التي تمتعت بتأثير طاغ عليهن. وكانت تشِعُّ حيوية وصحة، وعلى أتم استعداد دائما للعطاء. وفي رأيي، كانت تمثل كل ما هو الأفضل بالنسبة لفتاة إيرانية؛ تجمع اللباقة، والتحفظ، والذكاء مع الصداقة الدافئة والدائمة».

ولا شك أنني ورثت شيئا من شخصية والدي: الصدق، والجدية، والميل الطبيعي للسعادة. لكنني أدين بالتأكيد في قدر كبير من هذه السمات لحزم والدتي الشديد. فهي لم تتركني أخطئ دون حساب. وكانت مهتمة للغاية بتربيتي بطريقتها في مجتمع يدقق بوجه خاص بشأن الأسلوب الذي يتعين تنشئة الفتاة وِفْقَه. صحيح أن خالي «قطبي» أخذ شيئا فشيئا مكان والدي، لكنه لم يُعْن بشئون الحياة اليومية؛ كان يدعمني، ويعلمني الحياة، ويعدني للمستقبل. أما زوجته، خالتي «لويز»، فأظهرت لي محبة صادقة. كانت تعتقد أنني أمتلك جميع الصفات الحسنة الممكنة، وأدركت فيما بعد أنها أكثر مَن أحبني بعد والدتي. أما والدتي فهي من تابعتني يوما إثر يوم، وكانت أي خطوة صغيرة تنحرف عن الخط الذي رَسَمَتْه كفيلة بإثارة غضبها، وسرعان ما تورطني في جميع أنواع الدراما. وعلى سبيل المثال، أتَذَكَّر أنني رسبت في امتحان نهاية العام في الإملاء، ما يعني أن أدخل الامتحان مرة أخرى في سبتمبر. كنت في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة في ذلك الوقت. واستشاطت أمي غضبا إلى حد أنها ظلت تعيد وتزيد في أنني لم يكن لي الحق أن أفعل ذلك في حقها بعد كل ما فعلته لأجلي، حتى أنني شعرت أنني جلبت العار للعائلة. وصرت خائفة، ومحطمة، ومازلت حتى اليوم أشعر ذلك الشعور كلما فكرت في الأمر. حبست نفسي في حجرة وظللت أبكي طوال اليوم، كما لو أن هذا الرسوب في الإملاء قضى على مستقبلي بالفعل.

ومع ذلك، كانت أحداث درامية من طبيعة أخرى تختمر على المستوى الوطني، أحداث سوف تُعَجِّلُ بنمو وعيي السياسي. كان ذلك في عام ١٩٥٢، والحكومة على خلاف مع البريطانيين بشأن تأميم بترولنا. و«الجبهة الوطنية» التي تمثل استياء الإيرانيين من البريطانيين يقودها «محمد مصدق»، وكان الملك قد عيَّنه رئيسا

للحكومة، فتصرف بحزم وشجاعة، ولكن عناده دفع البريطانيين لتجميد إنتاج بترولنا؛ فلم يكن مسموحًا أن تغادر نقطة من البترول إيران، ونتيجة لذلك، تراجع الاقتصاد الوطني بالكامل. وبدا أن بلدنا في هذا الوقت يخسر على جميع الأصعدة؛ فالمحكمة الدولية تماطِل في الاعتراف بحقوق إيران، والحظر البريطاني تسبب في أزمة أثَّرت على المواطنين من مختلف المستويات.

وتردد أن الملك قلق للغاية، فهو بالطبع كان يفضل التأميم، لكنه اعتبر «مصدق» متجاوزا، لرفضه الدائم عروض البريطانيين من أجل التفاوض. وشكَّلَ الفقر وتزايد الاستياء مناخا مناسبا لحزب «توده»، الذي لم يكن ظاهرا للعيان من قبل بهذه الدرجة. وادعى بعض الناس أن «مصدق» كان يؤدي دورا لصالح «توده» دون قصد؛ فيما أيده آخرون رغم الفشل الدبلوماسي، لأن موقفه كان تجسيدا للكبرياء الوطني.

وعندما تحولت الأزمة إلى الأسوأ، قرر الملك أن يغادر رئيس وزرائه منصبه، لكن «مصدق» رفض أن يترك المنصب، مسببا انقساما عميقا في الرأي بين عقول الإيرانيين، مما ترك ندوبا مازالت مؤلمة حتى اليوم.

وأثارت قضية الطريقة المثلى لتأميم بترولنا خلافا داخل كل أسرة. وتمزقت معظم العائلات بين مؤيدي الملك وأنصار «مصدق»، ولم تنج أسرتنا من ذلك الانقسام، وشهدت في إحدى الأمسيات مشهدا غاضبا لا يُنسى لواحد من أبناء العائلة، الذي وصل إلى حد إهانة أحد أعمامنا من أنصار «مصدق» المتحمسين. وفي نفس الوقت كان «رضا» ابن خالي يميل إلى الحزب القومي الإيراني الموالي للملكية، والمعادي للشيوعية أيضا على نحو بالغ. وعلى الرغم من أنه لم يكن تجاوز الثالثة عشرة، إلا أنه كان معروفا في المدرسة بأنه حجَّة في «كتاب الملوك»، وأتذكر أن زملاءه غالبا ما كانوا يطلبون منه كتابة مقدمات أطروحاتهم. كنت أيضا أشعر بانتماء مَلَكي وقومي عميق، لماذا؟ لا شك أن ذلك يرجع لتنشئتي، وأيضا كنت ـ مثل «رضا» ـ مشبعة بأفكار «الفردوسي»: الملوك وحدهم هم الحكام الشرعيون في بلدنا.

وأثر الجدل أيضا على فصول مدرسة «جان دارك» حيث رددت التلميذات آراء آبائهن. ولكن عند مستوى وعينا، كانت القضية تعتمد على ما نشعر به، لأنه مهما كان الطرف الذي ننحاز إليه، فانحيازنا يرجع لانجذابنا إليه عاطفيا. ولم أستطع شخصيا

أن أتفهم كيف يمكن أن يأخذ أي شخص موقفا مضادا لملكنا الشاب: فقد أثرت فيَّ كثيرا نظرته الحساسة والحازمة في نفس الوقت. ومع ذلك، اقتصرت المواجهات بيننا في فناء المدرسة على معارك غير مؤذية، باستخدام قشر البرتقال. كنا متفقين جميعا على تأميم بترولنا، وأستطيع أن أتذكر كيف كنا نتباهى بترجمة الحرفين الأولين من اسم شركة «بريتيش بتروليوم» رمز القوة البريطانية إلى «بنزين بارس» بمعنى البترول الإيراني.

واتخذت الأمور منعطفا أكثر جدية مع الفتيان، خاصة في مدرسة «رضا» ابن خالي: «ألبورز كوليدج». حيث درج نشطاء شيوعيون من حزب «توده» على الحضور وتعليق مجلتهم لتحريض التلاميذ. وسرعان ما تصاعدت حدة الانفعالات، وشرع «رضا» الذي استشاط غضبا في تمزيق المجلة إربًا. وصار أولئك الموالون «لتوده» أكثر احتدادا أيضا، وفي إحدى الأمسيات وقع أسوأ مخاوفنا: **طعَن أحدهم «رضا»**. وسمعنا أنه نقل إلى المستشفى. ولحسن حظه كان يرتدي في ذلك اليوم رداء سميكا، فلم يصل النصل لأي جهاز حيوي داخل جسمه.

ثم ترددت شائعة في المدينة أن الملك يفكر في مغادرة البلاد للحيلولة دون تحول التوترات المختلفة إلى حرب أهلية. واحتشد آلاف من الإيرانيين، خاصة الشباب، أمام القصر يتوسَّلون إليه أن يبقى. كان الناس قلقين. ومرة أخرى، بدت إيران على شفا كارثة. وأذكر أن الدبابات اتخذت مواقع لها في مفترقات الطرق. يا إلهي، ما الذي يمكن أن يحدث لو تخلى عنا الملك؟! دفعني الاحتمال للقلق حتى أنني لم أستطع تناول الطعام أو النوم، ولم يكن من الممكن أن أشعر بالطمأنينة وسط قنوط خالي وخالتي مع صمت أمي. وكل مساء يهاتفون عمي «أحمد ديبا» الذي يقع منزله بالقرب من ميدان البرلمان، لمحاولة التعرف على آخر الأنباء.

وخَفَّت حدة التوتر العام، واختفت كوابيسي فقط لتعاودني مرة أخرى عام ١٩٥٣. حيث كانت العائلة تقضي العطلة في مدينة «بندر بهلوي» على بحر قزوين، وكنت على وشك الاحتفال بعيد ميلادي الخامس عشر عندما بلغتنا الأنباء أن الملك غادر إيران. ليست شائعة هذه المرة. فقد أكدتها الإذاعة، قائلة: إن الملك أقال «مصدق»، الذي رفض ترك منصبه، وانطلق المشاغبون الآن إلى الشوارع تأييدا لرئيس الوزراء. كانت هناك امرأة روسية في السَكَن الذي أقمنا فيه، سيدة من روسيا البيضاء فرَّت من

الثورة البلشفية قبل خمسة وثلاثين عاما، ظلت تردد: «ها هو! سنسير في نفس طريق روسيا!». كانت المرأة المسكينة شاحبة الوجه وبادية اليأس. عرفنا أننا نعيش فترة مرعبة يمكن أن تكون مهلكة لإيران. ووُضِعَت أجهزة الميكروفون في شوارع المدينة الصغيرة الواقعة على البحر، لإذاعة الأنباء ساعة إثر أخرى. وواصل الناس أعمالهم وهم منهكون وقلقون. وأتذكر مناهضي الملكية يمرون في قوارب هاتفين: «**أَنزالي! أَنْزالي!**» وهو الاسم القديم لميناء «بندر بهلوي». كان ذلك مجرد تذكير رمزي، لكنه ذو مغزى واضح. ما الذي سنصير إليه؟ امتلأ قلبي بالقنوط، وكنت حزينة لدرجة لم أستطع معها البكاء.

اكتسحت أعمال الشغب طهران لمدة ثلاثة أيام، لتخلف وراءها فوضى عظيمة. واحتل الشيوعيون، وأنصار «مصدق»، وحتى رجال دين، الشوارع يهتفون بشعارات عنيفة ضد الملك؛ الذي عين قبل مغادرته الجنرال «فضل الله زاهدي» رئيسا للوزراء خلفا لـ«محمد مصدق». واتجه الجيش إلى الجنرال «زاهدي»، بدلا من إطاعة أوامر رئيس الوزراء السابق. وأخيرا، جاءت الأنباء عن تدمير منزل «مصدق» بواسطة دبابة، كأولى علامات إعادة النظام.

وفي الحقيقة، عاد الملك في اليوم التالي إلى طهران وسط حفاوة بالغة. بعد أن أمضيت فترة منفاه ـ مع الملكة «ثريا» ـ التي لم تستغرق سوى أسبوع، في قلق دائم مثل العديد من الإيرانيين. وبعد خمسة وعشرين عاما، بعدما صرت ملكة، أرافق الملك إلى منفى جديد، وساعدتني تلك النهاية السعيدة القديمة، على الاحتفاظ بالأمل في أننا قد نعود.

ويشير الملك في إيجاز إلى ذلك المنفى الأول في مذكراته التي كتبها قبل وفاته:

«نظرا لأنني كنت مدركا خطط «مصدق» وطموحه، قررت أن أترك إيران قبل الاستيلاء عليها بالقوة. أردت تجنب نزيف الدم، وترك البلاد لتحدد اختيارها بحرية (...).

مرت ثلاثة أيام من الشغب، في طهران أساسا. نظَّم «مصدق» وحزب «توده» اليومين الأولين. وفي صباح اليوم الثالث فقط ١٩ أغسطس ١٩٥٣ اتخذ العمال والحرفيون، والتلاميذ وأصحاب المهن الحرة، وجنود الجيش والشرطة وحتى النساء

والأطفال، موقفا شجاعا في مواجهة البنادق، والأسلحة الآلية، والدبابات المصفحة التابعة للدكتاتور المسعور، وعكسوا الموقف. ووضعت طلقة تحذيرية واحدة، أطلقتها دبابة موالية على فيلّا رئيس الوزراء السابق نهاية لثلاثة أيام من الجنون السياسي (...).

عدت فورا إلى طهران، حيث لقيت ترحيبا حماسيا من الناس. كان ذلك استفتاء عاما ساحقا حقيقيا عبر إيران. فقبل هذا الدليل كنت وارثا للعرش فحسب، والآن صار لي الحق في أن أقول إنني انتخبت فعلا من الناس (...).

وكشفت الإجراءات القانونية التي تلت القضاء على نظام «مصدق» بعض الحقائق الغريبة عن أحداث ١٩٥١-١٩٥٣، فعلى سبيل المثال تبين أن حزب «توده» الشيوعي كان عدد أعضائه ١١٠ ضابطا فحسب عندما أصبح «مصدق» وزيرا للحربية عام ١٩٥١، وصار عددهم ٦٤٠ ضابطا عند مغادرته منصبه عام ١٩٥٣.

وكانت خطة الشيوعيين أن يستغلوا «مصدق» أولا للإطاحة بي. ووفقا للأوراق المعثور عليها في حزب «توده»، كان من المقرر التخلص من «مصدق» بعد أسبوعين أو ثلاثة من رحيلي. وشاهدت طوابع بريدية مكتوب عليها «الجمهورية الإيرانية الشعبية»، التي كانوا يعتزمون إعلانها (...).

وبعد ثلاث سنوات في السجن أُفْرِج عن «مصدق»، فتقاعد في عزبته في «أحمد آباد»، غرب عاصمتنا، وتوفي هناك عام ١٩٦٧».

وفيما عدا الاضطرابات التي وقعت في التاريخ الحديث أستطيع أن أؤكد أن الملك، الذي ساند بقوة دكتور «مصدق» وقت تأميم البترول، كان يكن له احتراما عظيما أيضا. وأوقن أن «مصدق» لو كان أقل عنادا وأكثر دبلوماسية مع البريطانيين، مثلما أراد الملك، لما واجهنا هذا النزاع طوال هذه السنوات العديدة. وأمنيتي اليوم أن يضع جميع الإيرانيين نهاية لهذا الخلاف الذي دام خمسين عاما، فليس له مكان في إيران المستقبل، التي يجب أن نبنيها جميعا معا.

الحياة تستمر بوتيرة أهدأ في البلاد وفي البيت. عرِفت الحركة الكشفية بقيادة الأب «ميشيل جويو». كان مطلوب متطوعين للإشراف على الأعضاء الأصغر سنا، «الأشبال» في مدرسة «سان ـ لوي» (مدرسة البنين المناظرة لجان دارك)، التي يديرها

«الآباء اللازاريون»[1]. وكما كنت دائما كابتن فريق السلة، سرعان ما أصبحت قائدة الأشبال.

ومثلت الكشافة أولى تجاربي في تحمل المسئولية، وعندما أصبحت ملكة كثيرًا ما كنت أدين لها بالعرفان. فليس من السهل أن تصبح وأنت في الخامسة عشرة مسئولا عن نحو ثلاثة عشر طفلا لمدة أسبوع أو أسبوعين في معسكر. حيث يتعلم المرء التنظيم، والتضحية، والصبر، والاتزان. كما يتعلم ـ في تلك اللحظات النادرة الحرة ـ أن يراجع أخطاءه، وما الذي كان من الأفضل قوله في هذا الوقت أو ذاك وسط ازدحام وصخب اليوم.. نعم، كنت ممتنة كملكة صغيرة السن للكشافة التي منحتني الشعور بالواجب في بواكير حياتي. وحتى في المنفى، سوف أتواصل مع الأب «جويو» الذي كان مسئولا عن الكشافة، وهو شخص أحببناه جميعا بسبب نشاطه، وتفتحه، وكرمه البالغ.

ويرجع الفضل للكشافة أيضا في قيامي بأولى رحلاتي إلى فرنسا عام ١٩٥٦. عندما دُعِيَت اثنتان من الفتيات ومثلهما من الفتيان إلى مهرجان الكشافة الدولي في «شاتو دي جامبفيل» بالقرب من باريس. غير أننا كنا مضطرين لدفع رسوم الرحلة. واستطعنا شراء تذاكر سفرنا إلى فرنسا بفضل أرباح مسرحية «توباز» لـ«مارسيل بانيول» التي عرضت على مسرح «طهران» وتربطه علاقة ودية بمدرسة «سان ـ لوي».

كنت متشوقة للغاية إزاء فكرة اكتشاف باريس. فللمدينة أهمية خاصة لدى أسرتي؛ درس والدي فيها بعد مغادرته «سان بطرسبرج»، وكان يأمل أن يصطحبني إليها. ووالده، جدي «مهدي ديبا»، كان سكرتير الوفد الفارسي في فرنسا عند مطلع القرن. وتحدث الاثنان الفرنسية بطلاقة، وقد نقل لي والدي شغفه بفرنسا وبوجه خاص عاصمتها.

وما أن وصلنا حتى بدأنا بشارع «الشانزليزيه» حتى قوس النصر. كنت مبهورة وبالغة الحماس. أحببت أن أشاهد باريس كلها في عصر يوم واحد. وأيقنت أننا لن نجد الوقت الكافي. ذهبت لأرى الأماكن الساحرة التي مثلت أسماؤها جزءا من

---

(١) التابعون لكنيسة سان ـ لازار في فرنسا ـ (المترجمة).

طفولتي؛ «ليزانفاليد»، «سان جيرمان»، «السوربون»، «نوتردام»، «برج إيفل»... وفي المساء ـ أقمنا مع عدة عائلات ـ كنت سعيدة للغاية، لكن قدميَّ غطتهما القروح، وبعضها نزف.

والمترو! لم أشهد أبدا شيئا كهذا. بعد أن أخذنا نحملق في الخريطة، نزلنا ثم صعدنا تحت شمس أغسطس الساطعة، ولكن في منطقة مختلفة تماما من باريس. ورغم أننا قادة أشبال، أذكر أننا صرنا مثل الأطفال عندما شهدنا الماكينات، التي تمنحنا الحلوى أو العلكة مقابل بضع عملات معدنية. أُغْرمنا بوجه خاص بمصاصات «بيرو جورمان» التي ذكرتنا بأقماع السكر التي اعتدنا مصَّها ونحن صغار.

ثم ذهبنا إلى «جامبفيل» وتبادل الشباب من جميع أنحاء العالم معلومات عن بلدانهم بطريقة أو أخرى؛ غنى البعض أغنيات فولكلورية، وارتجل آخرون عروضا قصيرة. كان ذلك مؤثرا للغاية، حيث استطعنا أن نتدبر التواصل مع بعضنا على الرغم من حواجز اللغة. وكان «معسكر التعبير عن الذات»، كما أُطْلِق عليه في تلك الأيام، يهدف أيضا إلى تعليمنا أن نصبح قادة جماعات. تعلمت كيف أتحدث إلى الجماهير، وكيف أجتذب اهتمام الناس، وكيفية سرد القصص بالتحكم في التشويق. وبعد عشر سنوات، عرفت بقلبي وعقلي، عبر أطفالي، أهمية أن تكون قادرا على سرد القصص جيدا.

وبعد «جامبفيل» أخذونا إلى «رويان»، لنتعلم هذه المرة كيفية إدارة معسكر رياضي ذي أنشطة متنوعة مثل السباحة، وهبوط المنحدرات باستخدام أحبال مزدوجة. وأخيرا، وفي طريق العودة للوطن، توقفنا ليوم أو اثنين في «أثينا»، حيث زرنا بالطبع معبد «أكروبوليس». أتذكر أنني جلست مع صديقة على عرش «داريوس»[١] الرخامي. وهو عرش الملك الفارسي العظيم، في مسرح «ديونيسوس»؛ وأننا انتشينا بالفخر.

على العكس من معظم الأمهات الإيرانيات في تلك الأيام، رفضت والدتي

---

(١) داريوس (أو دارا أو داريوش كما تذكره بعض الكتب) من أشهر ملوك أسرة «الأخمينيين» التي أقامت إمبراطورية في فارس عام ٥٥٩ قبل الميلاد، حاول غزو أثينا وهزمه «الإسكندر الأكبر» عام ٣٣١ قبل الميلاد في معركة اعتبرت من أهم معارك العالم القديم، واستمر «الإسكندر» حتى استولى على الإمبراطورية الفارسية. (المترجمة).

سماع أي شيء عن زواج مرتب لي، ووافقتها بالطبع. وأعرف أن أفرادا معينين من العائلة كانوا يحاولون سرا دفعها في ذلك الاتجاه. فقد كنت أقترب من السن التي ـ وفقا لرؤيتهم ـ من المعتاد عندها البحث عن زوج مناسب. لكن والدتي، وأنا، رأينا أنني يجب أن أنتهي من دراستي قبل التفكير في الزواج. وكانت والدتي حاصلة على شهادة البكالوريا، وقارئة جيدة جدًّا. وفي موضوع الزواج، الذي ناقشناه كثيرا منذ ذلك الوقت، أذكر أنني أعلنت رغبتي في الاحتفاظ باسم «ديبا»، الذي ينتسب لوالدي. كنت متعلقة باسمه تعلُّقا شديدا، وأخشى أن يندثر، لأن عددا قليلا للغاية من أبناء أعمامي يحمل الاسم. وطرحت الأمر على أسرتي وصديقاتي قائلة: «**إذا واصلت الدراسة وأصبحت سيدة مرموقة، ربما يُسْمَح لي بالاحتفاظ بلقبي الأصلي. ألا تعتقدون ذلك؟!**».

وفي نهاية الأمر، كان عليَّ أكثر من أي واحدة أخرى أن أتخلى عن اسم عائلتي، لأنني تزوجت أهم رجل في إيران. لكن العكس هو ما حدث، في واحدة من المفارقات الصغيرة في ثنايا التاريخ؛ فمازلت أُدْعى في العديد من البلدان، خاصة في فرنسا، «فرح ديبا»، بينما اسمي في أعماقي، قانونيا، وتاريخيا: «فرح بهلوي».

وعلى أي حال، نظرا لأنني عقدت العزم على تلقي تعليم مرموق يستمر سنوات طويلة، فقد بدأت الصف العاشر بمدرسة «ليسيه رازي» في «طهران» للاستعداد لنيل شهادة البكالوريا. ولدي ذكريات رائعة عن سنواتي الثلاث في «رازي». كان الذهاب إليها رحلة طويلة بالحافلة كل صباح، لكنني أحببت عبور «طهران» من طرفها إلى طرفها الآخر. وفي ذلك الوقت كان يسير بالمدينة العديد من السيارات بالفعل ـ وتحدث الاختناقات المرورية الأولى هنا وهناك ـ فوجدت الوقت الكافي للتطلع في بعض المنازل القديمة التي أحببتها حقا، بحدائقها الفخمة والنباتات المعلقة على الجدران. ثم هناك أشجار «طهران» التي عشقتها؛ أشجار الدُّلب، والخروب، والماجنوليا. آه، وأيضا رائحة «صريمة الجدي»[1] في الصيف! وعند جميع نواصي الشوارع يجذب الباعة الجائلون بعربات الكارو الصغيرة التي تختلف ألوانها باختلاف فصول العام مجموعات صغيرة من المارة. ومن أهم الأشياء التي تدعوني

(١) شجيرات دائمة الخضرة أزهارها مليئة بالرحيق. (المترجمة).

للأسف أنني لم أنتبه عندما كنت ملكة لإنقاذ مبنى «ليسيه رازي» الرائع، مثلما فعلت مع مبان أخرى كثيرة. فبسبب وقوعه في الجزء الجنوبي من «طهران»، هُدِّم في إحدى عمليات تجديد المدن، التي تمت في الستينيات والسبعينيات.

وكنا نتلقى المواد الدراسية في «ليسيه رازي» بالفارسية والفرنسية، على أيدي مدرسين إيرانيين وفرنسيين. ومن ثم، استطعت مواصلة دراسة الأدب الفارسي. ورغم أن المدرسة كانت حكومية، كنا ندرس الدين أيضا. وعاملنا المدرسون بالفعل كما لو أننا طلاب كبار، فاحترموا استقلالنا الذاتي، وساعدونا بذكاء على بناء شخصياتنا. وبعد ذلك، التحق جميع طلاب فصلي بأفضل جامعات العالم. وقد أحببنا واحترمنا مدرسينا إلى حد كبير، رغم أننا ظللنا نقهقه كلما سمعنا واحدًا أو آخر منهم، لا يتمتع بإجادة الفرنسية مثلنا، وهو يخطئ في الحديث.

وكانت «ليسيه رازي» مدرسة مختلطة؛ وهي علامة على التفتح العقلي، حظيت بقبول والدتي. ولم أجد صعوبة في التكيف، لأننا في «جان دارك» نظمنا رحلات كثيرة مع فتيان «سان ـ لوي». فضلا عن أنني اعتدت البقاء مع فتيان من عمري بالعائلة والكشافة. وفي «ليسيه رازي» أحببت بوجه خاص وقت الغداء عندما أجلس مع صديقتين تحت ظلال أشجار الدُّلب القديمة. ونظرا لعدم وجود مقصف هنا أيضا، واصلنا إحضار غدائنا. وكانت فترة الغداء وقتا للمناقشات والكثير من المرح. كنا سعداء، تملؤنا الثقة في الحياة الممتدة أمامنا.

وفي تلك الأيام، لم يكن من المتصور أن يكون للفتاة صديق تخرج معه. فإذا تعلقتِ سرا بشخص، مثلما اعتادوا أن يعبروا عن هذه العلاقات، لن تجدي الجرأة لإخبار أحد، ولا حتى أفضل صديقاتك، ولن تخبري أيضا بالتأكيد الشخص المعني. وعشت حياة مفعمة بالضجيج، مثلي في ذلك مثل جميع طلاب المدارس الثانوية في نفس عمري. بدأنا تنظيم حفلاتنا الأولى في بيوتنا، حيث خطونا أولى خطواتنا في الرقص. كنت مجنونة بـ«ألفيس بريسلي»، مثلما كان جميع شباب «طهران». وأذكر أن الأمر ربما يصل إلى «التزويغ» من حصة لمشاهدة فيلم من بطولته. أُغْرمنا بالسينما، وأحببنا الذهاب إليها في مجموعات. وكنا ندخلها في فوضى، فلم يكن جيلنا قد تعلم بعد فضيلة الانتظار في الصف. وكان العديد من الأفلام يصلنا غير مُدبلج، ويدرج عادة بين المشاهد شاشات نصية تكمل الحبكة الدرامية لتعويض

هذا النقص. وأحببنا «جيمس دين»، و«جريجوري بيك»، و«إليزابيث تيلور»، و«مونتجومري كليف»، وكثيرين غيرهم. وبالنسبة للموسيقى تعلَّقنا بالطبع بموسيقى البوب الأمريكية، لكنني أحببت أيضا الموسيقى الإيرانية ـ الفولكلورية ـ كثيرا، بينما وجدت موسيقانا التقليدية حزينة للغاية. وأخيرا، استمتعت بالموسيقى الكلاسيكية ـ الأوبرا ـ وأذكر الإثارة التي شعرنا بها في إحدى المناسبات عندما عثرت أنا و«رضا» على تسجيل قديم لمغني التينور الإيطالي «إنريكو كاروزو» بين خليط من البضائع في متجر صغير. ثم، وعلى نحو مختلف للغاية، مسَّ «تينو روسي» و«جاكلين فرانسوا» و«عبد العالي وزيري» وكذلك «قمر ملوك وزيري» عصبا داخل أحاسيسي، لأنني ما أن أستمع إليهم، حتى أتذكر والدي مرة أخرى وهو يدير تسجيلاتهم في جهاز الجراموفون القديم.

وبين اهتمام والدتي بتنشئتي بطريقة حازمة، ورغبتها في أن تتيح لي التعرف بصورة أكبر على العالم، لم تكن سخيّة في التساهل معي. فقد سمحت لي بالبقاء خارج المنزل حتى منتصف الليل، لكنها كانت ترتب دائما مع والديّ إحدى صديقاتي لاصطحابي عند عودتي إلى المنزل. وإذا تأخرت، أجدها تقف في الشارع، قلقة مرتدية الروب. مسكينة والدتي، لو كانت فقط تعلم مدى حساسية ابنتها، لكانت ذهبت للنوم من دون انتظاري.

لكنها كانت قلقة دائما من أن أحيد عن الصراط المستقيم. فمع كل بادرة تحرر جديدة من جانبي تغرق في حالة من القلق. وأذكر إحدى الأمسيات وضعت صديقة لي أحمر شفاه في حفلة، وكنا في حالة جذلة، وبالطبع تناوبنا وضع أحمر الشفاه. وما كدت أنظر لنفسي في مرآة، حتى دخلت والدتي فجأة إلى الحجرة لتُذَكِّرني بالموعد الذي ينبغي أن أعود فيه إلى المنزل، رأيت ملامح الهلع المفاجئ على وجهها. يا إله السموات! كيف سمحت لنفسي أن أفعل شيئا مبتذلا كهذا؟! ألا أعرف أن المتزوجات فحسب هن من يستطعن وضع أحمر الشفاه؟!

ولم يشارك خالي أبدا في أي من هذه المشاهد؛ فلا أذكره أبدا يوبخني على أي شيء على الإطلاق. ومن ناحية أخرى، شغلت مسألة تحديد الدراسات التي ينبغي مواصلتها بعد البكالوريا ذهنه، مثلما شغلت ذهن والدتي. وكنت قد فكرت لفترة في عمل بحث في العلم الطبيعي، وتحدثنا عن ذلك، ثم تخليت عن الفكرة بنفسي،

عندما أدركت أنني لن أستطيع تحمل تمضية حياتي أحملق داخل ميكروسكوب في معمل، حيث كنت أحب الخروج كثيرا. وفي ذلك الوقت ظهر حبي للعمارة على السطح. وكانت العمارة بالنسبة لي مهنة ساحرة تدمج بين الداخل والخارج، فتجمع التأمل المنفرد مع الإشراف على العمال، والاقتراب من أسلوب معيشة الناس عبر الفن والإبداع. كنت أريد أن أعمل خارج المكاتب، في مواقع العمل. ومنذ طفولتي الأولى وأنا أرى خالي يعمل في مهنته. أحيانا يكون منحنيا على لوحة الرسم، وفي أحيان أخرى يقوم بالإشراف في موقع للعمل، ويعود للبيت متجمدا من البرد أو ملَوَّحا من الشمس، لكنه سعيد ومفتون بما كان يفعله.

وبالإضافة إلى ذلك، على الرغم من نمو طهران السريع، لم يكن فيها سوى مهندسة معمارية واحدة[1] من أجل أعمال البناء غير المحدودة المطلوب تنفيذها. فأي قطاع آخر يمكن أن يمنحني مثل هذه الفرص العديدة للتعبير عن نفسي، بينما يساعدني على الإسهام في نمو بلدي؟!

---

(١) «نكتار بابازيان أندريف».

الفصل الرابع

هل كنت أستحق الحصول على منحة دراسية لتمويل دراستي للعمارة في باريس؟ اعتقدت ذلك، وتمنيت أن أحصل على منحة. وكنت قد تصدرت الخريجين في صفي، وتم قبولي في «الكلية الخاصة للعمارة» في «بولفار راسباي»، التي اشتهرت بأنها مدرسة انتقائية وصعبة المطالب. وكان سباق الحواجز الذي يتعين أن أخوضه للحصول على المنحة ـ ولم أحصل عليها أبدا ـ أول اتصال لي بالبيروقراطية. ففي وزارة التعليم، ظللت تائهة أربعة أيام، ولم يستطع أحد أن يشرح لي الإجراءات التي ينبغي أن أتبعها، ولا حتى الوزير نفسه، الذي تعرفه عائلتي، ونلت حظ مقابلته. أخبرني البعض أن عليَّ أن أجتاز امتحان لغة إضافيًّا، لكنهم لم يخبروني من المسئول عن ذلك، أو كيف أتقدم للامتحان. ومرت أسابيع، وانتهى فصل الصيف، وبطريقة ما ضاع طلب المنحة الخاص بي بين عدة إدارات تابعة لنظام التعليم الحكومي. وبدأت الدراسة بالفعل في باريس، ولكن خلال ذلك الوقت ظلوا يرسلونني من أحد أطراف «طهران» للطرف الآخر. كنت غاضبة حتى أنني غادرت في النهاية إلى فرنسا، قائلة لنفسي إنني لن أضع قدمي في هذا البلد مرة أخرى. كان ذلك غضبا صبيانيا، تلاشى خلال أسبوع.

كانت خالتي «لويز قطبي»، والدة «رضا»، في باريس بالفعل. وقد ذكرت من قبل كيف كنا، أنا وهي، نكن لبعضنا البعض حبا كبيرا. فأمضينا الأيام الأولى من خريف ١٩٥٧ في فندق، ثم حصلت على حجرة بالمدينة الجامعية قرب «حديقة مون ـ سوري». كانت الحجرة بالكلية الهولندية، المعروفة بأنها الأكثر حزما. وكانت الزيارات محظورة بوجه خاص للطلاب والطالبات. وعندما اقتنعت خالتي أنني في أيد أمينة، عادت إلى «طهران».

وما أن وصلت إلى كلية العمارة حتى وجدت سببا يجعلني أشكر في سرِّي البيروقراطية الإيرانية؛ فعندما أضاعت عليَّ الأسبوعين الأولين من المحاضرات، وفَّرَت علي، دون قصد، أسوأ فترات المضايقة التقليدية. حيث صُدِم بعض الطلاب من عنف وغرابة هذا التقليد، حتى أنهم تركوا الدراسة وعادوا إلى أوطانهم. ولم تكن المضايقة بهذا القدر من الخشونة بالنسبة للفتيات. فهي تتمثَّل أساسا في إجبارنا ـ نحن المستجدين ـ على التصرف كخدم عند الطلاب الأقدم منا. في أي وقت من أوقات اليوم يمكن أن يصدر إلينا أحدهم أمرا وعلينا الطاعة فورا. فكان من المعتاد أن تذهب لجميع حجرات الدراسة لتسأل عن شيء خيالي، مثل بوصلة يدوية مثلا. ولم يكن لدينا ـ نحن المستجدين ـ أي فكرة عن أنها غير موجودة، لذلك كنا نثير الصخب الشديد أينما ذهبنا، من دون أن نعرف السبب. وعندما نسأل عن الشيء، يقال لنا بجدية دائما: إنه في الحجرة التالية أو الطابق الأعلى. فإذا رفضنا المشاركة في هذه المهازل، نعامل فورا معاملة «المغفل». بمعنى أن عليك أن تغطي صدرك بمريلة، وتقف في مواجهة الحائط فاغرًا فاك. وهنا، يقذفك أحد السعداء القائمين بالتعذيب بكوب ماء في وجهك. ثم عليك أن تقول: «شكرًا، أيها النبلاء المبجلون، الأعلى مقاما»، بشرط أن تنطق جميع الكلمات بوضوح ودقة. فيما يتعرض الفتى، أو الفتاة، الذي لا يقولها بطريقة صحيحة إلى موقف «المغفل» مرة أخرى. ومن الواضح أن أسوأ ما تفعله هو أن تظهر غضبك، أو تبكي، لأنك ستعاني حينئذ إهانة لا تنتهي، وهو ما يجعل منك كبش الفداء الذي يبحثون عنه. ونظرا لكوني سلسة الطبع، ومعتادة على الألعاب الجماعية، خرجت من تلك التجربة بسلام.

كان هناك الكثيرون منا ممن جاءوا من بلاد بعيدة، وذات يوم قرر الطلاب الأقدم أن يجعلونا نتحدث بلغاتنا الأصلية. ومن الواضح أنهم أرادوا خلق نوع من التنافر المشوش السخيف، الذي من شأنه أن يكون مسليا بلا شك. ومرة أخرى، استمتع «المبجلون الأعلى مقاما» بالضحك على حسابنا. والذي لم أعرفه في ذلك الوقت أنهم كانوا يسجلون ما قلناه. وكان يمكن لذلك أن يسبب لي الكثير من الحرج على الصعيد الدبلوماسي والبروتوكولي، حيث بعد يوم من إعلان خطبتي للملك، أرسل أحدهم هذا الشريط إلى محطة إذاعة في باريس، أذاعته فورا. ومن حسن الحظ أنني لم أكن قلت أي كلمات غير مهذبة، وهو ما قد يكون مغريا عندما يتحدث المرء وهو واثق من عدم وجود من يفهم لغته في الحجرة.

كانت العقلية مختلفة تماما عما عرفته في «جان دارك» أو «ليسيه رازي». لأننا تعلمنا لسنوات التضامن، وروح الفريق، ولكن الآن علينا أن نتسبب في إحراج الطرف الآخر لننجح. كانت الفردية والنخبوية، هما القيمتين الرئيسيتين لدى الطلاب في عامي الدراسي، واعترفت لنفسي، لأنني ليس لدي ما أحبه أكثر من الانسجام والوئام، فكان الجو المحيط صعب عليّ في تحمله. وكان السبب في ذلك هو نظام الدراسة؛ فلا ينتقل إلى السنة التالية إلا أفضل الطلاب. واتخذت الكلية صورة المسابقة، ما يعني أننا جميعا متأهبون للاستمتاع بمصائب جيراننا. فعندما يأتي أحدهم طالبا مني مساعدة في الحساب، على سبيل المثال، أقدمها له، ولا أتخيل أن أفعل غير ذلك، لكنني وجدت أن ذلك لا يحدث هنا، وأن الناس يتملصون من تقديم المساعدة. والأسوأ كان في الاستوديو، عندما يؤدي جميع الطلاب الستين في السنة الدراسية، اختبار الرسم على الطاولة. فإذا سكب أحدنا دواة من الحبر على طاولة الرسم، أو مزق دون قصد الورقة، كنا نسمعه يصيح: «**تبًا!**»، فيرد الآخرون فورا: «**رائع! تخلصنا من واحد!**».

كان مستواي جيدا في الرسم، بيد أنني لم أكن أعرف التقنية التي تُدَرَّس في هذه الكليات الخاصة، وهو ما مثل صعوبة شديدة. لأن الرسم كان مادة مهمة. ولذلك عملت جاهدة على تعلم ذلك، بينما يقلل الآخرون، بمن فيهم أستاذي، من شأني. فكثيرا ما قال لي: «**أنتم ـ أيها الشرقيون ـ لا تعرفون شيئا عن المنظور**». وأذكر كم كنت فخورة عندما استطعت، بفضل المثابرة التامة، رسم رأس حصان، حصلت بسببه على ١٧ درجة من عشرين، وعُرِضت اللوحة في الكلية!

وفي البداية كنت محبطة للغاية بسبب هذا المناخ، ويرجع كل ذلك إلى أننا كنا خمس أو ست فتيات في الاستوديو، بينما بقية المحيط من أصحاب المناكب العريضة. وكان معظم الفتيان يسخرون منا، ويقللون من شأننا. «**ما من فتاة تصبح مهندسة معمارية تستحق اللقب**». أو «**أنتن يا فتيات، ما جئتن إلى هنا إلا للحصول على زوج**». وذات يوم، التفت إليَّ أحدهم أمام الآخرين، وقال: «**وكم جملا تساوين في بلدك؟**» كان فرنسيا، وشعرت بالجرح لدرجة أنني لم أنسه. وعندما كتب لي ذات مرة لاحقا يطلب مساعدتي، لم أرد عليه. ولم يحدث أبدا أن تجاهلت الرد على سواه؛ فقد تراسلت مع الكثيرين غيره، حتى مع «المبجلين الأعلى مقاما» الذين ألقوا الماء في وجهي. ولكن ليس معه.

وفي تلك الشهور الأولى، امتلأ قلبي بالحنين إلى أسرتي، خاصة عندما علمت أنني، لأسباب مالية، لن أراهم لمدة أربع سنوات. أربع سنوات! كان ذلك يعني الأبدية بالنسبة لي! الاستيقاظ والظلام لم يزل مخيما، والنزول إلى المترو، حيث يقف العمال المنهكون، بمظهرهم البائس، وظهورهم المحنية، يدخنون، ثم الوصول إلى المدرسة لأتحمل الإهانات المستمرة ـ كان ذلك كثيرا بالنسبة لفتاة، ظلت حتى ذلك الحين محبوبة للغاية، بل مدللة.

لكنني أخفيت حنيني عن الأخت «كلير»، في هذا الخطاب المؤرخ في أكتوبر ١٩٥٧، الذي يعطي صورة دقيقة ـ إلى حد ما ـ عن حياتي في ذلك الوقت:

عزيزتي الأخت «كلير»:

«لدي حجرتي الخاصة، المريحة للغاية في الجناح الهولندي، تطل على الطريق. أقمنا حفلة صغيرة هنا لمساعدة الطلاب على التعرف إلى بعضهم البعض. وكان ذلك من حظي، فلولا ذلك ما تحدثت أبدا إلى أي شخص! أغادر حجرتي في الصباح وأعود إليها مساء للعمل. تجلس الأخريات في الردهة للقراءة بعض الوقت، لكنني لا أجد الوقت لذلك. في الكلية نتدرب على الكرة الطائرة وكرة السلة في ملاعب مختلفة. لم أخبرهم أنني كنت عضوا في المنتخب الإيراني. الحديقة في المدينة الجامعية تكون رائعة عندما تشرق الشمس! وهناك عادة مسلية في المطعم؛ إذا حضرت واحدة ترتدي قبعة أو حتى إيشاربا، يدق الجميع على أطباقهم حتى تخلعه. أشعر أحيانا برغبة قوية للغاية في رؤية أسرتي وأصدقائي مرة أخرى. لكن الشجن يتلاشى مع ابتسامة ودود من إحدى فتيات الحجرات المجاورة».

كنت قد يئست من المنحة، لكن جميع احتياجاتي الأساسية كانت مكفولة. مع بداية كل شهر، ترسل لي والدتي النقود لنفقاتي، وكان لديَّ ما يكفي لأعزم صديقاتي على وجبات المطعم أو تذاكر المترو. والرفاهية الوحيدة الحقيقية هي شراء جهاز أسطوانات. ومع بداية الشهر باقة من الزهور أعتني بها لتعيش فترة طويلة.

غير أن الشعور العام تحسن في المدرسة. بعض الفتيان أصبحوا ودودين، وأيضا

أكثر جاذبية. أستطيع أن أقول إنهم لم يصدقوني عندما أخبرتهم عن عدم وجود صديق لي. لم يتفهموا أن هذا العرف غريب عن ثقافتنا. وحتى يتركوني في سلام، بدأت أخبر من في الكلية أن لي خطيبا في المدينة الجامعية، وفي المدينة أخبرهم أنني مخطوبة لشخص بالكلية. فإذا لم يقنعهم ذلك أو اكتشفوا الحقيقة، أختلق خطيبا في طهران. فأطلقوا على ذلك الخطيب المستبعد «محمود»، وذات يوم ألصقوا على مكتبي رسما لرجل ذي شارب مهيب، وعمامة، وهي في اعتقادي صورة الرجل الإيراني كما تخيلوها. وكتبوا تحت الرسم: «**محمود» خطيب «فرح**».

ولم يمر وقت طويل حتى أتاحت لهم الأحداث شيئا يغذي أحلامهم الجامحة. ففي ربيع ١٩٥٨ علمنا أن الشاه يُطَلِّق من الإمبراطورة «ثريا». في ذلك المساء كتبت في مذكراتي الشخصية: «**الشاه و«ثريا» انفصلا، يا للأسف!**»، وخلال الشهور التالية أعلنت الصحافة أن الشاه، الذي لم يرغب في شيء قدر رغبته في إنجاب ابن يخلفه، يبحث عن فتاة ليتزوجها.

وأصبحت المزحة المفضلة لزملائي في المدرسة: «**ولماذا لا يتزوجك الشاه؟! إنك جميلة**». أذكر أننا كنا أحيانا بعد انتهاء العمل، نمضي بعض الوقت في الاستوديو نضحك من هذه المزحة؛ فأقول: «**ولماذا لا تكتبون له، وتحاولون إقناعه أنه توجد هنا فتاة مناسبة له جدًّا؟!**» فيقولون: «**لا. ولكن لنفترض فقط إذا عدت لطهران وأصبحت ملكة، ما الذي ستفعلينه؟ ما هو أول شيء تقومين به؟**» أرد: «**أول قرار؟ سأدعوكم جميعا إلى طهران لتشاهدوا بلدي**». وفي تلك السنة كانت لي صديقة أفغانية تدعى «ميرمون»، ظلت أيضا تقول: «**لكنك رائعة. لابد للشاه من أن يتزوجك**». إنني أحتفظ ببطاقة بريدية أعطتها لي عندما كنا نمضي إجازة في إسبانيا. كتبت عليها كما تفعل الفتيات الصغيرات في المدرسة: «**فرح ديبا = فرح بهلوي**». وبهذا كانت أول من ربط اسمي الأول بلقب عائلة الملك.

غير أن السنة انتهت أقل إشراقا مما توقعت. فرغم جميع جهودي ـ خاصة في الرسم ـ علمت أنه تم قبولي... لإعادة السنة الدراسية. كان العديد منا في نفس الموقف، ومعظم الطلاب الأقدم مروا بنفس المحنة. وفي ذلك الصيف، ذهبت لاستكشاف بريطانيا مع بعض الصديقات الأجنبيات مثلي، حتى أتجنب الاستسلام لمشاعر الإحباط والحنين للوطن. وأكثر ما أدهشني ارتفاع سطح البحر قرب جبل

«سان مايكل». ذهبنا أيضا إلى جزيرة «إيل دو باتز»، التي سيسمى أحد شواطئها لاحقا باسمي.

وكان عامي الثاني في فرنسا أكثر بهجة. عرفت «باريس» جيدا، وصار لديَّ عدة أصدقاء طيبين، سواء فتيان أو فتيات. نذهب للسينما معا، ونذهب إلى بيوت الفن؛ نظرا لأنه مستهجن أن نشاهد أفلاما عاطفية. وأذكر بوجه خاص انطباع الرعب الذي تركه في نفسي فيلم «الخاتم السابع» لـ«إنجمار بيرجمان». ذهبنا أيضا إلى الأوبرا وحفلات الموسيقى، التي كان لدي بطاقة امتياز «موسيقى الشباب» لحضورها. وكنت أفضل «تشارلز أزنافور»، و«جامشيد شايباني»، و«حميد قنبري»، و«جاك بريل»، و«بول أنكا».

وتركزت معظم أنشطتي في الحي اللاتيني، والمدينة الجامعية. وفضلنا دور سينما ومقاهي شارع «سان ـ جرمان». وفي المدينة الجامعية كنا نقيم أحيانا حفلات عشاء ينظمها أصدقاء. وكان المهرجان السنوي حدثًا مهمًا بالفعل؛ حيث تقيم كل دولة ممثلة جناحها الخاص. ورسمنا ـ نحن الإيرانيين ـ لوحتين كبيرتين طبق الأصل تمثلان «أسود بيرسبوليس»[1]، وأعددنا بعض الأطباق التقليدية، وارتديت ثوبا من «جيلان».

ومن حين لآخر كان يأتي أفراد من الأسرة، ونخرج لتناول العشاء في مطعم. وأذكر أن أحد أعمامي، «منوشهر»، اصطحبني إلى فيلم «مولان روج»، غير أنه لم يعجبني. وكان ذوقي بالتأكيد بسيطا؛ ففي ذلك الوقت كنا ـ نحن الطلاب ـ منبهرين بالكافيتريات التي تعمل بنظام الخدمة الذاتية، والآخذة في الانتشار حينذاك. وفي بعض الأمسيات، أُدْعى لتناول العشاء في منزل صديقين من الطلاب، متزوجين بالفعل، ولديهم شقتهم الخاصة.

وهكذا، أصبحت الآن الأكبر سنا في الكلية، وهو ما أعفاني من المضايقة. والأهم من ذلك، أنه كان متوقعا أن أكون أحد القائمين بالتعذيب. لكنني لم أكن

---

(١) لوحة من النحت البارز تمثل ثلاثة أسود تزأر، كانت ضمن ذخائر مدينة «بيرسبوليس» عاصمة الإمبراطورية الفارسية القديمة، وأحرقها «الإسكندر الأكبر» واستولى على كنوزها عندما استولى على بلاد فارس. وترجع التسمية «بيرسبوليس» إلى الإغريق وهي ترجمة للاسم الفارسي القديم بمعنى «بلد الفرس». (المترجمة).

لأستطيع القيام بذلك، لكوني حساسة للغاية، ولدي الكثير من النوازع التي تمنعني من أن أعامل الآخرين على نحو لا أحب أن يعاملني أحد به. والمضايقة الوحيدة التي سمحت لنفسي القيام بها، هي أن يحمل أحدهم لوحة الرسم الخاصة بي إلى محطة المترو (كانت ثقيلة جدًّا فعلا)، أو يكتب اسمي على مقعد لن يسمح لأحد غيري بعد ذلك بالجلوس عليه، ويضع قفلا على درجي.

وفي ذلك العام أمضيت «الكريسماس» في «ميونيخ»، بدعوة من صديقة إيرانية تعيش هناك. ومازلت أحمل ذكريات سعيدة لتلك المدينة؛ متاحفها وصالات الفن بها، وطوافنا الطويل عبر الشوارع الزاخرة بالتاريخ، مع التوقف من حين لآخر لاحتساء فنجان من الشوكولاتة الساخنة أو الشاي. وأثناء واحدة من تلك النزهات سألنا بعض من سمعونا نتحدث لغة غريبة عن موطننا: «من إيران!» بدا أن المعلومة أدهشتهم، لأن إجابتهم الوحيدة أنهم أوضحوا لنا بالإيماءات أنهم كانوا يتوقعون أن الإيرانيين جميعا من أكلة لحوم البشر! وبفضل منظمات الطلبة استطعنا أيضا زيارة المعرض الدولي في «بروكسل»، والتعرف إلى العاصمة البلجيكية في نفس الوقت.

وفي ذلك الشتاء، حدث أنني أحسست مرة أخرى شعور عدم الارتياح الذي يسببه لي الشيوعيون؛ حيث حاولت صديقة[١] إيرانية إقناعي بالذهاب للاحتجاج ضد الحرب في الجزائر. حدث ذلك فيما بين ١٩٥٨ و١٩٥٩. وادعت أن علينا أن نظهر تضامننا مع الجزائريين الذين يحاربون الإمبريالية الفرنسية. استطعت أن أتفهم شعورها بالثورة ضد الاستعمار، لكن الأمر بدا لي في غير محله، أو غير لائق بالنسبة لنا أن ننخرط في معركة ضد فرنسا بينما أكرمت تلك البلد وفادتنا. كنت هناك للدراسة، وليس للانخراط في السياسة بالتأكيد. أما هي، فنحَّت جانبا اعتراضاتي تحت مسمى «الثورة العالمية» لاسترداد قيمة الإنسان في كل مكان، لكنني كنت شهدت شخصيا أساليبها الخاطفة والحقيرة في «أذربيجان» و«جيلان».

وعلى مقهى في باريس قدمتني إلى شقيقتها وبعض أصدقائها، وجميعهم مناضلون

(١) وسوف تذهب هذه الصديقة، وهي أكاديمية، إلى السجن في عهد الملك، باعتبارها عضوا في الحزب الشيوعي، ومن أنصار الكفاح المسلح. وقد رفضت أن تدعني أتدخل لتحريرها، وهو ما أضفى عليها مصداقية. وبعد سنوات عديدة كتبت إلي تعزيني بعد وفاة صغيرتي «ليلى». واتصلت بها وتحدثنا سويا بعد سنوات كثيرة من القطيعة. كل منا مرت بمأساة في حياتها، لكنني أعرف أننا سنلتقي يوما ما ثانية.

شيوعيون. والذكرى التي أحملها لذلك اللقاء قاتمة ومحبطة. فالعالم كان كئيبا بالنسبة لهؤلاء الفتيات والفتيان. كانوا صغارًا في السن، لكنهم بدوا كما لو أنهم يقفون ضد العالم كله، في غضب ومرارة بالغين. حتى أنك ترى أنه ـ من وجهة نظرهم ـ لاشيء يستحق الحياة على هذا الكوكب، سوى الاتحاد السوفييتي.

ولما رفضت الانضمام إليهم في مظاهرة ضد الحرب على الجزائر، سخروا مني، قائلين إنني لم أمتلك الشجاعة للقيام بذلك. فهل كان ينبغي أن أذهب لأثبت لهم العكس؟! ربما. لا أذكر من ذلك اليوم سوى دهشتي عندما لاحظت أن معظم الفتيان يخفون عِصيًّا وقضبانا حديدية تحت ستراتهم الجلدية. قلت لنفسي: «**إذا انتهى الأمر للأسوأ وألقوا بنا في السجن، ماذا سأقول لوالدتي وللسفارة؟!**».

وفي مناسبة أخرى عرَّفَني أولئك الفتية على رجل جاء من ألمانيا الشرقية. أصف هذه الذكرى هنا لأنني وجدت نفسي بعد سنوات مرة أخرى أمامه بالصدفة في ظروف غريبة. فبينما كنا نشاهد، الملك وأنا، مسرحية في «جيلان»، جاء أحد رجال الأمن لينبهنا أن رصاصة سوف تطلق على المسرح، وطلب منا ألا ننزعج. فمَنْ ذا الذي رأيته يندفع فوق المسرح ملوحا بمسدسه المقلَّد؟ إنه الرجل من ألمانيا الشرقية. مِلْت على أذن زوجي لأحكي له هامسة ملخص الأمر. ولم يحدث شيء، وغادر الرجل إلى حيث لا أعلم، آخذا معه ماضيه السري الشيوعي.

وفي ربيع ذلك العام، ١٩٥٩، نلت أول فرصة لرؤية الملك. كان «الشاه» قادما في زيارة رسمية لمحادثات مع الجنرال «ديجول»، وكما يحدث عادة في مثل هذه المناسبات، أرادت السفارة الإيرانية تقديم بعض ممثلي جاليتنا في فرنسا. وكنت من الذين تم اختيارهم.

وعندما أعاود قراءة الرسالة التي كتبتها لوالدتي عن أمسية ذلك اللقاء، أدرك كم كنت مبهورة وفخورة:

«ارتديت طاقما من التويد الأسود في الأبيض، ووضعت زهرة كاميليا على حافة السترة. وذهبنا إلى السفارة. يا لها من سيارة بديعة! وكم كان هو رائعا! شعره أبيض تقريبا وعيناه حزينتان. سعدت للغاية برؤيته للمرة الأولى عن قرب! غير أن الطلاب اندفعوا للأمام كالعادة، وبدلا من مسافة البوصات الثلاث التي كانت تفصلني عنه، صارت رؤيته صعبة عليَّ. ثم جاء الملحق الثقافي، السيد «تفازولي»، وأخذ بيدي

قائلا: «تقدمي للأمام، اقتربي». لكنك تعرفينني... لم أتحرك. وقفت بالخلف حيث كنت. لم أرغب أن يراني الناس أدفع نفسي للأمام.

بعد قليل صافحته، وقلت: «فرح ديبا، مهندسة معمارية»، فرد: «منذ متى وأنت هنا؟» قلت: «عامين». وأضاف «تفازولي» فورا: «الآنسة طالبة جيدة جدًّا. إنها الأولى على صفها وتتحدث الفرنسية بطريقة جيدة جدًّا». كان لطيفا منه أن يقول أشياء لطيفة كثيرة عني. ثم مصافحة بعدها بالطبع وانحناءة، ودق قلبي بعنف، كما تستطيعين أن تتخيلي...

وبالطبع سرعان ما عمل أصدقائي على إغاظتي: «فرح، أمضيتِ النهار عند مصفف الشعر، وعندما ظهر الشاه لم تجرئي على الاقتراب منه». وادعت ابنة عم كانت حاضرة أن الملك أعجب بي: «عندما تركتِ الحجرة، ظل يتابعك». وبالطبع كان ذلك كله مجرد كلام. وفيما بعد سمعت «تفازولي» يشكو: «في الحقيقة، كان بعض الفتيات وقحات للغاية، لاندفاعهن نحو الملك بذلك الشكل. اضطررت للتدخل ودفعهن للوقوف في الخلف»، وأحمد الله أنني لم أكن ضمنهن. بالمناسبة تحدثت إلى «تفازولي» مرة أخرى بشأن المنحة الدراسية، ووعد أن يحاول مساعدتي».

وانتهت السنة الدراسية نهاية سعيدة. قبلت للصف الثاني. فبينما أنا عائدة لتوي من جولة في شارع «سان ـ جيرمان»، وعند عبوري جسر «بون ـ نيف» أبلغتني زميلة لي النبأ السعيد، وعلمت أيضا أنني سأمضي الصيف في «طهران». منحتني والدتي تذكرة الطائرة كهدية. ولم يكن هناك ما يمكن أن يسعدني أكثر من ذلك.

أمضيت تلك الأيام الأخيرة في باريس، في التسوق مع صديقتي الإيرانية التي كانت عائدة أيضا إلى «طهران» في الإجازة. لم أشعر أبدا بمثل هذا القدر من الإثارة. أردت أن آخذ معي هدايا صغيرة للجميع، وأن أجعلهم يرونني كباريسية حقيقية. فاشتريت بلوزة حريرية زهرية اللون بظلال من لون العاج والأخضر الباهت، وجونلة ضيقة مستقيمة بنفس اللون العاجي، وحذاء أرجواني اللون ذا كعبين عاليين، وحقيبة ملائمة، وأخيرا معطفا خفيفا من الجلد باللون الأخضر الزيتوني. لم أكن لأتوقع أبدا أنني سأعود لباريس بعد أربعة شهور، وأقيم في فندق «كريون»، للتسوق مرة أخرى، ولكن هذه المرة من أجل جهاز عرسي كملكة المستقبل.

الفصل الخامس

كانت ذكرياتي عن مطار طهران أنه نوع بدائي للغاية من المباني. فإذا اصطحبت مسافرين، تخرج منه ثم تسير حتى جدار منخفض على مسافة عدة أقدام فحسب من الطائرة. كان المكان بأكمله صغيرا يذكر ببداية حركة الطيران. والآن، وفي غضون عامين فحسب، احتل مدرج الطائرات الريف المحيط، مع برج مراقبة حقيقي يطل عليه، وينتهي المدرج إلى محطة وصول بها مكاتب تذاكر حديثة. وبدا أن شركات الطيران الأمريكية، الموجودة بكثرة، اكتشفت إيران.

وهكذا، بعد ست سنوات من الأزمة التي سببها تأميم البترول، بدا أن اقتصادنا يزدهر مرة أخرى. «طهران» نفسها لم يكن من السهل التعرف عليها، صارت متربة أكثر من قبل بسبب زيادة مواقع البناء، وازدحمت بالسيارات (ما الذي حدث للعربات التي تجرها الخيل التي عرفتها في طفولتي؟!) وازدحمت طرق سير المارة بالمتاجر الصغيرة. وعرفت أننا لم نعد نعيش في الشقة التي انتقلنا إليها بعد وفاة والدي، وكنت تواقة لرؤية بيتنا الجديد، الذي بناه خالي «قطبي»، فبعد سنوات من العمل الشاق، بدأ هو الآخر يجني ثمار التوسع الاقتصادي، وصار قادرا على أن يضمن لنا سكنا مريحا حقا. كانت الفيلا ذات حمام السباحة، تنتصب فوق مرتفعات «طهران»، وقريبة للغاية من «شميران» حيث كنت أقضي عطلاتي قبل خمسة عشر عاما في الريف. فيا لفرحة أن أنضم لوالدتي، وجميع أقاربي وأصدقائي في هذا المكان، ساحة أسعد أوقاتنا معا كأسرة.

وصلت إلى «طهران»، ورأسي زاخر بأغنيات «راي تشارلز»، و«سيدني بيكيت»، و«جوليت جريكو»، و«تشارلز أزنافور» الذي أحببته أكثر من الجميع. وتصورت

بسذاجة أنني متابعة لأحدث أنواع الموسيقى، ولكن سرعان ما عرفت، في الحفلات الأولى التي حضرتها، أن أهل «طهران» الآن يستمعون إلى نفس الموسيقى التي يستمع إليها أهل باريس. وهذا صحيح لأن معظمنا تقريبا ـ أبناء الأقارب، وتلاميذ «جان دارك» و«ليسيه رازي» السابقين ـ قادمون في نفس الوقت من جامعات في الغرب.

ومثلما هو حال الأبناء الميسورين في بلد نامٍ، كنا إيرانيين حتى النخاع، لكننا منفتحون على الثقافات الأخرى، بعيدون عن الطائفية، ومستعدون للاستماع والإعجاب بأي شيء، بشرط يحملنا بعيدا. ورقصنا كثيرا ذلك الصيف في بيوت بعضنا البعض، واستمعنا إلى الكثير من موسيقى الروك، وذهبنا إلى دور سينما مختلفة، حيث افتتح المزيد منها خلال غيابي.

واخترت لمشروع السنة الثانية العملي أن أشتغل على عمارة «مسجد الشاه» في «أصفهان»، بواجهته المغطاة بالفسيفساء المتألق الجميل. ولرغبتي في استنساخ جزء من الواجهة، جعلت إقامتي في متحف «طهران» للآثار حتى أستطيع أن أرسم وأستعين بجميع الوثائق المتاحة عن المسجد. وعندما أعود للبيت في المساء، أتناول العشاء مع مجموعة أبناء الأقارب والأصدقاء، على نجيل «شميران» أو في حفلة في أحد الأماكن بـ«طهران». ولم أشعر بالتحقق بهذا القدر أبدا في حياتي؛ كنت سعيدة في دراستي، وأعيش في انسجام مع أسرتي ومع جيلي، وتصالحت مع طهران، رغم أنني حلفت قبل عامين ألا أضع قدمي فيها ثانية.

وذات يوم دعا «صهراب» ابن عم الملك وصديق «رضا» ابن خالي، مجموعتنا الصغيرة من الطلاب لقضاء اليوم خارج «طهران»، في «شاه دشت»، وهي أملاك ساحرة تخص الملكة الأم «تاج الملوك». وأذكر دهشتنا عندما وجدنا أنفسنا داخل الجدران التي تضم الأسرة الملكية. كنا مبهورين وخاشعين. وفي كل حجرة يُهَمْهِم أحدنا بنفس الطريقة: «**تخيلوا فقط. ربما يجلس الملك على هذا الكرسي... ربما ينام الملك على هذا الفراش...**». كاد الموقف يخطف أنفاسنا.

كنت نشأت على توقير الملك منذ طفولتي. وأشعر أن رسالته منحته هالة تضعه فوق البشر العاديين. وكان عمي «إصفنديار ديبا» حاجب الملك، وبهذه الصفة يتلقى كل عيد «نوروز» قطعة نقدية ذهبية صغيرة تسمى «بهلوي»، لأنها تحمل صورة

الملك. وأعطاني عمي واحدة، وأذكر أنني كنت أعتقد أن لها قوة روحية. كنا بوجه عام نعتبر كل ما يأتي من الملك مقدسًا، وفي تلك الأيام كان الناس يعتبرون أن رؤيته في الحلم تعني فألا طيبا.

بقي عليَّ أن أحل مشكلة منحتي الدراسية، فرغم أن خالي «قطبي» أصبح لديه الآن دخل أفضل، وتستطيع والدتي أن تعطيني ما يفي باحتياجاتي، إلا أن تمويل دراساتي في باريس لمدة أربع أو خمس سنوات أخرى سيكون بلا شك عبئا على أسرتي. واعتبرت أن لي الحق في هذه المساعدة.

واكتشفنا أن الشخص المسئول الآن عن الطلاب الإيرانيين في الخارج ليس سوى صهر الملك. وبدا ذلك بشارة طيبة بالنسبة لي! فصهر الملك لا يمكن أن يكون واحدا من أولئك البيروقراطيين المستهترين الذين أربكوا حياتي لعامين سابقين. أصبحت أكثر تيقنا لأنه «أردشير زاهدي»، ابن الجنرال «فضل الله زاهدي» الذي عينه الملك رئيسا للوزراء عام ١٩٥٣ ليخلف «محمد مصدق». وكان «أردشير زاهدي» متزوجا من الأميرة «شاهناز»، ابنة الملك الوحيدة من زواجه الأول. ففي ١٩٣٩ تزوج الملك وهو في العشرين الأميرة فوزية المصرية، شقيقة الملك فاروق.

وكان عمي «إصفنديار ديبا» يعرف السيد «زاهدي»، ومن ثم كان هو من أخذ زمام المبادرة لترتيب مقابلة لنا. واستقبلنا «أردشير زاهدي» في مبنى قديم ساحر بـ«طهران»، له حديقة حافلة بالأشجار والشجيرات. كان شابا لطيفا للغاية. لم أكن لأتخيل بالطبع أنه سيكون معنا بعد عشرين عاما، عندما نضطر لمعاناة النفي.

سألني عن دراساتي، وخططي، وحياتي في باريس، واهتماماتي، والغريب أنه قال لعمي في نهاية المقابلة إنه يحب أن يقدمني لزوجته الشابة الأميرة «شاهناز». ووفقا لذلك تلقيت دعوة بعد أيام قلائل لتناول الشاي مع الأميرة. كانت الفيلّا ترتفع قليلا عن «شميران» عند طريق «هيساراك»، في موقع رائع عند سفح جبال «ألبورز»، يطل على مشهد ساحر على مدى الرقعة الشاسعة من «طهران»، الممتدة في كل الاتجاهات على شكل مخالب.

وتَقَصَّت الأميرة أيضا أحوالي بطريقة لطيفة للغاية. كان موقفا غريبا ومسليا، فعلى الرغم من أننا من نفس الجيل ـ هي في الثامنة عشرة وأنا في العشرين ـ أدت دورها

كمضيفة بأناقة وعذوبة، بينما كان عليَّ أن أبذل جهدا لأتخطى خجلي[1]، وفجأة سمعنا أصواتا وفتحت أبواب، ثم جاء شخص ليخبرنا أن الملك قادم. يا إلهي! استطعت أن أسمع قلبي يدق. كنت مذهولة ومبهورة في نفس الوقت. كنت مع ابنة الملك، ومن ثم فليس هناك ما يدهش في أن يطلب رؤيتها على غير توقع، ومع ذلك أي حظ ذهب بي إلى هناك في ذلك الوقت! شعرت بسرور عظيم واعتبرتها مصادفة غير عادية.

ظهر الملك، هادئا مبتسما، بل إنه مختلف تماما عن الرجل المتحفظ بادي الحزن الذي قابلته لفترة وجيزة في باريس قبل شهرين. قدمتني له الأميرة والسيد «زاهدي»، وجلس معنا الملك بغير تكلُّف. وبدأ يتحدث إليَّ مباشرة، ولكن بطريقة ودودة، وبابتسامة، وهو يومئ برأسه موافقا بمجرد أن بدأت الحديث، حتى أنني سرعان ما نسيت ما يحيط بي.. أعتقد أنني استطعت الحديث بطبيعية، على الرغم من الشحنة الانفعالية التي شعرت بها. وردًّا على تساؤلاته حدثته عن حياتي كطالبة في باريس، وأذكر أنها كانت محادثة مرحة سلسة، واستمتع كلانا بحديث العيون وتدفق الحوار، ونسينا للحظة أين كُنَّا. أدركت بعد ذلك أنها كانت لحظة مباركة، أشكر الله عليها، لأننا ربما كنا سنذهب ـ كل منا ـ في طريق منفصل، لولا حرية التعبير التي ميزت أول لقاء.

وقتها، لم يكن لدي أدنى فكرة عما سينجم عن لقائنا. واعتبرته ضربة حظ معجزة، فما أن رجعت للبيت، موقنة أنني مررت بتجربة فريدة لن تتكرر أبدا، حتى أطلقت فقط العنان لمشاعري. حكيت لوالدتي الأمر كله، ثم لخالي وخالتي، وانتقل إحساسي بالإثارة إلى جميع أهل المنزل. فقضاء ساعة مع الملك كان بالتأكيد حدثا تاريخيا من شأنه أن يترك أثرا على الأسرة لعقود قادمة.

وبعد أسبوع أو أسبوعين، أمضيتهما في العمل بمتحف طهران للآثار. وسارت الحياة في طريقها المعتاد، وخَفَّت حدة الإثارة قليلا، لكنها ظلت كامنة داخلي، كنزًا مدفونًا، حتى تلقيت دعوة عشاء من الأميرة «شاهناز». وفي هذه المرة شعرت بأن خطة ما تدبر بشأني. ماذا لو كان الملك لم يأت بالمصادفة ذاك اليوم، وإنما جاء

(١) كان لدى الأميرة «شاهناز» ابنة صغيرة «ماهناز»، سوف أتعرف عليها لاحقا وأحبها كثيرا. و«ماهناز» أكبر قليلا من أكبر أبنائي «رضا»، وظلت قريبة من خاليها وخالتيها (أبنائي).

خصيصا لرؤيتي؟! هل يمكن أن يكون «أردشير زاهدي» بعد مقابلته لي فكر في أنني ربما أروق للملك؟! فإذا كان ذلك صحيحا ربما يكون فكر في تنظيم زيارة أولى غير رسمية وأنا مع الأميرة. وكان من الممكن أن يكون ذلك نهاية الأمر، لكن الأميرة تدعوني الآن مرة أخرى، ليس لتناول الشاي، وإنما للعشاء. وبطبيعة الحال لم يأت ذكر للملك، لكنني أيقنت أنه سيكون هناك. ثم تذكرت كل شيء: النظرة الحزينة في عينيه في باريس، وكل ما قرأته عن طلاقه من الإمبراطورة «ثريا» قبل ثمانية عشر شهرا، وما كان يقوله الناس عن رغبة الملك في الزواج مرة أخرى، ليضمن خليفة له، وينشئ أسرة قد تجلب له في سن التاسعة والثلاثين سعادة حرمته منها الحياة حتى الآن. لم أستطع استيعاب ذلك. لماذا وقع نظر ملكنا فجأة عليَّ؟! بالنسبة لي شعرت بانجذاب نحوه، لم أكن لأعترف به أبدا لو لم يتح لي هذا المبرر. وجدت الملك جذابا للغاية، موهوبا بالفطرة، فلديه جميع المؤهلات الذهنية التي يمكن لامرأة أن تتمناها في الرجل القريب إلى قلبها. وأثَّرت في نفسي بعمق نظرته الدمثة والجادة، والسمحة والودودة في ذات الوقت، وابتسامته الرائعة. كما كانت هناك تفاصيل أخرى أعجبتني؛ الطريقة التي يرفع بها رأسه، ورموشه الطويلة، التي وجدتها رومانسية على نحو يصعب وصفه، ويداه. نعم، كنت مأخوذة، ومفتونة به.

ولسوف يخبرني فيما بعد أنه أعجب بتلقائيتي. أعتقد أن اللقاء الأول مصادفة ـ أو عدم المعرفة ـ هو الذي منحني القوة، فنسيت خجلي، وخضت بهدوء موقفا كان من الممكن أن يشل حركتي فيه الشعور بالخوف. وعلى العشاء استغرقنا مرة أخرى في المِزاج الودود، المرح، والذي يقترب من الألفة، وهو ما فتن كلا منا في اللقاء الأول. وأثناء تناول الطعام تجرأت وسألته عما إذا كان يتذكر مقابلتي في السفارة الإيرانية في باريس. فأجاب بالنفي وطلب مني تذكرته بما حدث. ومن الواضح أن الأهمية التي أضفيتها على كل التفاصيل سرَّته كثيرا. فبالنسبة له نادرا ما تسجل الذاكرة مثل تلك اللحظات البسيطة في زيارة رسمية. وضحك، وضحكت كذلك.

ثم كانت هناك لقاءات أخرى في قصر الأميرة، وبوجه خاص في أحد أوقات العصر، عندما لعب كثيرون منا لعبة «الكُت»[1]، فكنت أذهب بتلقائية ودون اصطناع

(١) لعبة قذف حلقات تُرْمَى لتطوّق وَتدًا غُرِس في الأرض. (المترجمة).

لألتقط الحلقات المصنوعة من المطاط لباقي اللاعبين. فهل كان ذلك اليوم الذي اختارني فيه الملك لأصبح زوجته وأم أولاده؟! الأرجح أنه ذلك، لكنه منح نفسه المزيد من الوقت للتفكير بالأمر.

أصبحنا قريبين إلى الحد الذي جعله يدعوني من وقت لآخر للقيام بجولة بالسيارة حول طهران. كانت قيادة سيارات السباق هوايته، من بين أشياء مادية قليلة يهتم بها، ومعها اقتناء الساعات. فكنا نغادر البلدة، لساعة أو اثنتين في سيارة سريعة، تتبعنا من بعيد سيارة أمن على نحو غير ملحوظ. وتوصَّلنا إلى معرفة كل منا الآخر، وصار هو يعرفني بأكثر مما عرفته، لأنني ظللت لا أجرؤ على أن أطرح عليه أسئلة، غير أن فترات الحديث أو الصمت بيننا تميزت بالألفة. كانت لديه مقدرة حقيقية على التخفيف عني بكلمة أو ابتسامة، وهكذا استطعت أن أستمتع بمجرد البقاء إلى جواره. أشعرني ذلك بالراحة والنشوة في نفس الوقت.

وذات يوم دعاني لأجلس بجانبه في طائرة نفاثة صغيرة. وكان مشهورا بأنه طيار ماهر. وكانت الطائرة «موران سولنييه» فرنسية الصنع ذات أربعة مقاعد، وأظن أن الأميرة «شاهناز» كانت بصحبتنا. طار بنا فوق طهران، ثم ارتفعنا فوق جبال ألبورز. كان المنظر ساحرا. ثم هبطنا فجأة فوق بحيرة سد «سفيد رود»[1]، حيث أراد أن يريني إياها. وكان عمي «سعدي» يعمل هناك مهندسا زراعيا. واجتازت الطائرة الكثير من المطبات، نظرا لأن تلك المنطقة شديدة الرياح. غير أنني كنت غير مبالية تماما بأي خطر محتمل. وفي طريق العودة، وبينما المطار على مرمى البصر، زاد الملك ارتفاع الطائرة فجأة، وطار على نحو دائري فوق ضواحي طهران. وفي النهاية طلب مني أن أمسك أحد المحركات التي بيننا و«أجذب». فعلت ذلك من دون أن أطلب أي توضيح، غير مدركة بالمرة ما نحن فيه من موقف. وبعد دقائق قليلة بدأ الاقتراب من الأرض، وقام بهبوط سلس. عندها لاحظت وجود سيارات إطفاء على الممر، وعدة سيارات إسعاف في الانتظار أنوارها مضاءة.

سألت: **«هل حدث شيء ونحن فوق؟!»**.

---

(١) الاسم الفارسي، ويعني بالعربية «النهر الأبيض» وهو ثاني أنهار إيران من حيث الطول ويصب في بحر قزوين. (المترجمة).

قال لي بهدوء: «**عجلة الهبوط لم تخرج**» وأضاف: «**لقد أخرجتِ أنت العجلات يدويا. كل شيء على مايرام. هيا ننزل**».

كان من الممكن أن نقتل، لكنه لم يفقد هدوءه لحظة واحدة.

أوشك الصيف على الانتهاء. وعلمت عن طريق السيد «زاهدي» أن الملك طلب من عمي صورا فوتوغرافية لي. لم يعد هناك شك في ذلك. الملك يحس بمشاعر تجاهي تتجاوز الصداقة. أما بالنسبة لي فكنت أحببته أكثر فأكثر. كل شيء في ذلك الرجل أثر فيَّ، وحرَّك مشاعري بعمق. وهذه المشاعر القوية للغاية والمربكة لفتاة بدأت تعرف الحب للمرة الأولى امتزجت بالفخر لأن شخصًا فريدا اختارها، أكثر الناس في البلاد احتراما وإثارة للإعجاب.

أبدى الملك رغبته قضاء فترة العصر معي في القصر للتحدث والسباحة في حمام السباحة الخاص به. أحضرت لباس السباحة، وسبحنا معا. وعندما أفكر في لحظات مثل هذه أشكر الله لأنه منحني قدرة طبيعية على حسن التصرف، وعقلا متزنا. فبدون مثل هذا الصدق الفطري وازدراء الاستعراض أعتقد أنه ربما كان مستحيلا أن أستطيع الوقوف بهدوء هناك في لباس البحر، قبل عشرين عاما، بصحبة أهم رجل في البلاد. ووجد الملك نفسه هذه الطبيعية مدهشة، وأذكر أنني قلت له إن لدي القدرة على التكيف بسهولة مع أي ظروف أجد نفسي فيها. كانت فترة عصر مربكة ومبهجة.

ثم لم أسمع شيئا جديدا لعدة أيام، ربما أسبوعين أو ثلاثة أسابيع. لماذا؟! ما الذي يحدث؟! شعرت بحزن، ولكن ماذا تساوي مشاعري بالنسبة لمسئولياته؟ فعلى الرغم من أنه صار جزءا كبيرا من حياتي، كنت أدرك جيدا أن الأمر ليس بالضرورة حقيقي بنفس القدر فيما يتعلق به. فما هي المساحة المتاحة للحب في حياة رئيس دولة؟ كنت أفكر به فقط، لاشك أن لديه العديد من جميع أنواع المشكلات التي يتعين حلها قبل أن يجد الوقت للتفكير بي. ربما يكون نسيني. كان ذلك في سبتمبر، وموعد عودتي لمدرسة العمارة الخاصة في «بولفار راسباي» يقترب. ما الذي ينبغي أن أفعله؟ أعود بهدوء إلى باريس كما لو أن شيئا لم يحدث؟! لا، قررت أن أكتشف الأمر؛ طلبت من خالي أن يستعلم من السيد «زاهدي» عما إذا كنت أستطيع العودة إلى دراستي في فرنسا.

وبعد مرور فترة طويلة، اعترف الملك مازحا بأنني ألححتُ عليه ذاك الصيف، حتى اضطر أن يتخذ قراره بسرعة. ولكن الرسالة وقتها كانت أن أنتظر، لذلك بقيت مكاني وتركت موعد بداية الفصل الدراسي يمر. وفي آخر الأمر جاءت دعوة ثانية من الأميرة «شاهناز».

كنا كثيرين بصحبة الملك في ذلك المساء، ربما عشرين. شعرت بالسعادة والارتياح لرؤيته مرة أخرى. وكان النقاش بسيطا، والملك يبتسم من دون أن يظهر شيئا من المشاغل والاهتمامات التي لا شك أنها تدور في ذهنه. ولأننا كنا في حجرة الصالون، لاحظت فجأة أن الضيوف يغادرون الحجرة واحدا إثر الآخر. وصرت والملك على أريكة وحدنا. ثم حدثني في هدوء قليلا عن زيجتيه السابقتين: الأولى من الأميرة فوزية المصرية، التي أنجبت له ابنته «شاهناز»، الأميرة الشابة، والثانية من «ثريا إصفندياري بختياري» التي خاب أمله في أن تنجب له ابنا. ثم توقف عن الحديث، وتناول يدي، ونظر في عينيَّ قائلا: «**هل تقبلين أن تكوني زوجتي؟**» ـ نعم! أجبت فورا «نعم»، فلم يكن بي حاجة للتفكير في الأمر، وليس عندي أي تحفظات. كانت الإجابة نعم، أحببته ومستعدة لأن أتبعه.

لم أكن بالفعل أعرف ماذا تعني «نعم» ضمنا؛ إنني ما أن أصبح زوجته حتى أحمل بعض المسئوليات الثقيلة على عاتقي. فأضاف: «**سيكون عليك، باعتبارك ملكة، الكثير من المسئوليات تجاه الشعب الإيراني**». وافقت مرة أخرى. أعرف المسئولية. وقد نشأت على هذه الروح. والداي، عائلتي، المدرسة، الكشافة، كل هؤلاء عملوا باستمرار على تنبيه ذهني لمعاناة الآخرين، علموني أن الغاية العليا يجب أن تكون العمل من أجل المصلحة العامة. ومن ثم لم يفاجئني تحذير الملك. شعرت أنني الشخص المناسب لتحمل تلك المسئولية. ومع ذلك لم تكن لديَّ فكرة عن مستوى المسئولية، لم أدرك ثقل أو حجم المهمة التي تنتظرني.

كان ذلك ١٤ أكتوبر ١٩٥٩، يوم مولدي، أتممت الحادية والعشرين، وقلت لتوي نعم للملك. نعم للحب، وللمصير الخاص الذي يستحقه الحب. كنت على وشك أن أصبح ملكة في السرَّاء والضرَّاء، وهو ما لم أكن قادرة على تخيله. وطلب مني الملك وهو يتركني أن أحتفظ بالخبر سرا في الوقت الراهن. لم أستطع أن أخفيه عن أسرتي. كانت سعادة غامرة، وإثارة بالغة. وما أن عدت للمنزل حتى أبلغت والدتي وخالتي

كل شيء، أخبرت خالي أيضا عندما عاد من مكتبه بعد قليل. وكان واضحًا أن والدتي بوغتت، وأمضت فترة عصيبة تحاول إخفاء قلقها خلف تعبيرات الفرح. شاركتني سعادتي بالطبع، لكنها اعترفت لي لاحقا أنها تساءلت فورا فيما بينها وبين نفسها عما إذا كان والدي ليوافق؟ كان يقول إن الحياة في القصر تحوطها المكائد، والنميمة في حق هذا وذاك، وأن الملكة الأم كانت كذا، والأميرات كذلك...فتساءلت والدتي: هل تستطيع فتاة ساذجة صريحة مثلي أن تجد لها مكانا بين أناس نشئوا في البلاط، واعتادوا ألاعيب القوة، والنفاق، واعتبارات الدبلوماسية؟ كانت قلقة، لكن ماذا تستطيع أن تقول أو تفعل؟ وما فائدة ذلك؟

وفي نفس اليوم، لم أستطع أن أهدأ، فاتصلت بصديقتي «إيلي»:

- **تعالي إلى البيت حالا، لدي شيء أخبرك به.**

- **ماذا؟ قولي لي الآن!**

- **لا أستطيع أن أبلغك في التليفون. خذي تاكسي وتعالي. أسرعي! أسرعي!**

- **فرح! هل جننت؟ قولي لي ما الأمر؟**

- **خبر عظيم.**

- **سوف تتزوجين؟**

- **نعم!**

- **لكن هذا رائع! من؟ هل أعرفه؟ قولي لي اسمه.**

- **هذا هو الأمر. لا أستطيع. سوف تعرفين عندما تأتين. لقد أضعت بالفعل خمس دقائق!**

- **لن أستطيع الانتظار.**

ثم شَرَعَت في سرد أسماء جميع أبناء الأقارب:

- **«رضا» أراهن أنه «رضا».**

- **هل أنت مجنونة؟! «رضا» مثل الأخ بالنسبة لي.**

- **«كمران»؟**

- **فكري مرة أخرى!**

- **«برفيز»؟ «يحيى»؟**

- **لا. ليس «برفيز» ولا «يحيى».**

وأخيرا وبعد أن ذكرت كل من استطاعت تذكره، قالت ضاحكة: **«حسنا، لم يعد سوى الملك».**

- **إنه هو!**

أسقطت السماعة ولم تستطع أن تنطق ببنت شفة لبرهة.

وبعد فترة وجيزة أخبرني الملك أنه يريد تقديمي إلى أسرته، وأهمهم الملكة الأم «تاج الملوك». وكانت «تاج الملوك»، باعتبارها الزوجة الثانية لمؤسس أسرة «بهلوي»، قد أنجبت له أربعة أبناء: الأميرة «شمس» المولودة في ٢٧ أكتوبر ١٩١٧، ثم «محمد رضا» زوجي المستقبلي وتوءمه الأميرة «أشرف»، وكلاهما مولود في ١٦ أكتوبر ١٩١٩، وأخيرا الأمير «علي رضا» الذي قتل في حادث طائرة عام ١٩٥٤. وكانت الملكة الأم معروفة بصعوبة طبعها. وكان يقال إن الناس يخشون من صراحتها، وأنها تشاجرت مع الإمبراطورة «ثريا»، لأنها تضايقت من لامبالاة «ثريا» التي كانت واضحة جدًّا، لأنها تخفي الألم الذي كانت تحسه لعدم قدرتها على منح الملك والملكة الأم الوريث الذي كانا يأملانه.

وكان هذا اللقاء الأول مرعبًا مع المرأة التي كانت شخصية تاريخية لا يمكن تجاهلها. وحتى لو لم يكن قيل عنها كل ذلك فإن هذه المواجهة كانت اختبارا نهائيا. وكان الملك قد عانى من التوترات بين أمه، وشقيقتيه، وثريا؛ لذلك سيكون من دواعي السعادة لنا جميعا إذا قامت علاقات طيبة بين أسرته وبيني من البداية.

وعندما دخلت حجرة الاستقبال أخذني الملك إلى والدته، التي كانت جالسة على أريكة. وبعد العبارات المعتادة طلبت مني الملكة الأم أن أجلس معها. فجلست بتلقائية على متكأ صغير، بحيث أكون قريبة منها بما يكفي لتتحدث إليَّ، ولكن عند مستوى منخفض قليلا. وهكذا بدأنا محادثتنا، أو بالأحرى نوعا من أنواع

التحقيق، كنت سعيدة بالاستجابة له. سألتني عن ميولي، وطفولتي، وأسرتي (أمي وخالتي «لويز» كانتا تعرفان أفرادا من أسرة الملكة الأم، وكانتا في نفس المدرسة مع شقيقاتها)، وعن طموحاتي. أرادت حماة المستقبل بالطبع أن تعرف من أنا وماذا كنت. كانت سيدة صغيرة الحجم لكنها مهيبة، ذات عينين لونهما أخضر فاتح. كنت أحب أن تكون عيون أبنائي بنفس اللون. ولم أكن وحدي معها، وهو ما جعل اللقاء الأول أيسر. وتركزت عيون كافة المدعوين إلى هذه المقابلة على الفتاة التي كُنْتُها.

ولاشك أنه في ذلك اليوم رأَت الدائرة القريبة من الملك أنني فتاة غير متكلفة، لا تعرف شيئا عن عالمهم من الحاشية والدبلوماسيين.



القسم الثاني

الفصل السادس

لم تعلن خطوبتي إلى «محمد رضا بهلوي» شاه إيران حتى ٢١ نوفمبر ١٩٥٩، بعدما يزيد على شهر من اليوم الذي حددنا فيه مصيرينا على انفراد. وخلال تلك الفترة تقرر أن أعود إلى باريس سرا لأقتني ملابس تناسب وضعي المقبل. وأُطْلِع «نصر الله انتظام» سفيرنا إلى فرنسا على السر، وطُلِب منه بالطبع أن يقدم لي كل المساعدات الممكنة.

وهكذا في الثالث من نوفمبر سافرت إلى باريس، يصحبني عمي «إصفنديار ديبا» وزوجته «بانو» وخالتي «لويز»، التي كانت ذات أهمية لي طوال حياتي. وكان وجودهم إلى جانبي مطمئنا للغاية حيث شكلوا لي رفقة، وساعدوني في تجميع جهاز العروس الذي جاء متميزا للغاية، وللحق كان يستحيل على طالبة مقتصدة مثلي أن تتخيله.

توقفت الطائرة في جينيف، التي وصلناها عند منتصف فترة العصر. واكتشفت أن «سردار فخر حكمت» رئيس البرلمان الإيراني على الطائرة، ومن ثم لم أتفاجأ لرؤية مجموعة من المصورين احتشدت عند سلم الطائرة. وعندما ذهبنا إلى صالة الوصول، حيث ينبغي علينا الانتظار لفترة، لم ينتبه المصورون إليَّ. ثم عندما وصلنا تقريبا ـ عمي وخالتاي وأنا ـ إلى المبنى إذا بجمهرة لا تُصَدَّق تتجمع حولنا وسط هتافات وفرقعة فلاشات التصوير. دُهِشتُ لسماع اسمي يتردد ـ **«فرح ديبا»! «فرح ديبا»! هل أنت «فرح ديبا»؟!** ـ فأومأت، فباغتتني الأسئلة من كل صوب: **«متى موعد الزفاف؟ ما هو شعورك بكونك ستصبحين إمبراطورة؟ أين ستقيمين في باريس؟»**.

دُهِشت. وكنت ساذجة إلى حد أنني اعتقدت أن سر خطوبتنا سيُصان بدقة ويُحترم،

والآن اكتشفت أنني أصبحت مشهورة، ليس فقط دون رغبة مني، ولكن أيضا دون أن أُعِدَّ نفسي لذلك على أقل تقدير. لم أر هؤلاء المصورين من قبل لكنهم عرفوني؛ ومن الواضح أنهم لم يعرفوني جيدا بعد، حيث إنهم تركوني أمر في البداية. والآن سوف تجوب صورة وجهي أنحاء العالم، بعدما التقطها وابل من الكاميرات. ومن الآن صارت حريتي في الذهاب والإياب كيفما أشاء مثل أي امرأة في العالم ذكرى من الماضي، رغم أنني لم أدرك ذلك وقتها.

وقال عمي محاولا أن يجعل صوته مسموعا: «**لا نستطيع قول شيء، ولا نعرف شيئا. من فضلكم دعونا نمر!**»، لكنه بوغت مثلي، بهذه الأحداث.

شعرت بارتياح شديد بمجرد أن ركبنا الطائرة مرة أخرى، محتمية هذه المرة بموظفي المطار. وتبادلنا ـ عمي وخالتاي وأنا ـ الحديث عن انطباعاتنا عما حدث، معتقدين أننا أصبحنا آمنين أخيرا من أعين وآذان المتطفلين. غير أنني عرفت لاحقا أن صحفيا استطاع أن يحجز مقعدا بجواري على رحلة جينيف ـ باريس. ومن حسن الحظ أننا لم نتحدث سوى بالفارسية.

وكان الاستقبال في مطار «أورلي» عند وصولنا في المساء على مستوى مختلف للغاية عما واجهناه في جينيف. ففي هذه المرة كان طريق المطار يعج بالصحفيين والمصورين. لم أر مطلقا قبل ذلك مثل هذا الحشد، ولم أكن لأعتقد أنني السبب في هذا، حيث غادرت باريس من نفس المطار قبل أربعة شهور من دون أن يلحظني أحد. واستُخْدِمَت كل الوسائل الممكنة لإبعادي عن هذا الحشد المندفع الشرس الذي يصرخ باسمي. كانوا يدفعونني ويجذبونني، وكان هناك الكثير من أضواء الكاميرات لدرجة أنني لم أستطع رؤية شيء، ولم أعرف إلى أين يقودونني، بل إنني فقدت إحدى فردتي الحذاء عند العشب على جانب الممر. وبعد ربع ساعة فقط من هذا العلاج بالصدمة الكهربائية انتهى بي الحال إلى داخل سيارة فاخرة مبطنة وواقية، وهي السيارة الرسمية التابعة للسفارة الإيرانية.

كنت أترنح من الإعياء، لكنني قادرة على الابتسام والضحك إزاء الاستقبال. وما أن أصبحت في السيارة حتى لم أجد وقتا لالتقاط أنفاسي، فبمجرد إغلاق الأبواب كنا محاصرين بالمعنى الحرفي للكلمة، فأضواء الكاميرات أضاءت السيارة من الداخل،

ولأننا لم نكن قادرين على الحركة شعرت بإحساس حيوان يتبعه أشخاص اصطادوه ليلا لإبهار فريستهم. وأخيرا نجح السائق في إبعادنا. ثم بدأت المطاردة التي كادت أن تورثني الجنون. وإزاء تعقب المصورين لنا على دراجات بخارية تطير تقريبا في أعقابنا بسرعة خطيرة، كنت أصرخ معتقدة أننا قد نقتل أحدهم في أي لحظة. ونتيجة لذلك التقطوا لي سلسلة من اللقطات وفمي مفتوح عن آخره، ووجهي يتقلص من الخوف، وهي اللقطات التي استغلوها عندما ادعوا أنني لم أكن سعيدة.

وفي ظل هذه الظروف لم يمر وصولي إلى فندق «كريون» ببساطة. وفي اليوم التالي علم سكان باريس أن ملكة إيران القادمة تقيم في هذا الفندق الفخم المطل على قصر «الكونكورد»، وبالطبع زاد ذلك الخبر من ضغط الصحفيين، وظللت طوال إقامتي التي دامت أسبوعين أو ثلاثة، لا أستطيع مغادرة الفندق دون أن يلاحقني أسطول من السيارات والدراجات البخارية. واستطاعوا الالتفاف على كل ما فعلناه لنبعدهم عن طريقنا. فكيف يستطيعون أن يظهروا في كل مكان فجأة؟! بدأت أفهم عندما عرفت أن صحفيا دفع رشوة لأحد خدم الفندق حتى يدعه يرتدي زيه فيتمكن من الاقتراب مني. ولا شك أن هذا التحرش من الصحافة جاء استجابة لتوقع الجمهور، لأنني استطعت منذ اللحظة الأولى أن أستشعر فضول الناس الطبيعي، وقبل كل شيء عطفهم. وبالفعل، على الرغم من الصحفيين ـ وربما بسببهم ـ قضيت لحظات كثيرة رائعة ومؤثرة خلال الرحلة. وليس بوسع المرء مقاومة التعلق التلقائي، والروابط القوية التي ظللت أشعر بها تربطني بفرنسا طوال حياتي، وبالباريسيين بوجه خاص، فأعود إلى تلك الأيام العاصفة عندما لم أكن ألاقي سوى الابتسامات والتصفيق في كل مكان، على الرغم من الزحام المروري أحيانا الذي كان وجودي يسببه.

وكان عاهل إيران الشاب قريبا إلى قلوب الفرنسيين من قبل دخولي حياته. وعندما تحدثت إلى الناس عرفت فورا إلى أي مدى يدركون الصعوبات التي واجهها في حياته. فهم يذكرون الظروف المضطربة التي جعلته ـ وهو لم يتجاوز الحادية والعشرين ـ يخلف والده، بعدما نفته القوات البريطانية والسوفييتية التي احتلت إيران. وتأثر الفرنسيون بانفصاله عام ١٩٤٧ عن الأميرة «فوزية» الرومانسية والحزينة، التي أمضت سنوات الحرب إلى جواره، لكنها عادت إلى مصر التي كانت تحن إليها دائما. والأكثر إثارة للأسى اليأس الذي حل على ثاني زيجات الملك، عندما اتضح أن «ثريا

إصفندياري» لن تستطيع أن تنجب له الطفل الذي كان يتمناه. وقيل ـ كما كُتِب ـ الكثير في فرنسا عن حزن الملك الواضح بسبب طلاقه عندما كنت في أولى سنوات دراستي للعمارة في باريس. ها هو الملك الذي لمس قلوبهم على وشك الزواج من طالبة سابقة في «بولفار راسباي».

وحركت حقيقة انتقالي من حجرتي الصغيرة في المدينة الجامعية إلى قصر بلاد فارس الخالدة بواسطة الحب مشاعر الفرنسيين الرقيقة والرومانسية، ولعبت دورا كبيرا في كسب محبتهم. فالملك لم يكن بصدد الاقتران بأميرة، ولم يستسلم لتقليد الزيجات المرتبة بين عائلات الدم الملكي، وإنما أحب «فتاة إيرانية صغيرة» وهو كما في القصص الخيالية سيطيع قلبه.

كان ذلك أمرا طيبا لدرجة يصعب معها أن يكون حقيقيًّا، لكن يبدو أنه لم يكن طيبا بما يكفي لبعض الصحفيين الذين وجدوا فيه فرصة لإحياء أسطورة سندريلا. وبالتالي كانوا يضخمون الحقائق ويصفونني أحيانا كما لو كنت راعية غنم نشأت في فقر. وكان عمي يائسا منهم فيقول: «**ذات مرة، سوف يقولون لنا إنك وُلِدتِ في مزراب! إنه غير معقول! غير معقول!**» ولم أكن أبالي. لم أعتقد أبدا أن قيمة الشخص ترجع إلى مولده أو ثروته، وبعد ذلك بكثير، عندما أصبحت ملكة، ثم في المنفى، صار لدي دليل كاف على ذلك. وعلى أي حال ما الذي كنا نستطيع فعله لإثبات الحقيقة؟! لم يكن شيء أعلن رسميا، وكنت في تلك اللحظة مجرد فتاة شابة تتمتع بإقامة فخمة في جناح بفندق «كريون»، وتقوم بجولات على مصممي الأزياء ومتاجر الأغراض النسوية برعاية السفارة الإيرانية.

أذكر زيارة خاصة لمتجر «جيرلان» في «الشانزليزيه». وتعقبتني زمرة من مصوري الصحف والسينما لدرجة أوقفت حركة المرور في أجمل شارع بالعالم، وأنا أنتقي بعض العطور. كان ذلك لا يصدق! لكن الأسوأ ربما كان لدى بيت تجميل «الأختين كاريتا» الذي تولى مهمة ابتكار تسريحة شعر جديدة من أجلي. ووصفت «ماريا كاريتا» الحدث لـ «ليزلي بلانك» التي أعادت سرده في كتابها عن سيرة حياتي[١]:

---

(١) Farah Shahbanou of Iran, London, ed. Collins, 1978.

«حددت إحدى سيدات السفارة الإيرانية موعدا، مثلما تفعل غالبا، ثم بدت حريصة للغاية على أن كلينا يجب أن نكون حاضرتين ذلك اليوم، قالت إنها ستحضر صديقة مميزة ـ وأنه سيكون من الأفضل أن تستقبل في إحدى المقصورات الخاصة. وبدت مصممة للغاية على تلك النقطة ـ وتحيرنا في نوعية تلك المخلوقة التي ستحضرها!... وفي صباح الموعد سمعنا أكثر الضوضاء إزعاجا في الشارع، صياح كثير وجلبة... بدت كحشد غاضب. وعندما أطللنا خارجًا شهدنا المدخل مسدودًا تمامًا بالرجال والكاميرات ـ كاميرات السينما أيضا ـ يتعاركون للحصول على مكان. وعند تلك اللحظة هبطت عميلتنا وصديقتها الغامضة من سيارة، وكانت المشاهدة متاحة للجميع، فيما يحاول حارس من الشرطة إفساح الطريق بالقوة للسيدتين وسط جمهرة الصحفيين. ثم أدخلتا بطريقة ما، واستطعنا أن نغلق الأبواب في وجه ذلك الحشد الهادر رغم أنهم واصلوا محاولة الاقتحام، بل إن بعضا منهم وجد طريقا عبر أسطح المباني حولنا، ودخل من الخلف. عندها عرفنا من هي عميلتنا الجديدة. كان ذلك مثيرا للغاية، وبالطبع حاولنا بشتى الطرق حمايتها في الأيام التالية.

لم تتحدث تقريبا، لكنها لم تبد خجولة بالمرة صامتة فحسب، تراقب كل شيء بتركيز بالغ. أدرَكَت أننا نفهم عملنا، وفضلت الثقة في اختياراتنا. كانت فتاة جذابة، جميلة، ذات يدين رائعتين، وذلك الشعر الكثيف الأسود القاتم، تشبه المنمنمات الفارسية الصغيرة...».

اضطررنا لوضع أغطية على النوافذ، وهو ماجعلنا نبدو مثل كائنات غريبة داخل قفص، غير أن صحفيا نجح في التقاط صورة لي من المبنى المقابل حيث اتخذ موقعه. كان ذلك اليوم الذي ابتكرت فيه الأختان «كاريتا» التسريحة ذات الفارق الذي يهبط من منتصف الرأس وينسدل الشعر على الصدغين، وقلدتها جميع النساء في أنحاء العالم، حيث كن يطلبن تصفيف شعورهن على طريقة «فرح ديبا».

وعند «ديور» عرضوا عليَّ مجموعة من ابتكار «إيف سان لوران»، الذي سيصمم لي ثوبَيْ الخطوبة والزفاف.

ووسط تلك الدوامة من النشاط استطعت أن أحضر العرض الأول لأوبرا «كارمن» على مسرح أوبرا «جارنييه». وإذا بالجنرال «ديجول» وقرينته حاضرين، فضلا عن عدة وزراء، والمجتمع الراقي الباريسي بأكمله. كان مثيرا أن أرى عن قرب الرجل

الذي أنقذ فرنسا. وكان عمي «بهرام» شديد الإعجاب به، لكنني سرعان ما لاحظت، مما أثار حرجي البالغ، أن أنظار المحيطين بالجنرال مصوبة نحوي. فبالطبع عرف أولئك الذين في أعلى مستويات الدولة المستقبل الذي ينتظرني، ولا شك أن الفضول يدفعهم لرؤيتي. لم أتوقع أنني ـ بعد عامين ـ سوف ألقى استقبالا حفيًّا من الجنرال وقرينته في قصر «الإليزيه»، باعتباري ملكة إيران.

وخلال هذه الإقامة في باريس أبدى لي الكاتب العظيم «أندريه مالرو» اهتمامه ومودته، عندما كتب هذا الإهداء على نسختي من كتابه «أصوات الصمت»، التي كنت أرسلتها إليه مع تعليق، قبل أيام من عودتي إلى «طهران» كطالبة:

> **«آنستي، إنه لمؤثر أن يكون واحد من أكثر المعجبين الأوفياء لروح إيران في ذهنك وأنت تغادرينا. وآمل أن الطالبة التي كانت من عمق التفكير بحيث تكتب إليَّ سوف تنقل إلى الإمبراطورة أنني أحب القوة العظيمة في سحر إيران اليوم التي ارتبطت بمصيرك. وأتمنى من قلبي أن تنضم جِنِّيَّات فرنسا المفعمات بالحياة إلى نظائرهن في إيران، ويحرسن هناءك».**
>
> **«أندريه مالرو»**
> **نوفمبر ١٩٥٩**

وكان الملك يهاتفني كل مساء، فيضيء يومي توقُّع هذا الاتصال، ويضفي مغزى على كل ما أفعله، فليس هناك سوى سبب واحد أساسي لكل ذلك؛ الاستعداد للحياة التي سنبنيها معا. أذكر أن قلبي كان يرتج بمعنى الكلمة عندما أسمع أنه على التليفون. كنت عاشقة للغاية، وأضطر لبذل جهد حتى لا يرتعش صوتي بالانفعال. وكان هو أيضا متأثرا أمكنني أن أسمع ذلك. وقد أكد لي بعد وقت طويل أنه قال: «**أحبك**» لثلاث نساء فحسب، ويضيف: «**أنت واحدة منهن**».

أعلنت خطوبتنا رسميا في بلاغ رسمي موجز يوم ٢١ نوفمبر: «**تم اليوم عند الساعة الخامسة بقصر «اختصاصي» خطوبة جلالة الشاهنشاه «محمد رضا بهلوي» ملك إيران، والآنسة «فرح ديبا». وسوف يقام حفل الزفاف خلال شهر، يوم ٢٩ آذار ١٣٣٨ بالتقويم الشمسي الإيراني، ٢١ ديسمبر ١٩٥٩ طبقا للتقويم الميلادي**».

وما أن عدت من باريس حتى تغير نمط حياتي بالكامل. لم أعد أعيش مع والدتي

في بيت خالي الكبير. من الآن فصاعدا أراد الملك أن أقيم داخل المجمع السكني للقصر. وذهبت الملكة الأم بشكل مؤقت إلى بيتها الريفي، وتعطَّفَت بإعارتي سكنها، حتى يستطيع الملك استقبالي هناك.

أقمت هناك الأسابيع الأخيرة قبل زواجي، في حالة من النشوة الهائلة. الملك الآن يتنفس ويعمل على بعد بضع مئات من الأمتار مني فقط، وأستطيع أن أراه من نوافذ سكني. واكتشفت شيئا فشيئا على أي نحو يكون برنامج حياة رئيس الدولة، كما اكتشفت كم هي قليلة وعزيزة اللحظات الخاصة التي يمكن أن ينعم بها. فالرجل الذي سيصبح زوجي ملك منذ أكثر من ثمانية عشر عاما، رغم أنه لم يتجاوز الأربعين من عمره، ولديه قدرة ممتازة على توجيه الدوائر المختلفة التي تشكل حياته. رأيته وهو يستقبل زيارة رسمية من الرئيس «أيزنهاور» خلال ذلك الشهر، ديسمبر ١٩٥٩، ويترأس جميع الاحتفالات التي نُظِّمَت، ومع ذلك يجد الوقت للتمشية معي في الحديقة، أو الدردشة على فنجان شاي، وهو بادي الهدوء غير متكلف.

فصل الخريف أفضل فصول السنة بالنسبة لي. تتألق الأشجار بالألوان تحت ضوء الشمس، وترسل جبال «ألبورز» ذلك الهواء البارد الذي نتوق إليه طوال فصل الصيف، ويشعر المرء بانسجام معجز مع الطبيعة، وعرف الملك مدى حبي لون الضوء الذي يميز هذه الشهور المباركة. وكنا يوميا تقريبا نتسلل سرا من القصر معا في إحدى سياراته. وقتها لم يكن الأمن أصبح الهاجس الملح الذي تحول إليه منذ ذلك الحين، لذلك لم يكن يتبعنا سوى حارسين بسيارتهما. وكانت وجوه الناس المارين في الشوارع تضيء لحظة تعرُّفِهم على الملك فيلوحون ويصفقون، فيرد عليهم بإشارة خفيفة من يده. وكنت أمتلئ دهشة وانفعالا لكوني ارتبطت فجأة بالرجل الذي يثير كل هذا الافتتان. وأذكر عندما كنت طفلة أمسك بيد والدتي على جانب الطريق وألوِّح له في ظروف مماثلة قرب بحر قزوين. وكان يبدو أنه يلتفت قليلا في مقعده ويبتسم لنا. حكيت له ذلك في إحدى المرات، ولم يكن لديه أي ذكرى بالطبع عن تلك اللحظة، لكنه ابتسم لي تلقائيا، مثلما فعل عصر ذاك اليوم تماما.

وخلال تلك الأسابيع تعرفت بصورة أفضل على إخوة وأخوات الملك، حيث أقام معظمهم بالقرب من القصر. وكان للشاه «رضا» ابنة من زوجته الأولى، هي الأميرة «هامدام سلطنة»، والتقيت بها. وذكرت من قبل الأميرة «أشرف» توءم الملك،

والأميرة «شمس» شقيقتهما الكبرى، وكلاهما من زواج الشاه «رضا» بالملكة الأم «تاج الملوك». غير أن الشاه «رضا» تزوج مرتين أخريين، نتج عنهما ستة أبناء: فأنجب «غلام رضا» من زواجه بالملكة «توران»، وأنجب الأمير «عبد الرضا» والأمير «أحمد رضا» والأمير «محمد رضا» والأميرة «فاطمة» والأمير «حامد رضا» من زوجته الملكة «عصمت».

وباعتباري طالبة شابة، مبتدئة في أمور البروتوكول، كان من الممكن ببساطة أن يبدو العثور على مكان بين جميع هؤلاء الإخوة والأخوات غير الأشقاء ـ شديدي الاهتمام بأن تلقى امتيازاتهم ومكانتهم الاحترام الواجب ـ أمرا مستحيلا. وعندما أدركت تلك المصالح المتصادمة تفهمت على نحو أفضل قلق والدتي بشأني ماذا ستفعل ابنتها التي مازالت ساذجة للغاية في بلاط يقال عنه إنه مليء بالمكائد ولعبة السلطة؟! فعلت ما اعتدت أن أفعله في طفولتي: رفضت أن أشارك في المشاجرات التي لا بد أن تنشب، سواء كانت معلنة أو غير معلنة، وحافظت على الأسلوب الذي كان جزءا من طبيعتي أن أحقق التوافق كلما أمكن، وأصم أذني عن أي شيء يسعى لإبعادي عن هذا التوافق. لم أسمح لنفسي بالانجرار إلى التفاهات والخلافات التي لا توجد أسرة محصنة ضدها للأسف. وأثناء حياتي كملكة سوف أحافظ على هذا الأسلوب الذي ترسخ منذ سنواتي الأولى ورأيت أن هذا لن يكون صعبا مادمت أتمتع دائما بمساندة الملك وحبه، فلدي ـ كإيرانية ـ احترام طبيعي للأسرة، وكنت أعرف أن الملك بما لديه من أمور أخرى كثيرة تشغله يجب أن يحظى بمحيط منسجم في حياته الخاصة. واليوم أستطيع أن أقول إنني حافظت دائما على علاقات جيدة مع جميع أفراد عائلة الملك.

الفصل السابع

استيقظنا جميعا مع بزوغ فجر ٢١ ديسمبر ١٩٥٩. وتقرر الاحتفال بزفافي في بداية فترة العصر، وكنت قد رجعت إلى بيت خالي لأكون مع أسرتي في الليلة الأخيرة. وكان الثوب الذي صممه بيت أزياء «إيف سان لوران» معلقًا هناك، ولكن قبل أن أرتديه ينبغي أن أضع نفسي بين أيدي الأختين «كاريتا» الخبيرة، اللتين قدمتا خصيصا من باريس لتصفيف شعري، وبدتا أكثر قلقا وعصبية مني، وهكذا شرعت في تهدئتهما، مما أثار القليل من الضحك. سيكون يوما طويلا مليئا بالانفعال، وأردت أن يستمتع به الجميع.

جيء بالإكليل بعد الإفطار. ولأن مجوهرات التاج ممتلكات للدولة، وهي تضمن العملة، فنادرا ما تغادر خزائن البنك المركزي الإيراني. ويجب أن يوقع على التفويض بخروجها عدة أشخاص من بينهم وزير المالية. كان مقررا أن أرتدي إكليلا مصنوعا من مجوهرات التاج الإيراني صممه «هاري وينستون». كان جميلا على نحو لا يصدق، لكن هذا الإكليل الذي لا يقدر بثمن عيبه أنه يزن نحو كيلوجرامين.

ولعل هذا يوضح التحدي الذي واجه مصففتي شعري؛ وضع هذه الأعجوبة فوق رأس لم يعتد على أداء حركات التوازن، بل والثبات على الأقل. كانت المهمة أصعب ما تكون حيث ينبغي أن أرتدي الإكليل حتى المساء، وأركب عدة كيلو مترات في سيارة، أصعد وأهبط درجات سلم، وأمشي، وأبتسم، وأحيي الناس... عملتا لمدة ثلاث ساعات كاملة، ولا أعتقد أنهما أخذتا أنفاسهما بسهولة حقا حتى صباح اليوم التالي، عندما عرفتا أن شيئا مفزعا لم يحدث.

وبينما أرتدي ثوبي المطرز برسومات فارسية، من الخيوط الفضية، والترتر،

واللؤلؤ (التقليد بالطبع) تذكرت صانعي الثوب في بيت أزياء «كريستيان ديور» في باريس. فهم تمنوا لي كل سعادة العالم، وأعرف أنهم حاكوا إحدى حواف الثوب بالأزرق حتى تمنح الجنيات الطيبات للملك أخيرا الولد الذي تمناه.

وأخيرا، وفي الوقت المناسب، وصلت الأميرة «شاهناز» ـ عطفها في تلك الأسابيع الأخيرة لا يقدر بثمن ـ ورئيس الوزراء «منوشهر إقبال»، ووزير البلاط «حسين علاء»، ليأخذوني إلى الملك. وكان مقررا إجراء الطقوس الدينية في «قصر الرخام»[1] بوسط طهران، ومن ثم فأمامنا طريق سفر طويل من منحدرات غابات «شميران».

وبعد تقليد يتبعه المسلمون بوضع أنفسهم تحت حماية القرآن قبل أي حدث مهم، سرت تحت الكتاب المقدس الذي رفعته والدتي وأنا أغادر الرواق. ثم، وكآخر إيماءة حظ، أطلقت بعض الحمامات، التي تابعناها للحظة وهي ترتفع إلى السماء الزرقاء المشربة بلون الحليب في ذلك اليوم الأول من أيام الشتاء. ويسمى اليوم الحادي والعشرون من ديسمبر «شب يلدا»، وهي أطول ليلة في العام، وتحتفل بها العائلات بأن تتجمع معا لقراءة أشعار «حافظ» وتتشارك في تناول البطيخ، والرمان، والفواكه المجففة. وفي ذلك اليوم أيضا، واليوم التالي له، نسهر حتى ساعة متأخرة، احتفالا رمزيا بغزو الضوء.

وبدأ موكب السيارات الرحلة ببطء. ثم رأيت الشوارع مكتظة بالناس. احتشدوا على طول الطريق، والأغلب أنهم ظلوا هناك لعدة ساعات. وأضاءت وجوههم بالفرحة أثناء مرورنا، الجميع لوحوا وصفقوا، وسمعت جلبة نتيجة ترديد اسمي مرارا وتكرارا. وبالطبع لم أكن من قبل موضع مثل هذه الحماسة والحفاوة، وأصابت حلقي غصة، فأهل «طهران» الذين جئت منهم، يمنحونني ثقتهم، ويتبنونني، ويكرمونني، رغم أنني لم أفعل بعد شيئا لهم أو لإيران. شعرت بتأثر كبير، وبوغِتُّ، حتى أنني عاهدت نفسي على أن أفعل كل ما بوسعي لهؤلاء الرجال والنساء وللأطفال الذين رأيتهم في كل مكان. ولم يخطر في بالي إلا بعد ذلك بفترة طويلة أنني حللت محل ملكة أحبوها وصفقوا لها بنفس الطريقة، ورغم كل شيء جاءوا بالآلاف، فرأيت أنهم يستحقون الشكر مرتين. عرفت لاحقا أن أبناء بلدي كانوا سعداء لأن الملك يتزوج

(١) معروف أيضا باسمه بالفارسية «كاخ مرمر». (المترجمة).

إيرانية. وقال رجال الدين الذين يعرفون أنني «سيدة»[1] من نسل النبي: إن الملك بزواجه مني صار صهرا للنبي.

وكان الملك ينتظرني عند قمة السلم الكبير بقصر الرخام، واقفا ممشوقا، طويلا، في زيه الرسمي. وما أن هبطت من السيارة حتى اصطفت خلفي ست فتيات صغيرات يرتدين ثيابا بيضًا وتويجات من الزهور، ولكن وصيفا واحدا ـ هو ابن عمي الصغير «أحمد حسين» ـ تقدمنا ينثر بتلات الزهر على درجات السلم. ولا أعرف من منا كان أكثر انفعالا.. الملك أم أنا. وقبل لحظات من الاحتفال بزواجنا انتبهت إلى أنه ليس معي خاتم من أجله! لم يكن أحد فكر في ذلك، ولا أنا، ولكن العروس هي التي يجب أن تحضر الخاتم. وتقدم «أردشير زاهدي»، صهر الملك، لإنقاذ الموقف بمنحي خاتمه، فوضعته بعد لحظات في إصبع زوجي. وبعد بضعة أيام قدمت له خاتم زفاف، ومنذ وفاته وأنا أرتدي خاتميّ زفافنا معا في نفس الإصبع.

ولم يكن مدعوا سوى عائلتينا وبضعة أعضاء من الحكومة. أردنا أن يكون احتفالا حميميا، كعادة حفلات الزفاف الشرعي في إيران. وطبقا للمعتاد وُضِعَت جميع رموز الزواج الخصب والسعيد على سجادة: مرآة وشموع رمزا للضوء، وخبز رمزا للكثرة، وبخور لطرد الشر، وحلوى لتحلية الحياة، والقرآن بالطبع. وتلا إمام جامع «طهران» الآيات التي تسبق اقتران شخصين. ثم رفع عينيه وسألني بطريقة مهيبة عما إذا كنت أقبل الرجل الواقف بجواري زوجا. وخلافا للتقليد الذي يتطلب الإلحاح على المخطوبة، التي لا تجيب إلا بعد طرح السؤال عليها للمرة الثالثة، لم يضطر الإمام هذه المرة للانتظار: أجبت بـ«نعم» فورا بفرحة أثارت الابتسامات والهمهمات من حولنا.

وبعد ذلك بقليل اصطحبنا شخصان يمثلان الدولة المدنية أمام الكاتب الرسمي للعقود، وقلت لنفسي بينما أكتب «فرح بهلوي» للمرة الأولى: إن هذا سيظل توقيعي من الآن وإلى الأبد.

وعندما رأيت صور الاحتفال بكل لحظاته المؤثرة، شعرت بإحباط طفيف، فلم أستطع الجلوس على كرسي بذراعين مثلما فعل الملك، بسبب ذيل فستاني، لذلك

---

(١) مثلما يقال عندنا «شريفة» من نسل الرسول عليه الصلاة والسلام. (المترجمة).

أجلست على كرسي بلا ظهر ولا ذراعين، مما جعلني أطول من زوجي بمقدار نصف رأس. ولم يكن هناك شخص واحد من بين جميع رجال البروتوكول، هؤلاء الخبراء فيما هو ملائم وراق، فكَّر في أنه ربما كان الأكثر ملاءمة وانسجاما أن يجلس العاهل على نفس مستوى ارتفاع زوجته على الأقل!

وإثر جلسة قصيرة مع الأسرة، ذهبنا إلى قصر «جولستان» القديم ـ المقر السابق لإقامة ملوك أسرة «قاجار»، ولا يستخدم الآن إلا في المناسبات الرسمية ـ حيث ينتظرنا أكثر من ألف ضيف. وحضرت هذا الاستقبال الساحر في حالة إرهاق، لذلك تلمع ذكراه في ذهني ولكن على نحو مبهم. وبدا على جميع وجوه من حولنا أنهم يشاركوننا سعادتنا، سواء كانوا أصدقاء قريبين وأقارب أو مسئولين.

وعقب بضعة أيام سافرنا إلى «رامسار»، وهي بلدة صغيرة على بحر قزوين. سافرنا حتى «ساري» في عربة ملكية، ملحقة بقطار عادي لمثل هذه المناسبات، ثم ذهبنا إلى «رامسار». كنا قررنا قضاء شهر العسل في هذه المنطقة التي أحبها كلانا، بدلا من خارج البلاد. وكثيرا ما تعودت إغاظة الملك قائلة: «**أدرك الناس منذ زفافنا أنك تزوجت فتاة إيرانية حقيقية**».

مازالت ذكرى هذه الرحلة إلى «رامسار» ماثلة في ذهني. فللمرة الأولى أسافر داخل البلاد كملكة عبر جبالنا الجافة، ثم سهول «جيلان» المخضوضرة. توقف القطار في كل قرية، وانتظر الناس في كل مكان لتحيتنا، مرتدين أفضل ثيابهم، فخورين وسعداء. وكانت النساء تلمسنني، وتقبلنني، ولمحت نظرة الفخر في عيون الرجال عندما يطلعون الملك على مدرسة جديدة، أو ملجأ أيتام، أو مصنع على وشك الافتتاح. وأظهر لي ذلك مدى إيمان الناس بالرجل الذي وهبته بنفسي حياتي كلها.

وفي جميع هذه اللقاءات العامة مع الحشود المرحبة، كان دائما متحفظا قليلا، وهو المجامل في اللقاءات الخاصة. ولاشك أن الإيرانيين لم يكونوا ليتفهموا أو يعجبوا إذا رفع عاهلهم الكلفة، لكنني رأيت أن تحفظ الملك كثيرا ما يحول دون التعبير عن مشاعر الدفء التي يشعر بها نحو أولئك الذين يرحبون به. وبالتالي كثيرا ما اعتدت أن أحثه على الابتسام، فهو تعبير ينقل أكثر مما تنقله الكلمات: «**ابتسم أمام الكاميرا، إنك وسيم للغاية، وسوف يرى الناس ما في قلبك**». وبعد سنوات قليلة عندما طلبت

من ابننا الثاني «علي رضا»، وهو في الثالثة أو الرابعة من عمره، أن يبتسم، رد بثبات: «**لا، لا أريد الابتسام. أريد أن أظل مثل والدي**». وكان الإيرانيون التقليديون يحبون أن يبدو الملك جادا في كل المناسبات.

تعرف كل منا على الآخر بصورة أفضل خلال هذه العطلة الأولى التي أمضيناها معا. كان الملك رياضيا عظيما، وفارسا جيدا بوجه خاص. وصارت الرياضة موضوعا نتشارك فيه ونستمتع به معا.

وهنا على الأقل تحرر من الضغوط تماما، واستعاد إحساس الشباب بالمرح. لم نضحك بهذا القدر من قبل. أتذكر رغبتي في تعلم ركوب الدراجة البخارية؛ اندفعت بسرعة، وسقطت من عليها. ونتيجة لذلك، صارت ركبتا جلالة الإمبراطورة ـ وهو اللقب الرسمي الذي خلع علي يوم زفافي ـ مسلوختين، ما أضحك الملك والمصورين أكثر، وأضفى طابعا أكثر طبيعية، أو ـ على الأقل ـ أقل رسمية على حياتنا اليومية.

أقمنا في «جراند أوتيل» الفندق الوحيد في «رامسار». وهو مبني على الطراز الضخم السائد في عهد الشاه «رضا»، وهو يطل على الطريق الرئيسي. ومرت الأيام على نحو لطيف، في زيارات إلى مزارع الشاي في المنطقة، وجولات سير طويلة، وألعاب الردهة التي يحبها الإيرانيون، ودعوات العشاء مع الأسرة.

وأتذكر مقابلة قصيرة مع مراسل صحيفة «تايمز» اللندنية، قلت له خلالها: «**إنني سوف أكرس حياتي لخدمة الشعب الإيراني والنساء بوجه خاص، بإتاحة الفرصة لهم للدراسة والعمل**». وما أن عدنا إلى طهران حتى أدركت إلى أي مدى لا أستطيع خدمة أي شخص، فنظرا لعزلتي في القصر، حيث يعمل الملك من الصباح حتى المساء، لم يكن لدي أي فكرة عن الأدوات التي تجعل الحركة ممكنة، فلم أكن تعلمت بعد كيفية عمل الملكة.

كان الملل أول ما واجهته، قبل ستة شهور فحسب كنت أستعد بنشاط لامتحانات العمارة. لم أعتد الخمول منذ كنت في المدرسة الابتدائية، وفجأة أصبحت كذلك بقوة الظروف. فالعاملون بالقصر ليسوا بحاجة إليَّ لإدارة أعمالهم. وإذا أردت قائمة طعام معينة أقول ذلك. وإذا لم أقله يتصرف الطباخ على نحو ممتاز جدًّا من دون

نصيحتي. بالإضافة إلى ذلك إذا غامرت واقترحت تغييرا في نظام الأشياء المعتاد، يقال لي باحترام إن ذلك يؤدى دائما بتلك الطريقة. ومن ثم لم أكن أصمم. وبصرف النظر عن خادمتي «ممتاز» التي أعرفها منذ كنت طفلة صغيرة وجاءت إلى القصر معي، ومربيتي «مونافار» التي جاءت مرة أخرى ـ كان كل من حولي يعملون في البلاط منذ سنوات، وكانوا أعلم مني كثيرا بعادات القصر.

وشيئا فشيئا ربما أتدخل ـ باعتباري سيدة البيت ـ في تفاصيل حفل استقبال، لكنه دور لم يرق لي أبدا. ومن ناحية أخرى أردت منذ البداية أن أؤدي شيئا معينا، وهو العمل من أجل البلاد. ولكن كيف ينبغي أن أؤدي ذلك؟ وهو السؤال الذي شغل ذهني حينذاك.

وعندما أعيد قراءة التقارير اليومية الرسمية للأسابيع الأولى التي قضيتها كملكة، أرى أنها سارت على غرار ما هو متوقع من زوجة الشاه في تلك الأيام:

٨ يناير ١٩٦٠ (في اليوم السابع عشر للزفاف): جرى الاحتفال بيوم تحرير المرأة الإيرانية، بحضور الشاهنشاه وجلالة الإمبراطورة.

٩ يناير ١٩٦٠: زارت جلالة الإمبراطورة معهد «باستير».

١٣ يناير ١٩٦٠: تعطفت جلالة الإمبراطورة بزيارة مؤسسة حماية الأمهات والمواليد، وقامت بتفقد أقسام المؤسسة المختلفة.

١٦ يناير ١٩٦٠: قام الشاهنشاه وجلالة الإمبراطورة بتفقد مستشفى الفارابي. وبهذه المناسبة طرحت البروفيسور «شمس» الميثاق الخاص بطب العيون، وناشدت جلالة الإمبراطورة أن تكون الراعي الرئيسي له.

١٧ يناير ١٩٦٠: تفقدت جلالة الإمبراطورة مستشفى علاج الدرن، والمبنى الجديد بسعة ٤٠٠ سرير.

١٩ يناير ١٩٦٠: تفقدت جلالة الإمبراطورة الأقسام المختلفة في مصحة «شاه عباد».

٢٤ يناير ١٩٦٠: افتتحت جلالة الإمبراطورة مركز الوقاية من أمراض السل في شارع مولوي.

٢٨ يناير ١٩٦٠: تفقدت جلالة الإمبراطورة مدرسة «رضا شاه العظيم» العليا.

٣٠ يناير ١٩٦٠: أقيم مهرجان اتحاد طلاب جامعة «طهران» بحضور جلالة الإمبراطورة.

تفقدت، وافتتحت مباني ومؤسسات، ولكن أثناء ذلك شاهدت، واستمعت، وتعلمت. وفي نفس الوقت تلقيت الكثير من المراسلات. وكانت هذه الخطابات مؤثرة للغاية، وأتاحت لي الحكايات المكتوبة بطريقة مؤلمة عن مواقف مأساوية معرفة مشكلات الساعة. ففي الأقاليم البعيدة ظل الناس يعانون الفقر المدقع، ونسبة وفيات المواليد مرتفعة، والمدارس قليلة ومتباعدة، والأطفال يفتقرون إلى النظافة، ويعانون الضعف بسبب سوء التغذية.

لم أستطع تجاهل هذه الالتماسات. كان عليَّ أن أرد عليهم، وأمنحهم الأمل، ولكن ما الذي أستطيع قوله؟ ربما كانت الحكومة تعمل بالفعل لحل المشكلة التي أردت أن أجد لها حلا. فلو لم يكن الأمر كذلك بمقدوري أن أكون صوت هؤلاء البائسين لدى الحكومة. وسرعان ما تحدثت إلى زوجي بهذا الشأن. وعرف المشكلات التي أثرت فيَّ، وظل يعمل لحلها شيئا فشيئا على مدى سنوات، لكنه شجعني، لحسن الحظ، على الاستمرار في هذا الطريق، وقال لي: «**سوف أعمل على إبلاغك بما تفعله الحكومة**». وبالفعل أرسل بعد أيام قليلة رجلا بارزا للعمل سكرتيرا خاصا لي هو السيد «فضل الله نبيل».

و«فضل الله نبيل» سفير سابق حظي باحترام عالمي، واسع الاطلاع بشأن العمل التنفيذي، فهو الرجل الذي احتجته بالضبط. وبفضل خبرته ـ كان كبير السن بما يكفي ليكون أبًا لي ـ تعلمت أولا كيف أنظم وقتي. ثم بدأت أتعرف على مشروعات التنمية القائمة بالفعل، والإصلاحات المقرر إنجازها مستقبلا، بفضل توجيهه وإرشاد المسئولين المتخصصين. استطعنا وقتها أن نبدأ العمل على نقل المعلومات إلى المواطنين الذين يراسلونني، والمقترحات إلى الحكومة. وطوال فترة بقائي ملكة ظل بابي مفتوحا دائما لهؤلاء الرجال والنساء الذين أرشدوني، ثم ساعدوني في إنشاء جمعيات للصحة والنظافة والتعليم، أيضا الثقافة، توليناها معا.

وسرعان ما واجه حرصي على العمل ومساعدة الملك أروع عائق؛ فبعد شهرين

من زواجنا اكتشفت أنني أنتظر طفلا. أضاء وجه زوجي بالبشر عندما سمع النبأ. لم أره قبلًا مشحونا بالانفعال الصامت لهذا الحد. ومنحني التفكير في أنني ربما أستطيع منحه السعادة التي اشتاق إليها دون طائل عشرين سنة مضت، أعظم فرحة ممكنة أيضا. قررنا أن نتريث أسابيع قليلة أخرى، قبل إعلان الأمر، ولكنه استحوذ على حياتنا من اللحظة الأولى. واختلف الآن كثيرا المظهر المعتاد للملك الذي صدمني حزنه قبل عام في باريس. وصارت لمعة الفرح تضيء وجهه بمجرد أن يراني.

كنا الوحيدين اللذين يعرفان السر عندما سافرنا بالطائرة إلى باكستان في ٢٠ فبراير. كانت أول رحلة رسمية لي، وكنت منفعلة بشأن رؤية ذلك البلد للمرة الأولى. وسعدت بوجه خاص لمرافقة الملك؛ شعرنا بالتقارب العميق بيننا منذ اللحظات الأولى لبداية الحمل.غير أنني لم أقدر حدة متاعب الوحم صباحا حق قدرها، وقد تفاقمت بسبب شدة حرارة الجو في باكستان. وجاءت أسوأ اللحظات ـ وهي على نحو ما أكثرها ظُرْفا، كما اتضح بعد ذلك ـ عندما كنت أجلس في سيارة بجوار الرئيس الباكستاني الجنرال «أيوب خان»، فبينما يحدثني ذلك الرجل الجذاب عن جوانب مختلفة لبلاده، ظللت أتساءل بيني وبين نفسي عما إذا كنت أستطيع التحمل حتى نصل لغايتنا. وما أن وصلنا حتى هرعت إلى الحمام. وتعددت المرات خلال هذه الرحلة التي يضطر أحدهم لمصاحبتي على وجه السرعة إلى مقر إقامتنا! واطمأنَّ الملك إلى أن الأمر ليس صعبا للغاية بالنسبة لي، ولكن لاشك أن الناس تعجبوا من أمري. ولم يمنعني ذلك من تقدير المشاعر التي أبداها الباكستانيون ـ ربطتنا دائما علاقات صداقة بجارتنا ـ والاستمتاع بالأمسيات الثقافية، خاصة تلك التي تعقد في حدائق «لاهور» الرائعة. وهناك استمعنا إلى قراءات لأشعار «إقبال لاهوري» التي كتبها بالفارسية. وصار اهتمامي بالثقافة والفنون معروفا. وفيما بعد عندما أقمت مهرجان شيراز، دَعَوْنا بالطبع فنانين باكستانيين.

وفي طريق العودة من باكستان توقفنا ليومين أو ثلاثة في «عبدان» على الخليج الفارسي، وكان يوجد بها في ذلك الوقت أكبر مصفاة للبترول في العالم، وهي من مفاخر ازدهار الاقتصاد الإيراني. فسعدت للغاية برؤية منشآتنا، ومقابلة آلاف العمال والمهندسين الذين كانوا يساهمون في تقدم بلدنا.

وهناك أيضا هوَّنت من شأن حالتي الصحية. فأنا أحب رائحة الغاز- التي تجعلني هذه الأيام أشعر بحنين دائم لإيران - لكن أبخرة «عبدان» الساخنة، والحرارة الحارقة، جعلت متاعب الوَحَم الصباحية تزداد سوءًا. وكنت أتلقى تكريما من الناس، الذين يريدون أن يروني ويعانقوني، لم يكن بوسعي أن أمرض. ولو كانت هناك أي بطولة في كونك شخصية عامة فستكون: القرار الحاسم بأن تكون حاضرا لتشكر المحبة التي يبديها لك الآخرون، بينما أنت راغب بالفعل في البقاء بالفراش. واستوقفتني، مع عدم الارتياح، الظروف المعيشية الصعبة في بعض أحياء عبدان، وعندما استقبلت مجموعة من النساء لم أخفِ ذلك، وقلت: «**خلال زيارتي أحياء الطبقة العاملة شعرت أن هذه الأسر تحتاج المزيد من الاهتمام والشفقة. علينا أن نفعل شيئا لمساعدتهم بأسرع ما نستطيع**».

وأتاحت لي هذه الرحلات، مع كمية الرسائل الضخمة التي أتلقاها، القدرة على قياس تطلعات الناس. ففي ١٩٢٥ تسلَّم الشاه «رضا» زمام حكم بلد ينتمي تقريبا للقرون الوسطى، وتعيش أقاليمه تحت نير رؤساء القبائل المحلية أو قطاع الطرق. وسلَّم بدوره ابنه - زوجي - حكما مركزيا معتدلا، والأساسيات الأولى لاقتصاد حديث. وعلى الرغم من التقدم الذي تحقق بالفعل ظللنا بلدا متخلفا، خاصة في المجالات الحيوية مثل التعليم، والصحة، والزراعة، والاتصالات. وكان سكان القرى النائية يقاسون، وكنا ندرك أنه يتعين القيام بشيء ما على وجه السرعة. وهاهي أموال البترول التي تسربت من أيدينا فترة طويلة عادت لتتدفق الآن على خزانة الدولة. وكان الملك متفائلا وأراد أن أشاركه ثقته، فقال لي: «**لا يمكن القيام بكل شيء من أجل الجميع بين عشية وضحاها، ولكننا سرعان ما سنستطيع الإسراع بخطى النمو**».

بدا المستقبل واعدًا للبلاد، ولنا أيضا. ولم يكن حملي أعلن رسميا بعد، غير أن الناس صاروا متعجلين، في إيران بالطبع، وفي الخارج أيضا. وكل يوم تصل الطرود إلى القصر: أحذية أطفال زرقاء صغيرة، وهدايا مختلفة لجلب الحظ، مثل قطعة من شبكة مهد لم يهز سوى البنين. وأصرت الأميرة «شمس» على استدعاء طبيب سويسري، بروفيسور «دو واتفيل»، الذي يقال إنه يمكنه أن يقدم النصح بكيفية الحصول على ولد بدلا من بنت. وحضر، ولكن لحسن الحظ كنت بانتظار طفل

بالفعل. وأكدت لي خياطة عجوز، كانت تعمل لدى أسرتي، أن كتابة دعاء على البطن بالطين المُصَلَّى عليه يضمن مجيء ولد. وفي كتاب نشر حديثا في «طهران» قرأت الموضوع المضحك السخيف التالي: أنني أنجبت ولدا بفضل طبيب إيراني اخترع لي نظاما غذائيا يعتمد على اليوسفي والبرتقال! ويكشف استمرار حديث الناس عن هذا الحمل بعد مرور أربعين عاما، عن اللهفة والأمل اللذين أثارهما.

وأخيرا، في ٢٠ مارس ١٩٦٠، عشية «النوروز» رأس السنة الإيرانية، فُوِّض المتحدث الرسمي باسم البلاط بإعلان الحدث السعيد. وطبقا للعادة انتظرنا ثلاثة شهور قبل التصريح بأي شيء. ولم تكن الأشعة فوق الصوتية معروفة في ذلك الوقت، ولا يستطيع الأطباء تحديد نوع الطفل. لم يكن هناك سوى نظريات خيالية تعتمد على شكل البطن وضربات قلب الجنين. وتزايد الإحساس بالفضول بشكل ملحوظ في إيران، كما تزايدت طرود أحذية المواليد وغيرها من الرموز المشجعة. ومثلما يحدث عادة في بلدنا راجت الشائعات الأكثر خيالية. فعلى سبيل المثال قيل إنني لست حاملا وإنما أضع وسادة فوق معدتي. وكان مصدر هذه المعلومات المضللة بوجه عام حزب «توده» الشيوعي وأنصاره. وقيل أيضا إن الشاه ليس والد الطفل لأنه لا يستطيع الإنجاب. ولاحقا ترددت شائعة أن ابني أبكم، ولوقف هذه الشائعة اضطررنا لعرض فيلم على التليفزيون للأمير الصغير وهو يثرثر في مكتب والده. ثم كانت هناك فكرة أنني وضعت الطفل في مستشفى كبير جنوب المدينة حتى يمكن إبدال الطفلة التي وضعتها بطفل ذكر.

ولد «رضا» قبيل ظهر ٣١ أكتوبر ١٩٦٠. وكنت قد قررت الولادة في مؤسسة حماية الأمهات والمواليد، في منطقة جنوب «طهران»، وهي منطقة عمالية بناها «رضا شاه»، ويعنى المستشفى بالسيدات المحتاجات مجانا. ووافق زوجي على هذا، وقاد السيارة التي أقلتني بنفسه عندما بدأت أولى انقباضات الرحم. وسرعان ما انضمت إلينا الأسرة كلها. وأعتقد أن المستشفى بكامله عرف أنه ولد قبل أن أعرف. فقبيل نهاية حالة الوضع أعطوني مخدرا، وزادت طبيبة التخدير من الجرعة قليلا (وهو ما أثار غضب الطبيبة التي ولَّدتني البروفسور «جيهان شاه صالح»)، وعندما أفقت كان الحدث تنوقل بالفعل عبر طرقات المستشفى. قيل لي لاحقا إن الناس

كانوا يهرعون من كل مكان لإبلاغ الملك بالحدث، وكانت والدتي القلقة تسألهم بلا جدوى: «**وكيف حال ابنتي؟! هل لديكم أخبار؟!**».

وعندما فتحت عينيَّ، كان الملك بجوار فراشي، ممسكا بيدي.

قال في لطف:

ـ تريدين أن تعرفي؟

ـ نعم.

ـ إنه ولد!

وانخرطت في البكاء. والتُقِطَت صورة «رضا» الرسمية بعد ثلاثة أيام، وتستطيعون أن تروا إلى أي حد كان يشبه والده. وبجانبه ظهرت البروفيسور «جيهان شاه صالح»، وطبيبة الأطفال الدكتورة «ليوسا بيرنيا» التي ستبقى معنا حتى في المنفى.

تجمع آلاف الأشخاص قبالة بوابات المستشفى منذ الفجر. ولعدة أيام مضت ظل الصحفيون الإيرانيون والأجانب مرابطين هناك بالفعل. وما أن أعلنت الطبيبة المولِّدة أن أسرة «بهلوي» أنجبت أخيرا وريثا للعرش، حتى أُطلِقت واحدة وعشرون طلقة مدفعية لتحيته. وتزايد الحشد عند أبواب المستشفى، إلى حد أن زوجي الذي أراد أن يذهب ليصلي في المكان المقدس «شاه عبد العظيم» ويتأمل عند قبر والده، لم يستطع أن يصل إلى الضريح، واضطر للتخلي عن الفكرة مؤقتا. فما أن تعرَّف الجمهور على سيارته، حتى اقتحم الطوق الأمني واحتشد حوله. وقال لي لاحقا إنه لم يشهد في حياته مثل هذا الفيض من الفرحة العارمة والدفء. كان الناس يضحكون ويبكون؛ أرادوا أن يقبِّلوه واحتاروا بين الرغبة في الاحتفاء به وبين التراجع للخلف حتى يتركوه يمر، حتى أنهم بالفعل رفعوا سيارته من على الأرض! وفي نفس الوقت انطلق الإيرانيون عبر أنحاء البلاد إلى الشوارع ليتبادلوا حلوى أعدتها كل أسرة بالبيت. وعم الرقص شوارع «طهران» و«تبريز» و«شيراز» وغيرها من المدن. وعندما شاهدت صور الفرحة في الصحف غمرني انفعال بالغ لمجرد التفكير في أن الصبي الصغير الذي يتنفس بهدوء بين ذراعيَّ هو السبب وراء كل هذه السعادة.

وانتشر الخبر بالطبع في جميع أنحاء العالم، ولكن مرة أخرى جاء أفضل ترحيب من فرنسا، حيث اختارت إحدى الصحف كتابة العنوان الرئيسي بالفارسية «**بيزار أست!**» (**إنه صبي!**).

وبعد أيام قليلة تلقيت تقديرًا ساحرًا من أهل «طهران»، فعندما علموا أنني سأغادر المستشفى للعودة إلى القصر، اصطف الناس على جانبي الطريق، وفرشوا البُسُط ونثروا الزهور على طول الطريق، وأقاموا أقواس النصر هنا وهناك. فطلبت من السائق أن يقود السيارة ببطء حتى أستطيع أن ألوِّح لهم. أحببت أن أخبر كلا منهم كم كنت ممتنة لحضورهم ومحبتهم!

الفصل الثامن

وثَّق وصول «رضا» عُرَى ارتباطنا على نحو أكبر. مثَّل الطفل فرحة غامرة! ولو كان بنتا لاحتفيت به بنفس دموع الفرح، ولكن كونه ذكرًا أضفى على سعادة زوجي شعورا بالاطمئنان. كما منح حبنا انسجاما جديدا، فصار أكثر تألقا، خاليًا من الترقب، وأكثر ثقة بالمستقبل.

وخلال بضعة أسابيع رأيت الملك يتغير تماما. فبعد أن كان خجولا ومتحفظا في العادة لم يعد يحاول حتى إخفاء ما يشعر به من حنان وعاطفة تجاه ابنه. ولأنني كنت أرضع «رضا» رضاعة طبيعية كان يختلس الوقت بين مقابلاته الرسمية ليكون معنا ليطمئن إلى أن الطفل على ما يرام، ويطلب من المربية الفرنسية «جان جيلون» التي استقدمناها أن تبلغه مرة أخرى عن طوله ووزنه، ويوصيها بأن تولي عناية خاصة بتحاشي ميكروب معين تحدثت عنه الصحف. وكان أكثر ما يقلقه ألا يصير ابنه طويلا كما يأمل. فيسألني: **«فرح»، لماذا ساقاه منحنيتان هكذا، وصغيرتان؟!** وذكرته بذلك بعد فترة طويلة عندما بلغ طول «رضا» ست أقدام وصار أطول منه.

وانتظمت حياتنا الآن حول «رضا». وأستطيع أن أتذكر إلى أي مدى كان الملك منتشيا، وكذلك كنت أنا نفسي، عندما خطا «رضا» أولى خطواته في حديقة القصر. وأحيانا كنا نخرج ثلاثتنا يوم الجمعة وهو عطلة رسمية إلى الريف في أعالي «شميران»، كلما سمح الطقس. ويتدحرج الملك فوق العشب مع ابنه، ويؤدي جميع أنواع الألعاب له. وصارا يشتركان بالفعل في حب السيارات والطائرات بوجه خاص. وأذكر أن «رضا» كان يصاب بالأرق أحيانا عند عودتنا في المساء إلى «طهران»، وكل ما كنا نحتاج لتهدئته أن نخبره أننا سنعرض فورا فيلما اسمه «مولان روج» فكانت مراوح

طواحين الهواء تسحره، كما فتنته مراوح الطائرات عندما كبر. وحتى في القصر كثيرا ما يتوقف أمام المراوح، ويقول: «**دعيها تدور من فضلك**»، وعيناه تشعان بالسعادة.

ثم بدأنا نقلق، بدا أنه غير قادر على نطق «الراء» مثلما ننطقها بالفارسية. وكان ذلك مزعجا بالنسبة لعاهل المستقبل، الذي يتعين عليه أن يتحدث إلى الجمهور. فهل يعاني من تشوه في اللسان؟ ظللت لشهور أطلب منه ترديد «رررضا»، «داررريا» (بحر بالفارسية)، «ديرررراخ» (شجرة)، قبل أن أدرك أنه ببساطة ينطق الراء الفرنسية مثلما تنطقها مربيته الجديدة «جويل فوييه». ثم اكتشفنا أنه أعسر مثل جده الشهير «رضا شاه». ومع ذلك لم تكن هذه المقارنة كافية لطمأنة طبيب زوجي الذي كان ضابطا عسكريا، الجنرال «عبد الكريم عيادي».

ظل يقول لي: «**ليس جيدا أن يكون ولي العهد أعسرَ، عليه أن يتخلى عن هذه العادة**». وكانت إجابتي: «**لا، ليس مهما. عندما يحين وقت أدائه للتحية العسكرية سوف يؤديها بيده اليمنى**»، لم يقتنع الطبيب، واكتفى زوجي بالابتسام.

صار الملك أكثر هدوءا وأكثر استعدادا للضحك رغم عبء العمل الثقيل. أما بالنسبة لي، كملكة، والآن كأم، أتذكر مرات عديدة انسللت فيها من حفلات استقبال رسمية، مرتدية ثوب سهرة وتاجًا أحيانا، لأرضع طفلي في الخفاء.

وفي ذلك الوقت اتخذت حياتنا طابعا معينا؛ الاستيقاظ مبكرا، وبوجه عام يقضي الملك فترة الإفطار في قراءة الصحف الإيرانية والأجنبية، وتقارير مختلفة ترد في حقائب مغلقة. ثم يذهب إلى مكتبه في «قصر الرخام» على الجانب الآخر من ميدان صغير. ونرى بعضنا البعض مرة أخرى على الغداء، الذي تحول عبر السنين إلى اجتماع عمل. ولكنه في الأيام الأولى من زواجنا كان فترة قصيرة نستطيع فيها التحرر من الضغوط. وفي الساعة الثانية يستمع إلى الأخبار وهو أمر مقدس لاشيء يشغله عنه، ثم جعلها قاعدة أن يأخذ قيلولة قصيرة قبل استئناف مقابلاته. وخصص فترة ما قبل العشاء للاطلاع على الأوراق مرة أخرى، والقيام ببعض التمارين العضلية ـ بالدامبلز[1] أو رفع الأثقال ـ ثم يقوم خادمه الخاص بتدليك عضلاته، ونتناول العشاء. وفيما بعد اعتاد «رضا» ثم شقيقه وشقيقتاه الحضور أثناء جلسة التدليك، والرقاد بجوار الملك وهو يداعب ظهورهم أو رقابهم.

---

(١) كرتان حديديتان يربط بينهما قضيب لتدريب العضلات. (المترجمة).

وخُصِّصَ مساء الاثنين للعائلة الكبيرة. فما أن دخلت القصر حتى عملت على إحياء العلاقات الطيبة بين الملك وبعض إخوته وأخواته الذين يبتعدون أحيانا بسبب خلافات قديمة عبر السنين، وفي نفس الوقت شجعته أيضا على إقامة علاقات طيبة مع عائلتي. فأنا ـ كأي إيرانية صالحة ـ أحترم الروابط الأسرية والتقاليد، وهذا ما محا من ذهني أنواع سوء التفاهم والمنغصات التي تنشأ حتما.

أما يوم الجمعة فكان مخصصا للأصدقاء. وبالإضافة لذلك هناك حفلات العشاء الرسمية، والدعوات المتعلقة بالعمل. ولكن رغم ذلك كله استطعنا في بعض الأحيان أن نكون وحدنا معا في الأمسيات. وأتذكر إلى أي مدى استمتعنا ـ الملك وأنا ـ بهذه اللحظات الحميمية النادرة.

كان يقول لي: «**احك لي ماذا فعلتِ اليوم**».

وأحيانا أضطر لأن أحكي له أشياء غير مسلية على الإطلاق، ولكنني في ذلك الوقت كنت لا أزال أنظم مكتبي، وكنت أتوقعه أن يكون مسليا فعلا. وإلى جانب ذلك أحببت دائما سرد القصص، وإضفاء الحيوية على المغامرات الصغيرة اليومية. وكنت وأنا طفلة أدفع ابن خالي «رضا» للضجر بسذاجة. حيث كان يفر جريا عندما لا يستطيع تحمل المزيد من ثرثرتي، ومازلت أتذكر نفسي وأنا أجري خلفه لأجعله يصغي إليَّ. غير أن الملك لم يكن يمل الاستماع. وخلال تلك الفترة استطعت أن أضحكه كثيرا. فكنت أبلغه بشكل خاص محادثات معينة أجريتها خلال اليوم، أعرف أنها سوف تسليه، وربما أضيف بضع قصص تتفق معها.

وغالبا ما كنا ننهي هذه الأمسيات بمشاهدة فيلم في غرفة للعرض، بنيت في بدروم القصر. وكان زوجي مغرما بـ«تشارلي شابلن»، و«لوريل وهاردي»، و«جيري لوي»، و«بوب هوب». ولم أشاهده مطلقا يضحك مثلما يفعل عند مشاهدة مقالب «تشارلي شابلن». فكان ينفجر ضحكا كطفل، وأقول لنفسي: «**من الجيد أن لديه تلك الفرصة الضئيلة للمرح. فهو يعمل بجد بالغ بقية الوقت!**» وكانت سعادتي لمشاهدته مبسوطا تدفعني للضحك أكثر من طرائف الكوميديانات التي لم تكن تبهرني كثيرا. وعندما كنت صغيرة، اعتاد أصدقائي أن يستمتعوا بالنظر إليَّ وأنا جالسة في ثبات بينما هم يغرقون في الضحك. وحتى اليوم لا يضحكني سوى «لوي دى فينيس»، و«بيل

كوسبي»، و«ميل بروكس»، و«أرهام صدر»، و«برفيرسيد»، و«شبادجي خانوم». وكنا، الملك وأنا، نحب الأفلام التاريخية، وأفلام الحروب، من أجل الجانب البطولي في بعض الشخصيات.

وفيما يتعلق بالسياسة بدا المستقبل أيضا متألقا أمام زوجي، بعد تلك السنوات العصيبة من الخمسينيات. فالاقتصاد صار يتقدم مرة أخرى، بفضل التسوية التي تمت بشأن تأميم البترول. وأصبح بإمكان الحكومة للمرة الأولى استثمار العائد من حقولنا البترولية في التنمية المحلية.

وكان الملك يتحدث معي بحماس شديد عن التأميم، ويأسف لأن تطبيقه استغرق معركة دامت عشرين عاما. لكننا حققناه هذه المرة، فلم يسبق منذ فترة حكم «رضا شاه» الشهيرة أن كان هناك مثل هذا العدد من المشروعات الجديدة قيد التنفيذ. فمع انتهاء الخمسينيات وحلول الستينيات أُنشِئَت السدود الكبيرة الأولى، بالإضافة إلى قنوات الري، ومحطات الطاقة الكهرومائية، ومصانع الأسمدة الكيميائية. ووُضِعَت الخطط لزيادة شبكة السكك الحديدية إلى ثلاثة أمثالها، ورصف طرق معبدة بطول خمسة آلاف كيلو متر، وإنشاء الطرق الفرعية بطول ٣٠ ألف كيلومتر. ومن بين منشآت أخرى تم مد خطوط أنابيب عبر إيران بطول ٢٤٠٠ كيلومتر. ورأى الملك أنه سرعان ما سيمتلك سبل إطلاق الثورة السلمية التي كانت في ذهنه، حتى تنهض البلاد أخيرا من حالة التخلف. وكانت هذه الثورة تخامر ذهنه منذ كان طالبا في سويسرا. ومن الواضح أن الدعامة الأولى ينبغي أن تكون الإصلاح الزراعي، الأمر الذي لقي مقاومة كبيرة.

ورغبة من زوجي في إظهار أنه لا يمكن الدفاع عن ملكيات الأراضي الكبيرة بينما يعاني صغار الفلاحين صعوبة بالغة في تدبير العيش، منح أرضه للحكومة لتبدأ توزيعها في ١٩٤١. وفي عام ١٩٥٥ أنشئ بنك للائتمان الزراعي والتعمير، بمبادرة منه، وجرى تقسيم ٢٠٠ ألف هكتار من الأراضي المملوكة للدولة على ٤٢ ألف مزارع. وكانت تلك بداية فحسب، لكنها أثارت استياء كبار الملاك، ومن بينهم رجال دين يحصلون على معظم مواردهم عبر أراضيهم. ولم تكن مواجهة رجال الدين الشيعة بنفوذهم الهائل في أنحاء البلاد أقل هذه الصعوبات. وكان الملك واعيا تماما بمقاومتهم، لكنه أدرك أن التقدم والتعديلات الديمقراطية التي يريدها سوف تشمل

بالضرورة تغيير نظرة الناس. وسوف تتحقق الثورة التي كان يخطط لها على المستوى الثقافي أيضا. وقال إنه يستطيع القيام بذلك إذا اكتسب ثقة البلاد ـ غالبية الشعب ـ ومع بداية الستينيات شعر أن لديه تلك الثقة. ولم يكن ليعزز هذا الانطباع سوى مولد ولي العهد.

وفي ١١ أكتوبر ١٩٦١ قمنا برحلة رسمية إلى فرنسا استغرقت ثلاثة أيام. وكان زوجي معجبا للغاية بالجنرال «ديجول». ومن بين جميع قادة الدول الأحياء يعتبر «ديجول» تجسيدا للسبيل الذي يرى فيه الملك رسالته؛ نزعة وطنية صارمة، مع بصيرة صائبة للغاية. وكتب في مذكراته: **«عندما مر الجنرال «ديجول» بـ«طهران» في طريقه إلى موسكو في ١٩٤٢ كنت ملكا حديث السن، أسرتني شخصيته الاستثنائية منذ لحظة لقائي به. وأصغيت إليه وهو يتحدث عن فرنسا حديثا كما لو أنه صدى لطموحاتي من أجل بلدي؛ أن أراها مستقلة مرة أخرى داخل حدودها. وكان لديه بلاغة هادئة تجعل إيمانه ببلده مُعديًا»**. ومن ثم رأى زوجي قيمة رمزية في مقابلته للجنرال مرة أخرى، بينما يتأهب لدفع إيران إلى تحول حاسم من أجل مستقبلها. ويرجع ذلك كله إلى أن الاحترام كان متبادلا. وأشاد الجنرال بالجهود التي تبذل لتحقيق انتعاش إيران، وأبدى تأييده للملك بقية حياته. وبعد ذلك بكثير، عندما أدت «الثورة الإسلامية» إلى نهاية عقود من التقدم، أعاد ابنه الأدميرال «فيليب ديجول» ذكرى العلاقة بين والده والملك، بلباقة، عندما ظهر في مقابلة تليفزيونية ومن خلفه ظهرت بوضوح بورتريه شخصي لزوجي. وأنا ممتنة له كثيرا بسبب هذه اللفتة، لأنه أبداها في وقت لم يكن هناك سوى قليلين للغاية بلغوا من الشجاعة بحيث عبروا عن رأيهم.

وبالنسبة لي كنت متعجلة للغاية ومتلهفة لزيارة باريس مرة أخرى. وقبل وصولي بفترة نشرت الصحف الفرنسية العديد من الأعمدة التي تذكِّر بحقيقة أنني تركت البلاد قبل عامين «كطالبة هندسة معمارية صغيرة» وأنني أعود كـ «ملكة وأم شابة». ومع ذلك يبقى خلف هذه القصة الخيالية التي رُوِّجت بعناية، مودة حقيقية للغاية بيني وبين العديد من الفرنسيين، جعلتني أشعر تقريبا كما لو كنت عائدة للبيت لدى أسرة بالتبني.

وبصرف النظر عن فخامة الاستقبال عزز الجنرال «ديجول» وحرمه هذا الانطباع بإبداء مشاعر خاصة شبه أبوية نحو الملكة التي لم تزل صغيرة وتفتقر إلى الخبرة،

التي كُنتُها في ذلك الوقت. وبعد سنوات قيل لي إن الجنرال عندما سئل: «**بين جميع زوجات قادة الدول اللاتي التقيت بهن، من هي أكثر من أثارت إعجابك؟**» فأجاب: «**فرح**»!

- **وماذا عن «جاكي كيندي»؟**

أجاب: «**إنها لطيفة جدًّا أيضا، لكن «فرح» ذات لمحة شقيَّة تسبغ عليها شيئا إضافيا**».

وأجرى زوجي حديثا مطولا مع الجنرال، بينما اصطحبتني مدام «ديجول» في جولة لمشاهدة قصر الإليزيه. وكان «أندريه مالرو»، الذي مازلت أذكر إهداءه اللطيف، كريما بحيث اصطحبني إلى بعض المتاحف العظيمة في باريس. وسررت لرؤية سفيرنا «نصر الله انتظام» مرة أخرى، وهو نفس الرجل الذي رحب بي في السفارة في مارس ١٩٥٩، عندما أبدى الملك رغبة في الالتقاء ببعض الطلبة الإيرانيين أثناء زيارة قصيرة إلى باريس.

وأرادت السلطات الفرنسية أن تواكب زيارتنا افتتاح معرض للفن الإيراني في باريس احتفاء بتاريخ شعبنا ذي السبعة آلاف عام. وحدثت واحدة من أهم علامات هذه الرحلة، عندما أشار الملك الذي كرَّس نفسه للثقافة والحضارة الإيرانية إلى رؤيته للمستقبل من خلال إشارته لوالده «رضا شاه»: «**لا يوجد من يحمل مثل هذا الحب لبلده والإيمان بها مثل والدي. لقد كرَّس نفسه للأرض التي ولد عليها حتى أنه اعتقد أن الثقافة الفارسية تتفوق على كل ما عداها من جميع النواحي. كما لا يوجد من بذل مثل هذه الطاقة في إصلاح بلده، والرغبة في إعادتها للشباب، وتحديثها، وهو ما قد يبدو متعارضا مع حبه للثقافة الفارسية. فوالدي كان معجبا بماضي فارس العظيم، وأراد أن يتجنب تلك الأساليب العتيقة في تاريخنا التي لا تتماشى مع التقدم. لكنه كان مقتنعا بأن وحدة الأرض والأمة، إلى جانب سعادة الشعب، تستلزم المسارعة في تطبيق الأساليب الغربية**».

وتضمنت تلك العبارات القليلة بذور الثورة الناعمة التي كان الملك يعدُّ لها. كما اشتملت أيضا على بذور أشكال المعارضة المختلفة التي سيكون عليه مواجهتها. ولم يكن هناك من التبس عليه فهم الخطاب، فأذكر كلمات «إدوار سابلييه» كاتب

الافتتاحية في صحيفة «لوموند»: **«عندما يكون هناك من روَّض المحتل الإغريقي، وانتصر على قوة الرومان، واستوعب المغول، واحتوى الإمبراطورية العثمانية، وتقريبا الحالة الوحيدة في السجلات المعاصرة التي خففت قبضة الجيش الأحمر عن إقليم كان قد ضاع تقريبا هو «أذربيجان»، فما الذي يخيف من المستقبل؟!»**.

وبعد ستة أشهر، شهدت ترحيبا مختلفا للغاية في الولايات المتحدة، حيث دعانا الرئيس «كيندي»، الذي انتخب مؤخرا، وتحمَّست لفكرة هذه الرحلة، وحلمت برؤية أمريكا. وبالنسبة لزوجي، الذي استقبل الرئيس «أيزنهاور» في طهران عام ١٩٥٩، كان هدف الزيارة التعرف على خليفته وتمهيد الطريق لإقامة علاقة مهمة لصالح اقتصادنا. وكان زوجي تقليديا أقرب إلى الجمهوريين من الديمقراطيين، لكنه كان متأكدا من قدرته على إقناع «كيندي» بمزايا سياسته. وبدا آل «كيندي» ودودين للغاية، ومرحبين، وأخذتني «جاكي» في جولة غير رسمية داخل البيت الأبيض، ثم تمشية طويلة خلال الحدائق. ومازلت أتذكر دفعها للصغير «جون ـ جون» في عربة الأطفال. ومع هذا، كانت الولايات المتحدة تستضيف عددا كبيرا من الطلاب الإيرانيين، معظمهم جاءوا بمنح دراسية حكومية، لم تمنعهم من الانتماء لحزب «توده» الشيوعي، أو الحركات الأخرى المناهضة للملكية، وهكذا خرجت المظاهرات.

وتركت هذه الرحلة في نفسي ذكرى محبطة لمتظاهرين يرفعون شعارات عدائية ضد الملك. كانوا في كل مكان، على بعد أمتار منا في بعض الأحيان، لدرجة أن زوجي كان يضطر لرفع صوته عندما يحتاج للتحدث. ونحن نسمعهم يهتفون من الصباح حتى الليل، حتى تحت نوافذ الفندق.

واضطررت إلى مغالبة انزعاجي باستمرار، حتى لا يظهر، خاصة في وجود صحفيين، لكنني كنت من داخلي أبعد ما أكون عن الهدوء. وسمعت مطالب الطلاب. حقيقي أنه مازال أمام البلاد شوط طويل، لكن تقدما كبيرا قد تحقق. وكان هؤلاء الطلاب الإيرانيون في رأيي دليلا حيا على ذلك، حيث إن معظمهم تموِّله الدولة التي يلعنونها، وسرعان ما سيجد العديد منهم وظائف. لم يدركوا إلى أي مدى وصلنا، وأي فقر كان موجودا قبل حكم «رضا شاه». وهم بالتأكيد لم يدركوا كم من الزمن استغرقت الولايات المتحدة لتصل إلى مستوى الثروة والديمقراطية اللتين يشهدونهما. وعلى أي حال، تظل الرحلة الأولى للولايات المتحدة حدثا أليما

في ذاكرتي. وبعد بضع سنوات، رفضت مصاحبة زوجي في رحلة رسمية إلى هناك. ولما كنت أعمل اثنتي عشرة ساعة يوميا من أجل رفاهة الشعب الإيراني، قلت له: «**إذا كنت سأذهب هناك فقط لأهان مرة أخرى، فوجودي هنا له فائدة أكبر كثيرا**». ولم أكن بالطبع أعلم أنه بعد مرور عشرين عاما، سيقف المتظاهرون مرة أخرى يهتفون ويرفعون الدعوات بموت الملك، ولكن هذه المرة خارج المستشفى في نيويورك، حيث يصارع زوجي ـ في المنفى ـ مرضا خطيرا.

ومع ذلك، يجب ألا يطغى هذا الانطباع المبكر على ذكرى عدة زيارات رائعة: إلى متحف «المتروبوليتان»، ومركز «لينكولن»، واستديوهات هوليوود، حيث تناولنا غداء مبهجا بصحبة «جريجوري بيك»، و«ريد شيلتون» و«داني كاي»، و«جينجر روجرز»، و«جورج كوكر»، وآخرين. وأجرينا بعض اللقاءات التي لا تنسى، خاصة مع «والت ديزني»، الذي أهدانا بعض الرسومات الأصلية من أجل «رضا».

وخلال تلك الرحلة أقمنا صداقة مع «ليندون جونسون»، نائب الرئيس في ذلك الوقت. ومازالت زوجته وابنته وصهره على اتصال بي حتى اليوم. وكنت لا أشعر بارتياح تام عند التحدث بالإنجليزية، لذلك أتذكر صعوبة محاولة فهم حديث نائب الرئيس بلكنة تكساس الملحوظة. وفي كاليفورنيا، اكتشفت إلى أي مدى يمكن أن يكون الأمريكيون لطيفين وودودين، ورفع ذلك من حالتي المعنوية.

في نفس عام ١٩٦٢، الذي شهد الهتاف بسقوطه في واشنطن، أنهى الملك تخطيط الإصلاحات الكبرى الستة، التي أطلق عليها «الثورة البيضاء»، وهي بيضاء لأنها ثورة استهدفت تحويل إيران إلى دولة حديثة من دون إراقة قطرة دم واحدة.

وكان أول بند في هذا البرنامج بالطبع هو الإصلاح الزراعي، الذي طالما اشتاق إليه الفلاحون وصغار المزارعين، وطالما تخوف منه كبار ملاك الأراضي. فكما ذكرت لم يتخل أولئك الذين يملكون مساحات شاسعة من الأراضي عن شيء، رغم مبادرة الملك.

وفي إيران منتصف القرن العشرين، كانت نسبة ٩٥ في المائة من الأراضي الزراعية لا تزال في أيدي القلة المتميزة، بينما أوضاع طبقة فلاحينا تماثل تقريبا في السوء وضع الرقيق في أوروبا القرون الوسطى، ولم يكن من الممكن أن تستمر

هذه التفرقة. ووفقا للقانون الجديد لا يجوز لأولئك الذين يمتلكون عدة قرى سوى الاحتفاظ بواحدة فحسب، وعليهم بيع القرى الأخرى للحكومة التي تقوم بتوزيع الأراضي على الفلاحين. وفي ذلك الوقت لم يكن في إيران سجلات للأراضي، ومن ثم كانت القرية هي وحدة القياس المستخدمة، رغم أن أحجام القرى تتفاوت. وبعد عامين من إصدار قانون الإصلاح الزراعي صار ثمانية آلاف و٢٠٠ قرية (من بين إجمالي ١٨ ألف قرية) مقسمة بالفعل بين ٣٠٠ ألف أسرة. وكان من المفترض أن تستمر هذه الحركة بالرغم من معارضة رجال الدين العنيفة، التي سأصفها فيما بعد.

أما الخطوة الثانية: فهي تمويل الإصلاح الزراعي، حيث تقرر خصخصة عدد معين من المشروعات الحكومية. وتوقع الملك أن يقرر الأثرياء الإيرانيون، وبالذات كبار ملاك الأراضي، استثمار ثرواتهم في هذه المشروعات في السوق الحرة الجديدة. وحدث ذلك بالفعل، ولكن ببطء شديد، لأن النخبة الاقتصادية الإيرانية كانت مترددة وغير راغبة في دعم جهود الملك لتحديث البلاد.

والخطوة الثالثة: تأميم الغابات والمراعي، وهي خطوة معاونة ضرورية للإصلاح الزراعي.

وكانت الخطوة الرابعة: هي مساعدة العمال، بتمكينهم من المشاركة في أرباح شركاتهم. وفي وقت لاحق خصصت نسبة ٢٠ في المائة من جميع الأسهم في الشركات الإيرانية للعمال وموظفي الإدارة.

والخطوة الخامسة، التي ثبت أيضا أنها حافلة بالتداعيات: نجم عنها منح المرأة الحق في الاقتراع والترشح في الانتخابات. وسرعان ما اتخذ قِسم محافظ وظلامي من رجال الدين موقف الهجوم. وكان «رضا شاه» في ١٩٣٦ حريصا على منح المرأة نفس حقوق الرجل، وجلب على نفسه غضب رجال الدين بحظر ارتداء الشادور (حجاب الإيرانيات)، والأسوأ من ذلك طلبه من الشرطة نزع الشادور عن النساء اللاتي صممن على ارتدائه (وكان قد طبق هذا الحكم على نساء أسرته وجعل الملكة الأم وابنتيها يظهرن مرتديات القبعات وليس الأحجبة). وهذه المرة لم تكن المبادرة تقصد بأي حال أن تبدو كما لو أنها مهاجمة للاعتدال، وإنما على العكس كعلامة

أولية على احترام النساء. وكان المقرر أن يتمتعن في النهاية بحقوق المواطنة الكاملة. أما بالنسبة للشادور فكان زوجي ألغى منذ فترة مرسوم والده، وسمح للنساء بحرية ارتدائه أو عدم ارتدائه، وفق ما يرغبن.

وأخيرا الخطوة السادسة: جاء إنشاء «فيالق محو الأمية» ضروريا لتنمية البلاد، وتشكلت من خريجي المدارس الثانوية، ومهمتها محو الأمية في المناطق الريفية. وفي بداية الستينيات بلغت نسبة الأميين في إيران ٨٠ في المائة! فكيف كان من الممكن أن نعالج هذا القدر الكبير من الفشل، بينما عدد معلمي المدارس الابتدائية المؤهلين يكفي بالكاد لتلبية احتياجات المدن؟! وثبت أن تجنيد الشباب لهذه المهمة الهائلة فكرة نجمت عن إلهام فريد من نوعه، سرعان ما جذبت اهتمام العالم. فكم هو مفرح ذلك! بعد خمسة وعشرين عاما سوف تكون إيران قد قضت عمليا على هذه العقبة الكئود، وبفضل هؤلاء الجنود المخلصين و«منظمة محاربة الأمية» سوف تقهر البلاد الأمية.

ولما رأى الملك النجاح الذي لا يمكن إنكاره لهذا الأسلوب، سرعان ما توسع فيه عام ١٩٦٤ بإنشاء «فيالق الصحة العامة» من طلاب الطب البشري وطب الأسنان، الذين سيدخلون الإسعافات الأولية إلى القرى، وقبل كل ذلك يعلمون الأهالي قواعد الصحة الأساسية من أجل منع الأمراض. ثم جاءت «فيالق التنمية والبناء» لتعليم المزارعين أساليب الزراعة الحديثة. وبالطبع تلقى جميع هؤلاء الشباب تدريبا جيدا قبل إرسالهم إلى الريف.

وكان الملك والحكومة والمكلفون مدركين تماما للصعوبات التي أمامهم مع هذه المجموعة الأولى من الإصلاحات. وتحدثنا بشأن ذلك بصورة مطولة للغاية، وكنت فخورة للغاية بكوني زوجة رجل وضع مثل هذه الشجاعة وقوة البصيرة في خدمة بلده. أعجبت به، وشعرت أنه بصدد الإسهام ببعض صفحات ضرورية في تاريخنا. وكان ذلك مثيرا، لأنني أيقنت أنه يملك الرؤية الصحيحة، وأنه مكرَّس تماما لإيران. وواكب هذا الفخر سعادة عميقة؛ ففي ذلك الوقت كنت أتوقع ميلاد طفلنا الثاني في مارس ١٩٦٣. وشعرت أنني أعيش حياة مشحونة ذات هدف عظيم. وكانت حياتي الشخصية والعامة منسجمة تماما مع هذا الملك المحب، والكريم، والقوي. وأثناء رحلة إلى بلدة جنوب إيران قلت للملك: «**أنا أيضا من جنود الثورة**».

وقرر زوجي أن يطرح هذه الإجراءات على الشعب من خلال الاستفتاء. ويوضح قرار اللجوء لاستفتاء، وهو سمة الديمقراطيات الحديثة، أن الأزمنة تتغير؛ فالحكم المطلق في عهد «رضا شاه» كان ضروريا، بل إنه لا مفر منه، لإخراج البلاد بسرعة من حالة التخلف التي عانت منها تحت حكم «القاجار». ومع ذلك، نحن ندخل الآن مرحلة للمواطنين فيها صوت أعلى. وفي هذا الشأن أراد زوجي أن يقود إيران تدريجيا نحو ملكية منفتحة وديمقراطية. ولكن لم تسمح له الحياة إلا بالسير إلى منتصف المسافة فقط.

واتبع «رضا شاه» ـ المولود ١٨٧٨ في قرية «آلاشت» بمحافظة «مازاندران» ـ عندما صار شابا في الثامنة عشرة وكان يحمل اسم «رضا خان» ساعتها، خطى والده الضابط، وانضم إلى لواء «القوزاق الفارسي»[١]. وسرعان ما أثرت قوة شخصيته في كل من الضباط البريطانيين والروس، الذين كانوا يتصارعون على السلطة والنفوذ في فارس عند بداية القرن. وفي ١٩١٩ حارب «رضا خان»، الذي يحمل رتبة العقيد آنذاك، البلشفيين الذين كانوا يهددون بضم الأقاليم الشمالية من البلاد، وعلى وجه الخصوص «جيلان». لكن إيران بقيت مفككة، فلا توجد حكومة مركزية، وشارك قطاع الطرق مع السلطات المحلية في حكم الأقاليم. وكان القضاء بالكامل في أيدي رجال الدين. فكان حال البلاد بالنسبة لرجل وطني مثل «رضا خان» يمزق القلب.

وفي ظل حكم الشاه «أحمد»، آخر ملوك «القاجار»، صار وزيرا للحربية وانطلق في كسب الاعتراف بالجيش، وهو شرط لإعادة تأسيس السلطة في أنحاء البلاد. غير أن الشاه «أحمد»، الذي كان يقضي في ذلك الوقت وقتا طويلا في أوروبا أكثر مما يمكث في إيران، لم يبد حريصا على الاحتفاظ بالسلطة التي أتاحها له وزير حربيته. فعاد إلى إيران ولكنه غادرها مرة أخرى إلى أوروبا. وفي نفس الوقت كان «مصطفى كمال أتاتورك» يعمل على تحويل تركيا المجاورة إلى دولة حديثة قوية. وتزايد إعجاب «رضا خان» به، وسرعان ما أسس الاثنان علاقات تعتمد على الإعجاب المتبادل والصداقة. ولا يمكن إنكار أن «كمال» مثَّل نموذجا أمام ضابط «القوزاق»، الذي صار وقتها قائدا لجيش دولة مهمَلة. وهذا هو الحال عندما صوَّت البرلمان في

(١) قوة عسكرية من نخبة العسكريين الفرس، شكلت في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين أصل الجيش الإيراني الحديث. (المترجمة).

٣١ أكتوبر ١٩٢٥ بخلع الشاه «أحمد». وجرى ذلك على نحو عاجل، وسرعان ما تشكلت لجنة تأسيسية، سلمت التاج لأول حكام أسرة «بهلوي»، باعتراض خمسة أصوات. وكان «رضا خان» يفضل شخصيا الحكم الجمهوري، غير أن رجال الدين هم الذين حثُّوه على أن يصبح ملكا، باعتبار أن الملكية والدين هما عمادا المجتمع الإيراني في ذلك الوقت. وعندما أصبح الشاه «رضا»، اختار لنفسه الاسم الرمزي «بهلوي»، الذي يشير إلى لغة وكتابة الأسرة البارثية (٢٥٠ ق.م ـ ٢٢٦ ميلادية)(١).

وواصل هذا الرجل الرائع حياته كجندي خلال فترة حكمه: كان ينام على حشية فوق الأرض، ويستيقظ في الخامسة صباحا، ولم يكن يحب الإطراء. وهو من استعاد وحدة إيران. وذكرت بالفعل بعض منجزاته، وبوجه خاص السكة الحديد عبر إيران. كما أدخل التعليم الإلزامي في المرحلة الابتدائية، وزاد عدد المستشفيات، وأنشأ جامعة «طهران»، وأرسل الطلاب في أولى البعثات الدراسية إلى الغرب (ومن بينهم «مهدي بازرجان» الذي صار فيما بعد رئيس وزراء في عهد «خوميني»). وبالإضافة إلى ذلك كان الشاه «رضا» هو مهندس نظام القضاء المدني الإيراني، مانحا إيران قانونا مدنيا وقوانين جنائية على غرار تلك القوانين التي تعمل بها الدول الديمقراطية الكبرى. وبطبيعة الحال كان هذا الإصلاح يعني فقدان رجال الدين لأحد أدوات سيطرتهم على الشعب، فضلا عن مصدر كبير للدخل من خلال توثيق العقود. وخلال عهده خسر ٩٠ في المائة من رجال الدين وظائفهم القضائية، ومكانتهم الاجتماعية المرتبطة بها. وأعرب الملالي بالطبع عن استيائهم، وظلوا معارضين لجميع مقترحات الإصلاح. غير أن أول ملوك أسرة «بهلوي» لم يكن سوى مسلم عادي. ولكن مثلما اعتاد زوجي القول: «**كان مؤمنا جدًّا إلى الحد الذي لا يعتبر معه الله مجرد وكيل أعلى للانتخابات، أو كبير مهندسي آبار البترول**».

---

(١) إحدى ثلاث عشائر هند ـ آرية استوطنت الهضبة الإيرانية خلال أواسط الألف الثاني قبل الميلاد، في عام ٢٨٠ ق.م قامت في مملكة بارثيا ثورة على حكم السلوقيين السوريين من خلفاء «الإسكندر» بقيادة الزعيم «أرشق» الذي حرر بارثيا أولًا، ثم بقية المناطق الإيرانية، وأسَّس لحكم أول أسرة بارثية، امتدت الإمبراطورية البارثية من حدود الهند شرقًا إلى نهر الفرات غربًا. امتد العمر بهذه الإمبراطورية أجلًا طويلًا، وذلك من أواسط القرن الثاني ق.م إلى أوائل القرن الثالث الميلادي عندما عادت السلطة مجددًا إلى فارس. فقد قام حاكم منطقة فارس المدعو «بابك» بالثورة على البارثيين وأعلن فارس مملكة مستقلة. ثم خلفه ابنه «أردشير الأول» الذي التقى بآخر ملوك البارثيين في معركة فاصلة وقتله عام ٢٢٦ م. (المترجمة).

وتروى قصص كثيرة عن هذا الرجل غير العادي، جميعها تظهر شخصيته العنيدة ونفوره من المتملقين. ففي أثناء إحدى رحلاته إلى «جيلان»، هرع إليه شاب، وانبطح أمامه، طالبا تعيينه حارسا لمقبرة الإمام «رضا» (لمجرد أن حرس المقابر لا يفعلون شيئا يذكر لكنهم يتلقون رواتب على أية حال). فالتفت الشاه «رضا» إلى مرافقيه وقال: «اقبضوا على هذا الرجل فورا وأرسلوه إلى الخدمة العسكرية!».

وفي مرة أخرى، أثناء زيارته موقع إنشاء قصر جديد، وقف الشاه «رضا» أمام عامل مشغول بنحت رأس أسد على سقف مزخرف وقال: «**حيوانك أحول العينين**». فأجاب النحات الذي لم يتعرف عليه: «**إذا كنت تحمل على ظهرك حملا ثقيلا مثله فسوف تصير أحول كذلك**». ويقال إن الملك انفجر في الضحك وقرر ترقية العامل.

واستمرت «الثورة البيضاء»، وواصلت العمل الذي أنجزته قبل أربعين عاما تلك القوة الطبيعية التي اسمها «رضا شاه». ودعا الملك أحد مستشاريه المقربين وهو «أسد الله عَلَمْ»، الذي يثق فيه تماما، ليصبح رئيسا للحكومة، حتى يضمن استمرار سيطرته على سياساته، ويتفادى مخاطر الفجوة بين الأغنياء والفقراء. وينتسب «علم» إلى أسرة شهيرة في «بيرجاند». وكان رجلا جديرا بالاحترام، وخبيرا بالحياة السياسية، ويمتلك صفة نادرة وهي عدم إخفاء الحقيقة عن الملك. فمن المهم للمرء أن يحيط نفسه بأناس صارمين وأذكياء عشية المعركة الكبرى. وبقي «أسد الله علم»، الذي عين بعد ذلك وزيرا للبلاط، مع الملك ومعي حتى وفاته بالسرطان في ١٩٧٨.

الفصل التاسع

قبيل طرح الاستفتاء بأيام قليلة ألقى الملك خطابا مهيبا على الأمة. بعد أن درس بعناية كل كلمة في خطبته، وطلب مني أن أقرأها عليه بصوت مرتفع، وطلب مني عدة مرات التوقف حتى يجري تصويبات. وكان واثقا من أنه يخدم مصالح الأغلبية، واستطعت أن أستشعر انفعاله خلف كلماته. وشاركته في ذلك، وساندته بإخلاص. وفيما بعد، عندما سمعته يلقي الخطبة كنت قلقة، وأتساءل عن الكيفية التي سيتلقى بها الشعب خطابه الثوري.

قال: «**إذا كنت قد قررت طرح هذه الإصلاحات على التصويت الشعبي، فذلك حتى لا يستطيع أحد أبدا أن يعيد فلاحينا إلى نظام العبودية الذي كانوا خاضعين له، وحتى لا تستغل الأقلية مرة أخرى ثروة أمتنا لمصلحتها الذاتية، وحتى لا يمكن للمصالح الخاصة لفرد أو مجموعة أفراد أن تخرب أو تشوه تأثيرات هذه الأفكار الجديدة**».

وفي ٢٦ يناير ١٩٦٣، أبدى الشعب موافقة عارمة على المبادئ المتضمنة في «الثورة البيضاء». ولم تكن النساء حصلن بعد على حق التصويت، لكن الوزير المسئول عن الإصلاح الزراعي، شجعهن على أن يذهبن ويدلين بأصواتهن، حتى وإن لم تكن أصواتهن سوف تحتسب؛ ومن ثم فقد افتتحت مقار تصويت خاصة. وكشفت الصحافة بعد أيام أن النساء أعلن تأييدهن للإصلاحات بأغلبية ضخمة. أما بالنسبة للتصويت الرسمي فقد سمي ـ بحق ـ استفتاء شعبيا. وأدى التزام الشعب الإيراني إلى إمكانية بدء مرحلة التنمية الثالثة (١٩٦٣-١٩٦٨) بقدر كبير من التفاؤل. وقال الملك: «**هدفي النهائي هو الوصول بإيران خلال عشرين عاما إلى مستوى الحضارة والتقدم الذي بلغه معظم الدول المتقدمة. وتم خلال السنوات العشر الماضية التخلص من نصف حالة التأخر في البلاد، لكن النصف الثاني من تلك الفجوة هو الأصعب في**

سده». وخلال السنوات الخمس التي تلت حققت إيران أهم قفزة للأمام في تاريخها، ليصل معدل النمو إلى ٨,٨ في المائة، متجاوزا أكثر التوقعات تفاؤلا.. واستكملت المشروعات الضرورية لتنمية البلاد، مثل السدود العظيمة: «كراج» و«سيفيد رود» و«ديز». بينما بدأ العمل أيضا في مشروعات صناعية مهمة بنفس القدر، مثل مصانع «تبريز» للجرارات، أو ورش «آراك» للسيارات. وكانت المباني اللازمة للعمال تبنى دائما بجوار المصانع: مثل مقار المبيت، والمدارس، ودور الحضانة، والعيادات الصحية المجانية، وهكذا. وخلال نفس الفترة، امتلكت البلاد الأدوات الاقتصادية والاجتماعية التي يتطلبها التوسع المستقبلي. وأنشئ مكتب للإحصاء، وتم تحديث النظام المصرفي. كما تم إنشاء المراكز الصناعية والجامعات في نفس الوقت. وتطورت شبكة الطرق والمحطات الكهرومائية على نحو كبير.

وتحقق كل ذلك بتأييد من الشعب، وبآلاف الإيرانيين الذين ساهموا في المعركة كرواد حقيقيين، وتفانوا في ذلك، غير مبالين بما يبذلونه من جهد أو وقت، ودون تفكير في مكسب مالي. غير أن التقدم الذي أحرز كان أيضا على غير رغبة شرائح من رجال الدين، فحاولوا في الشهور الأولى إثارة حركات التمرد في عدة مدن. وحاز أكثر رجال الدين رجعية على تأييد الشيوعيين، الذين ظلوا يطمحون إلى الإطاحة بالملكية. وأطلق الملك على ذلك وصف: «**الحلف الملعون بين الحمر والسود**». وقبيل الاستفتاء بوقت قصير، كتب رجل دين ـ لم نكن سمعنا عنه قبلا، يدعى «روح الله خوميني» ـ محتجًا على تصويت النساء. وعبَّر عن الاعتقاد الراسخ لدى جميع رجال الدين تقريبا. فما الذي يمكن أن يقوله المرء ردا على الرجال الذين ينكرون فهم المرأة، وحقها في إبداء رأي بشأن حياة البلاد؟! إننا ـ نحن النساء ـ لسن مجرد ماعز؟! أم أننا لم نعد نعيش في العصور الوسطى؟! وما الفائدة؟! كان الملك يعتمد على النشاط القوي للمخابرات ضد الرجعية والظلامية.

ومع ذلك، صارت الاحتجاجات في المدن المقدسة، خاصة مدينة «قم»، عنيفة أكثر فأكثر بمرور الوقت. وكما عارض رجال الدين تصويت المرأة، وقفوا أيضا ضد الإصلاح الزراعي ـ كما ذكرت ـ لأنه سوف يحرمهم من ريع أملاكهم الواسعة. ووجدوا في كبار ملاك الأراضي حلفاء بالطبع. كما رأى رجال الدين أن «فيالق محو الأمية» تمثل خطرا في الأجل الطويل، لأن هؤلاء الفتيان خريجي المدارس الثانوية،

الذين يطوفون عبر أنحاء الريف، سوف يبعدون العقول عن سيطرة الملالي الكاملة، عبر نشرهم المعرفة والمعلومات. وبدا أن الإبقاء على الوضع الراهن هو السياسة الوحيدة التي تناسب رجال الدين عندنا. ومع ذلك، فعندما كنت أسافر عبر إيران فيما بعد رأيت الناس بأنفسهم يريدون أن تذهب «فيالق محو الأمية» إلى قراهم.

وفي رأس السنة الجديدة ٢١ مارس ١٩٦٣، اضطرت الشرطة إلى التدخل في «قم» لقمع الاضطراب. وخشي الملك أن تراق الدماء، غير أنه أصر على التمسك بموقفه، ووجد حليفا في رئيس الوزراء «أسد الله علم»، الذي لم يكن ليستسلم خوفًا من «التخلف الأسود». وفي أول أبريل سافر زوجي في رحلة حج قصيرة إلى ضريح الإمام «رضا» في مدينة «مشهد». كنت قد وضعت ـ لتوي ـ ابنتنا «فرح ناز»، ومن ثم لم أستطع مصاحبته. وفي خطبته أشار إلى التعاليم المقدسة في القرآن، وانتقد تأويل أشخاص معينين لها «**وفق مصلحة جيوبهم وضد مبادئ المساواة والأخوة التي يحتوي عليها القرآن الكريم**». وأضاف: «**هؤلاء الأشخاص يعرقلون مسيرة التقدم والتنمية في بلدنا. ولحسن الحظ فإن الشعب الإيراني يعرف تماما الرجعيين. وسوف نحددهم بالاسم إذا لزم الأمر**».

وقد كشفوا عن أسمائهم بأنفسهم، وبوجه خاص أكثرهم إثارة للعصيان «روح الله خوميني». فأبدى عدم الاحترام، وأصبح الآن يلقي خطبًا ضد التقدم والمدنية، اللذين لخصهما باعتبارهما «تغريبا» للبلاد. وفي أوائل يونيو بلغ الاضطراب أَوْجَهُ، عندما قتلت الحشود شرطيا في مدينة «مشهد» المقدسة، وكان الملك قد زارها قبل شهرين.وفي «طهران» و«شيراز» أشعل المتظاهرون النيران في مكتبة عامة، وأكشاك لبيع الصحف، ووقعت عدة حوادث نهب. ونتيجة لذلك قررت الحكومة اعتقال «خوميني». وكان التوتر واضحا، حتى في محيطنا المباشر ففي هذا العام ذهب بنا الملك في موعد مبكر عن المعتاد إلى قصر «سعد عباد» في «شميران»، بعيدا عن وسط المدينة. وأتذكر أنني ـ وأنا أضم ذراعي حول طفلتنا الصغيرة «فرح ناز» التي لم تتجاوز الشهور الثلاثة لاحظت أن الحرس يرتدون زيَّ المعارك.

وأدى التهييج إلى اعتقال «خوميني»، ولما استشعر «علم» رئيس الوزراء الخطر الذي يواجه البلاد طلب من الملك منحه سلطة مؤقتة على الجيش. وجمع الضباط المكلفين، وحذرهم من أن المتمردين يمكن أن يستولوا على مدينة «طهران».

وخوَّلهم سلطة إطلاق النار في حالة الخطر الشديد. وأخذ «علم» على عاتقه مسئولية إعادة النظام، من أجل حماية الملك. وأعلن بوضوح أنه سوف يتحمل المسئولية في حالة فشله. ونجح بالفعل، ولكن وقعت خمسون حالة وفاة في «طهران» والأقاليم.

وسرت شائعة أن «روح الله خوميني» ربما يواجه عقوبة الإعدام. وكان رئيس الوزراء يميل لتوقيع عقوبة السجن لفترة على أقل تقدير. أما الجنرال «حسن بقروان» رئيس «السافاك» (هيئة أمن الدولة والمخابرات)، وهو رجل على درجة رفيعة من الثقافة والذكاء والإنسانية، فهو من التمس الرأفة من الملك. ورأى أنه من الضروري تهدئة الناس، وإتاحة الفرصة لرجال الدين حتى يعتادوا الإصلاحات تدريجيا، واعتبر أنه من المقنع في تلك اللحظة إبعاد «خوميني». ووافق الملك. وكتب في مذكراته: «**لم يعدم، ولم يحاكم حتى**»، وأضاف: «**طُلِب منه ببساطة أن يمارس بلاغته التحريضية في مكان آخر**». وأُرسِل رجل الدين إلى تركيا، لكنه فيما بعد التمس من الملك أن يستقر في العراق، حيث واصل عمله الهدام ببطء وعلى نحو متنام. وعندما عاد إلى «طهران» عقب الثورة الإسلامية كان أول من أمر بقتله هو الجنرال «بقروان»، الرجل الذي أنقذ حياته. وبلغنا الخبر في المنفى عندما كنا في جزر «البهاما». وأحزنني ذلك بشدة. فالجنرال وزوجته كانا قريبين للغاية منا، وكانا صديقين لوالديَّ.

ورحب جميع البلدان الديمقراطية بفشل الانتفاضات الرجعية وبدايات الثورة البيضاء في ١٩٦٣. وكتبت «نيويورك تايمز» بوجه خاص أن الملك «**انضم إلى العمال والفلاحين ضد المحافظين والتقليديين**».

ولدت «فرح ناز» في ١٢ مارس ١٩٦٣، مع بداية الاضطراب. ووضعتها في القصر. كانت هناك حجرة طبيب أسنان في أحد البدرومات، تحولت إلى حجرة ولادة من أجل الحدث. وأذكر موجة السعادة التي شملتني عندما عرفت أنها بنت! ولابد أن هذا الشعور كان معديا، فعندما سمعت الأميرة «أشرف» وابنة زوجي الأميرة «شاهناز» النبأ أطلقتا صيحات فرح على النحو الذي جعل رجلا لطيفا كان يحضر لي القرآن يتعثر على الدرج.

وحمل الملك وطفلنا الصغير «رضا» معا «فرح ناز» بين أذرعهما. وشعر زوجي بسعادة بالغة لإنجاب بنت، وهو أمر غير مستغرب، وقد دونت في دفتر سجلاتها:

«**قراءة طالعها تقول: حب هائل لوالدها**». وجاءت «فرح ناز» في الواقع متفانية في حب والدها، الذي بادلها نفس الشعور. وجمع بينهما تفاهم متبادل رائع.

وبدأت أسرتنا تكبر، وولي العهد الصغير «رضا» يناهز الثالثة من عمره. وانشغلنا إلى حد كبير بالتفكير في القرارات المتعلقة بتعليمه؛ هل يجب أن يذهب إلى مدرسة حكومية مثله مثل أي طفل آخر، أو يتلقى تعليما منفصلا؟ وسرعان ما أدركنا أن البديل الأول غير مجد، فنظرًا لأنه سيصبح موضِعا للفضول والتوقير أينما ذهب، لن تلائم المدرسة الحكومية «رضا»، فمهما قلنا سوف يعامله المدرسون معاملة خاصة. والأطفال أنفسهم صاروا يشعرون بالإثارة والانبهار بمجرد ظهوره. وعجز «رضا» عن فهم ذلك. وأذكر كيف فوجئ أثناء زيارتنا إحدى المدارس معا، عندما رأى الأطفال يعدون خلفه، ويتوقفون في اللحظة التي يتوقف فيها. كما أننا لم نرغب في عزله عن جيله. ومن ثم تقرر إنشاء روضة أطفال داخل محيط القصر، يلتحق بها أطفال الأسر القريبة إلينا ممن هم في مثل عمره.

واستفاد كل من «رضا» ثم «فرح ناز» و«علي رضا» و«ليلى» من هذا النظام المدرسي المفصل خصِّيصا. وعلى الجانب العاطفي والنفسي كان لذلك ميزة إبقائهم بالقرب منا، على عكس العديد من الأسر المالكة، التي ترسل أطفالها إلى المدارس الخاصة المتميزة في أوروبا أو الولايات المتحدة، طوال سنوات دراستهم.

وعندما كان زوجي طفلا تلقى تعليمه على أيدي معلمين خصوصيين في البداية، ثم أرسل إلى المدرسة. ورغم تحفظه الفطري إلا أن المرء يمكنه أن يستشعر أن ذلك سبب له بعض التعاسة فقد اضطر وهو في سن مبكرة ـ في الحادية عشرة ـ لترك أسرته، والذهاب إلى مدرسة «سويس دي روزي» قرب بلدة «رول» على ضفاف بحيرة «ليمان». وبالإضافة إلى شقيقه الأصغر «علي رضا» الذي ذهب معه، طلب أن يذهب معه إلى هناك أحد أصدقائه «حُسين فردوست»، وهو طفل من أصول متواضعة، أمضى طوال فترة دراسته مع زوجي، وظل قريبا منه طوال فترة حكمه[1]. وكان الذهاب إلى

(١) حصل «حسين فردوست» في آخر المطاف على رتبة جنرال وعينه الملك رئيسا لمكتب الإعلام الخاص. وكان يتمتع بثقة الملك ويضمن إصغاءه لما يقول، غير أنه سيخون هذه الصداقة طويلة الأمد عندما يعرض خدماته على النظام الأصولي.

سويسرا في ذلك الوقت يعني رحلة طويلة. فقد سافروا إلى «باكو» من «بندر بهلوي»، وهو ميناء صغير على «بحر قزوين». ومن هناك عبروا أوروبا كلها بالقطار. وقال الشاه «رضا» للمدرسة: «**أريد أن يكبر ابني كأي صبي عادي ويتعلم كيف يقف على قدميه**».

وأمضى خمس سنوات طوال في سويسرا، لكنه لم يستطع أن يكبر مثل الفتيان الآخرين تماما، لسبب وجيه، أنه كان مقدرا له أن يصبح ملكا. وكتب فيما بعد: «**كنت مثل سجين.. فخلال فترة الراحة، ذهب جميع أصدقائي إلى البلدة معا، لكنني لم أنل تصريحا بالذهاب معهم. وخلال عطلات عيد الميلاد والسنة الجديدة، ذهبوا إلى المراقص والحفلات المنظمة في الفنادق القريبة من «روزي»، لكنني لم أستطع الانضمام إليهم. واستمتع أصدقائي، وضحكوا ورقصوا، بينما بقيت جالسا وحدي في غرفتي. كان لدي مذياع ومسجل صوت بصحبتي، غير أن ذلك لم يعوض عن كل المرح الذي استطاع أصدقائي الاستمتاع به. أعتقد أن ذلك لم يكن عدلا**». وكانت تسليته الوحيدة لعب كرة القدم أو هوكي الجليد.

وكتب: «**عندما عدت في ١٩٣٦ لم أتعرف على شيء: كانت «بندر بهلوي» بلدة حديثة، غربية. والجدران القديمة المحيطة بـ«طهران» أزيلت بأوامر من والدي، وبدت المدينة كعاصمة أوروبية**». ومع ذلك، حمل معه من سنوات الصبا تلك في أوروبا التوجه والإطار الذهني الذي أسس «الثورة البيضاء». وكتب لاحقا: «**كانت تلك أهم سنوات حياتي**»، وبصرف النظر عن الكآبة التي كانت جزءا منها «**فهناك تعلمت كل شيء عن الديمقراطية**».

وفي إيران ـ مثلما في أي مكان آخر ـ هناك ثمن مقابل ترويج أي فكرة. ففي العاشر من أبريل ١٩٦٥، وبعدما احتفلنا لتوّنا بعيد الميلاد الأول لـ«فرح ناز»، وكان «رضا» في الثالثة والنصف من عمره، نجا زوجي وابني بصعوبة من محاولة اغتيال، ففي كل صباح يتبع «رضا» والده إلى مكتبه في «قصر الرخام». وعادة ما يذهبان سيرا على الأقدام، كل منهما يمسك بيد الآخر، ثم يأخذ أحدهم «رضا» من المكتب إلى روضة الأطفال القريبة. وكان ذلك اليوم من أبريل استثناء، فبسبب انضمام طفل جديد للفصل، طلبت مربية «رضا» منه أن يذهب في وقت مبكر قليلا عن المعتاد ليرحب بالتلميذ الجديد. وهكذا غادر الملك بمفرده، مستقلا سيارة، رغم قصر المسافة. وما أن ظهر من السيارة، حتى أخذ واحد من حرس الخيالة في إطلاق النار على السيارة. وطبقا لروايات الخادم

الخاص وغيره من رجال الأمن، غادر زوجي السيارة في ثبات، وذهب إلى بهو المبنى. وظل الجندي يطلق النار طوال ذلك الوقت. بينما فرَّ الجنديان اللذان يتمركزان عادة على جانبي باب «قصر الرخام»، عند سماع صوت الطلقة الأولى. وحاول الخادم الخاص إغلاق الأبواب غير أنه أصيب في يده. ثم انطلق الرجل المسلح خلف زوجي، الذي كان في تلك اللحظة يدلف إلى مكتبه بهدوء. وفي نفس الوقت، كان الحرس داخل القصر قد أدركوا ما يحدث، وأخذوا في إطلاق النار. وجرى تبادل عنيف لإطلاق النار قتل فيه اثنان من رجال الأمن، هما الرقيبان «آية لاشجاري» و«محمد علي بابيان»، بينما أُرْدِيَ الجاني قتيلا. ثم اتضح أن رصاصة اخترقت باب مكتب زوجي واستقرت في ظهر المقعد الذي يجلس عليه عادة.

وفي تلك اللحظة، كنت أكمل زينتي أمام المرآة من أجل لقاء عمل من المقرر أن يبدأ بعد عشر دقائق. دق جرس التليفون. كانت الملكة الأم، التي تقيم في محيط «قصر الرخام»:

ـ أوه، يا إلهي، «فرح جوني» (فرح عزيزتي)!

لم يكن صوتها مفهوما.

ـ ما الخطب ماما؟!

ـ شخص أطلق الرصاص على الملك!

ثم انْفجرَت في البكاء، عاجزة عن قول أي شيء آخر، وشعرتُ كما لو كنت أنا التي أموت... كانت تصرخ ولم تستطع أن تخبرني ما إذا كان حيا أو ميتا. استطعت أن أتنفس بصعوبة، لكنني بذلت جهدا هائلا لأتلفظ بالكلمات:

ـ لكنه... هو... كيف...؟!

ـ إنه حي والحمد لله.

أذكر أنني علقت السماعة وأنهيت وضع زينتي، كما لو كنت مذهولة. ثم هرعت إليه. كان هادئا تماما، يلقي بتعليماته على ضابط الأمن، وواصل برنامج عمله اليومي. أي مأساة مروعة كان يمكن أن تحدث لو كان الملك برز للجاني وهو يمسك يد «رضا» الصغيرة في يده؟!

وفيما بعد طلب الملك إحضار أحد المتواطئين مع الرجل المسلح، وكان قد ألقي القبض عليه، إلى قصر «اختصاصي» ومن الشرفة العليا، استطعت أن أرى الرجل ويداه موثقتان خلف ظهره، وزوجي يتحدث إليه بهدوء. كان صغير السن للغاية، يقف صامتا وخجلا. وكان مشهدا مؤثرا؛ وشعرت بالأسف لأجله والغضب من جميع أولئك الذين استدرجوه إلى تلك الحماقة.

اتضح أن الشباب المتورط في محاولة الاغتيال، قامت مجموعة يسارية متطرفة قريبة من حزب «توده» باستدراجهم وتلقينهم. وصدر الحكم على العقل المدبر «برويز نيخاه» بالسجن عشرة أعوام، ثم صدر عفو ملكي عنه. وكثيرا ما كان الملك يقول إنه يستطيع أن يغفر لأولئك الذين لديهم خطط تستهدف حياته، ولكن ليس من يهددون أمن ووحدة البلاد. وعندما أطلق سراح «برويز نيخاه» التحق بالحكومة وعمل في تليفزيون إيران، وهو ما أسفر عن إدانته والحكم بإعدامه ثم تنفيذ الحكم في الأيام الأولى من الثورة الإسلامية، بتحريض من رفاقه القدامى في حزب «توده»، مثلما قيل لي(١).

وبعد سنوات عديدة أحضر لي واحد من أصدقاء «نيخاه» هذه الرؤية التي كتبها

(١) كتب «عادل حبه»، وهو يساري عراقي ألقي القبض عليه في إيران مع عدد من العراقيين الفارين من الانقلاب البعثي في ١٩٦٣، في مذكراته عن فترة سجنه بعنوان «أيام إيرانية» إنه التقى «نيخاه» في السجن، لكنه ذكر أن نهايته كانت «مذلة». وعندما راسلته طلبا للمزيد من المعلومات كتب: «نيخاه كان عضوًا في منظمة شباب حزب توده، وفي أثناء دراسته في بريطانيا تأثر بأحد قادة الحزب الذي انتقل إلى المواقع الماوية بعد الأزمة التي أحاطت بالعلاقة بين الحزب الشيوعي الصيني والحزب الشيوعي السوفييتي، وشكل مع زملائه تنظيمًا جديدًا باسم «المنظمة الثورية لحزب توده إيران». وعاد هؤلاء الطلبة إلى طهران بعد إكمال دراستهم وشرعوا بالنشاط السري إلى أن تم إلقاء القبض عليهم على هامش حادثة محاولة اغتيال الشاه... في السجن كان لحن التطرف هو السائد في كلام وسلوك «نيخاه»، مما أدى إلى إبعاده إلى سجن خارج طهران، ولم يمض إلا وقت قصير حتى عاد إلى سجن طهران... وأعلن قبل قدومه تراجعه عن موقفه السابق وشرع بالدفاع عن الشاه ومدحه. وأُطلق سراحه وعين مستشارا في التليفزيون الإيراني وكان له برامج مكرسة لمهاجمة المعارضة بكل ألوانها. وحدثت الثورة وما رافقها من فوضى وجلب «نيخاه» إلى السجن وجرت له محاكمة سريعة من قبل رجل الدين المثير للجدل «خلخالي» وحكم عليه بالإعدام. ولم يكن لحزب توده أي ضلع في هذه المحاكمات لأن السلطة كانت بيد المسلحين من رجال الدين وأنصارهم، ولم تكن حكومة «مهدي بازركان» قادرة على لجم هذه الفوضى التي تزعمها رجال الدين المتطرفون الذين يحكمون البلاد الآن». (المترجمة).

عن الفترة التي قضاها كمناضل شيوعي: «**ركز «السافاك» كل انتباهه على الشيوعيين وتجاهل تماما رجال الدين. وعندما كنت أذهب إلى القرى لتوعية الفلاحين، كان الناس يوشون بي لدى هيئة الأمن، بينما يقول رجال الدين ما يحبون ضد الملكية. ولم يتعرضوا للإزعاج أبدا**».

وقبل خمسة عشر عاما من هذا الحادث نجا الملك بالفعل من محاولة اغتيال في الرابع من فبراير ١٩٤٩. ففي ذلك اليوم حضر ليرأس الاحتفال بذكرى تأسيس جامعة «طهران»، وكان مقرَّرا أن يسلم بعض الطلبة شهاداتهم. ولما تجاوزت الساعة الثالثة بعد الظهر بقليل، اتخذ مكانه على رأس الموكب الرسمي. وكما هو معتاد في مثل هذه المناسبات احتشدت جمهرة من المصورين على مسافة بضعة أقدام منه. وفجأة ترك أحدهم مكانه وأطلق النار على الملك عدة مرات، من على بعد أقل من ثلاث أمتار، بمسدس كان يخفيه في آلة التصوير. وقصَّ الملك الأمر كالتالي: «**أصابت الرصاصات الثلاث قبعتي، ومست جمجمتي، أما الرابعة فاصطدمت بي عند عظمة الخد الأيمن، ودفعت رأسي للميل إلى الخلف، ثم عبرت من تحت أنفي. ولم أحوِّل عينيَّ عن مهاجمي، وأدركت أنه سيطلق النار ثانية. وكان لدي وقت يكفي، بالكاد، لأستدير وأنحني على نحو طفيف، حتى أن الرصاصة التي كان مقررا أن تصيبني في القلب مباشرة، أصابتني في الكتف. وكان لا يزال لديه رصاصة، غير أن المسدس تعطل**». وأخبرني زوجي أن الرجل عند ذلك ألقى المسدس في وجهه.

ومع ذلك، ففي نفس اللحظة، قتل الرجل بأيدي قادة الشرطة الوطنية، والشرطة العسكرية، الذين أطلقوا النار متزامنين. غير أن أحدًا لم يتدخل عندما كان الرجل يطلق الرصاص، ربما ألجمتهم المفاجأة. وتبين أن الجاني واسمه «ناصر فخر آراي» عضو في حزب «توده». ويبدو أنه تلقى في اليوم السابق على محاولة الاغتيال بطاقة صحفية باسم مطبوعة دينية «راية الإسلام»، حتى يستطيع أن يكون بين الصحفيين ويقترب من الملك. وفي ١٩٥١ وبعد عامين من محاولة اغتيال الملك استطاع نفس هؤلاء الإرهابيين قتل رئيس وزرائه الجنرال «الحاج علي رازمارا»، وهو رجل بارز، ساهم باعتباره رئيسا للأركان في تحرير «أذربيجان».

ولم يكن هناك أي أساس لاتهام الملك بالردة، والأكثر من ذلك أنه رأى يد الله الكريمة خلف الفشل المتكرر للتهديدات التي استهدفت حياته، مهما كان شكلها.

وأثناء طفولته كان على وشك أن يموت بالتيفويد بعد شهور قليلة من تتويج والده. وبعد أربعين يوما متواصلة من ارتفاع الحرارة أعلن الأطباء أن نهايته قربت، ويقال إنها المرة الأولى التي أطلق فيها الشاه «رضا» ذو الإرادة الحديدية، والذي لا يحب شيئا مثلما يحب ابنه، العنان لدموعه. وعند منتصف الليل استدعى رجل دين وطلب منه أن يدعو الله من أجل شفاء ابنه. وقال لي زوجي: «**في اليوم التالي انخفضت درجة الحرارة وسرعان ما شفيت**».

وبعد سنوات قليلة وبينما هو يمتطي صهوة حصان في طريقه إلى «إمام زاده داود»، وهو مكان يُحَج إليه في الجبال، سقط أثناء عدوه بسرعة شديدة، وارتطمت رأسه بصخرة، ولبضع دقائق ظن من كانوا معه أنه مات. ولكنه قام بعد أن فقد الوعي لفترة قصيرة، والغريب أنه لم يصب بأذى. وقال إنه شعر هناك أيضا أن إيمانه أنقذه. ولم يكن لديه تفسير آخر لنجاته من حادث تحطم عندما كان يقود مروحية «تايجر موث» ذات مقعدين، في طريقه إلى مكان قرب «أصفهان» لتفقُّد أعمال يجري تنفيذها على نهر، وبصحبته الجنرال المسئول عن فرع الجيش في المنطقة، عندما توقف أحد المحركات. وما حدث بعد ذلك، كما حكاه، جعلني أرتعد من الخوف لبعض الوقت:

«كان عليَّ أن أهبط بأسرع ما أستطيع. واكتشفت بنظرة سريعة على ما حولي أن الأمر لن يكون سهلا. هناك قرية أمامنا، وجبل عن يميني، وحقول حديثة الحرث عن يساري، تجعل الهبوط مستحيلا.

ومن ثم قررت الانحراف يمينا، مع الحفاظ على سرعة مناسبة للبقاء في الجو. وفجأة رأيت أن الجبل يقطعه واد عميق. فجذبت ذراع التحكم، وعبرنا بالكاد من خلاله. وكل ما في مقدوري وقتها أن أهبط على جانب الجبل، وهو ما فعلته. وما أن لامست الأرض حتى ظهرت صخرة أمامنا. وما من سبيل لتفاديها. وانفصل جهاز الهبوط، وواصلت الطائرة الزحف على بطنها، وهو ما أبطأ حركتها لحسن الحظ. وبعد دقيقة اصطدمت المروحة بصخرة أخرى، وانقلبت الطائرة.

وجدنا نفسينا، رفيقي في السفر وأنا، معلقين رأسا على عقب، واستطعنا أن نتخلص من أربطتنا ببعض الصعوبة».

كان زوجي موقنا أنه لن يموت قبل أن تنتهي مهمته على الأرض، ولا شك أن هذا اليقين هو ما يفسر كونـه لـم يحـاول حتى أن يحتـمي من رصاصـات المحاولـة الثانية لاغتياله التي وقعت عام ١٩٦٤ على باب مكتبه في «قصر الرخام». كان رجلا مؤمنا.

الفصل العاشر

نعم اعتبرت نفسي أحد جنود الثورة، لأنني كنت مؤمنة بكل قوتي أن الطريق الذي رسمه زوجي هو الصحيح. كنا بلدا متخلفا، ورغم أنني أنتسب لأسرة متميزة، إلا أنني أتذكر الفقر في إيران أيام طفولتي. وبعد عشرين عاما اكتسبنا لقب «البلد النامي». ولا يدرك الغربيون الأمل والفخر خلف هذا التغيير البسيط عميق الدلالة. ونحن ندين بذلك كله إلى إصرار الملك والعديد من الإيرانيين الآخرين على التقدم، على الرغم مما تعرضوا له من عرقلة بسبب العقول المنغلقة والمعارضة في داخل «الرجعية الحمراء» المتمثلة في «توده»، المتحالفة مع «الرجعية السوداء» وهي رجال الدين، فضلا عن العراقيل التي لا تحصى من الخارج، وكان تأميم البترول، واستعادته من البريطانيين، مثالا بارزا. وآمنت بصدق بما كان يقوله زوجي كثيرا أننا إذا واصلنا جهودنا بنفس الإصرار فسوف نصل إلى مستوى اقتصادي يوازي البلدان الأوروبية الغربية بحلول منتصف الثمانينيات.

ومنذ ذلك الحين فصاعدا أردت ـ مثلي في ذلك مثل جميع ذوي الإرادة القوية ـ أن أخدم حيثما يتيح لي موقعي أداء دور، في دعم المبادرات، وتنفيذ المشروعات، وإزالة العراقيل. وشجعني زوجي على هذا العمل منذ اليوم الأول فكان مرشدي وسندي. أراد أن أكون إلى جانبه، وأن أعمل لصالح البلاد، كيف؟ كان الأمر يرجع لي، أن أستشعر الأمور، وأحدد أين يمكنني تقديم أفضل مساهمة. ولا شك أن هناك مائة طريقة للقيام بمهمة الملكة، وهو ما يعتمد على طبيعة المرأة المعنيَّة، وكذلك العاهل بالطبع. وكنت مدفوعة للمشاركة جسديا وروحيا، ليس بسبب ولائي للرجل الذي أحببته فحسب، ولكن أيضا بسبب حبي لبلدي. وأعتقد أن أسرتي نقلت إليَّ منذ كنت صغيرة حبها لإيران، ورغبتها في خدمتها. وتعلم والدي هذه المشاعر من والده

الذي كان سفيرا للتاج، وصارت هذه المشاعر بمثابة طبيعة ثانية بالنسبة لي. فأردت أيضا أن أخدم بلدي، ولم أستطع تخيل فرصة لخدمتها أفضل من تلك التي أتاحها لي زوجي.

وإلى حد ما أبعدني إنجابي لـ«رضا» ثم «فرح ناز» عن أنشطة مكتبي. لكنني شرعت في تنظيم وقتي بعد فترة. وفي بداية الأمر مرت أيام شعرت فيها بالضجر. ومنذ ذلك الحين زادت مسئوليات مكتبي بدرجة كبيرة، وازدحم جدول أعمالي إلى حد أنني وجدت صعوبة أحيانا في الحصول على ساعة استراحة لتناول الغداء مع الملك بمفردنا. كنت كثيرًا ما أنسى الوجبة، كثيرا جدًّا. في الواقع كان يشغلني كل ما يتعلق بإيران. كل الموضوعات تهمني، مادمت أشعر بالقدرة على أن أجلب بعض النفع للناس. بالطبع كان الملك والحكومة يعملان بجدية هائلة، لكنني أطرح أحيانا منظور المرأة والأم في بعض القضايا. وربما تُحل بعض الأمور بيسر أكبر بسبب تدخلي في بعض القضايا. وأحيانا ما يتيح وجودي أو مساعدتي إزالة عراقيل بيروقراطية معينة. وكنت أحول قضايا معينة ترفع إليَّ وأقتنع بها إلى الملك أو الحكومة.

وهذا، بشكل خاص، هو حال الحملة التي كنا بصدد إطلاقها ضد الجذام. وكنت سمعت عن هذا المرض للمرة الأولى في مدرسة «جان دارك»، عندما جاء فرنسي اسمه «راؤول فوليرو» ليتحدث عن الوباء، والتزامه بمكافحته. وفي ذلك الوقت لم تكن لدي فكرة أن الجذام منتشر في إيران، وتألمت لذلك كثيرا حتى أنني لم أتحدث مع والدتي في ذلك المساء عن أي شيء سواه. وبعد بضعة أيام قرأت «سوليداد ذات العينين الزرقاوين»، وهي قصة فتاة أصيبت بالمرض وأُرْسِلت إلى جزيرة المجذومين. ولم أستطع تخيل تعاسة أكثر من أن يتم إبعادك عن المجتمع، وطردك من الوطن ونفيك بسبب مرض.

وعقب فترة قصيرة من زواجي طلب الدكتور «عبد الحسين راجي» وزير الصحة السابق مقابلتي، فاستقبلته، وجاءت معه سيدة هي السيدة «أوزرا ضيائي»، وهما شخصان رائعان، وسألاني عما إذا كنت أقبل رئاسة جمعية مساعدة مرضى الجذام التي كانت قائمة بالفعل، ووافقت فورا بالطبع. وهكذا، لم تكد عشر سنوات تمر على صدمة محاضرة السيد «فوليرو» حتى أعادها القدر إلى الذهن مرة أخرى. الآن أستطيع أن أفعل أكثر من التعاطف؛ أمتلك الوسيلة للعمل.

وكرئيسة للجمعية سرعان ما قررت زيارة مركز مرضى الجذام في «تبريز» (كان هناك مركز آخر في «مشهد»). وهناك صدمت للمرة الثانية، وعلى نحو أعمق كثيرا من المرة الأولى. فللمرة الأولى أرى هذه الوجوه الرمادية، المشوهة، المهترئة، والألم العميق في أعينها. وقد وضِعت الحالات المعتدلة في مبان معقولة، غير أن الآخرين نبذوا إلى حجرات ضيقة مظلمة، تنبعث منها روائح فظيعة. وكان الكعك قد جُلِب إليهم، وفجأة شاهدت مرافقي يلقي هذا الكعك إلى المبتلين كما لو كان يرمي عظما لكلاب. ولا أعتقد أنني واجهت مثل هذا الشعور بالمهانة والرعب من قبل. صرخت: **«يا الله، كيف تستطيع؟! كيف تجرؤ؟! إنهم بشر!»**، لم يحر المسكين جوابا، كان خائفا للغاية من أن يصيبه المرض.

وبعد ذلك مباشرة، قابلت بضعة أشخاص في إيران، وهبوا أنفسهم لهؤلاء التعساء: أطباء إيرانيين وأجانب ـ خاصة «دكتور مارسيل بلتازار»، وهو فرنسي يدير معهد «باستير» في «طهران» ـ وأيضا راهبات وقسيسين (علمت بعد ذلك أن أيا من مسلمينا المتدينين أو رجال الدين لم يعمل في هذه المنشآت).

ونتيجة لهذه الزيارة بدأنا مباحثات مع متخصصين بشأن ماذا يمكن عمله لتحسين ظروف المرضى. ومن اللحظة الأولى صار واضحا أن أطباءنا لم يحصلوا على التدريب الكافي لاكتشاف الجذام في بدايته. وكانوا يعتبرونه نوعا من المشكلات الجلدية أو الإكزيما، ومن ثم تضيع فرصة السيطرة على العدوى، التي كانت وسيلتها موجودة. ومن ثم صارت أولى مبادراتنا إعداد برنامج للكشف المبكر وتدريسه لطلاب الطب والأطباء.

ثم جرى إعداد دراسة لتحديد أفضل سبل تخفيف عزل المرضى، بل المهم إعادة دمج أولئك الذين تحقق شفاؤهم ولكن مازالت آثار الجذام ظاهرة عليهم ـ مرضى مأمونون كما يقال ـ في المجتمع. وكان الحل المثالي الذي وضعناه لهم هو إلحاقهم بالمستشفيات العامة. وقيل لي إن عدوى الجذام أقل شراسة بكثير عما هو متخيل بوجه عام، لكن الأطباء أنفسهم يخشونها. وثارت اعتراضات كثيرة، وهو ما تطلب المزيد من الجلسات الإعلامية، ولكن مع نهاية السبعينيات استطعنا إقناع بعض المستشفيات بقبول مرضى الجذام.

ومن ناحية أخرى تخلينا عن فكرة تشجيع الأشخاص الذين تحقق لهم الشفاء على العودة إلى قراهم، وفقا لتوصيات منظمة الصحة العالمية. فلم يكن العاملون في «جينيف» يدركون الخوف الذي يمكن أن يثيره هذا المرض في مجتمع ريفي صغير. فعندما يصاب به أحد أفراد الأسرة تضطر الأسرة جميعها للرحيل.

وسألت الملك أن يمنحنا مكانا في الأراضي التي يمتلكها، ووافق. وهكذا، أخذنا مساحة أرض كافية في إقليم «جورجان» لإيواء أكثر من ألف نسمة. وخلال السبعينيات أصبح لدى «بِه كَدِه» ثلاثمائة منزل، ومستشفى يسع خمسة عشر سريرا، ومدرسة ابتدائية، ودار سينما، ومركز شرطة، ومطعم، ومصنع، وورشة نجارة، ومستودعات للمنتجات الزراعية، وعدة آبار، وحدائق للخضراوات، وما إلى ذلك. وحققت القرية نجاحا لدرجة أن التكامل اتخذ المسار العكسي، حيث جاء سكان البلدات المجاورة، بأعداد متزايدة إلى القرية للعمل أو ارتياد المطعم أو السينما. ولم يتح لنا التاريخ وقتا كافيا لبناء «بِه كَدِه» أخرى، لكنني أعتقد أننا استطعنا خلال عشرين عاما أن نجعل قلوب الإيرانيين تتجاوب مع مصير من يعانون من الجذام، وأولئك الذين تحقق شفاؤهم. وأذكر بوجه خاص الفيلم الذي أعدته «فروق فروخزاد» إحدى أعظم شاعراتنا «البيت أسود»، وكان عونا كبيرا في التأثير على الرأي العام. وخلال كل هذه السنوات قمت بزيارات منتظمة إلى أماكن إقامة مرضى الجذام، ومثلت كل مرة منها تجربة هائلة. وكانت النساء تقبلنني، وتلمسن وجهي، ثم وجوههن، كما لو كنت أملك القدرة على شفائهن. وفي بعض الأحيان كان إخفاء مشاعري عندما أواجَه بمثل تلك المعاناة والتوقعات أمرا بالغ الصعوبة بالنسبة لي.

وأخيرا تلقينا في السبعينيات مساعدة بعض الأطباء الاستثنائيين؛ باكستانيين، وهنود، وسويسريين، وفرنسيين ـ جاءوا وعملوا دون مقابل، لترميم وجوه بعض مرضانا السابقين. وأعادوا تركيب أنوف، وزرعوا رموشا وحواجب، وكثيرا أيضا ما بسطوا أَكُفًّا تسبب المرض في إطباقها على نحو متصلب. ولن أنسى فرحة رجل أُجْرِيت لوجهه عملية ترميم، عندما جاء ليبلغني بزواجه الوشيك. كان سعيدا للغاية! وبينما كنت أستمع إليه وهو يحكي لي كيف رُدَّت إليه حياته، دعوت الله سرا من أجل الجراحين الذين أجروا هذه المعجزة.

ومن أكثر ما تأثرت به مؤخرا تحية أحد المرضى السابقين الذي كان مصيره

يشغلني كثيرا. وكان طبيب إيراني لدى منظمة الصحة العالمية التقاه، ونقل الرسالة التي همس بها في أذنه: «**إذا رأيت السيدة، بلغها تحياتي، نحن لم ننسها**». بعض الكلمات لديها قدرة الشفاء، مثل بلسم على جرح. ومنحتني هذه الكلمات القوة كي آمل أن الحقيقة سوف تقال يوما ما. فأنا أؤمن من قلبي أن البذرة التي غرست بحب لن تموت أبدا.

وكانت مكتبات الأطفال إحدى تلك البذور. وبدأ هذا المشروع خلال زيارة إلى صديقة الطفولة «لي لي أمير - أرجومند»، التي عادت من الولايات المتحدة بمجرد أن أنهت دراستها في علم المكتبات. تقابلنا بصورة ودية، ونبعت من مناقشتنا فكرة توفير فرصة القراءة للأطفال الإيرانيين. وراجعنا بضعة كتب قليلة للغاية كانت مخصصة لنا في عمر الطفولة. حيث كنا نستمع إلى قصص تراثية قديمة، ولكن معظم هذه القصص لم يكن مكتوبا. وبالنسبة للقصص المصورة المعاصرة المتاحة في الغرب، لم يكن المرء يحلم حتى بمثلها. وقد نشأنا مع كتابات مؤلف واحد فحسب هو «السيد صبحي»، الذي كان يحكي قصة لأطفال المدارس كل صباح في الإذاعة، تبدأ بالكلمات: «صباح الخير، يا أطفال!» (باشيها سلام!)، ولم يطبع منها سوى حلقات قليلة مثلت كل عالمنا الأدبي. كان صغيرا للغاية. وتخيلنا الآفاق الثقافية غير العادية التي يمكن أن نفتحها أمام الأطفال إذا استطعنا إدراج الكتب ضمن حياتهم اليومية. فلا شك أن الكتب هي أفضل السبل لاكتشاف العوالم الأخرى، وتهيئة النفس من أجل المستقبل. وعلى أي حال يجب أن يكون لدينا حلم أولا قبل أن نبدأ أي حياة جديدة. نعم، إذا استطعنا أن نعود أطفالنا على القراءة، سوف نساعدهم على دخول العالم الحديث، بحيث لا يعانون متاعب كثيرة في تقبل الأفكار الجديدة، واكتساب الحس الأخلاقي والشعور بالمسئولية.

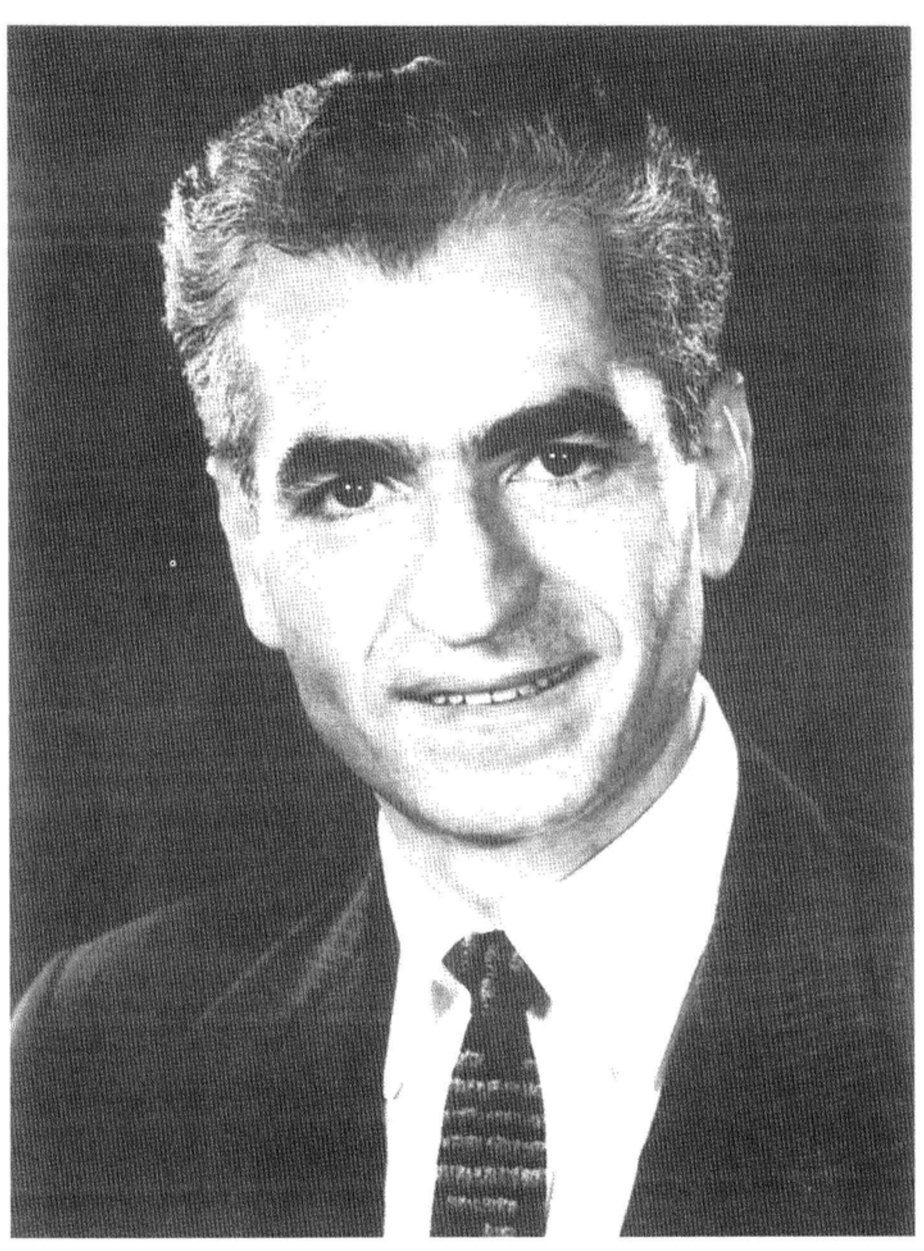
وكان أول ما ينبغي القيام به، قبل أي شيء، اختبار مستوى اهتمامات أطفال المدارس. قررنا أن تذهب «لي لي» و«هوما زاهدي» النائبة في البرلمان ومتطوعتان أخريان إلى مناطق العمال في جنوب «طهران»، ومعهن بضعة صناديق من الكتب لملاحظة ردود فعل الأطفال. وفاقت ردود الفعل توقعاتنا: لقد تعاركوا على القصص المصورة كما لو كانت قطعا من الحلوى.

ومن ثم شُكِّلَت «هيئة التنمية الفكرية للأطفال والشباب»، ومن أجل إطلاقها

بدأنا نتحرك من بيت إلى بيت. احتجنا مقدارا كبيرا من المال، وهو ما تطلَّب مشاركة مؤسسات كبرى في مشروعنا؛ مثل وزارتي التعليم والثقافة. وتلقينا الدعم من كلتيهما. وعندما طلبنا العون من شركة البترول الوطنية الإيرانية، وافقت على مساعدتنا. ولم يتبق إلا كسب دعم دور النشر ـ التي كان حماسها واضحا ـ والفنانين، والأكاديميين، وعدد معين من الأفراد المتوقع أن يساعدونا بالمال والأفكار. وبالنسبة للأفكار جاء اثنان من شباب الخبراء الأمريكيين ومنحونا عصارة معرفتهم. وما زال أحدهما «دان» ـ وهو يعيش في كاليفورنيا ـ يرسل لي علبة من بذور الزهور من أجل «النوروز» في ذكرى تلك البذور الأخرى ـ الكتب والمكتبات ـ التي غرسناها معا.

وبطبيعة الحال اخترنا «طهران» لتكون موقع أول مكتباتنا للأطفال حيث تضم أكبر عدد من القراء المتوقعين. وباعتباري مهندسة معمارية ناشئة أحبت المهنة راعيت بنفسي جماليات المبنى الأول، وكل المباني التي أقيمت بعد ذلك. أردت أن تعبر هذه المباني عن الجانب الممتع في القراءة. أقمنا المبنى الأول في منتصف حديقة عامة، حتى يستطيع الأطفال الانتقال من اللعب في الهواء الطلق إلى الكتب، والعكس. وللحفاظ على المتنزهات صار التطور الوحيد المتاح هو المكتبات، وبعد ذلك المتاحف والمسارح. وكان واضحا ضرورة إتاحة المكتبات للجميع مجانا، من رياض الأطفال حتى سن السادسة عشرة، وأننا سنحتاج موظفين أكفاء لكل مجموعة عمرية. وعلينا تدريب مشرفات رعاية الأطفال اللاتي يستطعن سرد الحكايات. وبالنسبة للأكبر سنا احتجنا أشخاصا قادرين على إسداء النصح للقراء، ومن ثم متحمسين بقدر كاف لأن يقرءوا هم أنفسهم الكثير من الكتب.

وهكذا لم يبق إلا الضروري: الكتب. وينبغي أن تكون مستحدثة أو مترجمة، نظرا لعدم وجود أي منها لدينا. ولم يكن إقناع مؤلفينا بالكتابة للقراء الصغار بالغ الصعوبة، أما العثور على رسامي هذه الكتب فصعب بالتأكيد. لدينا رسامون جيدون جدًّا، ولكن ليس لدينا تقليد إبداع الأعمال الفنية للأطفال، ومن ثم صار علينا أن نكون مبدعين. وكانت تشيكوسلوفاكيا متميزة في هذا الميدان، فذهب عدد من فنانينا إلى هناك لاكتساب المهارة. وهناك تعلموا أيضا تقنيات الرسوم المتحركة والكارتون. بعد ذلك استطعنا تنظيم المهرجان الدولي لسينما الأطفال، والفوز ببعض المكافآت والجوائز.



صورة الملك المفضلة عندي





يحملني والدي، وكان مغرما بي، يخشى للغاية من فقدي عندما كنت صغيرة جدًا

والدي، صهراب ديبا، طالب عسكري بمدرسة «سان سير» في فرنسا

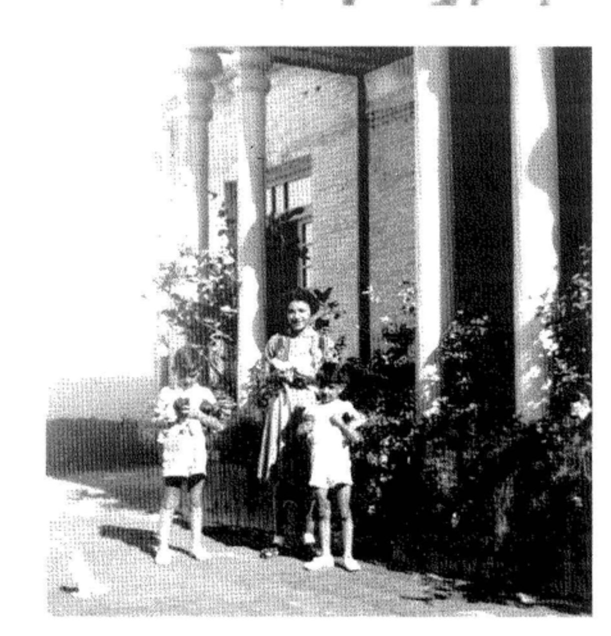
جدي لوالدي، «مهدي ديبا شاد الله» (الجالس)، نحو ١٨٧٠

صورة أبويَّ المفضلة
عندي، في منتصف
الثلاثينيات



مع ابن خالي «رضا قطبي»، الذي ترعرع معي، وكان بالنسبة لي الأخ الذي لم ينجبه أبواي

في الثالثة أو الرابعة من العمر، وعندما أنظر إلى هذه الصورة اليوم أشعر أنني أرى حفيدتي «إيمان»



أحببت قضاء العطلات في «زنجان»، مع عمتي «عزيز» حيث تعرفت على الحياة الريفية

أولى المدارس التي التحقت بها، المدرسة الإيطالية في «طهران». (أقف إلى يسار الشجرة)

أنا المرتدية رقم ١٠، قائدة فريق طهران للسلة، الذي فاز بالبطولة. ومنذ ذلك الحين وأنا أميل إلى اللاعبين مرتدي الرقم ١٠

موقعي كقائدة فريق أشبال الكشافة أتاح لي أول رحلة إلى باريس من أجل معسكرات التدريب، وأصبح هؤلاء الأشبال رجالا ناجحين وبعضهم مازال على علاقة بي



بطاقتي الدراسية في مدرسة العمارة الخاصة (في باريس)، جُدِّدت للسنة الدراسية ١٩٥٩، التي لم أتمها، لأنني كنت بسبيلي لولوج عالم آخر...

الصورة الوحيدة التي أمتلكها لحجرتي كطالبة في المدينة الجامعية بباريس. مع بداية كل شهر، كنت أشتري باقة من الزهور، أعتني بها فتدوم فترة طويلة



خطبتي للشاه أثارت اهتماما كبيرا في فرنسا. هنا في المسرح في باريس، نوفمبر ١٩٥٩

رددت فورا «نعم» بفرحة وحماس أثارا همس وابتسام من حولنا

زوجي، باعتبار ما سيكون، تحيط
عنقه تمائم دينية لحمايته. كانت
«ليلى» تشبهه وهي صغيرة جدًا





«رضا شاه الكبير» مع أطفاله. من اليمن لليسار: الأمير «علي رضا»، والأميرة «شمس»، والأميرة «أشرف»، وولي العهد «محمد رضا» (زوجي باعتبار ما سيكون)، والأمير «غلام رضا»

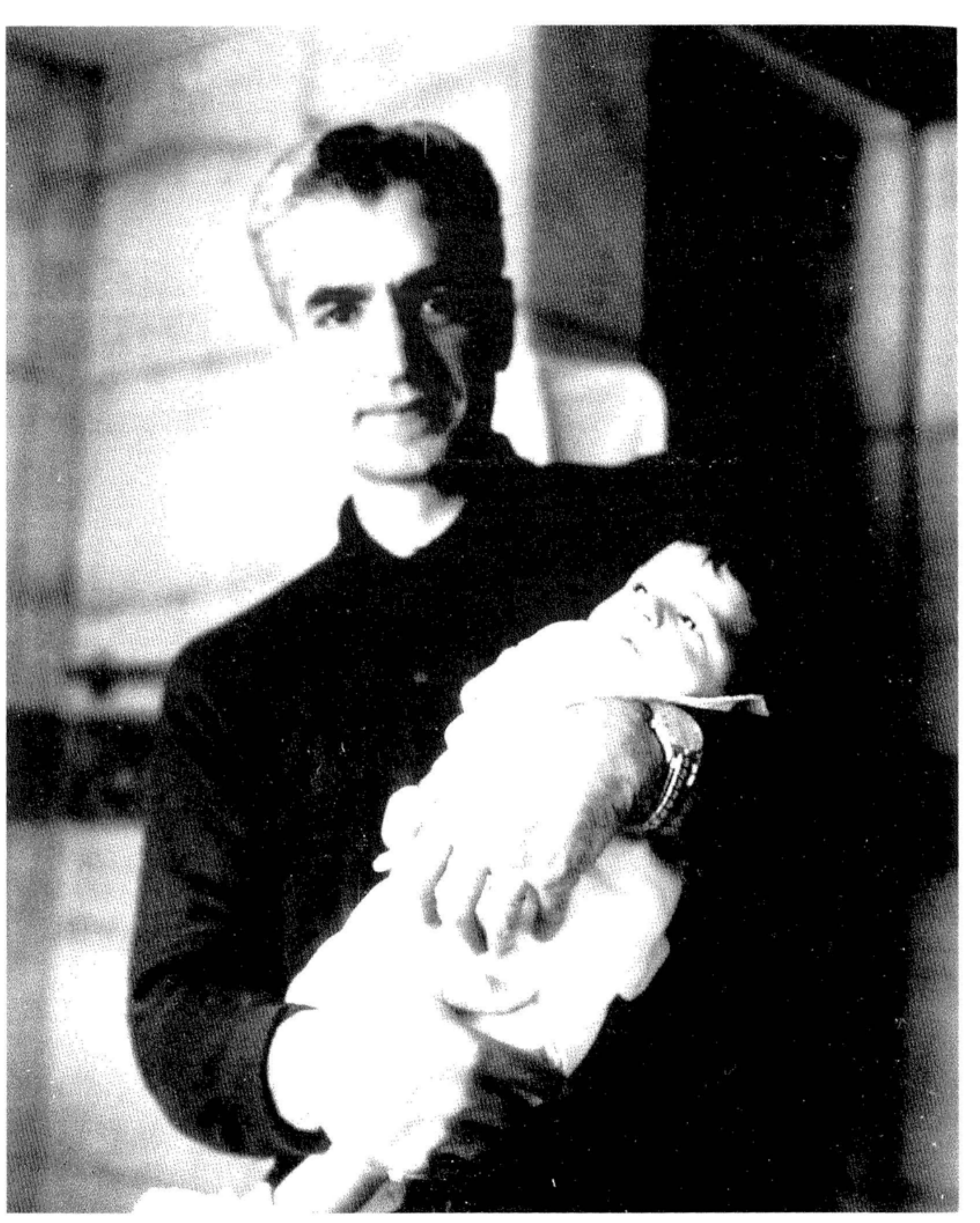


«رضا شاه الكبير»، يصحبه زوجي المستقبلي، ولي العهد، الذي كان يضمه في جميع أنشطته

السابع من يناير ١٩٣٦، الملكة الأم وابنتيها الأميرتين «أشرف»، و«شمس»، يظهرن للمرة الأولى علنا بدون حجاب، وقد اعتبر هذا التاريخ، يوم تحرير المرأة



ابننا الأكبر «رضا»، ولد في ٣١ أكتوبر ١٩٦٠. وعند خروجي من المستشفى، تأثرت لدرجة الدموع لاحتفاء وفرح أهالي «طهران» بولي العهد



«فرح ناز» ـ ولدت في ١٢ مارس ١٩٦٣ ـ بين ذراعي والدها

في حديقة قصر «نياوران»، «ليلى» تخطو أولى خطواتها نحو يدي والدها الممدودتان. كان فخورا بها للغاية



صورتنا الرسمية

«رضا» على عجلة قيادة طائرة نفاثة؛ مبعث فخر والده، الذي كان طيارا أيضا

جاءت الأسرة بكاملها لتشهد «علي رضا» في أول رحلة طيران منفرد (ببذلة الطيران). أشقاؤه الثلاثة كانوا يشعرون بالتأثر مثلنا



كنا احتفلنا لتونا بعيد ميلاد «فرح ناز»، وأرادت أن ترينا أحد الكتب التي أهديت إليها. لكن كالعادة كان لدينا ألف مشكلة للنقاش، وكان عليها أن تنتظر بصبر



وقمت - لمتعتي الخاصة وأيضا كرمز لمشاركتي في المشروع - بترجمة قصة «هانز كريستيان أندرسن»: «**عروس البحر الصغيرة**» وإعداد رسومها. ولعل «رضا» كان في الثانية أو الثالثة من العمر وقتها، وأسعدني التفكير في أنه سرعان ما سيبلغ السن التي يقدِّر فيها هذه القصة ورسومي (صدر مع الكتاب أيضا أسطوانتا فونوغراف لأولئك الذين لم يتعلموا القراءة بعد). ولأن الكتاب يحمل اسمي سجل مبيعات جيدة جدًّا بالطبع، وساهمت الأرباح - جزئيا - في تمويل إصدار كتب جديدة.

وكان بعض هذه الكتب يروِّج لآراء سياسية مغايرة لأفكارنا، على الرغم من أنني لم أدرك ذلك في البداية. وأخيرًا كان لا بد لي أن أراجع الأعمال التي تتحدث عن الديمقراطية، في بلد تُحْظَر فيه بعض الأيديولوجيات مثل الشيوعية. وهناك مؤلفون قريبون - ربما - إلى حركات يسارية مختلفة، قدموا لنا نصوصا بليغة، على سبيل المثال عن عصافير صغيرة حرَّرت نفسها بتضامنها وشجاعتها من أسد بالغ التوحش. ولم تكن هيئة التحرير متأكدة مما إذا كان ينبغي نشر هذه القصص، فنحن نعرف ولع الشيوعيين بالتلقين. وفي نهاية الأمر يجيئون لمعرفة رأيي. وكنت أفضل حرية التعبير، مقتنعة بأنه كلما حققنا تقدما فيها استطاع الإيرانيون أن يحكموا بأنفسهم ما الذي في صالحهم وما هو ضد مصلحتهم. بالإضافة إلى أنني كنت مدركة أن أي رفض من جانبنا سوف يستخدم ضدنا.

وحدث ذلك فعليا مع كتاب يحتوي رسالة واضحة للغاية «**السمكة السوداء الصغيرة**». وهو يحكي قصة سمكة صغيرة ظلت تسبح ضد التيار. وترددت الهيئة في نشر هذا الكتاب، حيث يصعب تأييد مثل هذه الرسالة، ولكنها بعد ذلك صرحت بالنشر، وطُبع الكتاب. ومع ذلك انتشرت هذه التفاصيل الخلفية، وسرعان ما حُمِّلَت السمكة السوداء الصغيرة بكل فضائل المقاومة. وصارت رمزا لمعارضة الحكم الملكي، حتى أنه عند وفاة المؤلف انتشرت شائعة أنه قتل على يد البوليس السري. فبدون قصد منحنا الكتاب تأثيرا لم يكن ليحققه بالتأكيد إذا سمح بنشره من البداية. وبشكل عام كنت أشارك بدرجة كبيرة في إصدار هذه الكتب لصغار السن. فأراجع الإخراج والرسومات وأستمع إلى الشرائط المسجلة.

وأقامت الهيئة عدة مكتبات في المدن الرئيسية، ونتيجة لحماس الأطفال قررنا أن نضيف بسرعة فصولا لتعلمهم الموسيقى، والحِرَف، وورشا مسرحية. وتولى «أردفان

مفيد»، وكان حكواتيا رائعا، مسئولية المسرح، ثم المسرح المتجول. وكان التعبير الشفهي والجسدي امتدادا طبيعيا للقراءة. ومن خلال ذلك يمكن بعث الحياة في عالم الخيال، وجعل عنصر اللعب جزءا من التمرين. فكان الأطفال يرتدون ملابس الشخصيات، ويلونون وجوههم، وحتى أولئك الذين يمنعهم الخجل من المشاركة في التجربة ساعدهم مجرد مشاهدة الآخرين على أن يخرجوا من ذواتهم. وأخيرا افتتحت الورش السينمائية، حيث يدرس الأطفال صناعة الأفلام بالكاميرات ذات العدسات الـ ٨ مليمتر، ويتلقون معلومات عن السينما[١]. وسوف يضيف مهرجان سينما الأطفال بعدا جديدا لهذه التجربة.

ومع ذلك كان طموحنا الكبير أن نغطي البلاد بالكامل حتى القرى النائية، ومن أجل هذا أنشأت الهيئة المكتبات المتجولة. ووفقا للتضاريس وحالة الطرق كنا ننقل الكتب في شاحنات، وسيارات «جيب»، أو حتى على البغال، عندما تكون البغال وسيلة النقل الوحيدة التي تستطيع الوصول إلى المنطقة المطلوبة.وبعد أيام قليلة أو أحيانا مرة واحدة كل شهر إذا كانت المسافة بعيدة، تذهب مكتباتنا لجمع الكتب، وتوزيع كتب أخرى.وسرعان ما سارت المكتبات المتجولة بالتوازي مع قوافل شباب مكافحة الأمية التي وصلت إلى أبعد القرى. وحقق ذلك نجاحا حتى شهدنا المزيد والمزيد من النماذج التي تطرح الأمل في المستقبل، مثل أطفال يقرءون في أسر يكون الأب والأم فيها أُمِّيَّيْن. وكان لدينا أيضا مسرح متجول يتنقل من قرية لأخرى. وشعر العديد من الغربيين الذين حضروا مهرجانات إيران بالحسد إزاء هذه المبادرة.

وساعدتني مشاركتي في الجمعيات الخاصة من أجل التعليم، والصحة، والثقافة، والرياضة، على القيام بدوري كملكة على نحو أفضل. وفي بادئ الأمر عندما كنت مأخوذة بمئات الخطابات التي تصلني على القصر، كنت أعتقد بصدق أنني أستطيع مساعدة الجميع، وتخفيف المشكلات المعقدة الأكثر مدعاة لليأس. وأحيانا أقدم المساعدة من مالي الخاص. واستغرق الأمر مني بعض الوقت لأدرك أن هذه المساعدة الضئيلة المتناثرة غير ذات جدوى. فميزانيتي المحدودة للغاية لن تتسع لكل شيء. وحتى أموال الدولة نفسها ليست بلا حدود. وإصغاء المرء لقلبه يسفر عن

---

(١) بدأ المخرج العظيم «عباس كيارستامي» طريقه الفني في هذه الورش السينمائية.

عمل الخير، لكن الأعمال الخيرية بالأساس لا تغير شيئا في أسلوب معيشة الناس. فإذا أردت أن أكون نافعة ينبغي أن أركز طاقتي على أمور قليلة تحتاج معظم الاهتمام، وأحاول تحقيقها.

وفي منتصف الستينيات، بعد خمس سنوات من زواجي، شعرت أخيرا أنني عثرت على ضالتي. كان ذلك عندما قرر الملك ورئيس وزرائه الجديد «أمير عباس هويدا» تعييني وصية على العرش، وهو ما يعني أنني في حالة وفاة الملك، سأكون مسئولة عن مصير إيران، حتى يبلغ «رضا» سن العشرين. ولم أفكر أبدا ـ لثانية ـ أن هذا ممكن أن يحدث، ولا لثانية واحدة. كنت في الثامنة والعشرين، وزوجي لم يتجاوز السادسة والأربعين، وأنتظر قدوم طفلنا الثالث. كنا سعيدين للغاية، واثقين أكثر من أي وقت مضى في مستقبل بلادنا، ولم يكن الملك يعاني من أي مرض، ويبدو بالفعل أن الله يحميه من المتعصبين الذين أرادوا قتله. ومن ثم اعتبرت هذا القرار تكريما رسميا، حتى بعد التصديق عليه رسميا من البرلمان. رأيت فيه برهانا على تقدير زوجي، وثقته فيَّ. وجعلني ذلك أشعر بالفخر الشديد والسعادة البالغة.

وبعد ذلك أدركت المغزى الرمزي لذلك التصرف، فالرجل الذي حث البلاد على منح النساء حق التصويت، من المحتمل أنه سلم لتوه زمام البلاد لواحدة منهن! كانت مبادرة لافتة للنظر في بلد إسلامي. واكتشفت أن أعضاء بعينهم من البرلمان عارضوا بقوة هذا التغيير الثوري الجديد في عاداتنا. وبعد سنوات قليلة سوف يذهب الملك إلى حد أبعد، عندما يقرر أن يتوِّجني إلى جواره في موعد تتويجه. ولم تكن هناك سابقة لهذا التكريم في تاريخ فارس الطويل.

وفسَّر ذلك للبلاد قائلا: **«المرأة اليوم في إيران تختلف كلية عما كانت عليه قبل بضعة قرون، أو حتى منذ عقود قليلة مضت. ونظرا لأن كل مناحي الحياة صارت مفتوحة أمامها، فكذلك العرش. علاوة على أن الإمبراطورة أدت دورا مهما وسط شعبها خلال السنوات الأخيرة، كما مثلت دعما مهما لي، وقامت بمهمتها في حماس وحب حتى استحقت عن جدارة هذا التكريم. نعم، لقد فعلت الكثير لجميع الرجال والنساء بلا حدود، وسوف تواصل ذلك، حيث مازال أمامنا الكثير لإنجاز مهمتنا».**

الفصل الحادي عشر

كان زوجي يؤجل دائما الاحتفال الرسمي بتتويجه على الرغم من جلوسه على العرش لمدة ربع قرن. ويجيب في هدوء أولئك الذين يدفعونه لارتداء التاج بأنه سيفعل ذلك عندما يشعر أن البلاد صارت راسخة بالفعل في طريق التقدم، لكنه في نفس الوقت لن يشعر بالفخر خاصة عندما يجري تتويجه أمام شعب مازال فقيرا، وأميًّا إلى حد ما. ومنذ عام ١٩٦٥ بدأ الملك يبحث رسميا فكرة التتويج عندما شهد النتائج الأولى لـ «الثورة البيضاء»، والأهم من ذلك الحماس الذي أشعلته في أنحاء إيران. والسبب الآخر أن «رضا» ولي العهد الذي بلغ السابعة تقريبا، يمكن أن يصبح الآن جزءًا من هذا الإجراء الرمزي تماما، مثلما رغب زوجي.

ولما كان مولد طفلنا الثالث «علي رضا» منتظرا في ربيع ١٩٦٥، أُرجِئ حفل التتويج إلى ٢٦ أكتوبر ١٩٦٧، في نفس موعد الاحتفال بالعيد الثامن والأربعين لميلاد الملك. واعتبر تتويجه حدثا يخص جميع الإيرانيين، حيث يسجل بداية عهد جديد. ومن ثم كان ضروريا أن يثير اهتماما واسعا. وشُكِّلت لجنة للتتويج، من أجل الإعداد لهذا اليوم التاريخي، يرأسها الجنرال «مرتضى يزدان باناه»، أحد رفاق «رضا شاه»، وهو رجل دعم الأسرة الملكية منذ بداية عهدها. ويساعده في المهمة «مهدي سامي» محافظ البنك المركزي الإيراني، الوصي على جواهر التاج.

ففي ٢٥ أبريل ١٩٢٦ تقلد «رضا شاه» التاج، وهو في الثامنة والأربعين أيضا، بعد ستة شهور من اختيار الجمعية الدستورية له. وأقيم الاحتفال في قصر «جولستان». وفي نهاية الإجراءات أُعْلِن زوجي ـ باعتبار ما سيكون ـ وليا للعهد رسميا، وهو في السابعة من عمره.

واختارت لجنة التتويج مرة ثانية قصر «جولستان» لإقامة الاحتفال، وهكذا سوف يؤدي زوجي بعد والده بواحد وأربعين عاما الطقوس الرسمية لتقلد التاج. معيِّنا «رضا» خليفته، وهو في عامه السابع أيضا.

ونظرا لأن حشدا مكونا من عدة مئات من الأشخاص سوف يكون هناك تحت المرايا والزخارف الجصية للقصر، تقرر إجراء فحص شامل للمبنى. وعند إنزال لوحة شخصية ضخمة للشاه «رضا» من على الجدار لنفض الغبار عنها تبين أن القصر على وشك الانهيار تقريبا، حيث يوجد شرخ هائل عبر الجدار. وأكد المعماريون الذين أرسلوا فورا إلى الموقع أن الدعامات تقلقلت تحت ثقل السقف. فعلى مدى عقود أضيفت الكثير من الأحمال إلى الشرفات من دون أخذ الوزن في الاعتبار. وصار الأمر أهم من مجرد إصلاح التلف، فمن الممكن أن ينهار الصرح الضخم بالكامل على رأس الضيوف في أي وقت. وسرعان ما بدأ العمل، وأعتقد أنها كانت بشارة خير أن يأتي حفل التتويج لتدعيم قصرنا المتداعي، «جولستان».

والتاج الذي سوف يرتديه زوجي ملك للدولة، وهو محفوظ في خزانة البنك المركزي. وكان الشاه «رضا» قد أَمَر صائغا فارسيا يدعى «سراج الدين» بصنعه على غرار تيجان الدولة الساسانية[1]. أما بالنسبة لي فكان لا بد أن يبدأ كل شيء من الصفر ـ التاج، الثوب، وحتى المراسم ـ لأنه لم يسبق لأي من ملوكنا أن توَّج زوجته. وعلى الرغم من وجود مجوهرات كافية لدى وزارة الخزانة، كان لابد من العثور على مصمم لإعداد التاج في وقت قصير نسبيا. وأردت بالطبع أن يكون تاجي من نفس طراز تاج زوجي فيجب أن يكونا متماشيين معا. وجاءت التصميمات الأولى مخيبة للأمل، ثم في نهاية المطاف نجح بيت «فان كليف إيه آربل» الباريسي في تقديم أفضل صياغة تجمع بين التصميم الفارسي، والأناقة والأنوثة. وجاء السيد «بيير آربل» بنفسه إلى «طهران» لاختيار الأحجار، ونظرا لأنه لم يكن مسموحا بخروجها، عاد مع خبراء من ورشته لتنضيدها.

ومثلما حدث مع التاج لم يكن هناك نموذج يمكن أن نعد تصميما للثوب وفقا له. لم أرده على غرار ما ترتديه الملكات في الغرب، غير أنه لم يكن لديَّ صورة قديمة

---

(١) حكمت الأسرة الساسانية إمبراطورية فارس في الفترة ٢٢٦ـ ٦٥١ ميلادية.

تمثل طرازا إيرانيا للاحتذاء به. ولذلك جاء في النهاية بسيطا أبيض اللون. وتولى «مارك بوهان» من بيت أزياء «كريستيان ديور» تصميمه، وكذلك تصميم المعطف، الذي تم تطريزه بوحدات الزخرفة الإيرانية. وتم إعدادهما في نادي الضباط بـ«طهران»؛ المكان الوحيد في العاصمة الذي توجد به طاولات طويلة بما يكفي لفرد ذيل الثوب.

أما بالنسبة للتطريز فلجأْتُ لجارة سابقة اسمها «بوران» من أيام إقامتنا في الشقة ذات الشرفة الواسعة بعد وفاة والدي. وكان أوَّل ما تأثرت به بشأن «بوران» هو عزفها على البيانو. كنت أغْبِطُها فهي عازفة بيانو ماهرة. ثم اكتشفت أنها ماهرة في التطريز، بينما كانت شقيقتها «إيران» رسامة، اشتريت لاحقا بعض لوحاتها. ووافقت «بوران» على تولي مهمة التطريز، وعمل معها عدة خياطين إيرانيين بالإضافة إلى اثنين من سويسرا.

وتم إعلان يوم التتويج عطلة رسمية في أنحاء البلاد، حتى يستطيع الجميع المشاركة في الاحتفال. وانتقلنا من «قصر الرخام» إلى «جولستان» في عربتين عتيقتين تجرهما الخيول، واحدة للملك وأنا معه، والأخرى لولي العهد. وفي قصر «جولستان» تعين أن تتبع كل حركاتنا، وحتى سكناتنا، الترتيب الذي وضعه بصرامة الجنرال «يزدان باناه» كبير مسئولي الاحتفالات. فدخل الأمير الصغير أولا، يتبعه حرسه في طريقه عبر الحشد الصامت. وأُعِد له مقعد صغير على يسار العرش. فجلس عليه منتظرا. ثم ظهرتُ، تتبعني فتيات صغيرات يحملن ذيل ثوبي، وترافقني سيدات البلاط. ووصل الملك أخيرا. ثم جاء تتويجه، ثم تتويجي حيث ينبغي أن أركع أمامه. وعندما قام بتتويجي تعيَّن عليه التزام الحذر حتى لا يهدم ربطة شعري، والأهم من ذلك على الإطلاق أن يضع ـ بلطف ـ التاج المرصع بالمجوهرات فوق رأسي.

ومن ثم كان لابد أن نتدرب على كل حركة، لأن الشعب الإيراني ومن خلفه ملايين من مشاهدي التليفزيون سوف يروننا في ذلك اليوم. وفعل «رضا» نفس الشيء مع مربيته. وأبلغتني بعد ذلك أنه كان مستثارا للغاية في بداية التدريب، يجري هنا وهناك، حتى فكَّرَت في أن تلْبِسه الزيَّ الذي سيرتديه في الاحتفال. وقالت: «ثم سرعان ما أصبح مدركا للدور الذي ينبغي أن يؤديه وتصرف على نحو جيد للغاية». ومنحتني هذه التدريبات الفرصة لتصفية المشكلات المختلفة التي نشبت بين إخوة وأخوات الملك ـ كما نشبت بين سيدات البلاط ـ بشأن الأسبقية في الدخول.

ولو لم نكن تصرفنا بحرص كان يمكن أن تؤدي إلى الضغينة والنزاعات. وكانت مشاجراتهم مصدر إزعاج كبير لزوجي، كما كانت تنهكني أيضا. ومع ذلك ينبغي استرضاء الناس، وهكذا أرضيتهم. ومن ناحية أخرى مررنا ببعض الأوقات البديعة في اختيار الموسيقى المصاحبة للتتويج. وخلال حفلات العشاء مع الملكة الأم كان وزير الثقافة «مهرداد بالبود» يعزف لنا عدة أعمال لمؤلفي موسيقى إيرانيين، وأخيرا اخترت وزوجي مقطوعات تجمع بين المشاعر الحساسة والهيبة.

وكلما اقترب اليوم زاد إحساسي بالإجهاد، حيث تُجْرى كل هذه الترتيبات بالإضافة إلى عملي اليومي، وهو ما لا يكاد يترك لي وقتا للراحة. وفقدت بعض وزني، وأستطيع أن أتذكر الملك وهو يضحك من ذلك في حنو ذات مساء. وقال: «**لقد فعلتِ ذلك عن عمد، حتى يكون لك خدَّان غائران وعظمتا خدين بارزتان يوم التتويج!**» وكان يعلم أنني لست معجبة تماما بالخدين الممتلئين والمستديرين للفتاة التي تقدم لخطبتها قبل ثمانية أعوام.

واصطف حشد كثيف، في ملابس زاهية، على طول الطرق التي سنمر بها إلى قصر «جولستان» في ذلك اليوم ٢٦ أكتوبر. كان يوما مشمسا بهيجا. وما أن شاهدنا الناس حتى انطلقوا في غناء بهيج «جافيد شاه! زنده باد شاهبانو!» (**يحيا الملك! تحيا الملكة!**)، وعندما نظرْتُ إلى وجوههم، من العربة التي تجتاز الطريق ببطء تجرها ثمانية جياد، رأيتها تحمل تعبيرا حماسيا ومتوهجا. منحني أبناء بلدي مشاعرهم بسخاء منذ اللحظة الأولى، لكننا الآن نعرف بعضنا البعض، وتمنيت أن أكون أظهرت لهم من خلال عملي أنني أبادلهم الحب. وعلى أي حال بدا أن هناك صلة حقيقية بيننا منذ ذلك الوقت، وتأكدت منها في ذلك الصباح وأنا أتلقى تلويحاتهم وقبلاتهم، التي رددت عليها بمثلها من عميق قلبي. وكان الملك قد قال: «**لقد فعلت الإمبراطورة الكثير، وسوف تفعل ما هو أكثر غدا، فمازالت مهمتنا لم تكتمل**». وكنت سعيدة وأنا أفكر بهذه الكلمات. نعم، مازال أمامنا طريق طويل لنجتازه، بيد أن الثقة واضحة، ولدينا الوقت والطاقة لنشهد ذلك، أو هكذا كنت أفكر.

وجاء الانتقال عبر وسط «طهران»، تجربة بديعة، حافلة بالضحك والزهور. وأثار الأمير الصغير الذي تبعنا في عربته - وإلى جواره قائد الحرس الإمبراطوري الجنرال «محسن هاشمي نجاد» - فيضا من الحماس الشبابي بين الحشد. واتبع جميع

نصائحي بجدية، وتعلم كيف يلوح للحشد، وتدرب على ما يجب عليه فعله، بيد أنني كنت قلقة لأنه استيقظ مصابا بالبرد وارتفاع طفيف في درجة حرارته. وكان هو أول من دخل قصر «جولستان»، بكامل بهائه، والكاميرات من جميع أنحاء العالم مسلطة عليه، فظهر مثالا للرزانة وضبط النفس. وكتبت الصحافة الدولية أن احتماله جميع ما أحاط به جعله «نجم» الاحتفال. وبالفعل، عندما شاهدت الفيلم المصوَّر للاحتفال بعد بضعة أيام، ترقرقت الدموع في عيني وأنا أتطلع إليه.

ثم دخلت، يتبعني الملك، بلا خطأ أيضا. ووجدت الوقت لأمنح صغيرتي «فرح ناز» ابتسامة سريعة بينما هي تجلس هادئة مع الأسرة عن يمين العرش. وأراد زوجي أن يتسم الاحتفال بالصبغة الإيرانية الخالصة، ومن ثم لم توجه دعوات للملوك الأجانب أو رؤساء الدول، باستثناء الأمير «كريم أغاخان» والبيجوم «أم حبيبة»، بسبب الاحترام والمودة المتبادلين بيننا ـ وهي علاقة سوف تستمر أثناء المنفى ـ وبطبيعة الحال حضر سفراء جميع البلدان لدى «طهران». ومع ذلك لم ترغب الملكة الأم في الحضور، وسرت شائعة بأنها توفيت، وأردنا أن نخفي حقيقة أنها ببساطة لم تذهب أبدا إلى حفلات رسمية.

وقُرِعت الطبول، وانطلق حفل التتويج. وبدأ الإمام بصلاة الجمعة، ثم قدم القرآن للملك، فقبَّلَه. واستمرت الترتيبات الإمبراطورية، فامتشق زوجي السيف، ثم العباءة كما فعل والده. ثم قُدِّم له التاج فأخذه بثبات ووضعه على رأسه، بينما دويُّ المدافع يُسمع من خارج القصر.

وبعد لحظة، جلس الملك على العرش الذي آل إليه الآن، وتلا اليمين القانونية الآتية، وكان لها وقع مؤثر بعد كل المعاناة التي مرت بها إيران:

«أحمد الله الذي أتاح لي أن أكون مفيدا لبلدي وشعبي، بكل ما في طاقتي. وأسأل الله أن يمنحني القوة لأواصل الخدمة على النحو الذي أديته حتى اليوم. إن الهدف الوحيد لحياتي هو شرف ومجد شعبي وبلدي. وليس لي سوى أمل واحد أن أحافظ على استقلال وسيادة إيران، وتقدم الشعب الإيراني. وأنا مستعد للتضحية بحياتي، إن لزم الأمر، من أجل تحقيق هذه الغاية.

وأدعو الله العلي القدير أن يعينني على أن أسلم للأجيال القادمة بلدا سعيدا،

ومجتمعا زاهرا، وأن يحمي ابني، ولي العَهد، ليواصل هو أيضا تحمل المهمة الثقيلة التي تنتظره».

ثم جاء دوري. تقدمت وركعت عند قدمي الملك، وعندما وضع التاج على رأسي شعرت أنه كَرَّمَ لتوه جميع نساء إيران. فقبل أربع سنوات فحسب كنا في نفس المرتبة القانونية للمعاقين ذهنيا؛ لم يكن لدينا الحق الأساسي في اختيار ممثلينا. وأنهى هذا التاج قرونا من الذل فقد أثبت المساواة الكاملة بين الرجل والمرأة، على نحو يفوق ما يضمنه أي قانون.

لم أكن أسعى للمزيد من أي سلطة، كما لم أشعر بأي أهمية زائدة في اليوم التالي عما كنت عليه من قبل. فهذا ليس من طبيعتي. كانت السلطة مهمة لي حتى ذلك الحين لمجرد أنها تتيح لي أداء شيء لتحسين حياة الإيرانيين فلم يكن لديَّ رغبة فيها بشكل شخصي. وأذكر عند خروجي من فيلم أُعِدَّ عني، سمعت صحفيا أمريكيا يقول: «**إنها لا تنتمي لهذا العالم**». لم أفهم معنى قوله إلا بعد ذلك بكثير عندما صرت في المنفى، وحاول قليل من الناس السخرية من دوري، وإظهاري في صورة الساعية للسلطة. ربما كان طبيعيا أن يسعى المرء وراء السلطة والمال، غير أنني أستطيع القول بصدق إن هذا لم يخطر ببالي.

قبل عام ونصف العام من ذلك اليوم التاريخي، وفي ٢٨ أبريل ١٩٦٦، أنجبت «علي رضا»، وبعد يومين كتبت في دفتر سجلات طفولته: «**إنه يشبه أبيه كثيرا؛ سوف يكون لون وجهه فاتحا**». وكان الله كريما معنا للغاية: فبعد «رضا»، المدرك للغاية المسئوليات التي تنتظره والذي يثير إعجاب الجميع بجديته، وبعد «فرح ناز» الخيالية دافئة القلب، التي شغلت نفسها بمشكلات المحرومين، وتمضي ساعات بالخارج للعناية بالحيوانات الأليفة ـ أرسل لنا الله للتوّ أكثر الأولاد مرحا، لم نكن عرفنا ذلك بعد بالطبع، إلا أننا سرعان ما سنكتشفه.

على العكس من «فرح ناز» التي عبرت عن نفسها مبكرا جدًّا في صورة غمغمة محببة، استغرق «علي رضا» وقتا، ولكن عندما قرر أن يتكلم، تكلم بصورة ممتازة، بروح من المرح كثيرا ما فجَّرت ضحكاتنا. وفي أحد الأيام، بينما كان يحثني على ارتداء ملابسي حتى نخرج إلى الحديقة، أبدى ملاحظة: «**سوف يقول الناس: أي نوع من صاحبات الجلالة تلك التي مازالت ترتدى الروب؟!**» وفي مناسبة أخرى، وأثناء

تناوله الغداء، ونحن جميعا نتحدث من حوله، سرقت إحدى قريباتي قطعة بطاطس من طبقه، رأيناه يلتفت وينظر حوله إلى الرجل المشرف على المائدة؛ قال له: **«آلان»، أحضر من فضلك شوكة للآنسة «جالا»**.

لم يكن تجاوز الثالثة من عمره في ذلك الحين. وأراد أن نطلق عليه إما «توتون»، وهو اسم التدليل الذي أطلقته عليه مربيته، أو «طيار» لأنه يحلم بقيادة واحدة من طائرات «فانتوم» الأمريكية المقاتلة التي سحرته.

ـ **«توتون»، أنت ولد شقي!**

فيرد:

ـ **لا، أنا طيار**.

كنا في ذروة عصر «الهيبيز»، وفي مساء أحد الأيام سمعته يقول لمربيته وهي تحاول بلا جدوى إدخاله حوض الاستحمام: **«لا أريد أن آخذ حماما، أريد أن أظل هيبيا قذرا»**.

وذات يوم آخر، أثناء تناولنا العشاء، أبلغنا أنه معجب بـ «الحب الحر»!!

وبعد شهور قليلة، التحق بحضانة أطفال مدرسة «ليسيه رازي»، التي حصلتُ منها على شهادة البكالوريا. وتوسعت المدرسة الثانوية كثيرا منذ ذلك الحين، وانتقلت إلى موقع شمال «طهران». وجرى توسعة المدرسة بغرض استضافة الأطفال الصغار جدًّا، ومن ثم استطاع «علي رضا» الذهاب إليها، بعكس شقيقيه الكبيرين اللذين تلقيا تعليمهما لفترة في القصر بعد مرحلة الروضة. وأحبها كثيرا، حتى أنه رفض مغادرتها بعد انتهاء اليوم الدراسي الأول، وقال للسائق الذي كان ينتظره أن يعود أدراجه بدونه.

وبعثت هذه القصص الصبيانية التسلية في نفس الملك وفي نفسي أيضا. وكنا نعيد سردها في لحظات خلوتنا النادرة، فأرى وجهه ينبسط ويتألق بصورة عجيبة. وكان زوجي يعشق وجود الأطفال معه عندما يمارس رياضته بعد الظهر. فيتحدثون ويضحكون معا، وكثيرا ما يثيرون فوضى حقيقية. ويمتطي «علي رضا» ظهره ويلعب خيلًا، بينما يتقاذف الكبيران الوسائد، وتندلع معركة وسائد لمدة ربع ساعة.

وقال لي الوزير «عبد المجيد مجيدي» إنه أثناء اجتماع مع الملك بعد ظهر أحد الأيام شاهده ينظر فجأة إلى الباب الذي أصدر صريرا. وقال «مجيدي»: «**توقف الملك عن الإنصات إلى حديثي، ومن ثم توقفت عن الحديث، وانتظرت حتى يصبح مستعدا للعودة إلى ما كنت أقوله. وبدلا من ذلك رأيته يبتسم. وفجأة، وجدته أبعد ما يكون عن حديثنا. ثم التفتُّ أنا أيضا نحو الباب. كانت الأميرة الصغيرة «فرح ناز» واقفة في المدخل، تنتظر أن يدعوها والدها للدخول، وهناك فيض من المشاعر بينهما، حتى أصبحتُ من يجب عليه أن يقوم وينصرف في هدوء**».

أدرك الأطفال ما لهم من نفوذ على والدهم، ومن جانبه عرف زوجي كيف يبهجهم، ويعيد ـ بكلمات قليلة فحسب ـ التقارب الذي قطعته رحلات رسمية بالخارج أو أيام عمل طويلة بالداخل. وكنت أقول له: «**إنك أفضل منِّي كثيرا عند الحديث إلى الأطفال**». وإذا دخلنا أثناء تناولهم العشاء لنقبلهم قبل ذهابنا لحفل استقبال، تفقد مربيتهم السيطرة عليهم تماما بمجرد أن يشاهدوه. ويبدو أن قواعد الانضباط تتلاشى فجأة عندما يكون معهم. ومازلت أستطيع تذكر «علي رضا» الذي أخبرته مربيته أن يأكل طبقه من السبانخ، وهو يبصقها مرة أخرى، وينفجر ضحكا عندما حضر والده. كان الأمر صعبا؛ حاولت أن أطمئن أولئك السيدات المسكينات اللاتي عانين كثيرا في تعليم أطفالنا السلوكيات الحسنة، ولكنني في نفس الوقت سعدت لهذا التفاهم بينهم وبين والدهم. وهذه أيضا نعمة من الله.

وتقبل زوجي حقيقة أن المربية ينبغي أن تكون حازمة، لكنه لم يكن ليتسامح مع تعاملهن بعدوانية أو ظلم. أتذكر حدة غضبه ذات مساء حينما وجد «فرح ناز» تبكي عندما حبستها مربيتها في حجرتها. كنت في مكتبي عندما وجدته قادما ممتقع الوجه وهو يحمل ابنته بين ذراعيه:

ـ أبلغي المربية أن تذهب فورًا! فورًا!

استطاع أن يتفهم خروج أحدهم عن شعوره بسبب مقالب «علي رضا» الطائشة، لكنه لم يكن يستطيع تحمل الظلم. و«فرح ناز» كانت لطيفة للغاية شديدة الإحساس بغيرها بالفعل، حتى أنه لم يحتمل أن يجدها حزينة.

وكان يحمل لكل من أبنائه مشاعر حميمة خاصة. فيبهجه حب «فرح ناز» للطبيعة

وطابعها الصبياني. وعندما صارت أكبر سنا أحبت أن تقود دراجتها النارية قرب عتبات القصر، وهو ما أثار استياء المسئولين عن البروتوكول، خشية أن تزعج الملك. بيد أنه كان يخرج من مكتبه مبتسما، ويقول في هدوء: «**ليكن! ليكن!**» ثم يقف هناك للحظة يراقبها وهي تؤدي ألعابها. أما بالنسبة للولدين فكان يشعر بالفخر التام أن يجد لديهما دلائل على مشاركته الميل للسيارات الرياضية والطائرات. فيقول لي: «**انظري إلى «رضا»، معصمه لا يكاد يزيد عن حجم إبهامي، ومع ذلك يستطيع القيادة بمهارة بالفعل**». ولاحقا كان يتناقش مع طفلتنا الرابعة «ليلى» بخصوص جفاف البلاد الذي يقلقه كثيرا. وعندما يقبلها قبل ذهابها للنوم كثيرا ما يقول لها: «**حبيبتي ليلى، ادعي الله أن ينزل المطر**». حيث كان الجفاف مشكلة هائلة للزراعة عندنا. وكانت «ليلى» الصغيرة ـ التي لم تعد معنا الآن ـ تقول كثيرا: «**أحب السماء عندما تكون رمادية**». فأقول لنفسي في تأثر: «**لقد نقل إليها والدها حبه للمطر إلى الأبد**».

ومع وصول «علي رضا» اضطررنا لبحث أمر الانتقال من القصر بجدية. فقد أصبح قصر «اختصاصي»، حيث أقمنا منذ زواجنا، أصغر كثيرا من أن يسعنا جميعا. فهو لا يضم سوى حجرتي نوم: واحدة للملك، والأخرى لي. وكنا أسكنَّا «رضا» في فيلَّا صغيرة بالجوار، وأضفنا طابقا آخر إليها من أجل «فرح ناز». ولم نستطع أن نفعل نفس الشيء من أجل «علي رضا»، ومن ثم أعطيته مكتبي بجوار حجرتَيْ نومنا. غير أن ذلك لا يمكن أن يستمر. وصار الوضع خانقا. فقصر «اختصاصي» الذي كان في عصر «رضا شاه» واحة للهواء النقي والخضرة، وجد نفسه عبر عشرات السنين في وسط «طهران» التي تشهد توسعا هائلا، وتحيط به الضوضاء دائما وحركة السيارات التي تسبب التلوث. فضلا عن أن الحديقة لم تكن واسعة بما يكفي.

كنا نفكر بالفعل عدة مرات في الانتقال إلى قصر «نياوران»، ثم ينشغل أحدنا في العمل، وتُنَحَّى الفكرة جانبا. ونظرا لأن قصر «نياوران» بُنِيَ في الستينيات لاستقبال الضيوف، فقد تميز بميزة عظيمة هي موقعه فوق منحدرات «ألبورز»، على ارتفاع خمسة آلاف و٥٠٠ قدم، بعيدا عن تلوث ساعات الذروة وصخب المدينة، بالإضافة إلى وقوعه وسط حدائق واسعة وجميلة. فقمت بمعاينة القصر، وأمرت ببدء العمل فورا في التغييرات المطلوبة من أجل الأطفال، وحفلات الاستقبال التي شكلت جانبا أساسيا من مهام رأس الدولة. ولما كنت حريصة دائما على عدم المبالغة في

الإنفاق على احتياجاتنا، ولأنني أمضيت جانبا من وقتي في محاولة تدبير المال لعدة منظمات أترأسها، تخليت عن فكرة تركيب مكيف للهواء، نظرا أيضا لأننا نذهب عادة في الصيف إلى قصر «سعد آباد»، الذي يتمتع بجو أكثر برودة. وكثيرا ما قال المهندس المعماري إن ذلك أمر بسيط، غير أنني صممت، شاعرة أن التخلي عن ذلك الترف أمر طيب. وكان القصر منعزلا للغاية، وعانينا من حرارة الجو هناك، وهو ما أتاح للملك الفرصة لأن يمازحني بشأن «**شعوري البالغ بالواجب**».

فضَّلتُ «نياوران» على «سعد آباد»، الذي كان معتما وكئيبا، وله حديقة أكبر من اللازم. أما «نياوران» فهو عصري، وإضاءته جيدة. ويطل على منظر ساحر للمدينة من الجنوب، وإلى الشمال توجد جبال «ألبورز»، ومن الشرق يمكنك أن ترى بركان «داماواند» يغطي قمته الجليد. وقيل إن قصر «نياوران» كان عمليا ومقبولا، لكنه لم يكن بنفس الفخامة التي يتخيلها المرء في قصور أوروبا. وسوف أتذكر دهشة الكاتبة «ليزلي بلانك» عندما استقبلتها هناك بخصوص الكتاب الذي كانت تؤلفه عني[١]، وكتبت:

«الانطباع الأول مدهش، فهو لا يحمل أيا من سمات القصور، سواء من حيث الحجم أو الفخامة. ولكن رغم أنه ربما لا يمتلك العظمة الأسطورية التي لقصر «ويندسور»، ولا الحجم أو الكمال المصطنع لقصر «فرساي»، ولا الدراما الماثلة في قصر لويس الثاني في «بافاريا» ـ إلا أنه في حد ذاته مثير للاهتمام. إنه محاضرة في الحياة الملكية المبسطة، معبر عنها بتعبيرات معاصرة، بينما لا تمثل بأي شكل جناحًا ملكيا لقضاء العطلة. والمبنى المكعب أبيض اللون، وجانبه الذي تصل إليه من البوابة ـ للغرابة ـ بلا نوافذ، يبدو متواضعا بالنسبة لمنزل يسكنه عاهل مثل الشاهنشاه، ولا يترك رواقه ذو الأعمدة الأسطوانية المرتفعة انطباعا مميزا. ولكن إذا كان المظهر الخارجي لا يحمل ملامح أخَّاذة، فالداخل يحمل طابعا متناغما ذاتيا وجذابا. وحول الجوانب الأربعة للمكعب التي تشكل بهو الدخول أو الردهة، توجد في الطابق الأول شرفة واسعة مسوَّرة، تفضي إلى الأجنحة الخاصة».

وأحببت بالفعل حجرة مكتبي الخاص، التي بنيتها في جناح متاخم للقصر. وهي

(١) Farah Shahbanou of Iran, London, op. cit.

المكان الوحيد الذي جرى تخطيطه تماما وفقا لمواصفاتي، وزخرفته طبقا لذوقي الشخصي. وبالطابق الأول منه أيضا شرفة مفتوحة. ووضعت التماثيل والتحف القديمة والحديثة جنبا إلى جنب. وفي هذه الغرفة الواسعة جيدة الإضاءة جمعت الأعمال الأهم بالنسبة لي: كتابات من جميع أنحاء العالم، وقصائد إيرانية، وكتبًا فنية، وكتبًا نادرة، ولوحات فنية وتماثيل لفنانين إيرانيين معاصرين، مثل «زندرودي» و«أويسي» و«محصص» و«تانافولي»، مع أعمال «آندي وارهـول» و«سيزار» و«أورنالدو بومودورو». أما بالنسبة للحديقة فذكَّرتني أشجار الدُّلب العالية بالعطلات التي قضيتها أيام طفولتي في قرية «شميران»، التي صارت الآن جزءا من المدينة.

وخضع قصر «جيهان نيما» ـ وهو مبنى قديم يرجع إلى عصر «القاجار» ـ للترميم ليضم مكاتب زوجي. وقد بُنِي داخل الحديقة، وكان يطل على المدينة بأكملها من تحته. وهناك، بعد اثني عشر عاما، شهد الملك انتفاضة الشعب الذي كرَّسَ كل طاقته من أجل مصلحته.

الفصل الثاني عشر

بعد ولادة طفليَّ الأولين بدأت أسافر وحدي كثيرا عبر أنحاء البلاد. أردت أن ألتقي الناس في أبعد الأقاليم، لأتعرف بصورة أفضل على مشكلاتهم وتطلعاتهم، وأرى ما فعلته الحكومة والمنظمات المختلفة التي رأستها. وبهذه الطريقة أجد فرصة أفضل لمعرفة بلدي، ورجال ونساء وطني، وثقافاتهم المختلفة. ففي «طهران»، وعلى الرغم من كم التقارير التي أقرؤها، لم أستطع تلمس الأوضاع بالتجربة المباشرة، أو التحدث وجها لوجه مع العمال، والفلاحين، والموظفين الرسميين، جميع هؤلاء الناس البعيدين عن العاصمة، المشاركين في تنمية البلاد. وكانت «الثورة البيضاء» تمضي قدما، وتفرز توقعات جديدة وإحباطات لا مفر منها. وجاءت هذه الرحلات فرصة لي من أجل تسجيل عدد هائل من ردود الأفعال، ورفعها إلى الملك. وكان هو أيضا يطوف البلاد، لكنني أملك وقتًا أكثر، حيث يعنى هو بالشئون الدولية والمحلية. فضلا عن أنني اعتبرت نفسي أفضل سفير يعطيه تقريرا أمينا عما يُقال بعيدا عن «طهران»، وشكل الحياة فعليا في الأقاليم. فمثلما يحدث في كل البلاد يفضل بعض الوزراء والموظفين المدنيين عرض الجانب الإيجابي من الأمور، وغالبا ما يخفون الموقف الحقيقي خشية الإساءة لرئيس الدولة. وبالطبع عندما يسير أمر ما بصورة جيدة، فهو ينعكس إيجابا عليهم ويبرر دورهم، بينما العكس يمكن أن يثير شكوكا فيهم. كنت أستطيع أن أقول أي شيء، فواجبي أن أفعل ذلك من أجل مواطنيَّ، وزوجي أيضا.

واعتمد اختيار المنطقة التي أزورها بدلا من منطقة أخرى على الرسائل التي أتلقاها ـ تعامل مكتبي مع نحو ٨٠ ألف رسالة شهريا في المتوسط ـ وعلى ما يقوله لي من ألتقي بهم. وبطبيعة الحال كانت رغبتي في زيارة منطقة لم أتعرَّف عليها تؤثر

على اختياري، فضلا عن الطلبات التي ترد إليَّ من الملك أو الحكومة. وسرعان ما تفهَّم الناس حساسيتي تجاه مشكلاتهم، ولم يترددوا في طلب المساعدة مني. فكان يتم تحليل الخطابات، وتصنيف المشكلات، وتجميع التطلعات طبقا لكل منطقة. ثم أناقش ذلك مع الوزراء المختصين، وإذا شعرت أن حضوري ربما يكون مفيدا للجميع، أضع خططا للسفر على الفور. وعادة ما يرافقني الوزراء المعنيون، وكذلك مديرو شركة الغاز الوطنية، والخبراء الأكاديميون في الموضوعات ذات الأهمية للإقليم الذي سنزوره. وكنت أصحب معي دائما رئيس سكرتاريتي، «كريم باشا باهادوري»، الذي ينظم كل شيء، وحل محله بعد ذلك «هوشانج نهاوندي».

وعلى الرغم من التعب والصعوبات أستطيع اليوم أن أقول إن هذه اللقاءات مع رجال ونساء وطني، من «أذربيجان» إلى «خراسان»، ومن «جيلان» إلى الخليج الفارسي، ومن «كردستان» إلى «بلوشستان»، ناهيك عن الهضاب الصحراوية في وسط البلاد ـ من أجمل ذكريات حياتي ملكةً. وكانت المشاعر تبدو واضحة بمجرد دخولي هذه البلدان أو القرى. وعادة ما تتاح لي سيارة مفتوحة حتى يستطيع الجمهور أن يراني ويلوح لي، وأستطيع أنا أيضا أن أراهم وألوِّح لهم. فالعديد ممن يصطفون على طول الطريق كانوا كتبوا إليَّ يطلبون قدومي إليهم، والآن بعدما جئت لا يطلقون العنان لمشاعر الفرح فحسب، ولكنهم أيضا يريدون أن يلمسوني ويقبلوني. ويتعمد آخرون أن يعطوني خطابا بصورة شخصية، فإعطاء الطلب مباشرة للملك أو الملكة صار عادة، كما أنهم أيضا ربما لا يضمنون أن يوصل المسئولون الحكوميون مراسلاتهم إليَّ. ودائما ما ينجم عن حرصهم نفس المشاهد التي تؤثر فيَّ تأثيرا عميقا، وفي نفس الوقت تزعجني، حيث يلقي الناس بأنفسهم على سيارتي ـ غير آبهين بالسرعة، ولا بالحرس الإمبراطوري المرافق على الدراجات النارية ـ من أجل فرصة للاقتراب مني. وكنت أتوسل للسائق أن يقود بنفس سرعة المشي على الأقدام، كنت أخاف للغاية من التسبب في حادث، غير أن رجال الأمن يخشون أن يستغل بعض المتعصبين ذلك لمهاجمتي. وكان رجال الحراسة الراكبة للدراجات النارية ـ رغبة منهم في إثناء الناس عن الاندفاع إلى الأمام ـ يجعلون دراجاتهم تصدر صفيرا عاليا، ومع الضجيج المتواصل والخوف الدائم من وقوع حادثة يقفز قلبي من صدري. وفي النهاية كنت أضطر لأن أطلب من الحرس تغيير الدراجات النارية.

وعلى نحو أكثر عملية، ولإدراكي أن الكثيرين مستعدون للمخاطرة بحياتهم من أجل إعطائي خطاباتهم ـ طلبت من وصيفاتي الذهاب قبلي، أو بعدي، في سيارات «جيب» مفتوحة، لمجرد جمع الخطابات. وانتشر الخبر ببطء، فصار القرويون أكثر ثقة، يمنحون خطاباتهم للسيدات في هدوء.

ووجد رجال الأمن صعوبة كبيرة في التكيف مع طريقتي في الانتقال. فما أن أخطو خارج السيارة أحب الحديث وجها لوجه مع الناس الذين ينتظرونني، وأمضي وقتا في الاستماع إلى بعضهم. ودائما ما تلقي النساء أذرعهن حول عنقي، ويقبلنني، ويعانقنني. وكنت أبذل جهدا دائما لمحاولة منع الشرطة من سحبهم بعيدا، وأضطر لأن آمر هؤلاء الرجال، بحدة أحيانا، أن يتركوني أؤدي عملي بطريقتي. وفي المساء أعتذر، وأحاول أن أشرح مدى أهمية هذه المناقشات غير الرسمية بالنسبة لي. وأقول لهم: «**أستطيع أن أفهم أنكم تحمون الملك بتلك الطريقة ـ فنحن لا نستطيع المخاطرة بحدوث أي شيء له ـ لكنني لست بهذه الأهمية لمستقبل البلاد، وإذا اغتالني قاتل، أُفَضِّلُ أن يحدث ذلك وأنا أؤدي واجبي. أرجوكم اتركوني أؤدي عملي بطريقتي**». ويوافقون، وربما يعاودون نفس الشيء في اليوم التالي مرة أخرى، وأفقد أعصابي ثانية. وأتصور أن هذا ما يحدث مع هيئات الأمن في كل مكان في العالم.

ثم أترأس اجتماعات العمل مع المحافظ، والعُمَد، وممثلي قطاعات مختلفة من السكان. وعندما يكون الوزراء حاضرين يستمعون إلى المطالب بأنفسهم، ومع ذلك أطلب من رئيس سكرتاريتي إعداد محضر بالاجتماع. وفي إحدى القرى ربما يطالب الناس بمياه شرب نظيفة، أو إنشاء طريق جديد، وفي قرية أخرى ربما يطلبون مبنى مدرسة لائقة أو حماما عاما، وفي مكان آخر وحدة صحية. وكان يثير مشاعري دائما، أنني استطعت أن أشهد حبهم للملك رغم فقرهم، كما أظهروا لي أيضا مشاعر عظيمة. وكانوا يطلبون مني أن أبلغ الملك أنهم يدعون له كثيرا. وشعرت أنهم يدركون التزامه الكامل نحو إيران، ويعلمون أنه رغم بذلنا كل ما نستطيع لمساعدتهم فلن نستطيع معالجة تخلف عدة قرون بين ليلة وضحاها. وفي جميع هذه الرحلات لم أسمع مرة واحدة أي ذكر لمعارضة رجال الدين لتحرير المرأة أو الإصلاح الزراعي.

وكان الملالي[1]، الذين سيغرقون البلاد بعد ذلك في الحرب والتخلف، يحيونني في كل مكان بكلمات الإشادة لعملي الاجتماعي، وبابتسامات أخذتها على محمل الإخلاص. ولا شك أن بعضهم كان كذلك. ولم يكن زعماء رجال الدين الشيعة يصافحونني، غير أن السنة كانوا يفعلون. وقدموا جميعا طلبات لاستعادة المواقع المقدسة. وكانوا يعرفون مدى اهتمامي بهذه المقدسات، حيث كنت أحب أن أذهب للتدبر.

وبناء على المنطقة التي سأزورها أسافر بطائرة صغيرة، أو مروحية، أو سيارة، أو حتى حافلة إذا سمحت حالة الطرق. وأحيانا نصل إلى قرى لا تزال تفتقر إلى المرافق، لدرجة أن الأمهات كن ينتهزن فرصة حضوري لطلب المساعدة الفورية. وفي عدة مرات استطعت أن أجعل الطائرة أو المروحية في خدمة هؤلاء الأمهات من أجل نقل ابن مريض، أو زوج جريح، أو طفل معاق، إلى أقرب مستشفى. وأعلم بالطبع أن نفس هذه الظروف تسود بعد مغادرتي، ولكن كان هناك أمل على الأقل، فعلى نحو بطيء سوف يغطي شباب المجندين من مختلف التخصصات جميع أنحاء البلاد، وكنا ندرب عددًا متزايدًا من الأطباء.

وفي بعض الأحيان كنت أغيب لأكثر من عشرة أيام، في «أذربيجان» أو «كردستان» على سبيل المثال، فأتوقف في كل قرية تقريبا. ويعدو الفلاحون الذين يعرفون أنني ربما أمر بقراهم إلى جانبي الطرق الصغيرة لتحيتي. أحيانًا أخفض زجاج النافذة فقط لألوح لهم، بيد أن فرحتهم تكون مؤثرة إلى الحد الذي يجعلني أطلب من السائق التوقف للحظة. ثم يصعب أن أواصل طريقي مرة أخرى، فلديهم آلاف الأمور التي يريدون إبلاغي إياها، ولا يستطيعون تفهم أن هناك آخرين بانتظاري، وأن جدول أعمالي مثقل. والأكثر من ذلك أنهم حشود من الوجوه المشرقة والعائلات، في أزهى ثيابها، وتحفل هذه المحادثات بالمحبة الكاملة والكلمات الصادقة.

ويمضي اليوم في اللقاء مع الناس العاديين، والاجتماع بالمسئولين، وزيارة المواقع. وأكون حاضرة دائما، لأنصت باهتمام، وألتقط أبسط التفاصيل. وأحيانا أشعر بالإرهاق لدرجة أنني أستلقي على الأرض لخمس أو عشر دقائق وساقاي

(١) كان ممثلو الأقليات الدينية يحضرون أيضا للترحيب بي في هذه الجولات.

باتجاه الجدار من أجل تحريك الدورة الدموية، وإنعاش مستوى الطاقة قليلا. وصرت بفضل النشاط المتواصل أكثر وعيا بما تتحمله القرويات. فبالإضافة لكافة الصعوبات الأخرى التي يواجهنها كن يضطررن غالبا للسير عدة كيلومترات من أجل جلب المياه. وكانت صحتي جيدة، بحمد الله، بحيث تتحمل متابعة هذا الماراثون.

وفي المساء إذا لم يكن هناك حفل استقبال رسمي أتناول العشاء مع الأشخاص الذين يرافقونني في السفر، نتحدث عما تعلمناه من هذه المقابلات، ثم نستريح. وكثيرا ما ينظم المحافظ، لمعرفته حبي للشعر والموسيقى، حفل عشاء في حديقة أو على ضفة نهر، حيث نستمع ونحن جلوس على سجاد إلى أشخاص يلقون علينا من أشعار «حافظ»، و«الفردوسي»، أو شاعر آخر من شعرائنا الإيرانيين الرائعين. أو نستمع إلى الموسيقى التقليدية للمنطقة. وأثار ذلك أيضا سرور مدير منظمة «الأسد والشمس الحمراء» (الصليب الأحمر الإيراني) الدكتور «حسين خطيبي»، الذي يرافقني دائما، لأن منظمته لها مراكز في كل مكان تقريبا.

وكان الدكتور «خطيبي» رجلا مرموقًا، مثقفا للغاية، قادرا على أن يستظهر من الذاكرة قصائد مدح في جمال المناطق التي نزورها، أو توضح تماما المواقف التي نمر بها. وامتلك «جمشيد آموزكار» ـ وزير المالية ورئيس الوزراء فيما بعد ـ الذي يشاركنا أحيانا، نفس الموهبة المدهشة. وفي أمسيات أخرى أقترح الانخراط في ألعاب الحجرة، مثل الأحاجي ومباريات التخمين التي أحببتها كثيرا. ثم أشاهد هؤلاء السادة المهمين للغاية ـ قائد الفرقة، ووزير الزراعة، والمحافظ ـ في تبسط تام، وهم يستعيدون روحهم الشبابية العالية، وينفجرون في الضحك. وكنت أول من يستمتع بذلك. ومن خلال العمل جنبا إلى جنب ـ نتشارك الحماس والتعب ـ خلقنا تفاهما مشتركا، كان ينحي جانبا، لفترة قصيرة من الزمن على الأقل، قواعد البروتوكول المعتادة.

وأحببت المفاجآت التي تقع خلال هذه الرحلات، حيث عرفت وقتها أنني على اتصال بإيران الحقيقية. وعندما أسافر بالمروحية، ونطير فوق قرية، أو واحة، أو منطقة ريفية تثير فجأة داخل نفسي تجاوبا خاصا، كنت أطلب من الطيار الهبوط. وأتذكر في إحدى المرات ـ حدث ذلك أيضا في «أذربيجان» ـ أصررت على الهبوط بجوار بحيرة، ظننت أنها جميلة للغاية. وكان المكان معزولا بالكامل، ولم يستطع الطيار أن

يفهم ماذا جذبني إليه. وما أن لامست المروحية الأرض حتى رأينا نساء، وأطفالا، ثم رجالا على ظهور الخيل ينطلقون من التلال نحونا. فدُهِشَ كل منا لرؤية بعضنا البعض. لم يستطع السكان المحليون أن يصدقوا أعينهم: فقد هبطتُ من السماء، بالمعنى الحرفي للكلمة، في آخر مكان يمكن أن يتوقعوه! وانفعلتُ بهذا اللقاء الذي قام على الصدفة وحدها. فقبل ذلك بربع ساعة لم نكن أنا ولا هم لدينا أي فكرة عنه، والآن ها نحن وجها لوجه. ركع بعض الرجال، ولكن معظم النساء أطلقن صيحات الفرح. كانت لحظة رائعة أزالت كل إحساس بالتعب فورا. وكن يقبلنني ويضممنني إلى صدورهن كما لو كنت إحدى قريباتهن عائدة للوطن. وغطت الكثيرات منهن رأسي بأوشحتهن، في تلك البرودة المألوفة في بلدنا، وكان أثر لعابهن على خديَّ علامة حية على مشاعرهن.

وذات مرة، وبينما نطير فوق بعض المباني تحت الإنشاء في «جيلان»، همس في أذني المحافظ الذي رافقني:

ـ أقمنا هنا مزرعة نموذجية لتربية دود الحرير، بمساعدة من اليابانيين.

ـ حسنا، لنذهب لإلقاء نظرة!

ـ ولكن ذلك ليس ضمن برنامج الرحلة يا مولاتي. ليس هناك من ينتظرنا.

ـ السبب الأهم، أن الناس منهمكون في العمل. دعنا نقوم بمفاجأتهم.

وهبطت المروحية هبوطا صعبا في مكان بالقرب من المزرعة. وفجأة أدرك الناس أنني بداخلها. ثم اندفعوا باتجاهنا، رجالا ونساء يجرون في كل مكان. وأقرضنا عامل سيارته «الجيب» كي تقلنا إلى المزرعة، ولكن في نفس الوقت أحاط حشد منفعل بالسيارة. وانطلقت صيحات الفرح «**عاش الملك! عاش الملك!**» وامتدت الأذرع حتى لم نعد قادرين على المضي للأمام أو الرجوع للخلف. ووقف المحافظ صارخا بأعلى صوته دون جدوى. وغطى كلينا غبار أبيض أثارته المروحية. وكان واضحا أن الناس لا يتعجلون مشاهدة مغادرتنا، وأنهم فقط سعداء للغاية ببقائي هناك. وبدأنا نتبادل بعض الكلمات، ومرة أخرى سمعت تعبيراتهم عن مشاعرهم. أردت أيضا أن أبلغهم حجم ما أكنه لهم من مودة، وأنني سأنقل تحياتهم وأمانيهم الطيبة إلى الملك. وأخيرا أقنع قائد الطائرة بعض الرجال بالانضمام إلى المحافظ لإفساح

مجال لمرورنا. وتقدمنا خطوة بخطوة وسط بحر من الوجوه الباسمة الودودة. وعندما وصلنا إلى المباني حاولوا إغلاق البوابات خلفنا لمنع جميع السكان من الدخول. ولم يكن ذلك سوى مضيعة للوقت، فما أن أُغلقت البوابات حتى تحطمت تحت ضغط الجماهير.

وبدأت أفكر أن المحافظ ربما كان محقًّا عندما حذرني من مخاطر التوقف في أماكن غير مقررة. ولم أكن خائفة على نفسي، ولكن عليهم مع تزايد الحشد والانفعال. وهكذا اختصرت زيارتي، وعدنا إلى المروحية متخذين كافة الاحتياطات اللازمة. ولكن ما أن وصلنا إلى هناك حتى وجدنا استحالة في الإقلاع، لأن الناس تجمعوا أسفل ريش المروحية غير مدركين لخطورة ذلك، وتوسل إليهم المحافظ أن يعودوا إلى الخلف، غير أنهم ظلوا فقط يهتفون باسم الملك، كما لو أن هناك احتفالًا.

عندئذ وقفت على سلم الهبوط، ووصفت لهم اللحظة التي نتشاركها، فأخبرتهم إلى أي مدى تأثرت بالمشاعر التي أبدوها، وكم كنت أحب أن أحظى بلقاءات مباشرة أكثر، وأن أذهب أكثر من ذلك إلى جميع القرى، لأكون بين العائلات، وفي المصانع... «**والآن أسألكم العودة للخلف والجلوس حتى لا يشوب هذا اللقاء كارثة**».

وتفهَّموا الأمر، وفعلوا ما طلبت. وأقلعنا فوق غابة من الأذرع والأوشحة الملوِّحة.

وكنت أقدِّر حقا هذه اللحظات الصادقة والعفوية. فهي تبرر العمل الشاق الذي يقوم به زوجي في «طهران» وأحيانا يجابه بالإحباط والجحود. برهنت لي هذه اللحظات على أن جميع مبادرات الحكومة سوف تحقق في النهاية هدفها البعيد لأن الناس يثقون في مليكهم.

وحتى اليوم، تبرز في ذاكرتي بعض هذه اللقاءات، ومازالت تحرك مشاعري عندما أفكر فيها. فذات يوم بينما أقود سيارة «جيب» صغيرة بنفسي، وليس معي سوى سيدة واحدة تصحبني، وعدد قليل من الحرس في سيارة أخرى؛ مررنا بسيدة تسير على جانب الطريق تحمل حمولة ثقيلة للغاية. توقفت وسألتها إذا كان من الممكن

أن أوصلها لأي مكان. لم تتعرف عليَّ لذلك استطعنا أن نتحدث حديث المرأة للمرأة. تحدثت بجدية عن الصعوبات التي تواجهها في حياتها اليومية، ولكن من دون مرارة. كنا في «بابول» شمال البلاد. وبعد فترة سألتني عن وجهتي وعن هويتي. أخبرتها بصورة طبيعية، فأخذت هذه السيدة التي عاشت حياة فقيرة ـ كان ذلك في منتصف الستينيات ـ يدي في دفء حماسي، حتى أن هذه اللفتة البسيطة عبرت عن كل الكلمات التي لم تستطع أن تعثر عليها. لم تكن تملك منزلا وبعد فترة قصيرة ساعدتها على شراء واحد.

ومرة أخرى تصادف أن ذهبت إلى متجر صغير للحلوى في مدينة «ديزفول»، كان الوقت مساء، وليس معي سوى صديقة (يتبعنا رجلا أمن)، ولأننا نرتدي ملابس بسيطة بدونا كسيدتين من نساء المدينة تمضيان عطلة. ولم تكن المرأة التي تبيع الحلوى بحاجة إلى جهد يذكر لحثها على أن تصف حياتها الطويلة بالفعل. كانت تعمل في «حمَّام» شعبي، وعرفت انعدام الأمن في الأيام الأولى من عهد الأسرة الملكية. وفجأة قالت: «**أشكر الله والملك كل يوم لأنه منحنا الأمان. فأنا أحضر كل صباح إلى عملي في ساعة مبكرة دون أن يضايقني أحد**». ثم جاء أحد جيرانها، وهو ضابط شاب يقيم فوق المحل. استمع إلينا للحظة، ثم تعرَّف عليَّ فجأة، فعلاه الارتباك كما علا بائعة الحلوى، لكنني حاولت الاحتفاظ بالنبرة البسيطة غير المتكلفة التي كانت سمة حديثنا قبل لحظة. وتدريجيا عثر الشاب على صوته، إلى درجة أنه سألني إن كان من الممكن أن أتناول كوبا من الشاي معه ومع زوجته في الطابق الأعلى. فقلت له: «**بكل سرور**».

كانت الشقة عبارة عن حجرة واحدة، حيث تنام زوجته وأطفاله على حشية فوق الأرض. أيقظ زوجته الشابة. ولم يكن موقفا يسيرا ذلك الذي وجدت نفسها فيه، أن تستيقظ بهذه الصورة لتجدني هناك. لكنها قبَّلتني وجلست معهما حول براد الشاي. تحدثت هي عن أطفالها وتحدث هو عن عمله بالجيش. كانا من «أذربيجان»، ويأملان العودة إلى هناك. ولم تتطلب تلك الأمنية معجزة مني لتحقيقها.

وذات أمسية أخرى طرقت باب أحد المنازل في «راشت» عشوائيا. وهذه المرة تعرفوا عليَّ فورا، وسرعان ما التهبت المشاعر. ولم تمر سوى دقائق قليلة حتى انتشر الخبر في القرية، وأخذ الناس فورا يتسلقون الأسوار ويتجمهرون في الشرفات.

أرادوا جميعا إبلاغي بما يضايقهم، وما هو خطأ، وما ينبغي إنجازه، وهرع أولئك الذين لم يجرؤوا على الحديث يقدمون خطابات. أراد أحدهم أن يرسل ابنه للدراسة في الخارج وطلب مني الحصول له على منحة دراسية. وأصر شاب على أن يحادثني على انفراد؛ كان مدمنا للهيروين وتوسل إليَّ أن أرسله إلى مستشفى. وسيدة لم تعد قادرة على احتمال عنف زوجها...

وعرف الناس أيضا اهتمامي بتراثنا الوطني، وخلال كل زيارة كانوا يدفعونني لمشاهدة الكنوز المغمورة التي لم يسمع عنها حتى المتخصصين في وزارة الثقافة. وإذا مررت بالسوق يقولون: «**فرح، فرح، تعالي من هنا**»، أو: «**شاهبانو، تعالي وشاهدي حالة قبر شاعرنا الفظيعة. ينبغي فعل شيء لمساعدتنا في ترميمه**». فأشعر بمدى أهمية الاستجابة لمطلبهم، لأن الشاعر كان فخر بلدتهم الصغيرة، الرمز الثقافي الذي يوحدهم، والذي يريدون أن يعجب به أبناؤهم بدورهم.

وفي بعض الأحيان، إذا لم نكن بعيدين جدًّا عن الصحراء، أطلب الذهاب إلى هناك في المساء. فالصحراء مكان للراحة، والتأمل، على حافة المدينة. وبعد العمل المكثف طوال اليوم أحتاج هدوءها، كي أسترد قدرا من الصفاء.

وتُضرَم النار، ونظل نحدق في الرقعة الشاسعة من السماء، وفي سحر النجوم، التي تبدو فجأة في الصحراء ـ وهناك فقط! ـ كما لو أنها على بعد بضع مئات من الأمتار فحسب. ومن بين أكبر دواعي ندمي أنني لم أجد وقتا لأعبر الصحراء على ظهر جمل كما حلمت، وأرافق البدو في طريقهم لبضعة أيام. قلت لنفسي إنه سيكون لدي ترف القيام بذلك لاحقا، وهكذا أرجأت الأمر عاما بعد عام. كنا نشتاق دائما للنسيم البارد والريف الأخضر، ولكنني الآن وأنا أعيش في الولايات المتحدة وأوروبا أشتاق بشدة لجبال الصحراء الصخرية الجافة، أفتقد التراب والذباب. بل إنني أفتقد رائحة البنزين، الواضحة للغاية في إيران.

وهناك سبب آخر يدعوني للندم وهو أنني قررت ألا أرتدي الثوب التقليدي للمناطق التي كنت أزورها في المناسبات الخاصة. أردت ذلك دائما، لكنني لم أجرؤ خشية أن يساء فهم التصرف. وأعتقد اليوم أن ارتداء ثوب يشبه ما تلبسه جميع النساء اللاتي كن يرحبن بي كان سيصبح وسيلة أفضل لأريهن إلى أي مدى شعرت أنني واحدة منهن،

وكم أشعر تماما بكوني إيرانية. فلا يمكن للمرء أن يفقد ذلك الإحساس بالانتماء إلى مجتمع، وكل يوم في المنفى يمثل أحد جوانب الحياة اليومية تذكيرًا مؤلما بأنني لست بين أهلي، وأن جذوري مازالت في إيران. ويأخذني رفيف أجنحة الحمام في الفناء إلى «طهران»، كنسمة غير متوقعة من شجيرة «صريمة الجدي» أو «زهرة الليلك» تهب عليك بينما تتمشى. وتملؤني قطعة من جبن الفيتا على شريحة خبز تعلوها ورقة نعناع، أو قليل من المشمش تحضره صديقة من منزلها، بحنين لا يوصف للماضي. والشاي المغلي مصحوبا بالتوت! عندما يجفف هذا التوت في الشمس، ويحتفظ بقليل من ذرات الرمل التي تجرش عندما تمضغ. ومؤخرا بينما كنت أتناول بعض هذه الفاكهة صغيرة الحجم، التي أحببناها أنا والملك كثيرا، وجدت في واحدة منها قليلا من ذرات الرمال. اعتقدت أنني كسرت أحدى أسناني، ولكنني في نفس الوقت شعرت بسعادة غامرة أنني ابتلعت قليلا من تربة إيران.

كنت أعود من رحلاتي تملؤني الطاقة والثقة في المستقبل. وكان جميع الإيرانيين الذين التقيت بهم مبجلين، فعلى الرغم مما يلاقونه من صعوبات يملؤهم الإحساس بالكرامة، ولديهم رؤية واضحة عما ينبغي عمله. كانوا أمثلة في الشجاعة بالنسبة لي. ليس عليَّ إلا أن أفكر في عدد من النساء اللاتي قابلتهن، والآباء، والعمال، والفلاحين، والجنود حتى أظل مبتسمة.

مكانة المرأة في مجتمعنا، خاصة داخل الأسرة، كانت من الأمور التي تشغلني بشكل دائم. وظل العديد من النساء يناضلن لسنوات من أجل الاعتراف بحقوقهن. وأذكر بوجه خاص «هاجر تربيات» التي ناضلت من أجل النساء في عهد «رضا شاه»، وأيضا «ماهناز أفخني» وكانت أول وزيرة لشئون المرأة. وصرنا الآن ضمن عدد قليل من البلدان الإسلامية نملك تشريعًا يساوي بين الرجل والمرأة في ظل القانون، لكن الجميع يعرف مدى اتساع الفجوة بين روح القانون وتطبيقه! نعم، استطاعت النساء التصويت والترشح في الانتخابات البرلمانية، والدراسة، والالتحاق بالجامعة، ومواصلة الحياة العملية التي يخترنها، ولكن ماذا تعني هذه الإمكانات بعيدا عن المدن، في مجتمع ريفي مازال الجانب الأعظم منه أميا وتقليديا بوجه عام؟! ظلت لا تعني شيئا بالنسبة لعدد كبير من الفلاحين. وبقي المُلَّا هو السلطة المعنوية الوحيدة في معظم القرى، وواجهت جهود الحكومة المدعومة من عدة جمعيات من أجل

حماية حقوق المرأة صعوبة كبيرة في إيصال صوت آخر غير صوت المُلّا. أرادت الفتيات الذهاب إلى المدرسة، وأرادت النساء الإصلاحات، غير أن الرجال كانوا يتثاقلون. وفي هذه الظروف ـ الصعبة للغاية ـ تحوَّلت النساء إليَّ بأعداد متزايدة. وبتعييني وصية على العرش، ثم تتويجي ملكةً، أوضح لهم الملك الطريق، وكان الأسهل عليهن ـ بالتأكيد ـ الحديث عن متاعبهن لامرأة أخرى بدلا من الشكوى للملك نفسه أو لمسئولين في الإدارة.

وحكى لي العديد من النساء، سواء شخصيا أو عبر البريد، عن محنتهن عندما يتخلى عنهن أزواجهن من أجل زوجة أصغر عمرا. فماذا يفعلن؟ نظريا يستطعن طلب الطلاق، بعدما بات تعدد الزوجات محظورا. ولكن في الواقع لم يكن الموقف بهذا الحسم، لأن ضغوط رجال الدين أجبرت المشرع على أن يستبقي شكلا محدودا من التعدد؛ إذا كانت الزوجة الأولى لا تستطيع الإنجاب، أو تعاني مرضا خطيرا، يجوز للزوج اتخاذ زوجة ثانية بموافقة الزوجة.

وعلى الرغم من القانون كان من الصعب معاملة كل من الجنسين بنفس القدر من الاحترام بالنسبة للطلاق، الذي ظل امتيازا قاصرا على الرجل لزمن طويل، فيستطيع الرجل التخلي عن زوجته حتى من دون استشارتها. وكثيرا ما لا تعلم المرأة المسكينة عن طلاقها إلا عبر خطاب يبلغها أن زواجها انتهى. والآن تستطيع المرأة أيضا أن ترفع دعوى تطليق، وأنشأ القانون محاكم الأسرة، حيث يمكن نظريا للزوجين أن يحضرا ويعرضا القضية. ولكن ما الذي يمكن أن تفعله هذه المحاكم عندما يكون معظم النساء اللاتي تحدثت معهن يشعرن أن الرجال يتمتعون بالسلطة الكاملة؟!

وفي الحقيقة لم يكن تم إصلاح كل شيء. فعلى سبيل المثال مازال القانون يصر على ضرورة حصول المرأة على تصريح موقَّع من زوجها إذا أرادت السفر، تماما كما لو كانت قاصرا. وباستطاعة المرء تخيل المواقف المهينة والمثيرة للسخرية التي يسببها ذلك للنساء الأكاديميات أو المحاميات أو المهندسات. وتحدثت في ذلك الأمر إلى زوجي وإلى الوزراء المعنيين، ولكنه كان ضمن عديد من مسائل تثير ضيق رجال الدين، الذين رأوا فيه وسيلة قانونية لمواصلة اعتماد المرأة على الرجل. وأردنا أن نمضي قدما، وكنت بشكل خاص مصرَّة على هذا من أجل المرأة، ولكن كان علينا مراعاة اختلاف العقليات، والحرص على عدم الاندفاع في الابتعاد عن العادات

الراسخة، وإلَّا نصدم الناس، وحاولت اقتراح بعض التعديلات في كل حالة. وعملت نساء عديدات أخريات لتحقيق هذا الهدف، وعلى نحو خاص الأميرة «أشرف»، التي ضمت كافة الجمعيات النسائية معا، وقامت بدور عظيم لمساندة المرأة.

وصارت «فيالق محو الأمية»، التي تشكلت أساسا من المتطوعين للذهاب والتدريس في القرى، تضم عددا من الطالبات مساويًا لعدد الطلاب. واقترح بعض الفتيات الفكرة عليّ بينما كنت أتناول الغداء في جامعة «بهلوي ـ شيراز». قلن: «**لماذا لا نستطيع أن نشارك أيضا في برامج محو الأمية؟!**» وكنّ محقّات، لأننا قابلنا في بعض المناطق آباء يرفضون إرسال بناتهم إلى المدرسة إذا كان المدرس رجلا. وسوف تتيح لنا فيالق الفتيات لمحو الأمية، التي وافق عليها زوجي متحمسا، أن نتخطى هذه العقبة بوجه خاص.

وأقول بوجه خاص لأن هؤلاء الفتيات أيضا ساعدننا في نشر الفكرة عندما حاولنا تشجيع الناس على قبول فكرة تنظيم الأسرة. وكانت الحكومة استشارت رجال الدين، الذين عارضوها في البداية، ولكنهم في النهاية وافقوا عليها وفقًا لفتوى (وبعد قيام الثورة الإسلامية، سوف يتخلون عن تنظيم الأسرة، بزعم أن الملك لم يطبقه إلا لتخفيض عدد السكان المسلمين. لكنهم اضطروا للرجوع إليه بعدما واجهوا ارتفاع معدل المواليد بصورة مخيفة). وبعدما حصلنا على موافقة رجال الدين صار علينا الآن أن نعالج أصعب مهمة وهي إقناع سكان الريف أن تحديد عدد المواليد سوف يحقق لهم وللبلاد حياة أفضل، وإن كانت الظروف التي عاشوها جعلتهم يفكرون بطريقة عكسية: كلما زاد عدد الأطفال الذين ننجبهم، زادت قوة العمل لدينا. وقال لي البعض أيضا إنهم سينجبون جنودا لولي العهد. لم يستطيعوا تخيل تقدم الميكنة، ولا مستقبل مختلف لأبنائهم عبر زيادة فرص التعليم، وتحسين الصحة، والضمان الاجتماعي. وكانت مهمتنا توعيتهم وجعلهم يتفهمون. وفي ذلك الوقت بدا معدل وفيات المواليد مؤيدا لوجهة نظرهم، غير أن المعدل سوف يتقلص بسرعة بفضل فرق الرعاية الصحية، وافتتاح المستوصفات، والتطعيم بالأمصال، وتوزيع وجبات مجانية في المدارس. وسار خطر تعدد الزوجات على نفس المسار؛ تلد المرأة طفلا كل عام خشية أن يتركها الزوج أو يتخذ زوجة ثانية. فاكتشفنا أنه من الضروري أن نشرح للناس أهمية تحديث البلاد.

ولا شك أن من بين السيدات اللاتي قمن بعمل عظيم لتغيير أساليب التفكير عند الناس السيدة «فروخرو رو بارسا»، وكانت وزيرة التعليم القومي. ووالدتها من رائدات تحرير المرأة. وعرفْتُ السيدة «بارسا» في مدرسة «جان دارك»، حيث كانت معلمتي في مادة العلوم. كانت أيضا طبيبة، وملتزمة للغاية برسالة التعليم والصحة معا. وعندما صرتُ ملكة تعززت صداقتي وإعجابي بها من خلال عملها. ولا يمكنني التفكير فيها اليوم من دون قدر كبير من الانفعال والحزن، حيث حكم عليها الملالي بالإعدام لعلمهم بالدور الذي قامت به من أجل المرأة بوجه خاص، وأعدموها رميا بالرصاص بطريقة لا أستطيع وصفها دون أن أشعر بالخزي.. بالخزي لأن الإيرانيين استطاعوا القيام بمثل هذا الشيء. لقد وضعوها في كيس، بحيث عندما يسقط جسدها بفعل الرصاص لا يؤثر المشهد على نفسية قاتليها. وأعدم الآلاف من النساء بنفس الطريقة، واغتصبت العذارى قبل قتلهن، لأن العذراوات يذهبن إلى الجنة وفقا لنص ديني.

وكانت حالة الأيتام المؤسفة إحدى مسئولياتي الأخرى، فقد ترأست الجمعية المسئولة عن هؤلاء الأطفال. وكانت تضم نحو عشرة آلاف عضو في أنحاء البلاد، وعلى الرغم من أن المديرة هي «فاطمة خزيم علم»، كانت مساعدتي الرئيسية هنا هي والدتي. ولم تكن هذه الجمعية القائمة منذ سنوات عديدة تمتلك مراكز كافية في عدة مناطق من البلاد لاستضافة الجميع، وهكذا كان بناء المزيد من المراكز اهتمامنا الأول.

ثم أدركنا أنه بصرف النظر عن النظَّار لم تتلق السيدات اللاتي يعملن في هذه المراكز تدريبا خاصا. وكان الأطفال يجدون كسوتهم، وتغذيتهم، والعناية بهم، لكنهم لا يتلقون دعما نفسيا كافيا.

ومن ثم قررنا تدريب الشباب والفتيات ليصبحوا مربين. وقدمت فرنسا لنا مساعدة قيمة بإنشاء مدرسة خاصة. وعرض أشخاص من جميع أنحاء البلاد المساعدة بكفالة عدد قليل من الأطفال. ومنحنا إيرانيون أثرياء آخرون أراض أو مبان لتلبية احتياجاتنا التي كانت هائلة.

وفي كل زيارة للأطفال أشعر بمدى احتياجهم للتعامل معهم باعتبارهم أفرادا

مستقلين، بصرف النظر عن الجماعة. فتهرع الفتيات إليَّ قائلات: «**أنا فلانة**». ويجعلهم الزيُّ الموحد متشابهات، وغالبا ما يكون الأولاد حليقي الرؤوس بسبب حشرة القمل. وكان النظر إلى وجوههم يحطم القلب. وصار لا بد من إلغاء الزي الموحد، وتوعية الموظفين أن كل طفل يحتاج للاعتراف بأنه فرد بذاته حتى يستطيع أن ينمو. وذلك تغيير في التفكير اقتضى الكثير من الشرح المفصَّل.

وفي البداية عندما كنت أصل إلى بعض الملاجئ أشعر أحيانا أن كل شيء أُعِدَّ خصيصا لزيارتي، وأنهم نظفوا كل شيء، وأخفوا بحرص كل ما هو ليس سليمًا، حتى الأطفال المرضى، أو أولئك الحزانى للغاية، الذين فضلوا ألا أراهم. وأدى ذلك أحيانا إلى بعض التبديلات السريعة. وكنت أقول للعاملين: «**إذا كنت تكبدت عناء السفر والمجيء من مسافة بعيدة، فليس ذلك حتى تخفوا عليَّ أكثر المواقف المحزنة أو الأمور غير الناجحة. على العكس أنا هنا لمساعدتكم، وأريد أن أرى الصعوبات التي تواجهونها يوميا. ثم إن ذلك سيئ جدًّا بالنسبة للأطفال. ألا تعتقدون أنهم يمكن أن يعرفوا أنكم تكذبون عليَّ؟!**» وجعلهم ذلك يفهمون أنه رغم كوني ملكة، إلا أنني يجب أن ألمس الواقع، والحياة كما هي حتى أستطيع اتخاذ قرارات سليمة. وتطلب ذلك أيضا تغيير طريقتهم في التفكير.

وبعد سنوات قليلة عندما وفرنا مساكن محترمة، وبيئة يتأقلم معها الأطفال كما ينبغي ـ حيث التحقوا بالمدارس مثل غيرهم من الأطفال، وصاروا مندمجين أكثر الآن بعدما لم يعد هناك زيّ موحد ـ عندئذ أصبح بإمكاننا أن نفكر في الخطوة التالية. وتضمن ذلك إنشاء مراكز لقضاء العطلات، والأهم من ذلك المشاركة في الأنشطة الثقافية والرياضية، التي لم يعرفوها قبل ذلك أبدا. وذهبت لطرق الأبواب مرة أخرى. فأعطانا أحد الأثرياء قطعة أرض رائعة في «شميران»، ليست بعيدة عن قصر «نياوران»، فاستطعنا بما جمعناه من أموال بناء أول دارين للعطلات، واحدة في ذلك الموقع والثانية بالقرب من بحر قزوين.

وأشرفت بنفسي على أعمال الهندسة المعمارية والتنظيم الداخلي لهذين المبنيين. واهتم المهندسون المعماريون الذين استعنَّا بهم بالأطفال وحرصوا على تلبية احتياجاتهم. وأتذكر بوضوح المناقشات التي أجريناها بخصوص كافة التفاصيل؛ التقسيم السليم لغرف النوم، وألوان الأسِرَّة، وتحديد اتجاه المطبخ حتى يستطيع

الطبَّاخ أن يستمتع بمنظر البحر بينما يقوم بتقشير البطاطس. وجنينا ثمار عملنا بسخاء عندما شاهد الأطفال البحر للمرة الأولى.

وصار لدينا مراكز خاصة في «طهران» ومدن أخرى من أجل الأطفال الذين تم التخلي عنهم عقب ولادتهم. وتولت نساء في المنظمة رعاية المواليد، كل واحدة تعتني بمولود أو اثنين، فترعى احتياجاتهما العاطفية والبدنية. وكان لوالدتي «أطفالها» الذين رعتهم مثلما كانت ترعاني. وعندما تلوح فرصة للتبني بواسطة زوجين إيرانيين أو حتى أجنبيين، نبحثها فنجمع المعلومات عن الوالدين راغبي التبني، فإذا جاءت المعلومات طيبة، نمنحهما المتبنى. وفكرنا في أنه لو أتيح لهؤلاء الصغار العيش مع أسرة سويسرية أو نرويجية أو دانماركية، لماذا نرفضها؟! وتظل السيدة المسئولة عن المنظمة على اتصال بالآباء المتبنين.

وبعد الثورة الإسلامية كتب إليَّ عدد من المتبنين، الذين صاروا الآن أوروبيين، وتواصلتُ مع بعضهم. ومعظمهم الآن أصبحوا ناضجين، سعداء، متأقلمين تماما مع مجتمعاتهم، ولكن يظل جزء صغير داخلهم يشعر بأنه إيراني. والبعض يريد كثيرا معرفة بلده، ويحلم آخرون بالتعرف على والديهم الحقيقيين. وأنا أمثل صلتهم بإيران التي لم يعرفوها، وهي صلة أمومية، وأجد ذلك مؤثرا للغاية.

غير أن الغالبية العظمى من الأطفال اللقطاء ظلوا في إيران. حاولنا مساعدتهم عند الانتقال إلى حياة البالغين، بأفضل ما نستطيع. فأوجدنا لبعضهم إقامة مؤقتة، وللبعض الآخر عملا. وحاول الجميع بجدية. وعندما يتزوج أحدهم يكون الاحتفال حقيقيا.

وشغل مصير الأطفال المعاقين الحكومة والسلطات في وقت ما. وقبلت رئاسة الجمعية الوطنية لحماية الأطفال، التي شُكِّلت قبل ذلك بسنوات عديدة. وكان لديها مركز للمعاقين ذهنيا، وشاركت في أبحاث للتوصل لأسباب التخلف العقلي. وكثيرا ما كان زواج الأقارب هو السبب، وفي هذا المجال أتذكر النائبة «مهرانجيز مانوشهريان» التي صاغت قانونا يلزم الخطيبين الشابين بإجراء فحص طبي قبل الزواج. وهذه السيدة أيضا كانت القوة المحركة وراء إنشاء محاكم الأطفال، وقانون للسجن يحظر احتجاز القصَّر مع البالغين في نفس المكان.

وتم افتتاح عدة مدارس لتعليم فاقدي البصر القراءة والكتابة، وكذلك الموسيقى للموهوبين من بينهم. وزرت هذه المراكز بانتظام، وأعجبت إعجابا كبيرا بإخلاص وكفاءة جميع المدرسين. وكان هدفنا بوضوح تمكين هؤلاء الشباب من الحصول على عمل رغم إعاقتهم، وأتذكر أن العديد منهم نجح في العمل كعمال تحويلات في السنترالات الهاتفية. وبُذِل نفس الجهد من أجل الصم. فقد أُنشِئ مركز في «طهران» لتعليمهم الكلام. وأمكن توظيف بعضهم في الصناعات ذات الضوضاء العالية، وهو ما أظهر أن المجتمع في حاجة إليهم.

أردنا أن نمنح كل هؤلاء الشباب، سواء معاقين أو أصحاء، الفرصة لممارسة الرياضة. وكنت أيضا رئيسة الاتحاد الرياضي للصم. حيث آمنت الحكومة والملك إيمانا قويا بفوائد الرياضة، وحرصا على أن يكون في كل بلدة المنشآت الرياضية اللازمة.

الفصل الثالث عشر

بمولد «ليلى» في ٢٧ مارس ١٩٧٠ صار لدينا أسرتنا النموذجية. أردنا أربعة أطفال، ومنحنا الله إياهم، مقسمين بالتساوي ولدين وبنتين. وخلال مقابلة صحفية في أوائل الحمل، قلت: «**لدي إحساس أن طفلي الرابع سيكون بنتا. نريد أنا والملك أن نسميها ليلى**». واحتفظت بنص المقابلة، ووضعتها والفرح يملؤني بطفلتي الصغيرة في سجل ذكريات طفولتها. ومازالت موجودة إلى الآن. وبعد صفحات قليلة أقرأ هذه الكلمات القليلة التي كتبتها يوم ٢٧ مارس ١٩٧١، بمناسبة عيد ميلادها الأول: «**ذات طبيعة لطيفة، سعيدة، اجتماعية، تعقص أنفها عندما تضحك. تعشق الضحك...**».

وعلى الرغم من الجدول المزدحم استطعنا في النهاية أن نخلق حياة أسرية. بدأت قبل عشر سنوات مع الاكتشاف المذهل أن كلينا يشعر بالحب، ومع الميول التي تجمعنا، والضحك الذي تشاركنا فيه. وزاد ذلك مع مولد «رضا»، الذي طمأن الملك على مستقبل الأسرة الملكية، فأتاح له التمتع بسعادة غامرة صافية، لم يعرفها قبلا.

وكانت العطلات هبة من الله لنا. تبدو اليوم كفترات رائعة من الهدوء وسط بحر دائم العواصف. كنا نستطيع الالتقاء في النهاية متحررين نسبيا من اهتمام الآخرين وتوقعاتهم. ومن اقتحام شئون إيران والعالم المتواصل لحياتنا اليومية. وأقول: «نسبيا» لأننا سواء كنا نقوم برياضة شتوية أو نجلس على شاطئ البحر، لم أشهد زوجي يقضي يوما من دون اجتماع على الأقل مع رئيس الوزراء أو مع أعضاء الحكومة، أو استقبال شخصية أجنبية مهمة تزور إيران. في كل الأحوال كان يعمل في الصباح.

ومن الناحية الجوهرية لم نستطع أبدا أن نعيش كأسرة طبيعية، ونمنح الأطفال

الوقت الذي كنا نود أن نمنحهم إياه. وبينما كان الأبناء لديهم تفهما لماهية مسئولياتنا، إلا أنهم يذكرونني اليوم بذلك، ولو استطعت أن أعيش حياتي مرة أخرى لمنحتهم ومنحت زوجي وقتا أكثر. فبالنسبة للأم تعتبر سعادة ومصلحة أبنائها أكثر الأمور أهمية، وإذا كانت هناك من نصيحة أقدمها للنساء، فهي إذا لم يكن الأمر ضروريا حاولي تقليل عملك لأدنى حد حتى تكونين متاحة لأبنائك. فبرئاستي مجموعة من المنظمات أشعر أنني ساهمت في سعادة رفاقي أبناء وبنات بلدي، وكنت أفكر بهذا في مستقبل أبنائي في ذلك البلد، لكن هذا لا يمكن أن يحل محل إظهار العاطفة والحضور يوميا كما كنت أحب أن أمنحهم.

ففي بداية زواجنا ذهبنا إلى بابول على شواطئ بحر قزوين لقضاء عطلتنا. كان هناك قصر قديم صغير وخلاب من عصر «رضا شاه»، مبنيٌّ وسط حديقة على النمط الذي أحبه ـ مورقة تزخر بالنباتات المطابقة لنباتات إقليمي «جيلان» و«مازانداران»؛ أعواد القصب، وأشجار البرتقال، وأشجار الليمون... أحببت السير على قدمي هناك، بعيدا عن كل شيء، تاركة لخيالي العنان. ويمضي الملك لركوب الخيل. لعبنا «البيتانك»[1] معا، وفي المساء كانت هناك ألعاب الحجرة، وألعاب التخمين التي كانت تافهة أحيانا لكنها مضحكة. أحببت أن أراه ضاحكا. كان جادا للغاية متخما بالمشاغل طوال بقية العام. وكنا نذهب إلى «بابول» بالقطار لقضاء عطلة أسبوعين بمناسبة رأس السنة الإيرانية في ٢١ مارس.

وفي الصيف نمضي شهرا فيما يشبه كوخًا خشبيًّا مبنيًّا فوق أطلال بميناء «نوشهر»، على بحر قزوين أيضا. ولم يكن هذا المنزل يشبه قصرًا بأي حال. فهو يحتوي على غرفة نوم واحدة، وحجرة مكتب صغيرة حيث يستقبل الملك مسئولين حكوميين أو ضيوفه، وحجرة طعام، وشرفة مغطاة نتناول فيها الغداء أحيانا أو نشاهد فيلما في المساء. وتوجد أيضا حجرة لرجال الأمن وبعض أكواخ للاستحمام. لا، لم يكن قصرا، غير أننا قضينا أفضل أيام حياتنا هناك، فهناك كنا في أسعد حال. وأتذكر دهشة

---

(١) من أشهر الألعاب التي يلعبها الأوروبيون خارج المنازل، ويحاول اللاعب خلالها أن يقذف ـ وقدماه مثبتتان داخل دائرة على الأرض ـ كرة مجوفة من الصلب محاولا أن تصل إلى الهدف وهو كرة خشبية موضوعة على مسافة معينة، والفريق الذي ينجح في اقتراب أكبر عدد من كرات الصلب من الهدف يكون هو الفائز. (المترجمة).

البروفيسور «جورج فلاندران»، الطبيب الفرنسي للملك، عندما رأى للمرة الأولى مقر إقامتنا الصيفي. وقد وصفه فيما بعد كما يلي:

«يتشكل ميناء «نوشهر» من مدخل صغير محاط بضفاف منحدرة. تدخل إلى اليسار بعدما تمر على نقطة حراسة يشغلها الحرس الإمبراطوري عندما يكون الملك في مقر إقامته. وفي نهاية رصيف الميناء يوجد مبنى خشبي منخفض من طابق واحد ينتصب بمقدمته في الماء، مثله مثل أي مقر عادي لمدربي السباحة في بعض شواطئ «نورماندي». وعندما ذهبت إلى هناك للمرة الأولى رأيت جلالته في الصباح. واستقبلني مرتديا بُرْنُس الحمام فوق لباس السباحة، في غرفة بسيطة ذات مقاعد خشبية بسيطة للغاية مغطاة بالوسائد. وربما كان هناك حجرتان أو ثلاثة، إحداها غرفة النوم، وجميعها ذات مخارج مباشرة إلى الماء، مع زورق آلي وجميع المعدات اللازمة للتزحلق على الماء. وفي البداية كان طبيعيا أن أظن أنه مجرد مبنى للانطلاق إلى ممارسة تلك الرياضة، ثم أدركت أن ما شهدته بالفعل هو المقر الصيفي الملكي بالكامل وهو مختلف تماما، وبعيدا عن أن يشبه «شاتو دو شامبور»[١]»[٢].

ومن نواح عديدة كان مبنى قديما بسيطا؛ كل شيء فيه بعيد عن الاتساق، بما في ذلك فراشي ـ تعين عليَّ أن أكون حريصة حتى لا أقع من فوقه ـ غير أنه منحنا السعادة البسيطة المتمثلة في كوننا معا نتشارك حياتنا اليومية.

ولما لم يكن هناك مكان للأطفال، أقاموا في منزل على الشاطئ. بل إن «علي رضا» كان يمضي الصيف هناك في كارافان. أما الزوار الآخرون، الأعمام والعمات، وأبناء الأقارب والأصدقاء، فكان عليهم أن يتعاملوا مع الفنادق.

وذخرت الأيام بمتع الإقامة بجوار البحر، خصوصا التزلج على المياه. وكان معلمنا أحد إخوة زوجي، رئيس أركان القوات الجوية، الجنرال «محمد خاتمي»، وهو رياضي عظيم، مستعد دائما لأن يحاول المستحيل. فبعد التزلج الأحادي وقفزة

---

(١) شاتو دو شامبور: من أهم قلاع العالم، بنيت في وادي لوار بفرنسا عام ١٥١٩، وهي تجمع بين طرز البناء الفرنسية في العصور الوسطى وأساليب البناء الإيطالية الكلاسيكية، وكان الغرض من بنائها أن تكون استراحة في موسم الصيد للملك فرانسوا الأول. (المترجمة).

(٢) خطابات «جورج فلاندران» إلى «جان برنار»، نوفمبر ١٩٨٧ ـ يناير ١٩٨٨.

التزلج، دَرَّبَنا على التحليق: وهو التعلق من باراشوت يأخذك عشرين أو ثلاثين مترا فوق المياه. وكان «نوشهر» ميناء يتعامل مع العديد من السفن التجارية السوفييتية في ذلك الوقت. ولم يكن الماء نظيفا جدًّا، ولكننا لم نقلق بهذا الشأن. واليوم عندما أتذكر ذلك أتعجب.. كيف لم نصب بالمرض جميعا؟!

وفيما بعد، تجاهلنا بحر قزوين إلى حد ما، وقضينا السنة الإيرانية الجديدة على جزيرة «كيش» على الخليج الفارسي بدلا منه. وكانت جزيرة ساحرة، في حالة بدائية تقريبا، ليس فيها سوى عدد قليل من السكان المحليين وسوق تجارية، والمبنى العصري الوحيد وقتها هو محطة للرادار بنتها القوات الجوية. واعتزمت الحكومة تطوير «كيش» كميناء حر للعملاء الأثرياء من دولة الإمارات، الذين كانوا يحبون الصيد في إيران، لكنهم فضلوا لبنان بسبب مغريات سياحية أخرى. وتم بناء مقر إقامة لنا أولا، تلاه فندق، ثم كازينو، وفيلات أخرى، وسوق تجارية عصرية. وكان الطراز المعماري حديثا، لكنه امتزج بمنظر الجزيرة، وأعيد ترميم الفيلات القديمة.

وكانت «كيش» موقعا مثاليا لجميع أنواع الرياضات. وكبر الأطفال، وهكذا تعلمنا جميعا الغطس معا. وكنا أنا و«رضا» مسحورين بألوان وتناغم عالم ما تحت البحر، على الرغم من قلقي الدائم من أسماك القرش وثعابين البحر. وكنا أحيانا نقترب منهم إلى حد ما. وكثيرا ما ذهب زوجي لركوب الخيل مع ابنه الكبير، وأحيانا مع «فرح ناز» التي كانت فتاة رياضية جيدة للغاية حتى وهي صغيرة. وكان يحب أيضا الدراجات النارية، وشيئا فشيئا صرت أحبها أيضا. حتى أننا نظمنا بعض السباقات مع عدد قليل من أصدقائنا. وأحببت القيادة بسرعة، ولكنني ربما لم أكن سائقة رائعة، وذات يوم حدث ما لم يكن من الممكن تجنبه، انحرفت عن الطريق، فصرت في جانب والدراجة على الجانب الآخر. ولم يكن مألوفا رؤية ملكة ممددة على الأرض، وأتذكر رعب ضابط الأمن الذي كان يرافقني. كنت أترنح ولا أستطيع الوقوف، ولم يكن يستطيع أن يفكر إلا في مظهري. توسل إليَّ قائلا: «**انهضي من فضلك يا مولاتي. لا يصح أن يراك الناس في هذا الوضع**».

وبعد ذلك بقليل، وبينما كنت أعتذر له، قلت له إن الملوك ليسوا سوى رجال ونساء لديهم قلوب، ويتعرضون للصدمات البدنية. فوافقني، لكنني لست متأكدة من أنه صدقني. وبعد الثورة الإسلامية مازال الموقع الذي شهد حادثتي يطلق عليه «منحنى فرح»!

وأتاحت العطلات في «كيش» الفرصة للملك حتى يرى عن كثب التقدم الذي يجري على هذا الجزء من الخليج الفارسي. فكان يقابل ممثلي الإدارة، ويتفقد المنشآت البحرية والعمليات الصناعية على الساحل، ويتعرف على حالة المصايد والزراعة. ونشأت في هذا السياق فكرة تبني صورة حكم أقل مركزية. حيث رأى وزير البلاط «أسد الله علم» أنه من المهم أن يكون للملك مقار إقامة في عدة مناطق من البلاد حتى يستطيع أن يقضي بانتظام بضعة أيام هناك ليتفقد منشآت الدولة وينشط السلطات المحلية.

وفيما يتعلق بعطلات الشتاء، كنا نختار بين التزلج على المنحدرات أعلى «طهران» أو «سان موريتز» في سويسرا. وكنت أعارض أن يكون لنا مقر إقامة خارج حدود إيران، وعارضت أيضا قضاء عطلاتنا بالخارج. ففي وقت نتطلع فيه لأن تبذل البلاد جهدا للحاق بالبلدان الأخرى بدا من غير المنطقي بالنسبة لي أن نهرب إلى المزايا التي تعرضها أوروبا، كما أنه لا يعبر عن تضامن كبير مع شعبنا. وتعتبر «سان موريتز» الاستثناء الوحيد الذي سمحت لنفسي به، لمدة أسبوعين كل عام. كنت أستمتع بالطبع بالتزلج في جبالنا، لكنني لم أستطع العيش دون تكلف مثلما هو الحال في «سان موريتز»، حيث يستطيع المرء الاختلاط بغيره من الناس في العطلة. ففي الوطن كنت حتى وأنا مرتدية بذلة التزلج أشعر بأنني في معرض على الرغم من نفسي، فأنا عرضة للفضول دائما، حتى عندما لا يكون هناك مصورو صحف يلتقطون لي أفلاما أو صورا فوتوغرافية. وأيضا أينما نكون في إيران أشعر بالمسئولية عن كل شيء، من إدارة المنتجع، إلى الحالة المزاجية للمتزلجين، بما في ذلك طريقة لبس مشغلي مصاعد التزلج، وحالة المنحدرات، والحالة المعيشية للسكان. وكانت هذه الهموم تسبب لي توترا دائما، نوعا من الامتداد لعملي. فعلى سبيل المثال، كنت أستطيع أن أرى نفسي وأنا أحاول التأكد من أن الناس لم يتدافعوا في الصف، أو أن حراسي لم ينظموا الأمور بطريقة أو أخرى لأكون في المقدمة. نعم، كانت «سان موريتز» مثل واحة، وكنت أحتاج هذه المهلة القصيرة من الراحة حتى أستطيع القيام بدوري بنشاط بقية العام. ومع ذلك اضطررنا للتوقف عن الذهاب إلى هناك منذ شتاء ١٩٧٦، حيث أبلغتنا السلطات السويسرية خشيتها على سلامتنا. وكان ذلك منطقيا كما اكتشفت بعد قيام الثورة الإسلامية؛ كان بعض القادة الشيوعيين العاملين مع إرهابيين أوروبيين من اليسار المتطرف يتآمرون على حياة الملك.

وبطبيعة الحال مارس الأطفال أنشطة أخرى خارج هذه العطلات الأسرية. فـ«رضا» ينضم إلى معسكرات الكشافة سنويا، وساهمت الذكريات السعيدة التي أحملها لسنواتي كقائدة لفريق الكشافة في اتخاذ هذا القرار، فضلا عن أن الملك كان رئيس فرق الكشافة في إيران. وأحب «رضا» الذهاب إلى المعسكر، والحياة داخل خيمة، وقضاء الأمسيات حول نيران المعسكر. ولم يكن لديَّ شك في أنه من الصعب عليه أن يعزل عن بقية الأطفال في سنه ويعامل باعتباره شخصا فريدا. ولكنه في المعسكرات يعامل باعتباره مثل الآخرين، ومع ذلك كان وجوده يجعل من رقابة الشرطة ضرورة للفوج كله. وفي ١٩٧٣ نجونا بالكاد أنا و«رضا» من محاولة اختطاف أثناء حضورنا مهرجان سينما الأطفال. وألقي القبض على نحو عشرة أشخاص. كانت مؤامرة دبرها اليسار المتطرف.

وشارك «رضا» والده ميوله، أولا نحو السيارات، ثم الطائرات. وكان في الثالثة عشرة فقط عندما رأى معلمه أنه قادر على الطيران وحده بطائرة «بيتشكرافت إف ٣٣ سي بونانزا». واتفق أخو زوجي، القائد الأعلى للقوات الجوية، مع المعلم: «رضا» قادر بامتياز على الطيران وحده. كنت قلقة من الفكرة، وفي نفس الوقت أعرف أن أيا من أخي زوجي أو المعلم لن يقبل أدنى مخاطرة. وإذا اتفقا على أن يطير فهذا لأنهما واثقان فيه تماما وفي نفسيهما. نعم، كنت أعلم ذلك، لكنني أعلم أيضا أن غير المتوقع يمكن أن يقع دائما في الأنشطة الإنسانية، إذا وضعنا في الاعتبار أيضا عقل طفل في الثالثة عشرة لم ينضج بعد. فماذا يمكن أن يحدث إذا أصيب بالفزع فجأة، أو إذا فقد السيطرة على الطائرة لأي سبب؟! ونحَّى أخو زوجي مخاوفي بإشارة من يده. فقد أرسل ابنه للطيران في سن الثانية عشرة والنصف، وسار كل شيء على أحسن ما يرام. وتحدثنا في ذلك مطولا مع زوجي. وتوسل «رضا» إليه أن يسمح له بالطيران، وما دام ابن عمه قد قام بذلك من قبله، فليس لدينا سبب لحرمانه منه. وكانت حجتنا السليمة الوحيدة تتعلق بوضعه كولي للعهد فنظرًا لذلك ليس لديه الحق في تعريض حياته للخطر. ووافق كلانا على التنازل عن هذا الاعتبار. وكان «رضا» يتمتع بإحساس قوي بالواجب، وقدم بالفعل جميع الالتزامات التي تفرضها عليه مكانته، فليس من العدل حرمانه من هذه التجربة في ذلك السياق. وقرر الملك إنهاء الأمر ومنحه موافقته.

وكان من المقرر أن يُجرَى الاختبار في القاعدة العسكرية. وبدا زوجي على

الإفطار كعادته جادا وهادئ النفس. عندما وصلنا إلى القاعدة رأينا الطائرة الصغيرة، ثم ظهر «رضا» في بذلة الطيران. استطعت بصعوبة تحمل فكرة أنه بسبيله للإقلاع وحده. وحاولت ألا أظهر ذلك. وابتسم لي، وحيًّا والده رسميا، ثم اختفى حتى رقبته في قمرة القيادة. وفي الحقيقة، منذ اللحظات الأولى القليلة، طمأنتنا طريقة تعامله مع الطائرة. فقد أقلع بسلاسة من دون أي اضطراب، وشعرت بزوجي وقد هدأت نفسه. وانتهت رحلة الطيران بكاملها بنفس التميز، مثل رقصة باليه جرى التدريب عليها مائة مرة. وعندما رأيته يقترب من نهاية مدرج الهبوط، اضطررت أن أعض على شفتي حتى لا أصرخ. أما الملك فبدت عليه تلك الابتسامة الخافتة الصغيرة التي تنم عما يشعر به من فخر وسرور.

كانت تلك مجرد البداية، كما تبين فيما بعد. فقد أسعد حب ابننا للطيران والده، لكنه آلمني دائما، لأنني بقدر ما أحببت أن أصغي إليهما وهما يتبادلان الرأي، بقدر ما سبب لي ذلك الكثير من القلق. وفي سن السادسة عشرة، أراد «رضا» أن يقود الطائرة الأمريكية المقاتلة إف٥. وقام بأول رحلة طيران منفرد بطائرة نفاثة في قاعدة «وحدتي» الجوية بمدينة «ديزفول». ولم يستطع زوجي الحضور، لكنني حضرت، أكثر قلقا بكثير مما كنت عليه في رحلة طيرانه الأولى قبل ثلاث سنوات. وقام بكل المناورات على أحسن ما يكون، وعندما هبط حياه جميع الضباط الواقفين معي، بالإضافة إلى مُعلِّمه بتصفيق حار. لكن ذلك لم ينجه من دلو الماء التقليدي الذي سُكِب فوق رأسه عند هبوطه من الطائرة! وواصل «رضا» التدريب حتى حصل على رخصة قيادة طائرات «بوينج» ٧٠٧، و٧٣٧، و٧٢٧، فضلا عن فالكون ٢٠. وعندما يحضر رئيس دولة إلى إيران في زيارة رسمية، كان المعتاد أن تصحب طائراتنا المقاتلة طائرته بمجرد دخولها مجالنا الجوي. وأذكر فخر زوجي الشديد في اليوم الذي انضم فيه «رضا» إلى طائرات الترحيب المرافقة للملك «حسين» عاهل الأردن، خاصة عندما علم الملك «حسين» أن ولي العهد طار لتوه معه.

ثم جاء دور «علي رضا» عندما بلغ الثانية عشرة ليتسلق قمرة الطائرة «بيتشكرافت بونانزا». وحضرت الأسرة بكاملها أولى رحلاته. وكان شقيقه وشقيقتاه متحمسين مثلنا، لعلمهم أن هذه التجربة نوع من جواز المرور الذي لا مفر منه، وينبغي إتقانها. وكان «علي رضا» صغيرا للغاية، وقليل الحجم، حتى أنهم اضطروا لتزويد طائرته

بأكياس من الرمل. وسار التحليق بامتياز، ولكن بمجرد أن أصبح على وشك الهبوط، انخفضت مقدمة طائرته قليلا. وأتذكر أنني أطلقت: «**أوه، يا إلهي!**» غير أن المعلم، الذي كان على اتصال به عبر اللاسلكي، كان قد حذره، وبهدوء شديد صوَّب «علي رضا» اتزان طائرته قبل أن يؤدي هبوطا سلسا.

ومع تقدمه في السن لم يفقد «علي رضا» أيًا من شقاوته أو خفة ظله. وكان معروفا لدى المحيطين بالقصر بما يقوم به من أمور مضحكة. كما كان محبوبا جدًّا أيضا لسلوكه المرح. فعندما كان في الخامسة أو السادسة ضُبِطَ وهو يلقي كريات من الخبز على الضيوف من شرفة أعلى القاعة، مرتديا «بيجامة» أثناء حفلة استقبال (وللحقيقة فعل شقيقاه الأكبر منه نفس الأمر قبله). وفي نفس السن تقريبا، بينما كان يتم دهان أرصفة القصر، تسلق في مرح برميلا من القار ليقف داخله حتى رقبته. وفي المدرسة ارتكب فضيحة، عندما قام بثقب جميع كرات السلة بشكل منتظم. وجمعت الناظرة وهي مذهولة جميع الطلاب لإجراء نوع من المحاكمة، من أجل إظهار مدى خطورة الحادث. ولكن عندما سألته لماذا أحدث ثقبًا في جميع الكرات، أثار ضحك الجميع عندما أجاب: «**لم يقل لي أحد ألا أفعل ذلك**».

وسبَّبَ لي «رضا» و«علي رضا» الكثير من حالات الخوف، خاصة مع قيامهما بالطيران، لكنني بالتأكيد كنت أشعر أن المخاوف لا مفر منها مع الصبيان ـ كما لو كانت خيرا أو شرا لازما، لا أدري ـ لأنني رفضت تماما عندما طلبت مني «فرح ناز» موافقتي على قيامها بالقفز بالمظلات. ورأيت أنه يكفي طياران، بل حتى ثلاثة باحتساب زوجي، في أسرة واحدة! غير أنني ندمت بعد ذلك. حيث دفعت «فرح ناز» الثمن ـ بصورة ما ـ بدلا من شقيقيها. كنت خائفة للغاية فعلا: الفتاتان على الأقل لن يعرضاني لذلك. وهكذا، اضطرت «فرح ناز» للانتظار حتى وصلت إلى الخامسة والثلاثين لتقوم بقفزة مظلية، بدون موافقة مني ولكن بمساعدة «علي رضا»، الذي كان يؤدي قفزًا مظليًّا حرًّا في ذلك الوقت. وشجعها على القفز الترادفي لتقليل المخاطرة.

ومنحتني «فرح ناز» وبعدها «ليلى» العاطفة التي حرص الصبيَّان على عدم إظهارها. كنت أشعر بالحاجة إلى إظهار البهجة بأطفالي، وأن أعانقهم، وأحبت «فرح ناز» ذلك. كانت فتاة صغيرة مطيعة، دائمة الابتسام، وذكية على نحو مدهش.

وعلى سبيل المثال، كانت تهتم دائما بالعاملين في القصر، أولئك الذين يعملون من أجلنا، كما لو أنها واعية بما يلاقونه من مصاعب. وإذا مرت بأشخاص فقراء أو تعساء في الطريق تتأثر بذلك دائما، وأشعر أنها مضطربة وحزينة. وكانت وهي طفلة تجلس دائما عند بوابات القصر، التي تطل على منتزه عام، وتشاهد الناس وهم يتمشون هناك، الأطفال والعائلات. وأخبرتني أنها حاولت عدة مرات الذهاب للعب مع الصغار الذين في مثل عمرها. وبعد ذلك بكثير، ونحن في المنفى، وبينما «فرح ناز» في سويسرا، اقترب منها شاب وقال لها بتعاطف واحترام شديدين: «**ألست الأميرة فرح ناز**»؟ **أتذكرك جيدا. كنت أحد الأطفال الصغار الذين اعتدت الحديث إليهم عبر بوابات القصر**».

نعم، يمكنكم أن تروا أنها أرادت دائما منذ بداية طفولتها أن تكون مع الآخرين. وفيما بعد عقب دراستها لعلم النفس أجرت أبحاث تخرجها في العمل الاجتماعي. وكان الفقر دائما يثير اضطرابها. وأتذكر أنها اعتادت خلال الثمانينيات في نيويورك أن تتعرف على المشردين في المنطقة التي تقيم بها وتعطيهم ملابس. ومازلت أسمع صوت «ليلى» وهي تقول لها مداعبة بمرح: «**تعرفين يا «فرح ناز»؟ رأيت شخصا في الشارع يرتدي سترتك**». ويبتسم «رضا» بحنان قائلا: «**لديك عقدة الأم تيريزا**».

وعندما بلغت «فرح ناز» سن الرشد، حاولت الانضمام إلى عدة منظمات غير حكومية حتى تستطيع أن تذهب إلى البلدان الأكثر احتياجا، لكنهم لم يقبلوها أبدًا بسبب اسمها. بل إن أحد موظفي منظمة «يونيسيف» رفض أن يقابلها عندما عرف أن اسمها «بهلوي». وتألَّمَتْ كثيرا بسبب ذلك، مما أحزنني، فما خطؤها؟! هل ينبغي رفض حقها في مساعدة جيرانها بدعوى أنها كانت ابنة شاه إيران؟!

وبينما «فرح ناز» الطفلة تتطلع لأن تصبح قادرة على مساعدة أصدقائها من البشر، فتحت قلبها للحيوانات. فكانت تستطيع قضاء ساعات في العناية بكلبها، وملاعبة فئرانها. ولم تجرؤ والدتي أبدا على دخول حمام «فرح ناز»، لأن الفئران تقيم هناك. وكنا نربي بضع بقرات، أحبتها أيضا، ومن حين لآخر تفرح فرحا عظيما لمجيء قادم جديد، مجاملة من أحد رؤساء الدول. وذات مرة جاءنا شبل صغير من حديقة حيوان «ثواري»، هدية إلى «رضا» من فرنسا، أثار سرور الملك مثلما أسعد «فرح ناز». وأتذكر أيضا ثعلبًا لم يكن يظهر إلا في أوقات تناول الطعام، وكان شبه أليف.

وكان زوجي يبدي مشاعره لابنتيه بسهولة أكبر مما يبديها لولديه. فربما أراد في داخله أن يصبح الولدين مثله. وكان سعيدا بـ«فرح ناز» التي حملت له عاطفة وإعجابا بلا حدود. وكنت أحب أن أصغي إليهما يتحدثان معا، فتسأله عن زائر رأته، ويوضح لها والدها حقيقة الرجل، وتستمع «فرح ناز» بجدية وهي تومئ برأسها.

ومرة أخرى، ملأنا قدوم «ليلى» بروعة الحياة الجديدة. فالملك احتفل لتوه بعيد ميلاده الخمسين، والبلاد في نهضة؛ ولم يكن وضعها مبشرا بنفس هذه الدرجة من قبل. ورأينا أن هذه الطفلة الرابعة سوف تتعرف على إيران التي نبنيها للمستقبل: بلدا منفتحا على العالم الخارجي، سعيدا، قادرا على الوفاء بالتزاماته.

الفصل الرابع عشر

تعرف زوجي وهو طفل على إيران وهي تحت هيمنة القوى الأجنبية، وفي الصدارة منها بريطانيا العظمى التي اكتشفت بترولنا. وشهد استعادة هويتنا القومية، بفضل إرادة والده «رضا شاه» الحديدية. ومع ذلك عندما خلفه على العرش في سبتمبر ١٩٤١ بدا أن كل شيء عاد إلى المربع الأول. لأن القوات البريطانية والروسية استغلت لتوها الحرب العالمية الأولى في غزو إيران. فمن كان ليهتم ـ على المسرح العالمي ـ بأمر هذا الملك قليل الخبرة ذي الحادية والعشرين عاما من عمره، الذي تولى عرش بلد حوَّله الحلفاء إلى قاعدة لدعم جهود الاتحاد السوفييتي الحربية؟! ففي التسعينيات من القرن التاسع عشر، قبيل بداية القرن العشرين، حاربت روسيا القيصرية مع الإمبراطورية البريطانية من أجل السيطرة على إيران. وبعد خمسين عاما صارت روسيا الاتحاد السوفييتي، لكن المخاوف من تقسيم بلدنا كما كان الحال في الأيام السوداء تحت حكم «القاجار» عادت مرة أخرى. ثم اندلعت الحرب بشأن «أذربيجان»، التي احتلها حزب «توده» بمساعدة الاتحاد السوفييتي، وتمت استعادتها مرة أخرى في ١٩٤٦. وعاد بترولنا إلينا عام ١٩٥٤ ـ وكان مكتشفًا منذ مدة طويلة ـ بعد صراع لا ينسى مع المصالح البريطانية. وما أن استعدنا بترولنا حتى وضع الملك البلاد على طريق التنمية، عبر إطلاق «الثورة البيضاء» باستفتاء شعبي عام ١٩٦٣. لكنه قام بذلك أيضا عبر السفر إلى أنحاء العالم لتشكيل تحالف مع عدد كبير من الدول الكبيرة والصغيرة، الرأسمالية والشيوعية، بهدف تنمية اقتصادنا، وإعطاء إيران مكانة محترمة على المسرح العالمي.

ورافقت زوجي في هذه الرحلات، المختلفة تماما عن خبرات الانتقال التي اكتسبتها دائما داخل إيران. فالآن صرت قريبة من عالم الدبلوماسية الحذر. ونظرا

لطبيعتي الشخصية كانت العلاقات الودية والحماسية مع الإيرانيين في محافظاتنا تجذبني أكثر على نحو واضح، لكنني مازلت أحتفظ ببعض الذكريات الحية من تلك الرحلات الخارجية.

والغريب بالفعل أننا ذهبنا كثيرا جدًّا إلى الاتحاد السوفييتي، ذلك الجار الشائك، الذي كانت علاقاتنا معه دائما إما دافئة أو باردة. وفي أولى زياراتي لـ«موسكو» و«لينينجراد» أوائل الستينيات أُطْلِعنا على المباني التاريخية، خصوصا القصور التي عاش فيها القياصرة. وأتذكر أنني سألت نفسي: «**إذا حدث وطردنا من إيران ذات يوم، هل سيتجول الناس في حجرات نومنا أو حجرات الاستقبال لمشاهدتها كما يفعلون هنا؟! هل ستعرض حياتنا الخاصة أمام الفضوليين ليتفقدوها؟!**» وعلى العكس من القادة الصينيين، الذين كانوا من الرقة بحيث جنبوني مشاهدة أطلال آخر أباطرتهم، بدا الروس سعداء بعرض قصور «نيقولا الثاني» علينا، وحتى الأماكن التي أُعدِم فيها المتعاونون معه. وكان الوضع في إيران لا يزال هشا، فـ«الثورة البيضاء» بدأت لتوها، والنشطاء من اليسار المتطرف وبعض ملاك الأراضي الإقطاعيين يعارضون سياسات النظام، وهكذا زاد إلحاح السوفييت بعناد على الأمر، من قلقنا الدائم تجاههم. ولكن بحلول السبعينيات كنت متأكدة من أننا على الطريق الصحيح، وأشعر أن لدى زوجي ثقة كبيرة في مستقبل البلاد، حتى أن إشارات السوفييت المتكررة لم تعد تثير لديَّ أدنى اهتمام.

وفي الحقيقة، فالتحريض ضد النظام تزايد وسط تحسن الظروف في إيران. واليوم، وكما تنبأ هاجسي المتشائم وقتها، فتحت السلطات الإسلامية أمام العامة مقار الإقامة التي عشنا فيها كأسرة، وبالذات «سعد آباد» و«نياوران».

ودفعتني خلفيتي الشخصية إلى الاهتمام بروسيا، حيث أمضى والدي جزءا من دراسته في «سان بطرسبرج»، وكان يتحدث الروسية بطلاقة. وعمل جدي قنصلا لإيران في «جورجيا»، وفي الثلاثينيات واصل حبه للفن والعمارة عن طريق إعداد بحث في «لينينجراد». ولا يزال أحد كتبه في متحف «الإرمتياج» حتى اليوم. ومع ذلك، وعلى الرغم من هذا الدافع لتعلم الروسية، جاءت أولى زياراتنا الرسمية للاتحاد السوفييتي محبطة تماما. لم أكن ذهبت إلى دولة شيوعية من قبل، فوجدت الشوارع الخالية مربكة. والوجوه القليلة المجهولة التي مررنا بها يعلوها تعبير الحزن،

والهدوء الصخري الذي لم أره أبدا في أي مكان آخر. أُقيم الكثير جدًّا من المباني، والكثير جدًّا من المدارس، وغُرِس العديد من الأشجار، لكنني انتظرت طويلا أن أستمع إلى ملاحظة مرحة، أو تعليق خفيف الظل، وهو ما لم يحدث. أحسست بأنني محاطة بأشخاص آليين، وبمرور الساعات والأيام أثقل ذلك معنوياتي. بينما تغلب زوجي على ذلك بصورة أفضل كثيرا مني، وفي المساء حاولنا أن نضحك من ذلك. وتساءلت بيني وبين نفسي عما إذا كان يمكن تخيل أن تصبح روسيا دولة غير شيوعية مرة أخرى، مما قد يسمح بأن تكون بيننا علاقات صداقة حقيقية. لقد أحببت البلد كثيرا، ولغتها وموسيقاها وآدابها.

أقمنا في «الكرملين»، وكانت تحركاتنا محدودة للغاية. ولثقتنا بأننا موضع تنصت كنا نخرج إلى الحدائق لنتحدث. وأحيانا عندما نكون بالداخل نسمع ضوضاء غريبة، وزعم سفيرنا «أحمد مير فندريسكي»، الذي كان رجلا مرحا للغاية ويتحدث الروسية بطلاقة شديدة، أن رجال «الكي جي بي» كانوا يقلِّبون أوراق القاموس بشكل محموم. وذات مرة، خلال زيارة شبه رسمية، اكتشفت دليلا على أنهم يسجلون محادثاتنا، كنت قلت لأحد مرافقيَّ: «**هذا بلد مدهش؛ لديهم قصور رائعة، لكنهم لا يفكرون في وضع أثاث أنيق فيها**». وفي اليوم التالي، وخلال حديث مشترك، التفتت سيدة سوفييتية وقالت لي وفي عينيها نظرة غريبة: «**للأسف ليس لدينا ديكور داخلي ممتاز، لكن كل شيء نظيف للغاية!**» شعرت بحرج إلى حد ما، لكن ذلك جعلني أبتسم أيضا.

عندما يبذل القادة أنفسهم محاولات حتى يظهروا بمظهر مرح يصبحون ثقيلي الظل. فأذكر إحدى الأمسيات، في عرض للباليه، وأنا جالسة بجوار «أليكسي كوسيجين». كان عرض «بحيرة البجع». وعندما ظهرت البجعة السوداء، مال علينا «كوسيجين» وقال بابتسامة من شفتيه المزمومتين: «**ألا تُذَكِّرُكم بالناتو؟!**».

كنت راغبة في أن أرد قائلة: «**إنها تشبه على نحو أكبر حلف وارسو**» لكنني بالطبع لم أقل شيئا.

واختلف الأمر في أغسطس ١٩٦٨، عندما سحقت قوات حلف «وارسو» ربيع «براغ»، أعربت عن غضبي لزوجي، بشكل واضح. كنا مرة أخرى في زيارة رسمية

لـ«موسكو». وبدا هذا التحرك من السوفييت بالنسبة لي مخزيا ولا إنسانيا، وزاد من ذلك ولعي الكبير بـ«تشيكوسلوفاكيا». فقلت لزوجي: «**لا أستطيع تحمل أن أقضي يوما واحدا آخر أبتسم لهؤلاء الناس، كما لو كنا أفضل الأصدقاء**». وكنت في غاية التأثر لذلك. فتفهم الأمر، وتركني أفعل ما رأيته الأفضل. فتذرعت بأن شقيقة زوجي مريضة وطرت إلى «باريس». وأذكر أنني ضبطت نفسي في الطائرة أتساءل مرة أخرى عن الاحتمال المستبعد لقيام ثورة تزيح ديكتاتورية الشيوعية عن نصف أوروبا. وكان قيام الكتلة الشرقية أحد مصادر القلق الرئيسية بالنسبة لزوجي. فنحن على الرغم من انتمائنا للمعسكر الآخر، نتشارك نحو ٢٥٠٠ كيلومتر من الحدود مع الاتحاد السوفييتي، وفي الواقع كان زوجي يحاول دائما التأكيد على ما يجمع بيننا وليس ما يفرقنا، في مواجهة الغدر والاستفزاز الدائم الذي تقوم به «موسكو». ألم يقل «خروشوف»، الذي يفترض أنه يتمتع بعقل منفتح، أن إيران سوف تسقط يوما ما «كتفاحة ناضجة» في أيدي الاتحاد السوفييتي؟ وعلى الرغم من كل ذلك قررنا أن نتعاون، وأفضل مثال على ذلك هو مصانع الصلب الضخمة التي بناها السوفييت في «أصفهان» (رفض حلفاؤنا في الغرب دائما مساعدتنا في هذا المجال).

وبقيت روسيا في ذهني بلدا خياليا، وبعد عدد من هذه الزيارات الرسمية الخالية من الروح، على الرغم من أنني ينبغي أن أذكر ـ حتى أكون منصفة ـ أن جميع هذه المناسبات شهدت لقاءات دافئة وودودة مع الخاصة من الناس، خصوصا الفنانين، وسألت زوجي إذا كان من الممكن تنظيم زيارة «خاصة» أتمتع فيها بحرية أكبر في التنقل كما أريد. فضلا عن أن الزيارات الرسمية غالبا ما تكون في شهور الصيف، وأردت أن أرى روسيا تحت الجليد، روسيا الخالدة الأسطورية.

ووافق «الكرملين». وهبطت في موسكو منتصف الشتاء، وبصحبتي عدد قليل من الأصدقاء والأقارب، من بينهم والدتي. ولم يكن الملك معي. وشعرت بسعادة لوجودي هناك، كنت سعيدة جدًّا في الحقيقة حتى أنني أخذت مجموعتنا الصغيرة للخروج في شوارع المدينة المغطاة بالجليد. واعتقد الحرس الروسي المرافق لنا أننا مجانين. وكانت الشوارع خالية تماما من البشر.

وفي اليوم التالي زرنا بلدة «زاجورسك» الصغيرة، بالقرب من «موسكو»، حيث أبقوا على الكنائس لحسن الحظ، وسرعان ما اكتشف الناس هويتنا، فحتى في نزهة

خاصة لم نستطع أن نبقى فترة طويلة من دون أن يتعرف علينا الناس، لوجود رجال الأمن من حولنا. ومازلت أستطيع تذكر الابتسامات ونظرة التعجب على وجوه النسوة العجائز في إحدى الكنائس، فقد تدافعن للاقتراب منا، وسمعتهن يهتفن: «**يا الله! من فضلكم دعونا نلقي نظرة على ملكة حية!**» كنت اجتهدت في تحسين إجادتي للروسية، ونظرا لأنني أجدت النطق بها، ظن الناس أنني أفهم كل شيء، وهو ما لم يكن صحيحا لسوء الحظ. وفي إحدى هذه الكنائس استطعنا أن نستمع إلى الكورال. وترانيم الكنيسة الأرثوذكسية مؤثرة للغاية، فامتلأت أعيننا بالدموع. وبالنسبة لي بدا الأمر كما لو أنني وجدت نفسي فجأة في روسيا كما صورها «تولستوي». وبعد ذلك دعانا القساوسة إلى تناول الغداء.

وفي «لينينجراد» صادفنا جوا مختلفا للغاية. استطاع أصدقائي أن يمزحوا ويضحكوا بحرية تامة. ولكنني، وعلى الرغم من كوني أكثر تبسطا، إلا أنه تعيَّن عليَّ دائما مراقبة ما أفعله وما أقوله. استطعت أن أقتفي أثر جدي، وأتخيل والدي وهو في الخامسة عشرة يتمشى في أزقة «سان بطرسبرج» القديمة؛ من كلية «أليكساندروفسكي كاديتسكي كوربوس» العسكرية وحتى الجسر على نهر «نيفا»، حيث حجرته هناك. ثم زرنا القصر الصيفي للقيصر، وفكرت في أنه من اللطيف أن نذهب لزيارة قرية أو قريتين في الريف بـ «الترويكا»، وهي عربة تجرها ثلاثة جياد ونادرا ما توجد هذه الأيام. وكانت «الترويكا» رمزا ظاهرا لروسيا القيصرية، وربما يبدو للمرء أن السلطات لن تكون متعاطفة مع ملكة إيران وهي تتنقل فوق الأراضي الروسية بعربة تجرها الجياد مثل أبناء الطبقة الأرستقراطية القديمة. لكن ذلك لم يحدث أبدا، فالسوفييت كانوا يتصرفون على ما يرام تجاه إيران في ذلك الوقت، حتى أننا حصلنا على «الترويكا» وكل الترتيبات اللازمة لرحلتنا. ومن ناحية أخرى لم أستطع أبدا مشاهدة قبر «تشايكوفسكي». فمؤلف موسيقى باليه «بحيرة البجع» من أفضل الموسيقيين لدي، وأردت منذ فترة طويلة أن أجلس وأتدبر بجوار قبره. ووجد السوفييت ذرائع لا تحصى لمنعي من الذهاب إلى هناك، ولم أتلق أي تفسير لرفضهم.

وواجهت نفس انعدام التعاون عندما طلبت الاستماع إلى بعض موسيقى الغجر، لكننا عرفنا السبب في ذلك الوقت، فالغجر اعتبروا معارضين للأيديولوجية الشيوعية، وموسيقاهم الزاخرة بالحنين من آثار الماضي المهين المناهض للثورة.

ومع ذلك استطاع سفيرنا تنظيم أمسية موسيقية حيث نقيم، ولكن في حضور عدة ممثلين «للكرملين». ولا شك أن المجموعة التي عزفت لنا كانت تقصد التعبير عن التيه والحزن الذي يعيشه الشعب كله، لأن كل حركة موسيقية كانت محملة بالشجن. وعندما انتهت المغنية من غنائها تقدمت إليَّ وأخذت كفيَّ بقدر كبير من المشاعر، داعية الله أن يحميني ويحمي زوجي وأبناءنا، حتى أنني شعرت بالخوف من أجلها. وكان استياء السوفييت واضحا، وأثارت النظرة الثلجية التي وجهها أحد الجنرالات لهذه المرأة رجفة بين ضلوعي.

وخلال هذه الرحلة زرنا «دوشابني» عاصمة «طاجيكستان»، التي حظيت مني باهتمام كبير لأن «الطاجيك» يتحدثون الفارسية. ثم ذهبنا إلى «باكو» عاصمة «أذربيجان» السوفييتية، على حدود محافظة أذربيجان التابعة لنا. وعرف الأذربيجان ـ السوفييت أن والدي جاء من تلك المنطقة، وشعرت أن الذكرى خلقت ألفة خاصة بيننا. ورأينا الناس في الشوارع يشملهم فضول كبير تجاهنا؛ أرادوا التحدث إلينا، ومعرفة ما تبدو عليه الأمور في إيران. ومن الواضح أن السلطات السوفييتية أرادت تجنب هذه الاتصالات والمناقشات غير الرسمية. وبحجة ما يسمى دواعي الأمن فصلونا عن الناس بعجلة مريبة. ووجدنا تفسيرا لهذا الحماس ونحن نشاهد معرضا للوحات المائية والرسومات. فبعض هذه اللوحات تصور فلاحين وهم يحرثون، مستخدمين عربات تجرها الثيران تنتمي بوضوح إلى القرون الوسطى. وفوقها تعليق موجز: «على الجانب الآخر من الحدود..». ولم ينخدع الناس في الحقيقة بذلك، خاصة منذ استقبلت «أذربيجان» الروسية عددا كبيرا من الشيوعيين الإيرانيين الذين فروا من إيران في ١٩٤٦، عندما طردنا قوات «جعفر بيشواري» المدعومة من «ستالين». وبعض هؤلاء الإيرانيين الذين تم حشوهم بالمثل الشيوعية أرادوا الآن العودة إلى إيران، حيث عائلاتهم، والحرية التي لم يعودوا يتمتعون بها. حاولوا الوصول إلينا لتسليمي خطابات تطلب السماح بالعودة إلى الوطن. ولفتُّ نظر الملك إلى وضع هؤلاء الأشخاص. وبالطبع نظرت الحكومة إليهم بارتياب كبير، هل غيروا فعلا آراءهم؟! ألا يعملون كساتر للسوفييت لضم بعض الحركات اليسارية المتطرفة، المكرسة للإطاحة بالعرش؟! وفي وقت لاحق تقرر تعيين منطقة حدودية يستطيعون فيها الالتقاء بعائلاتهم، بانتظار حصولهم على تصريح بالعودة الدائمة. والآن بعد

سقوط النظام السوفييتي كتب بعض النشطاء السابقين في حزب «توده» أو تحدثوا عن مدى البؤس الذي عاشوه على الأراضي السوفييتية، بعدما توقعوا أن يجدوا النعيم على الجانب الآخر من الحدود.

حافظنا على العلاقات مع جميع بلدان الكتلة الشيوعية، ومن ثم كانوا جميعا يستقبلوننا (باستثناء ألبانيا وكوبا وألمانيا الشرقية التي اضطررنا لرفض دعوتها في نهاية ١٩٧٧ بسبب التوترات في إيران). وجدت من الصعب القيام بهذه الزيارات المشوبة بقدر كبير من الرياء. كنا ندرك جيدا إلى أي مدى تكره هذه الأنظمة الحكم الملكي، وقد حاربنا الهيمنة السوفييتية طويلا بما لا يمكن معه إخفاء عدم الثقة في الشيوعيين. وعلى سبيل المثال، عندما وصلنا إلى «تشيكوسلوفاكيا» عرفنا أن هذا البلد بدلا من أن يستقبلنا بالزهور والسجاد الأحمر لديه محطة إذاعة ساندت «توده» وبثت الإهانات الموجهة لنا يوميا. ونفس الشيء في الاتحاد السوفييتي، حيث تتحدث مترجمتي «داجمارا» التي كنت على وفاق معها في الإذاعة بانتظام ضد إيران. وقد اعتذرت لي محرجة قائلة إنها لم تكن تستطيع القيام بغير ما أُمِرَت به.

وكان لجميع زعماء البلدان الاشتراكية نفس الطريقة الآلية في الإشارة إلى «المنجزات العظيمة للاشتراكية»، وعلى المرء أن يطير فرحا فوق مداخن المصانع والبلدات ذات المباني السكنية الكئيبة. غير أن الشوارع الخالية والمتاجر الخاوية كشفت الظروف السيئة التي عاش فيها سكان هذه البلاد. وآلمني أن أرى كيف تستخدم كثيرا كلمة «الرفيق» والحميمية الزائفة لإخفاء التمايز الحاد في الأنظمة التي تدعي خدمة العمال. وعلى سبيل المثال، يتباهى القادة بالجلوس إلى جوار سائقيهم، وينادونهم «الرفيق»، لكن نظرة إلى وجه السائق تكشف الخوف داخله. تذكرت سائقي في إيران، الذي لا يتمتع بالتأكيد بنفس الحميمية، لكنني أعرف زوجته وأبناءه، وهو لا يتردد في طلب أي خدمة إذا تعرض لأي مشكلة.

وينبغي على المرء كي يلتقط قليلا من الكلمات الصادقة أن ينتظر حتى مغادرة أعضاء الحزب. وأذكر ذات مساء في «تشيكوسلوفاكيا»، بعد الغزو السوفييتي في صيف ١٩٨٦، غادر الزعماء، وفجأة أخذ الناس يطلقون النكات. قال الجالس بجواري: ـ **هل سمعت جلالتكم آخر قصة تتردد في «براغ»؟**

ـ لا، قل لي.

ـ كان رجلان يتحادثان في شرفة بار، وفجأة مرت بهما سيارة، فهتف أحدهما: ما ألطفها من سيارة روسية! فقال الآخر: على رسلك، إنها ليست سيارة روسية! ألا تعرف طراز السيارة؟! فرد الأول: نعم أعرفه لكنني لا أعرفك.

وفي «تشيكوسلوفاكيا» كان من عظيم سروري أن التقيت بخبير بارز في الدراسات الإيرانية، بروفيسور «ريبكا»، الذي عمل مع جدي في إيران. وفي «طهران» مازال لدي صورة فوتوغرافية للرجلين عند موقع «برسبوليس». حيث ربطت بين البلدين علاقات تاريخية صاغها ملوك «القاجار»، الذين أحبوا مياه «تشيكوسلوفاكيا» الدافئة، وتركوا فيها آثار عصرهم، وبوجه خاص «كارلوفيفاري» (كارلسباد القديمة)، حيث يمكن أن تجد السجاد الفارسي والنجف من الكريستال الإيراني. وفكرت، بنوع من الارتياح، أنها رغم حماسها للشيوعية المدمرة لم تستطع أن تمحو كل آثار الماضي.

وعدت إلى «براغ» بعد سقوط سور «برلين»، وكنت هناك يوم انتخاب «فاكلاف هافيل». وعلى جسر «تشارلز»، يبيع الناس الشارات والميداليات التي كانت ذات يوم فخر الجيش الأحمر مقابل دولار أو اثنين. وتلك مفارقة قاسية وحزينة للغاية بالنسبة للرجال الذين حصلوا على هذه الأوسمة. غير أن المرء لا يمكنه أن يمنع إحساسه بأن هناك عدالة في ذلك: أهل «براغ» الذين تعرضوا للاجتياح والمهانة في ١٩٦٨ يبيعون الآن أوسمة غزاتهم لقاء ثمن علبة سجائر. وبنفس الروح عُلِّقت صور جميع قادة الحزب القديم التابعين للكتلة الاشتراكية في الشارع الرئيسي في «براغ» كالخارجين عن القانون. وعندما رأيتهم قلت مازحة لمضيفي: «**انظر! لقد وضعتم أصدقائي في صالة عرض**». وكنت في الواقع التقيت بهم جميعا.

لكن قلبي شعر بالنشوة عندما وجدت آثارا للثقافة الفارسية هنا وهناك في تلك البلدان. وفي جامعة «كراكوفي» في بولندا حيث تُدرَّس تعاليم «ابن سينا» في الطب ضمن المناهج الدراسية، وصادفنا مخطوطات قيل إنها له. وفي بولندا أيضا شاهدنا بعض أنواع السجاد الفارسي المنسوجة بخيوط الذهب والفضة، أمر بصنعها في إيران ملوك بولندا، وكانت تسمى في بلدنا تلك الأيام «السجاد البولندي». بيد أنني لا أستطيع وصف هذه الرحلة إلى بولندا من دون تذكر الرعب الذي شعرت به عندما زرت معسكر الاعتقال في «أوشفيتز».

ومما يثير الدهشة أننا قابلنا بولنديين في مكان آخر، في نيوزيلندا. فإلى جانب الاستقبال الرسمي في المطار، حدثت مفاجأة مؤثرة: مجموعة من نحو مائة بولندي يلوحون بالزهور واللافتات المكتوب عليها: «**مرحبا شاه إيران**». أراد هؤلاء الناس أن يشكروا الملك على قبوله استضافتهم في إيران قبل ثلاثين عاما، في الفترة من ١٩٤٢ إلى ١٩٤٣، عندما فتح زوجي الحدود أمام مجموعة كبيرة من البولنديين الفارين من قوات «ستالين». واستوطن العديد منهم بلدنا بعد الزواج من إيرانيات، وذهب آخرون للاستيطان في نيوزيلندا. ولكنهم لم ينسوا.

وفي سبتمبر ١٩٧٢، وقعت على عاتقي مسئولية تسجيل عودة العلاقات رسميا مع الصين، لمعادلة نفوذ الاتحاد السوفيتي. وظل «طريق الحرير» نفسه زمنا طويلا يرمز إلى العلاقات التجارية بين إيران والصين، التي قطعتها فجأة ثورة «ماو تسي تونج». وكان الملك متحمسًا لإعادة العلاقات الدبلوماسية مع ذلك البلد العظيم في الشرق. وفي ١٩٧٠، أرسل مبعوثا مهمًّا إلى الصين؛ شقيقته الأميرة «أشرف»، التي كانت رئيسة لجنة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان. وتعامل القادة الصينيون بشكل إيجابي مع هذه المحاولات، وعندما مِنِحَت الصين عضوية الأمم المتحدة في ١٩٧١، بادرت الأميرة «أشرف» بدعوة الوفد الصيني إلى الغداء في مقر سفير إيران إلى الأمم المتحدة.

وكان الملك راغبا في الذهاب إلى بكين بنفسه، لولا مشكلة بروتوكولية؛ الرئيس «ماو تسي تونج» مريض ولا يستطيع استقباله. وفي ظل تلك الظروف آلت إليَّ مهمة قيادة وفدنا في زيارة مدتها عشرة أيام.

وبدا الأمر مثيرا للغاية، ففي قرون سبقت جمعت بين الشعبين صروف الدهر، كما في المرة التي لجأت فيها الأميرة الساسانية إلى الصين هربا من الغزو العربي، وبعد ذلك بعدة قرون استوردت الصين سجادنا، وذهبنا نحن بدورنا إلى هناك من أجل تلك السلع الثمينة، مثل دود الحرير، والشاي، والبورسلين. وعلى نحو ما كنت قادمة لأعيد فتح طرق ذلك العصر القديمة، التي أزيلت تدريجيا من خرائطنا.

ولا شك أنه لم يرافقني من قبل مثل هذا العدد من الأشخاص الذي صحبني في هذه الرحلة: فكان إلى جانبي «أمير عباس هويدا» رئيس الوزراء، فضلا عن العديد من الوزراء، ومن ضمنهم وزير التعاون وشئون الريف «عبد العظيم واليان»، ووزيرة

التعليم القومي «فروخرو بارسا» التي علَّمتني في مدرسة «جان دارك»، والتي وصفتُ من قبل وفاتها المأساوية في بداية الثورة الإسلامية. وحضر أيضا عدد قليل من موظفي البلاط، وموظفي مكتبي، مثل سكرتيري الأول «كريم باشا بهادوري»، وأيضا والدتي وابن خالي «رضا قطبي»، الذي صار مدير التليفزيون الوطني، و«شجاع الدين شفا» نائب وزير البلاط.

وعند مغادرتي الطائرة، وجدت رئيس الوزراء «تشو إين لاي» بانتظاري، وأحاط بنا آلاف من الشباب بوجوه متألقة، يرتدون ثيابا ذات ألوان زاهية، يلوحون جميعا باللافتات وينشدون. ظننت أن ذلك هو الاستقبال الرسمي، لكنني كنت مخطئة. فعندما وصلنا ميدان «تيانانمن» طلبوا مني أن أستخدم سيارة مكشوفة، وهنا شهدت آلافًا من الرجال والنساء يرتدون جميعا نفس الزي الرمادي، وأطفالًا صغارًا في ملابس ملونة، يلوحون جميعا بلافتات، احتشدوا بطول الطريق الذي سنسلكه. حتى أنني لم أكد أصدق عينيَّ. وما أن بدأنا السير بالسيارة حتى انطلقت مباشرة الموسيقى والغناء، وتمركزت الفرق الموسيقية والطبول الضخمة على مسافات منتظمة، وسرعان ما أدركت أن المدينة بأكملها تمت تعبئتها من أجلنا، حيث امتدت الحشود لمسافة كيلومترات، حشود كبيرة ومبتسمة. وقال لي الصينيون إن «هوشي منه» هو الوحيد الذي حظي بمثل هذا الاحتفال عند الترحيب به.

وكان أول عشاء رسمي في المساء مؤثرا بنفس قدر تأثير الاستقبال غير العادي. حيث جلس أكثر من ألف شخص حول عدد هائل من الطاولات المستديرة المغطاة بأطباق ملونة وشهية. وجلست عن يمين السيد «تشو»، الذي أشار إلى الصداقة القديمة بين بلدينا، وتجنب بلباقة التطرق إلى الاختلافات السياسية الحالية بيننا، وقلت لنفسي: «**ترى، منذ متى لم يقل لفظ إمبراطورة، وهي كلمة لابد أنها بغيضة بالنسبة لرجل شارك في مسيرة «ماو» الطويلة؟!**» وظللت أعيد كتابة خطبتي حتى آخر لحظة. وكنت مقتنعة تمامًا أنه لن يستطيع كسر هوة خلافاتنا الأيديولوجية سوى الصدق والحديث من القلب. ففي الصين، كما في إيران كنا نناضل لمدة نصف قرن من أجل مساعدة بلدينا على النهوض من الرجعية والتخلف. وسلكنا طرقا مختلفة للغاية من أجل التوصل لذلك، غير أننا مازلنا نتشارك نفس الطموح. شعرت بأن دفئًا ما يغمرنا خلف الابتسامات الدبلوماسية والتصفيق المهذب. وأدهشني رقي

«تشو» الفكري خلال الاستقبال. حتى أنه حاول أن يعلِّمني كيفية استخدام أعواد تناول الطعام، وهو ما أثار ابتسامه وسروره. وقيل لي إن ذلك كان من حفلات العشاء الرسمية النادرة التي لم يغادر فيها أحد الضيوف الحفل تعبيرا عن الاستياء.

وأكدت الأحـداث اللاحقة هذا الانطباع الأول. فعلى الرغم من الجدول المزدحم للغاية بزيارات إلى المصانع والمزارع النموذجية، والمتاحف، بالإضافة إلى الاجتماعات السياسية وحفلات الاستقبال، نشأ مناخ طيب لم ينقصه الجانب المرح. كنا جميعا بالفعل سعداء للغاية بزيارة الصين، حريصين بصدق على مشاهدة الأساليب والابتكارات الجديدة، ومفتونين بحسن الضيافة الذي لقيناه من جميع الزعماء على كل المستويات. وأقمنا في فيلًا مفعمة بالسحر الشاعري الكامن في حديقة من النباتات المزهرة الرقيقة. ومازال لدي ذاكرة مغرمة للغاية بما لقيناه من ترحيب في أول أمسية، حيث قامت سيدة في منتصف العمر، تتناقض عيناها النبيلتان مع خشونة ملبسها، بواجبات الضيافة ورافقتنا للتجول في المنزل. أُعِدَّت كل حجرة بعناية خاصة، وكان من الواضح أن مضيفتي أشرفت على جميع التفاصيل. فأبديت إعجابي بالمنزل، وبدا عليها السرور. ولم أدرك إلا في النهاية أنها مدام «تشو إن لاي» بشخصها.

ومع ذلك فأينما ذهبنا تُقابِلُنا دائما نفس الحماسة المعبر عنها آليا نحو «ماو»، نفس التبجيل لشخصه. فإذا هنأنا فتاة في مدرسة أو عاملة في مصنع، يجيب الجميع بنفس الكلمات تقريبا: «**أفعل ذلك من أجل بلدي، ومن أجل «ماو»، وشمس بكين**». وفي المدارس رحب بنا الأطفال بالإنشاد وهم يدفعون قبضاتهم في الهواء. كنا مدركين بالطبع حالة التجنيد التي أدى إليها هذا التماثل، ولكن خلف هذه الشعارات ظلت هناك رغبة في الحياة، وثقة واضحة في المستقبل. كان ذلك رائعا، ولكنه مربك أيضا.

ومن أكثر الأمور إثارة للإعجاب أننا شاهدنا إجراء عملية جراحية باستخدام الوخز بالإبر بدلا من المخدر. حدث ذلك في «شنغهاي». وعلى مرأى منا فتح الجراحون جمجمة مريض ظل واعيا تماما طوال الجراحة، واستطاع أن يرى وأن يتحدث. بل إنهم طلبوا منه عدة مرات أن يأكل ثمرات الموز فحسب. فكيف أمكن ذلك؟! كنا منبهرين. وعندما انتهت العملية حاول الجراحون الرد على أسئلتنا. واعترفوا أنهم لا

يملكون جميع التفسيرات العلمية التي نتوق لسماعها، نظرا لأن أصل العلاج بالوخز تجريبي. ثم طرح رجل من اللجنة الثورية فجأة هذه الإجابة: «**سيكون علينا أن نطرح السؤال على الجماهير**» فنظرنا إلى بعضنا البعض بجزع، وانتهت المناقشة عند هذا الحد.

غير أن مضيفينا عاملونا بحساسية ملحوظة. وعندما زرنا متاحف معينة تعرض فيها مقتنيات تخص أباطرتهم السابقون، حرصوا بعكس السوفييت، على أن يمروا بنا بسرعة بجوار نوافذ العرض، حتى لا يسببوا لنا إحراجا. ولم يُبْدوا أبدا أدنى إشارة غير سارة، وعندما التقيت مدام «ماو» على فنجان من الشاي كان نفس التحفظ واضحا خلال محادثتنا. ولم يمنعني ذلك من تخيل إلى أي مدى لابد أن هذه السيدة الصارمة كرهتني.

وحدثت أكثر اللحظات إثارة للمشاعر خلال هذه الرحلة الطويلة، عندما هاتفت زوجي من «تشيان»، عند بوابة «طريق الحرير» القديم. جاء ذلك بمثابة إعادة رمزية لفتح الطريق بين الصين وإيران. واستطاع الملك أن يصغي إلى مشاعري وشاركني الحماس.

ثم جاءت رحلة العودة، وأتذكر أن اللحظة التي أعلن فيها قائد الطائرة أننا ندخل مجالنا الجوي انطلقنا جميعا في التصفيق بنفس اللحظة. استطعت أن أعرف وقتها إلى أي مدى شعر كل منا ـ وأنا أكثرهم ـ بالقهر بسبب الطريقة الموحدة في التفكير والتلقين المميزة للأنظمة الشيوعية، وكيف شعرنا بالارتياح لأننا سنكون في بلدنا مرة أخرى.

وكان رئيس اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني «هوا كوفونج» آخر من قام بزيارة رسمية لإيران في ظل الملكية. وأتذكر أن وصوله تواكب مع ظهور صورة لـ«آية الله خوميني» على الصفحة الأولى من صحيفة «كيهان»، واعتبرت ـ سواء كان ذلك خطأ أم صوابا ـ أن زيارة السيد «هوا كوفونج» خلال تلك الأيام المضطربة كان لفتة دعم للملك.

الفصل الخامس عشر

في أوائل الستينيات رفض الملك الفكرة التي اقترحها عليه أحد مستشاريه في مجال الثقافة «شجاع الدين شفا»، وهو عالم إيراني عظيم، للاحتفال بذكرى إنشاء الإمبراطورية الفارسية، على يد «كورش الكبير»[1] قبل عشرين قرنا (فيما بين ٥٥٠ و٥٣٠ قبل الميلاد). وقال بحزم تام: «**الوقت مبكر جدًّا، سنرى فيما بعد**». ففي ذلك الوقت لم يرد أن يشغل البلاد أي شيء عن «الثورة البيضاء» التي يعد لإطلاقها. وبعد عشر سنوات رأى أن الوقت صار ملائما للاحتفال، لأن إيران نهضت بدرجة كبيرة من وضع الدولة المتخلفة.

ولم يكن الوحيد الذي رأى ذلك، فقد أشادت جميع عواصم العالم بالقفزة الهائلة إلى الأمام التي تحققت خلال عقد. وكتب «بيتر آفري» البروفيسور في جامعة «كامبريدج» في صحيفة «كوريير» الصادرة عن منظمة اليونسكو، عدد أكتوبر ١٩٧١:

«تتمتع إيران الحديثة بثروة، فقد استعادت الثقة في الذات التي خسرتها قسرًا خلال فترة الهيمنة الأجنبية والاستغلال، بداية من عام ١٧٢٢ عندما خسرت الأسرة الصفوية الحكم، واستمر ذلك طوال القرن التاسع عشر والسنوات الأولى من القرن العشرين، عندما خنقت حركة التوسع البريطاني والروسي إيران وقتلتها تقريبا. والآن حظيت إيران مرة أخرى بالاحترام على المسرح الدولي. فهي تستطيع أن تلعب، وهي تلعب بالفعل دورا حقيقيا في شئون العالم. كما أنها باعتبارها عضوا في الأمم المتحدة أفسحت الطريق أمام غيرها من البلدان النامية. وأصبحت مكانا مثاليا للاجتماعات

(١) هو نفسه «قورش الكبير» في بعض الكتابات العربية، لكنني فضلت الصورة التي يظهر بها الاسم في الكتابة الفارسية والكثير من العربية. (المترجمة).

من أجل الإعداد للاتفاقيات الدولية، والمباحثات بشأن المشكلات الحالية مثل الغذاء، والتنمية الزراعية، والأمية، وحقوق المرأة. وهي مرة أخرى مركز الأفكار والتقنيات».

وعقب عودة الصحفي الفرنسي «إدوار سابلييه» من رحلة طويلة في أنحاء البلاد، نشر الصورة التالية عن إيران في صحيفة «أطلس». وتبدو خاتمة هذا الموضوع منبئة على نحو مدهش:

«هذا بلد ينمو بسرعة. فالمدن تنمو مثل نبات الفطر إثر عاصفة. وترى مواقع البناء والطرق الجديدة في كل مكان. وتحيط بوسط العاصمة البنايات ذات الخمسة عشر طابقا، والفيلّات والأجنحة السكنية غطت منحدرات «شميران» الأرستقراطية السابقة في وقت ما.

وخلال عشرين عاما ارتفع عدد سكان «طهران» من ٨٠٠ ألف إلى ثلاثة ملايين نسمة. ويسبب عدد السيارات التي تجري على الطريق نوعا من أفضل أنواع الزحام المروري التي شهدتها. ولا يكاد يكون هناك سيارات يزيد عمرها على عشر سنوات.

وتشهد بقية مدن إيران تنمية سريعة المعدل، على الرغم من أنها لا تداني «طهران». وأصبحت «تبريز»، و«شيراز»، و«الأهواز»، و«أصفهان» مراكز صناعية. والمتاجر مجهزة جيدا في كل مكان، والناس في الشوارع يرتدون ملابس مهندمة. ومستوى المعيشة يواصل التحسن، والصناعة تنمو بمعدل لا يتفوق عليه سوى معدل نمو الصناعة في اليابان.

والقاعدة الذهبية في سياستهم الخارجية هي الاستقلال الوطني. ويجب أن نعترف أن إيران، مثلها في ذلك مثل أوروبا الغربية، ضمن مجال النفوذ الأمريكي، غير أن حكومتها تملك حق المبادرة في دبلوماسيتها اليومية. فالعلاقات مع الاتحاد السوفييتي ممتازة، بل إن علاقاتها تتحسن حاليا مع الصين.

ولدى القومية الفارسية سبب للابتهاج؛ فالخليج الفارسي يتحول شيئا فشيئا إلى منطقة نفوذ لـ«طهران». وتدرك الكويت، والبحرين، وجميع الإمارات، بل حتى السعودية أن إيران بلد يحسب له حساب، تماما مثلما اعترف العالم الهيليني بأهمية فارس في عصر الملوك العظماء.

وهذا كله في الجانب الإيجابي. ويتفق على ذلك بوجه عام الإيرانيون الذين استطعت مقابلتهم من الطبقات كافة، وإن كان مع قدر من التردد. ولم أر أيا من هؤلاء المتعصبين الذين اعتادوا مهاجمة النظام عند كل منعطف. بل إنني التقيت بعض الإيرانيين السعداء.

غير أن الانطباع العام به بعض اللمسات القاتمة. فمن الطبيعي أن أي أمة لا تستطيع التطور من دون أن تواجه في طريقها العوائق، والإحباطات، والاضطرابات، التي هي جزء من العصور الحديثة. وهذا هو السبب في أن التقدم في هذا البلد الشاسع، كما في كل مكان آخر، يحدث في مواجهة جهل البعض، ومقاومة الطوائف والعشائر التي لا تريد أن تختفي، وضد قلة صبر الشباب الذين يعتقدون أن الأساليب الحالية تستغرق وقتا طويلا».

غَذَّت «مقاومة» البعض (رجال الدين وكبار ملاك الأراضي) مع قلة صبر الآخرين (الطلاب والمثقفين) ـ على الرغم من أن كليهما في الطرف المعاكس للآخر في المشهد ـ الاستياء المتزايد من ١٩٧٦ حتى ١٩٧٧، مما أدى فيما بعد إلى رحيلنا ومجيء الثورة الإسلامية. ولكن في ١٩٧١ لم تسبب ردود الفعل هذه القلق للملك، فظن أنها عادية في بلد يمر بتغيير عميق، ووضع ثقته في أن تؤدي ثمار التقدم إلى تحرير بلدنا، وإرضاء التوقعات، والتوفيق بين النقيضين.

وكان الهدف من الاحتفال بذكرى قيام الإمبراطورية الفارسية، بالنسبة له، هو حشد الأمة على الوعي باسترداد هويتها، واستعادة كبريائها بعد قرنين من المهانة والفقر المدقع. وأراد أن يتيح هذا المهرجان الرمزي للجميع أن ينسوا إحباطاتهم اليومية ويكتشفوا «من أين جئنا وإلى أين نسير».

وألقيت بنفسي في المعمعة، على الرغم من أنه عندما منح الملك موافقته على التخطيط للاحتفالات المختلفة، كنت أستعد لولادة «ليلى»، طفلتنا الرابعة، وهو حدث اضطرني للتخفيف من أنشطتي لفترة.

وسرعان ما شُكِّلت لجنة تنظيمية. ولم يكن هناك نقاش بشأن موقع الاحتفالات، من الواضح أنه «برسبوليس»، أول مدينة ملكية للإمبراطورية الفارسية الأخمينية، وبقاياها في قصر «داريوس الأول»، الحكيم خليفة «كورش الكبير». وسوف يُدعى

ملوك ورؤساء دول العالم إلى هناك، رغم أن الموقع في وسط الصحراء، يفتقر إلى المرافق، ويبعد ستين كيلومترا عن أقرب مدينة، وهي «شيراز».

وكان أمامنا أقل من عام على موعد المهرجانات المقرر في منتصف أكتوبر ١٩٧١، عندما طلبت مني اللجنة المنظمة ترؤسها. وقبلت لأن لدي أعظم ثقة في خطط زوجي وأعلنت ذلك: «**علينا أن نمضي يدا بيد، متحدين، لإثبات أن العصر الذي نحياه الآن، عصر «بهلوي»، فترة البعث للحضارة الإيرانية**». غير أن ما اكتشفته تعارض مع إحساسي الإيراني، فقد تم الاتصال بزمرة من الموردين الأجانب، من بين أكثرهم تكلفة، بينما كنا نستطيع الاستعانة بإيرانيين في أماكن معينة.

كنت غاضبة. كيف حدث هذا؟ هل مازال من الممكن إلغاء هذه الترتيبات؟ فقيل لي إن الإطار الزمني المتاح يستلزم استخدام خبرة أجنبية حتى تستطيع تقديم تلك الخدمات بجودة عالية وفي الوقت المحدد. فأجبت: «**حسنا، لننتظر حتى يكتسبوا الخبرة**»، وأضفت: «**لنمنح أنفسنا الوقت لأداء هذه الأمور كما يجب. انتظرنا خمسة وعشرين قرنا، ونستطيع انتظار فترة قليلة أخرى**». ولكن الأمر لم يستغرق مني طويلا حتى أدركت أن الأوان فات من الناحية العملية، وشعرت بالقلق. ولأنني أعرف طبيعة الصحفيين شككت في أنهم سوف يتخذون من هذه التعاقدات الأجنبية ذريعة للانتقاد، وسرعان ما سوف يركزون على التفاصيل ويغفلون عن الموضوع الرئيسي؛ بمعنى أنهم سوف لا يرون كل ما سوف يجلبه مهرجان «برسبوليس» لإيران، من ناحية البنية الأساسية داخل البلاد، والتأثير في العالم الخارجي. وفي تلك المرحلة كل ما استطعت أن أفعله هو تقبل الخيارات التي تقررت بالفعل.

وكانت مواجهة ذلك الخطأ أصعب المهام التي وقعت على عاتقي في التحضير لمهرجان «برسبوليس»، وأكثرها مدعاة للكآبة، فكما توقعت ظهرت شيئا فشيئا من الغرب موجة من الانتقادات اللاذعة بشأن الإنفاق على الترف. وتمسك الصحفيون بهذه النغمة وظلوا يرددونها مرة بعد أخرى. أي نوع من الأسر المالكة تلك التي ترتدي الملابس من بيت أزياء «لانفان» وتتناول الطعام من «مكسيمز» بينما شعبها مازال يفتقر أحيانا إلى الطعام والمدارس؟! وعلى الرغم من أن هذه الصورة كانت تصويرا هزليًّا بغية مغازلة الجماهير، إلا أنها انتشرت على نطاق واسع، والتقطتها بالطبع المعارضة الإيرانية. وفي آخر المطاف شوَّهت على نحو ما معنى احتفالات

«برسبوليس»، على الرغم من أنني حاولت دائما أن أشرح للمراسلين الأجانب كيف أن الهجوم علينا بهذه الطريقة غير عادل بعد كل ما تحقق عبر سنوات عديدة لمساعدة أولئك الأشد احتياجًا. والأكثر من ذلك أن جهودنا حظيت بالإشادة الهائلة من بلدان العالم. لم يكن من العدل تذكر فقط بطاقة السعر على الاحتفالات التي تسجل عودة اليقظة لإيران.

كما أن الهجوم لم يكن منصفا بأي حال، لأن معظم الأموال التي أنفقت على وسائل الراحة زادت بشكل كبير من أرصدة إيران: فبهذه المناسبة تم افتتاح ٢٥٠٠ مدرسة، ووصلت الكهرباء إلى المزيد من القرى، وأنشئت فنادق، وتم رصف طرق، وجميعها بقيت بعد الاحتفالات كتحسينات دائمة. وأخيرا وفيما يتعلق بالعلاقات العامة حصلنا على حملة صحفية ضخمة مجانية تماما. فتشكلت لجان المهرجان في العواصم الكبرى في العالم. ونظمت كل هذه المدن معارض للفن والثقافة الإيرانيين، وحفلات موسيقية، ومحاضرات. فلو كنا دفعنا مقابل جميع الأفلام، والكتب، والمقالات التي نشرت عن إيران خلال هذه الفترة، أو مقابل التقارير التليفزيونية والإذاعية التي بثت في أنحاء العالم ـ لكلفنا الأمر ملايين الدولارات. ففي عام ١٩٧٠، كان هناك الكثيرون الذين ربما لا يستطيعون تحديد موقع إيران على الخريطة، وكان ذلك بالنسبة لهم الدرس الأول الذي يعلمهم جغرافيتها وتاريخها. فمن كان يستطيع أن يحدد رقما يساوي المكتسبات التي تدفقت من المهرجان، خاصة بالنسبة لتنمية السياحة؟

غير أن تلك كانت الزاوية التي تبنتها الصحافة العالمية، واستمرت التقارير السلبية سائدة حتى النهاية، متجاهلة كل ما منحته مهرجانات «برسبوليس» لقلوب وعقول الإيرانيين؛ شعور بالفخر، والامتنان لا يمكن التعبير عنه بمفاهيم المال.

ولاشك أن تلك كانت المرة الأولى في تاريخ إيران الطويل التي يشرِّف فيها ملوك ورؤساء الدول عاصمة فارس التاريخية بحضورهم. وما أن أرسلت الدعوات حتى تكالبت إشعارات الموافقة على مكتب وزير البلاط «أسد الله علم». وتوقعنا حضور قادة الدنمارك، والأردن، والنرويج، ونيبال، وبلجيكا. وسوف يمثل الملكة إليزابيث ملكة إنجلترا زوجها الأمير «فيليب» وابنتهما الأميرة «آن»، وكذلك سوف يمثل الملكة «جوليانا» ملكة هولندا زوجها الأمير «برنارد». وسيصل الإمبراطور الإثيوبي «هيلا

سيلاسي»، وكذلك أمير قطر، وأمير الكويت، والسلطان «قابوس» من عمان، والشيخ «زايد» حاكم الإمارات العربية المتحدة، وأمير البحرين، وأمراء موناكو ليشتنشتاين والدوق الأكبر في لوكسمبورج وقرينته، والأمير «خوان كارلوس» والأميرة «صوفيا» من إسبانيا، وولي العهد «كارل جوستاف» ممثلا لملك السويد، وملك اليونان «قسطنطين» وقرينته الملكة «آن ماري»، وملك إيطاليا «فيكتور إيمانويل»، والأميرة «بلقيس» من أفغانستان وزوجها «سردار عبد الولي». وكان هناك المزيد من رؤساء الدول والحكومات، لأننا توقعنا حضور رؤساء فنلندا، والهند، وتركيا، وباكستان، ويوجوسلافيا، وأستراليا، وبلغاريا، وبولندا ورومانيا، والسنغال. وسوف يمثل الولايات المتحدة «سبيرو أجينو» نائب الرئيس، ويمثل الاتحاد السوفييتي «نيكولاي بودجورني»، وفرنسا رئيس وزراؤها «جاك شابان ـ ديلما» ترافقه قرينته.

وبينما كان العمال والمهندسون يعملون في المخيم الذي سيؤوي هذه الشخصيات البارزة لمدة ثلاثة أيام، تولى كل قسم من اللجنة التنظيمية مهمته الخاصة: البعض يشرف على تركيب شبكة نظام الأمن، وآخرون يشرفون على تنظيم الانتقال بين «شيراز» و«برسبوليس»، بينما ظل آخرون يبحثون قضايا البروتوكول العديدة. وكان عليَّ أن أتابع كل شيء، بالإضافة إلى الترحيب بانتظام بجميع الصحفيين الذين جاءوا لتفقد الأمر في «طهران» و«برسبوليس». كما ينبغي أن تقوم وصيفة بتقديم المساعدة لزوجة كل من قادة الدول وإرشادها خلال إقامتها، على أن تتحدث بلغتها وتكون متمرسة على قواعد البروتوكول. فكان ينبغي العثور على هؤلاء السيدات وتدريبهن. وينطبق نفس الشيء على مساعدات المخيم التي تقدم للملوك والرؤساء. وبالنسبة للهدايا التي سيأخذها الضيوف معهم إلى بلادهم، قررت اللجنة تكليف فناني «أذربيجان» بإعداد سجاجيد على كل منها صورة شخصية لزعيم دولة تمثل الوحدة الأساسية في تصميم السجادة.. وعلاوة على ذلك سوف يتلقى كل من الضيوف نسخة من مرسوم «كورش الأكبر»، الذي عثِر عليه في أسطوانة من الفخار المحروق في بابل، وهو محفوظ حاليًا في المتحف البريطاني. وجعلتني الفكرة فخورة جدًا، لأن «كورش» في هذا النص الموجه لأهل بابل المهزومين حدد قواعد ما سوف يصير بعد قرون عديدة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان. فقد حرَّم النهب، وأمر بإطلاق سراح السجناء، وإعادة بناء المساكن، وأبدى تسامحا دينيا مدهشا بالنسبة لذلك العصر،

فطالب باحترام جميع الآلهة، وحقق المساواة للجميع بإلغاء نظام الرق. وسيرا على مبادئه أعاد خلفاؤه اليهود إلى القدس وسمحوا لهم بإعادة بناء هيكلهم.

نعم، كنت فخورة بأن هذه «الأسطوانة الخزفية» أساس المبادئ الإنسانية الفارسية العظيمة سوف تصبح حقيقة مرة أخرى في أعين العالم. غير أن رجال الدين لدينا ربما يرون في ذلك إساءة أخرى، ويشتبهون في أن الملك يحاول الحطَّ من شأن الإسلام، الذي اعتنقه الإيرانيون عقب الغزو العربي عام ٦٣٧ بعد الميلاد. ونسوا أن فارس كانت قائمة قبل هذا الغزو، وأنها رغم هزيمتها، استطاعت أن تحيل هذه الهزيمة إلى نصر. فالأدب الفارسي، والفلسفة الفارسية، والحكم المدني الفارسي، والطب والفن، صارت العناصر الأساسية للحضارة الإسلامية منذ الأيام الأولى للفتح، كما نقل الإيرانيون الإسلام بعد ذلك إلى شرق آسيا من دون عنف أو إراقة دماء.

ولاشك أن الاحتفالات مثلت بالنسبة لرجال الدين الأكثر أصولية مصدرا جديدا من مصادر الضيق ـ دون أن نكون مدركين بالفعل لذلك ـ منذ بدأت هذه الاحتفالات يوم ١٢ أكتوبر ١٩٧١ عند قبر «كورش الكبير»، بهذا التبجيل من زوجي، الذي تحدث بصوت يتهدج بالانفعال قائلا:

«إليك يا «كورش»، الملك العظيم، ملك الملوك، إمبراطور الإخمينيين، عاهل أرض إيران. أقدم أنا، شاهنشاه إيران، تحياتي وتحيات أمتنا.

ففي حين تجدد إيران صِلاتها بالتاريخ، جئنا هنا لنقدم لك الامتنان العظيم من جميع الشعب، أيها البطل الخالد في التاريخ، مؤسس أقدم إمبراطورية في العالم، والمحرر العظيم، والابن البار للإنسانية».

وكدلالة على التسامح والانفتاح الذهني، تمت دعوة جميع ممثلي الديانات الكبرى من أنحاء العالم إلى هذه المناسبة: الرومان الكاثوليك، والبروتستانت، والزرادشت، والكنيسة الأرثوذكسية، والمورمون، والشنتو، والسيخ، واليهود، وممثلي الهنود الحمر في أمريكا، والمسلمين بالطبع. وفي ذلك لم يبد أي من المسلمين الحاضرين أدنى تحفظ[1].

---

(١) كان هناك جانب آخر لهذا الاحتفال هو المؤتمر الدولي للمتخصصين في الدراسات الإيرانية، الذي عقد فيما بين ١٤-١٦ من أكتوبر ١٩٧١. وحضره أكثر من ٣٠٠ متخصص إيراني وأجنبي في التاريخ

واليوم بعد أكثر من عشرين عاما على الثورة الإسلامية، لم يعد الملك موجودا ليشهد مصير هذا التراث الخالد، غير أن الهوية الإيرانية المجسدة في شعبنا حاضرة دائما، وأنا أعرف أنها ستتغلب على الظلامية.

واستغرق الترحيب بالضيوف معظم ساعات اليوم التالي، ١٣ أكتوبر. وتم ترتيب تواتر وصول الطائرات على أساس طائرة تقريبا كل خمس عشرة دقيقة. واستقبل إخوة الملك أو أعضاء من الحكومة الضيوف عند نزولهم من الطائرات. ثم قام مندوبون باصطحاب الشخصيات البارزة إلى «برسبوليس»، حيث استقبلناهم رسميا. ثم قال الملك: «**باسم الإمبراطورة وباسمي، أرحب بكم في إيران بمناسبة ذكرى مرور خمسة وعشرين قرنا على نظامنا الملكي**». ثم يدعى ضيفنا أو ضيفتنا للوقوف على منصة مع الملك والاستماع إلى السلام الوطني لبلده (أو بلدها) يعزفه الحرس الإمبراطوري. ثم يقوم المسئول المختص بتقديم الضيوف بقراءة أسماء وألقاب الضيف الكريم ويدعوه لاستعراض الحرس.

وكنت معجبة تماما بالمسئول المختص بتقديم الضيوف، الميجور «كريم شمس»، الذي لم يقع في خطأ واحد طوال هذه الساعات المجهدة، في نطق الأسماء أو تحديد الألقاب، وكان أغلبها معقدًا للغاية. وفي ذلك المساء انتحيت به جانبا وهنأته. كان مجهدا لكنه متأثر تماما بدوره.

وتوقعا لهذه الأيام طلبت من طبيبي للمرة الأولى في حياتي أن يصف لي بعض المهدئات. وكنت فقدت مقدارا كبيرا من وزني في الشهور القليلة السابقة بسبب القلق والانشغال بالعمل، والرعب من حدوث ما يفسد المهرجان. وخلق الإيرانيون روحا من التعاون والتضامن لم أشهدها من قبل. فرأيت بعض وزرائنا، وأفرادًا من البلاط الملكي، وجنرالات، وغيرهم من الضباط، والسفراء ـ وجميعهم يتمسكون دائما بامتيازاتهم ـ وهم يحملون حقائب ضيف، أو حتى يناموا على الأرض ليوفروا غرف

الإيراني والحضارة الإيرانية. وقد تم تقديمهم إلينا ـ زوجي وأنا ـ في ليلة الافتتاح، وأعربنا عن امتناننا لهم لما قدموه من خدمات للثقافة الإيرانية. وخصص المؤتمر بالكامل لتاريخ إيران، وبوجه خاص لـ«كورش الكبير». وجمعت سكرتارية المؤتمر نحو ألف ورقة بحثية من العلماء في جميع أنحاء العالم. مما جعلها أهم دراسة متكاملة موجودة عن «كورش». ولسوء الحظ عرفنا بعد ذلك أنها دمرت على أيدي حرس الثورة الإسلامية في أوائل أيام سيطرتهم على الحكم.

نومهم لضيوف غير متوقعين. رأيت أشخاصًا مثقفين من أسر نبيلة، وهم يلتقطون مكواة لمساعدة عاملات النظافة اللاتي كان لديهن عملا يفوق طاقتهن. كل واحد شارك من دون أن يطلب منه، حتى «رضا» ابننا الأكبر رأيته يتولى توصيل وجبات الإفطار خلف الخيام في عربات جولف إلى العاملين.

وبدأ يوم الرابع عشر من أكتوبر بموكب يستعرض المحاربين من جميع الفترات المختلفة في التاريخ الإيراني. وتمت تعبئة ١٧٢٤ جنديا لهذا الاستعراض، الذي قاده الجنرال «فتح الله مينباشيان». وقدمت «ليزلي بلانك»[١] وصفا معبرا عن ذلك:

«لِحى الميديين[٢] والفرس شديدة التجعيد، ولِحى الصفويين الصغيرة المدببة، أو شوارب قوات القاجاريين الرهيبة، ودروع المحاربين الأوائل، ورماحهم، وراياتهم، وسيوفهم العريضة، وخناجرهم ـ كل ذلك كان هناك. وجلس الضيوف على منصة تحت أطلال أعمدة هيبة «كورش»، تحت شمس حارقة ولكن تحميهم مظلات تقدم لمن يحتاجونها. وشاهدوا هذا الموكب المثير للإعجاب. المشاة الأخمينيون، والمحاربون البارثيون[٣]، وفرسان «كسرى»، والنقالات، والعربات الحربية، والدبابات، والقوات الجوية، والوحدات النسائية الجديدة في القوات المسلحة... كلها كانت هناك في برسبوليس، كلها شهدت على أمجاد إيران، في الماضي والحاضر».

وخصصت فترة بعد الظهر للتجول في الموقع، بالنسبة لأولئك الذين لم يبالوا

---

(١) كاتبة بريطانية ولدت في السادس من يونيو عام ١٩٠٤ في لندن وكانت مغرمة للغاية بالسفر، واستهوتها بوجه خاص روسيا وبلاد البلقان والشرق الأوسط. تعلمت فن الرسم وقدمت في مؤلفاتها تصويرا حيا لهذه البلدان. عملت محررة موضة في مجلة «فوج» البريطانية، وتوفيت في السابع من مايو ٢٠٠٧ قبل شهر من بلوغها ١٠٣ أعوام. حقق عدد من مؤلفاتها مبيعات هائلة ومن أشهرها روايتها «شواطئ الحب الموحشة». (المترجمة).

(٢) الميديون: قبائل استوطنت عام ١٥٠٠ قبل الميلاد المنطقة الواقعة في شمال غرب إيران الحالية، وأطلق عليهم المؤرخ اليوناني المعروف «هيرودوت» لقب القبائل الآرية. (المترجمة).

(٣) برثيا، وتشير بعض المصادر إلى أن اسمها فرثيا، وهي مملكة قديمة نشأت في جنوب شرقي بحر قزوين، واشتهر البارثيون بشدة المراس في الحروب. وتمتعوا باستقلالهم حتى القرن السادس قبل الميلاد عندما ألحق بهم «كورش الكبير» الهزيمة ثم قهرهم «الإسكندر» الأكبر المقدوني. (المترجمة).

بالشمس، وأقيم حفل عشاء في المساء، في خيمة طولها ثمانية وستون مترا وعرضها أربعة وعشرون مترا، أقيمت في وسط المخيم. كنا نعرف عمليا جميع الملوك ورؤساء الدول والحكومات الحاضرين، ولكننا نعرف بعضهم أكثر من البعض الآخر. وكان هناك أصدقاء حقيقيون، مثل الملك «حسين» عاهل الأردن، الذي كنا نراه بصورة منتظمة في زيارات خاصة، وملوك اليونان، وبلجيكا، وأفغانستان. ولم يستطع «الحسن الثاني» ملك المغرب، وهو صديق خاص لزوجي، السفر فأرسل شقيقه الأمير «مولاي عبد الله» مع قرينته الأميرة «لمياء». وكانت سعادة كل منا برؤية الآخر حقيقية على الرغم من البروتوكول. وتجاوزت هذه السعادة دائرة الأصدقاء، وكنت قابلت «نيكولاي بودجورني» من قبل، وأثناء العشاء تبادلت عدة مرات معه بضع كلمات، بل ومزحة بالروسية. وأحاط بنا جو من المرح. وفيما بعد سمعت أن الأمير «رينيه»، أمير موناكو، أبدى دهشة عندما وجد نفسه بين الأمير «فيليب» زوج ملكة إنجلترا، والأمير «برنارد» زوج ملكة هولندا (لم يكن هناك عدد يكفي من النساء لجلوس سيدة بجوار كل رجل بحسب ما يقتضى البروتوكول)، فرد عليه الأمير «فيليب» مازحًا: «ألم تلاحظ يا عزيزي الرجل أننا الملكتين الوحيدتين من الذكور في كل هذا التجمع؟!».

واستغل آخرون هذه المناسبة لينخرطوا في مباحثات أكثر جدية، استمرت خلال بعد ظهر اليوم التالي في الكافيتريا، حيث كان الجو وديا وخاليا من التكلف، لكنه بدا جادا أيضا. ووجد رجال ونساء ـ لم يستطيعوا أبدا التحدث إلى بعضهم البعض رسميا بسبب خلافاتهم السياسية ـ الفرصة هنا لتبادل وجهات النظر بعيدا عن عيون وآذان الصحفيين.

وبالنسبة لنا، كان علينا العناية بكل التحركات التي لم يبد أنها ستتوقف خلف الكواليس، فكان ينبغي الحرص على بقاء العاملين في المطبخ سعداء، ومنحهم يد المساعدة، والتخفيف عنهم أحيانا، كما يجب تفادي حدوث كوارث. وقبل العشاء كان مطلوبًا حضوري في تكتم، فهرعت لأجد طاهي المعجنات باكيا؛ تحطمت كعكته أثناء نقلها! وبسرعة هائلة قمت بالتخفيف عنه، ووجدت وسيلة لتجميعها بأفضل ما أمكن، ثم وعندما انتهى الأمر حاولت أن أجعل منه مضحكا، فقلت له: «**لا تقلق، سوف نقدمها بطريقة جانبية، ولن يلحظ أحد شيئا، وعلى أي حال فالمهم هو**

عشق الصنعة الجميلة الموجود في الكعكة، وأنا متأكدة أن الضيوف لا يمكنهم إلا أن يلحظوه».

وانتهت الأمسية بعرض للصوت والضوء، تلاه استعراض للألعاب النارية. وكلاهما كان من عمل متخصصين فرنسيين. وحقق ذلك نجاحا كبيرا، ومثيرا، غير أن القلق ظل قائما: «**أتمنى فحسب ألا تفزع الضوضاء عشرات الخيول والثيران التي شاركت في موكب هذا الصباح. فإذا بدأ أحدها يرفس أو هاج، ربما يبدأ الجميع الهياج وقد تنقض الحيوانات الفزعة على الضيوف**».

وكان اليوم الثالث والأخير أقل رسمية، وتركنا للضيوف اختيار النشاط الذي يرغبون. فذهب البعض في نزهة إلى الصحراء؛ وانتهز معظمهم الفرصة لإجراء محادثات سرية مع هذا الضيف أو ذاك. واستقبل نائب الرئيس الأمريكي «سبيرو أجنيو» الملك اليوناني «قسطنطين»، الذي كان بالمنفى منذ انقلاب الكولونيل في أبريل ١٩٦٧. وأجرى زوجي محادثة طويلة مع «بودجورني» رئيس الاتحاد السوفييتي، و«سوناي» رئيس تركيا. واستقبل الإمبراطور الإثيوبي «هيلا سيلاسي» الرئيس اليوغوسلافي «تيتو». وجمع الملك «حسين» بعض الحكام العرب في اجتماع ودي.

وكانت حفلة المساء إيرانية خالصة. وجمعنا فنانين وصناعًا من جميع مناطق البلاد لهذا الحدث. واستجاب لدعوتنا الموسيقيون، والرسامون، والنساجون، والطهاة. فقد نُظِّم هذا العشاء لتعريف الجميع على الثراء الثقافي لإيران، بداية من مطبخها وصناعاتها اليدوية. وكان من بين طموحاتنا أن نجعل هذا القطاع يزدهر مرة أخرى، وبوجه خاص تصدير السجاد المصنوع في القرى. وسعيتُ دائما لتشجيع أصحاب الفنادق على تأثيث حجرات فنادقهم بقطع من الفن الإيراني والمصنوعات الإيرانية. ونحن هذه المرة بسبيلنا لجذب الحكام ورؤساء الدول للتعريف بمصنوعاتنا في جميع أنحاء العالم.

وغادر بعض ضيوفنا في اليوم التالي، بينما أراد آخرون زيارة مدينة معينة أو بحر قزوين، ومن ثم ظلوا فترة أطول.

الفصل السادس عشر

ومن بين اهتماماتي المتزايدة في النصف الثاني من الستينيات عدم إغفال الثقافة في خضم مسيرة التقدم. وأراد الملك للبلاد أن تتقدم نحو الديمقراطية بمجرد أن نهضت اقتصاديا. ورأيت أنه ما من محفز للديمقراطية أفضل من الازدهار الثقافي. فمن ناحية علينا أن نساعد فنانينا، ونعمل على تحسين أحوالهم، والتعريف بهم داخل البلاد وخارجها، ومن ناحية أخرى كنا بحاجة إلى فتح حدودنا أمام المبدعين والمبدعات من البلدان الأخرى.

وطلبت من «رضا قطبي» ابن خالي مدير التليفزيون الوطني أن يفكر في هذا الأمر معي، وبزغت من مناقشاتنا فكرة تنظيم مهرجان دولي كبير للفنون. وأردنا منذ البداية أن يمثل هذا المهرجان المسرح والموسيقى المعاصرين، وأيضا الأعمال التقليدية والتراثية، بعيدًا عن الجانب الشعبي، والسياحي، والفلكلوري لهذه الأعمال.

واشترك وزير الثقافة في الفكرة، وسرعان ما شكلنا لجنة تأسيسية تتكون من كتاب، وفنانين، وصحفيين، وممثلين للحكومة. وكان أول قرار ينبغي اتخاذه قرارًا جغرافيًّا: أين يجب أن يقام المهرجان؟ فكانت «شيراز» الخيار الذي حاز الإجماع. ورجح هذا الخيار أمران: قربها من موقع «برسبوليس» ـ استطعنا أن نتخيل بالفعل ماذا يمكن أن يفعله المسرحيون بذلك الموقع ـ وقربها من الصحراء. ولدى «شيراز» بالفعل مبررات للشهرة، فهي مدينة اثنين من الشعراء المفضلين لدى الشعب الإيراني، «السعدي» (١٢١٣-١٢٩١) و«حافظ» (١٣٢٤-١٣٨٩)، حيث تقع مقبرتاهما. كما أنها اعتبرت لفترة طويلة عاصمة الفرس الأدبية. و«شيراز» واحة للطبيعة والثقافة، فهي صندوق كنوز من الورود والعنادل والحب، الخيار المثالي من أجل مهرجان

مكرس لإلهام المبدعين. وعلى مستوى عملي أكثر فيها عدة فنادق، ازداد عددها بفضل مهرجان «برسبوليس». والأهم من ذلك كان هناك السكن الجامعي الذي يمكن أن يوفر حجرات.

وهكذا صار مهرجان «شيراز» على الورق، والآن بدأ العمل، علينا العثور على الفنانين وحشدهم، ليس فقط من جميع أنحاء العالم، ولكن أيضا من جميع أنحاء إيران. وكنا نعرف قدرا كبيرا من الأعمال الإبداعية التي قُدِّمت في إيران الستينيات، لكننا أردنا أن نسعى للعثور على الفنانين الأقل شهرة. وأرسل فريق المهرجان، بقيادة «فروق جعفري» الذي سيصبح مدير المهرجان فيما بعد، أشخاصا إلى المناطق النائية من البلاد. ومع ذلك ظل ما أحضروه معهم مصدرا للإعجاب. ففي القرى الأفقر والأكثر بعدا يعيش أو يظهر في كل مكان رواة الحكايات، أو الفرق الموسيقية، أو مسرح صغير، أو فرق الدمى المتحركة، والشعراء بطبيعة الحال. ووجدنا أنفسنا أمناء على هذه الكنوز، التي تحاكي المناطق التي جاءت منها. والآن صار علينا إعداد قائمة بها، وتحديد من الذي توجه إليه الدعوة ووفق أي تصنيف. وانطوى ذلك على الحرج الناجم عن الوفرة.

واتبعت نفس الإجراءات بالنسبة لكل أجزاء العالم. وذهب عضوا اللجنة «فروق جعفري» و«بيجان صفاري» إلى آسيا وأوروبا لمتابعة ما يحدث في المهرجانات الأخرى. وكان مهرجان «رويان» في فرنسا مفيدا جدًّا بالنسبة للمسرح. كما كان المهرجان الدولي في «نانسي» مصدر معلوماتي. ومن أهم من عثرنا عليهم «روبرت ويلسون»، الكاتب المسرحي الأمريكي الرائد، الذي سيحضر إلى «شيراز». وأخيرا، في سبتمبر ١٩٦٧، افتتحنا على استحياء أول حدث ثقافي كبير ننظمه. واخترنا سبتمبر حتى يستطيع الطلاب، الذين مازالوا في عطلة ذلك الشهر، أن يشاركوا في المهرجان. كما أنه أيضا أفضل أوقات السنة في إيران، فهو ليس بالحار جدًّا ولا البارد جدًّا، ومن الممكن أن نظل خارج البيوت ليلا. وساعد حضور «يهودي منوهين»[١] على اجتذاب كثيرين غيره.

---

(١) «يهودي منوهين» (١٩١٦-١٩٩٩) واحد من أشهر عازفي الكمان في القرن العشرين، ولد في الولايات المتحدة وعاش معظم سنوات عمله في بريطانيا، حصل على الجنسية السويسرية ١٩٧٠ والبريطانية ١٩٨٥، وعمل كاتبا وقائدا أوركستراليا. (المترجمة).

وفي العام التالي حضر كل من «يانيس كيناكيس»[1] و«آرتور روبنشتاين»[2] ليعزف في «شيراز». وفي ١٩٦٩ أصبح للمهرجان تأثير دولي بفضل عنوانه لذلك العام «أدوات الإيقاع عبر أنحاء العالم» ـ الذي ذكَّرنا بآلة «تومباك» الفارسية، و«مريدا نجام» الهندية، و«جاميلان» من بالي، والطبلة من رواندا، وغيرها الكثير. وعاد «يانيس كيناكيس» أيضا إلى شيراز، وشارك أيضا المؤلف الموسيقي الإيطالي «برونو مادرنا». وتزايد نجاح المهرجان منذ ذلك الوقت حتى انعقاده للمرة الأخيرة في ١٩٧٧ [3].

وعلى الرغم من أن المهرجان كان فكرتي بالأساس، قصرت مشاركتي فيه على افتتاحه ومشاهدة بعض العروض في البداية والختام. وكنت أودُّ مشاهدة كل شيء، غير أن جدول أعمالي لم يسمح. ولحسن الحظ نجا الحدث من الإشراف البيروقراطي المبالغ فيه، ولم يكن مسئولا عنه سوى لجنة من الفنانين واسعي الأفق، ذوي العقليات المتفتحة. وأحببت جو المهرجان، كان من الواضح أن الناس جميعًا سعداء لوجودهم هناك، حيث يمكنك أن تشعر بتعطش الإيرانيين للتعرف على موسيقى ومسرح البلاد الأخرى بالإضافة إلى موسيقى بلدهم ومسرحه، والفنانون فرحون بهذا الاستقبال الدافئ. وحرصت مدينة «شيراز» بكاملها على أن يشعر الضيوف كما لو أنهم في بيوتهم. وساهم الجميع ـ المحافظ، وعمدة المدينة، وقائد الجيش المحلي ـ وأنا أيضا لم أتردد في أن أحمل الكراسي أو أسحب الموائد إذا لزم الأمر، وكثيرا ما قدمت يد المساعدة.

ودُعِيَ الفنانون لتقديم عروضهم في أي مكان يشاءون. ولم يكن عليهم إلا أن يطلبوا، ثم تمضي اللجنة في طريقها لتقديم التسهيلات، فتوفر السيارات، والشاحنات، والمعدات. وفي ١٩٧٢، جاء «روبرت ويلسن» وقدَّم عرض «جبل كا»، الذي استمر ١٦٨ ساعة، سبعة أيام وسبع ليال دون انقطاع، في تلال تطل على «شيراز». واختار آخرون مقبرة «كورش» في الصحراء لتكون موقع عرضهم، أو الفندق في الحي

---

(١) واحد من أعظم المؤلفين الموسيقيين في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، ولد عام ١٩٢٢ في رومانيا وتوفي ٢٠٠١ في فرنسا.

(٢) من أعظم عازفي البيانو في القرن العشرين (١٨٨٧-١٩٨٢) بولندي المولد، أمريكي الجنسية.

(٣) في ١٩٦٧ أنشأنا منظمة «الحوار بين الثقافات» التي كانت تهدف إلى إقامة تبادل مثمر بين الثقافات عبر أنحاء العالم. وعقدت أول ندواتها في إيران ١٩٨٧ وشملت البلدان الأوروبية واليابان ومصر.

التجاري، أو منزل قديم شاهدوه في المدينة، أو إحدى المتنزهات الكثيرة. وعرضت «أليس في بلاد العجائب» في حقل بطيخ، وتابعتُها جالسة على سجادة فوق الأرض. وفي ١٩٧١، جاء «بيتر بروك» ليخرج مسرحية «أورغاست في برسبوليس» التي كتبها «تيد هيوز»، وتحولت تقريبا إلى دراما في الحياة الواقعية، ووقتها كان حضوري ضروريا لوضع الأمور في نصابها، فنظرا لأنني اعتزمت مشاهدة العرض توجهت إلى برسبوليس بعد السيد «بروك» بساعة أو ساعتين ربما. وفجأة التقينا مجموعة غير عادية من الناس. فأبطأ سائق حافلتنا من سرعته ثم توقف. واندفع من وسط الحشد وزير التعليم «منوشهر جانجي»، شاحب الوجه قائلا:

ـ مولاتي، لقد وصلتِ في الوقت المناسب. السيد «بروك» غاضب. وأضاف: **رفض جندي من الحرس السماح له بالمرور. وسوف يلغي العرض، ويريد أن يعود إلى أوروبا فورا.**

ـ وأين السيد «بروك»؟

ـ في المقهى هناك. لا يصغي لشيء.

ـ أود أن أتحدث معه.

ورأيته بعد برهة، وكان غاضبا جدًّا.

قلت له: سيد «بروك»، **إنه مجرد جندي عادي يؤدي واجبه. وهو لم يتعرف عليك. إنها ليست غلطته، وإنما خطؤنا. لا تؤاخذنا من فضلك على ذلك.**

وبدا ضيفنا الشهير مبهما، ولم يقل شيئا. لذلك واصلت الحديث بقليل من الدعابة: «**في هذه المناقشة، يبدو لي يا سيد «بروك» أنني من يمثل دور فنان، وأنت تمثل إمبراطورة**».

نظر إليَّ، ثم أضاء وجهه فجأة. وقال: «**إنها صورة لطيفة، حسن، دعينا نستأنف دورينا، إذا أردت**».

وفي ١٩٧٤، شارك «موريس بيجار»[١]، الذي أصبح عاشقا كبيرًا لإيران، في

(١) مصمم رقصات باليه سويسري من أصل فرنسي (١٩٢٧-٢٠٠٠) أسس في سويسرا معهد «بيجار باليه لوزان» وهو من أشهر وأنجح معاهد الباليه في العالم. (المترجمة).

عرض للباليه أعد خصيصا للمهرجان: «جلستان»، وهو اسم أهم قصائد «السعدي». وعندما علمت ذلك طلبت من زوجي أن يذهب إلى «شيراز». وشعرنا بانبهار من اللحظات الأولى؛ لقد استلهم «بيجار» الموسيقى التقليدية في «بلوخستان»، وهي مقاطعة في أقصى جنوب شرق البلاد. وكانت اللحظة التي ظهر فيها راقصوه تحت سماء «برسبوليس» المرصعة بالنجوم ليلا من أجمل اللحظات في تاريخ المهرجان بالتأكيد. واختتم العرض بموسيقى إيرانية تقليدية تصاحب صوت «رضوي» الرائع ملقيًا قصائد «الرومي». وعاد بيجار في ١٩٧٧، آخر أعوام المهرجان. ثم وضعت الثورة الإسلامية نهاية مفاجئة للتعاون بيننا، ولكن عندما التقينا مرة أخرى في نيويورك منتصف الثمانينيات، كان اللقاء مؤثرا للدرجة التي لم يستطع أي منا معها السيطرة على دموعه.

وفي ١٩٧٥، شرَّفنا «مسرح النُو» الياباني بحضوره. وكان حدثا ثقافيا لم يسبق له مثيل، فلم يكن المسرح قد غادر اليابان من قبل. ووافقوا على المجيء لأنهم تلقوا تأكيدات بأنني سوف أحضر العرض. وذهبت كثيرا مع أولادي، خاصة الكبيرين «رضا» و«فرح ناز»، اللذين كانا مهتمين ببعض الأعمال الفنية. ولكن في الليلة الأولى لعرض «النو» لم يحضر معي إلا ابنتي الصغيرة «ليلى». وكانت في الخامسة من عمرها فحسب، لكنها شاهدت العرض كله بانتباه مبهج، فقد أَسَرَنا جمال «النو» الغريب.

وإلى جانب الأحداث الدولية أدى المهرجان إلى إحياء المسرح الإيراني[1] وأتذكر بوجه خاص المخرجين مثل «أربي أوانسيان»، و«بيجان مفيد»، و«عباس نالبانديان»، و«برويز سياد». وألهم المهرجان العديد من فرق الممثلين الشبان، فكانت تتدرب على المسرحيات طول العام، ثم تأتي لتعرضها في «شيراز». واستخرج الموسيقيون مثل «علي أصغر بحري» و«حسن كاساي» و«تاج أصفهاني»، من جانبهم، الألحان التقليدية القديمة، وكنا نتجمع في المساء عند مقبرة «حافظ» لنستمع إليها. وتُرَص المقاعد والسجاد والوسائد في الحدائق البديعة، وعند حلول الليل تضاء شموع صغيرة على كل من جانبي الممشى. وتأتي أعداد كبيرة جدًّا للاستماع، حتى أن الناس ربما يجلسون في الشارع. وأعجبتني هذه الأمسيات كثيرا، حيث يتجمع الزوار الأجانب

(١) عرضت مسرحية «التعزية» (رواية عاطفية) في مهرجان دولي للمرة الأولى.

والإيرانيون معا، ويتواصلون جيدا عبر الموسيقى، مع شعور قوي بأننا نشهد إعادة اكتشاف الجزء الخفي من روحنا. وبعد ذلك بفترة طويلة قال لي «محمود»، وهو طيار حربي شارك في الحرب ضد العراق ثم ذهب إلى المنفى في الولايات المتحدة: **«إن محبتي لك يا مولاتي ترجع إلى مهرجان «شيراز»؛ ذات مساء عند مقبرة «حافظ» كنت جالسا على الرصيف في الشارع أستمع إلى موسيقانا التقليدية. وفي لحظة ما وقفت ولمحتك، وسط الزحام أمامي. وكان يبدو عليك السعادة لكونك هناك معنا. وبصرف النظر عما تمثلينه رسميا شعرت في تلك اللحظة بمدى القرب بيننا، وكيف وحدتنا جذورنا الثقافية»**.

وقال لي العديد من الشباب لاحقا إنهم لولا المهرجان لما فكروا في دراسة السينما، أو المسرح، أو الموسيقى. فهم اكتشفوا موهبتهم في «شيراز» عندما تعرفوا على الأعمال الإبداعية من إيران وكل مكان.

وتم تخصيص الجزء الرئيسي من المهرجان للفنون التقليدية في إيران والعالم، غير أن «شيراز» كانت أرضية لاختبار الأفكار التي يمكن أن تهز توجهات الناس قليلا، لدرجة أن بعض الناس ادعوا أن المهرجان مهَّدَ الطريق لرد الفعل الإسلامي، ومن ثم كان من أسباب الإطاحة بالملكية.

ومن بين جميع عروض المهرجان عرض واحد صدم الناس، قدمته فرقة مجرية، ولم أر العرض المسيء، لكن الموقف تم تضخيمه ـ خاصة بعد الثورة ـ بواسطة أعضاء من المعارضة، كانوا يبحثون عن أي ذريعة لتوجيه النقد. واشتكى أيضا بعض رجال قوات الأمن، استاءوا من الحرية التي تمتع بها مديرو المهرجان، فضلا عن أولئك الذين كانوا ضدي شخصيا.

ومن المحتمل أن المهرجان جاء فرصة لتعبر التيارات السياسية عن نفسها. وأعرب بعض جماعات المسرح الأجنبية عن معارضته للملك، وبطريقة استفزازية، بادعاء الدفاع عن قضية نظام الحكم الليبرالي. وعلى سبيل المثال عرضت جماعة «الخبز والدمى» المسرحية الأمريكية روايتها تحت جدران إحدى قلاع «شيراز» لتمثِّل سجنا. وسمحنا لهم أن يعملوا بطريقتهم، ويدينوا ما يشاءون، وإن لم يعجب ذلك بعض رجال الأمن. واستغل بعض الفنانين الإيرانيين المناسبة لنشر

الانتقادات ضد الملكية. وتركناهم أيضا. ونُظِّمت مناقشات مائدة مستديرة مع كتاب ومخرجي المسرحيات بالجامعة في اليوم التالي لتقديم عروضهم. وبلغني أن «جرتزي جروتوفسكي»، وهو مخرج بولندي، تعرض للاتهام في واحدة من هذه الندوات من طالب إيراني سأله عما إذا كان مدركا أنه بمشاركته في هذا المهرجان يكون قد أجاز «الديكتاتورية». فرد عليه جروتوفسكي بكلام كثير قائلا: «**إذا كنت تعتقد بالفعل ما تقول، لكان عليك أن تكون هناك في الجبال ومعك بندقية آلية، بدلا من أن تتحدث بهدوء معي هنا**».

ووصل أيضا إلى «شيراز» بعض الصحفيين الأوروبيين، حانقين للغاية على الملكية ومستعدين للعراك. ولأنهم يعرفون التزامي نحو الثقافة كانوا غالبا يطلبون مقابلتي، وتبدأ مناقشاتنا دائما ببعض الأسئلة العدوانية. وأنا أتروى لأشرح لهم نوايا الملك، وأذكرهم بمدى ما كانت عليه إيران من تأخر عن أوروبا، وأطالبهم بأن يقارنوا فقط بين تلك الأمور التي يمكن المقارنة بينها. ولاحظت شيئا فشيئا أنهم بدءوا يتفهمونني. وأجرينا مناقشات مطولة، كانت تستمر أحيانا حتى الثانية أو الثالثة صباحا، في حديقة «باجه إيرام» (حديقة الفردوس) حول شموع صغيرة تومض في الريح الدافئة القادمة من الصحراء القريبة. وكنا نلتقي كل عام، حتى أن العديد من هؤلاء الصحفيين صاروا أصدقاء.

ويرى بعض وزراء ومستشاري الملك أن مهرجان «شيراز» مثَّل رغبة في الانفتاح أكثر من اللازم على الغرب. وهكذا انتقدني «أسد الله علم» وزير البلاط ـ الذي أعجبت بثقافته وعقليته ـ في مذكراته بسبب أفكاري «**الليبرالية التي لم تكن في محلها**». ورأى كثيرون غيره اختلافا بين خط زوجي السياسي، والخط الذي أنتهجه. ولم يكن بين زوجي وبيني في الواقع أي اختلافات أساسية. فهو كان يعتقد أن نهضة إيران الاقتصادية ما زالت أضعف من أن تحتمل مجتمع الليبرالية الكاملة. ويقول: «**البلد مازال بحاجة إلى عقد من الاستقرار قبل أن ينتقل لتلك المرحلة**» ويضيف: «**لكنني أريد لابني أن يتولى الحكم بطريقة مختلفة عني**». وكان يأمل أن يسلِّم «رضا» دولة مستعدة للديمقراطية. وكثيرا ما تحدث عن ذلك. وأدركتُ أنه يسابق الزمن، وهو ما جعلني أتألم كثيرا عندما أسمع، سواء في داخل البلاد أو خارجها، أنه لا وجود للحرية في إيران، سواء الحرية السياسية أو حرية التعبير. ولم يكن هذا الهجوم على الملك مبررا، فكم استغرقت فرنسا من الوقت بعد ١٧٨٩ حتى تصل إلى مياه الديمقراطية الدافئة؟! قرنًا تقريبا. ومطلوب من إيران أن تنتقل مباشرة من العصور الوسطى إلى مستوى الديمقراطية في أوروبا

المعاصرة. وبدا لي أن مهمتي في هذا المجال ينبغي أن تكون سفيرا للنوايا الحسنة بين توقعات بعض الناس وموقف الملك. وتفهمت ما يحتاجه الملك، وأعجبتني صلابته وقوته. لكنني تفهمت أيضا إحباط بعض مثقفينا وساستنا، الذين خاب أملهم لأنهم لم يستطيعوا معرفة أسباب صرامته.

وعرف الناس دوافع عملي، فلم يترددوا في الكتابة إليَّ أو طلب مقابلتي. بعضهم فنانون قابلتهم في «شيراز»، والبعض أكاديميون، أو مدرسون أو طلاب. كتبوا شيئا ضد الملكية أو قاموا بمظاهرة، ولديهم الآن مشكلات مع الشرطة. كنت أنظر في التهم، فإذا لم تكن خطيرة، أطلب من الملك المساعدة، ولم يكن يرفض أبدا. كان دائما مستعدا للغفران، وبدء صفحة جديدة. وكنت أحيانا أعمل بمفردي، وفي معظم الأحوال يُطلق سراح الشخص المعنيّ.

وكانت قبضة الشرطة غالبا ثقيلة، مثلما يحدث في معظم البلدان النامية، حيث يسعى الجميع لتطويع مقدار السلطة القليل الذي في يده، وبدلا من أن يخدم النظام يقوِّضُه. فعلى سبيل المثال، كنت بصدد افتتاح معرض فني، ثم خلق عملاء «السافاك» مشكلة، وفي اليوم التالي تحدث الناس عن ذلك أكثر كثيرا مما تحدثوا عن المعرض الجديد. وكان «السافاك» قد طلبوا مني قائمة بالمدعوين، فأعطيتهم إياها، ولكنهم في يوم الافتتاح حققوا مع بعض الضيوف أو منعوهم من الدخول. فوضعني ذلك في موقف محرج للغاية. وقلت لهم: «**رأيتم القائمة ولم تبدوا أي اعتراض. والآن عندما جاء هذا الشخص تثيرون مشكلات له بحجة أنه كتب شيئا ضد الدولة. ألا تفهمون أنكم بهذا التصرف لم تفعلوا سوى تعزيز معارضته؟!**» ثم يعتذرون قائلين إنهم ظنوه شخصا آخر بالخطأ. غير أن الضرر كان قد وقع بالفعل.

وأحيانا ما تتصرف الشرطة بقسوة. وأستطيع أن أتذكر أنه في بداية السبعينيات عاد الرسام الإيراني «زندرودي»[1] إلى طهران لإقامة معرض للوحاته. وكان مشهورا

---

(١) ولد عام ١٩٣٧ في طهران وتعلم في مدرسة الفنون الجميلة، وهو رائد مدرسة الحروفية الفارسية في الرسم، ومن رواد الحداثة في إيران، هاجمته القوى المحافظة في إيران أواخر الخمسينيات. فسافر إلى فرنسا واكتست عدة مبان باريسية بجداريات من إبداعه، واصل أعماله التي لقيت ترحيبا كبيرا في الأوساط الفنية حتى الآن. وفي ١٩٧٢ أعد رسوما زخرفية لترجمة معاني القرآن باللغة الفرنسية. وتعرض أعماله في مزادات عالمية، ويقبل على اقتنائها الأثرياء بأرقام باهظة. وبلغ ثمن إحدى لوحاته في مزاد أقامته صالة كريسبي في دبي عام ٢٠٠٨ أكثر من ١،٦ مليون دولار. (المترجمة).

بالفعل ويعيش في فرنسا. وعلى غرار العديد من الفنانين الغربيين كان شعره طويلا. ومن الواضح أنه لهذا السبب وحده تعرض للاستجواب في الشارع، وحلقوا له شعره. وتحدثت إلى زوجي حانقة بهذا الشأن. فعزل رئيس قوات الشرطة الوطنية من منصبه بسبب هذا العمل المهين.

ومرة أخرى، علمت أن أحد مديري الشركات، الذي استُقبِل في القصر مع بعض رجال العمال البارزين قبل أيام قليلة، ألقي القبض عليه. وكان قد عبر بصراحة عن رأيه فيما يراه خطأ، وأبدى أسفه بشكل خاص للطريقة التي تصرف بها وزير بعينه. حدث ذلك عندما كانت الحكومة تحاول السيطرة على ارتفاع الأسعار، وأرسلَتْ لهذا السبب طلابًا إلى الأسواق التجارية من أجل مراقبة التجار. والآن، أبلغني هذا المدير إلى أي مدى تأثر التجار تأثرا بالغا، وكيف وجدوا الأمر مهينا، فقلت للملك: «**إنه أمر لا يصدق! إيراني يأتي إلى بيتك، ويتناول الشاي معي، ويبلغني بأمانة ما يزعجه، ثم في اليوم التالي مباشرة يجيء رجال «السافاك» ويعتقلونه. إنه أمر فظيع. أنا أقابل هؤلاء الناس حتى أستطيع أن أتحدث إليك عما قالوا. وأُثَبِّت مركزك. إنه أمر لا يطاق أن يتعرضوا لمتاعب لاحقا**». وبالطبع أمر الملك بإطلاق سراح الرجل فورا. ولكن مرة أخرى كان الضرر قد وقع.

وواكب اندفاع الشرطة حماسة الحكومة. فظن وزير الإعلام أنه سيكون يقظًا عندما يفرض رقابة على مقال لمجرد أنه حميمي للغاية. حيث أجرى الصحفي مقابلة مع ابنتنا «فرح ناز»، وكان طبيعيا أن تشير إلينا قائلة: «**دادي ومامي**»، بالضبط كما تنادي شقيقها الأكبر باسمه الأول بدلا من ألقابه. فأبلغه الوزير أنه «**من الممنوع التحدث عن السادة بهذه الطريقة**». وتصادف أن الصحفي يعرف والدتي واتصل بها. وكنا في زيارة رسمية بالخارج في ذلك الوقت. واستطاعت والدتي الاتصال بزوجي الذي وجد هذا النوع من الغباء مزعجا بالفعل. فقال لرئيس سكرتاريته: «**اطلب الوزير. واطلب منه أن يعتذر للصحيفة. إنه أمر سخيف!**».

كنا نعرف أن ردود الأفعال هذه بسبيلها للاختفاء تدريجيا. وذات صباح اتصل بي محافظ أحد الأقاليم في القصر، وقال لي: «**مولاتي، سكان إحدى قرانا يستعدون لافتتاح حمام عام صغير. وهم يحبون أن يطلقوا عليه اسم الملك، ولا أعتقد أن هذا ملائم**». فوافقته؛ كان ذلك سخيفا. سدّ أو ميدان في مدينة نعم ربما ـ وإن كنت في الحقيقة لا أريد حتى الكثير من هذه التصرفات ـ لكن الحمامات العامة لا تبدو ملائمة.

ولا أعرف الكلمات التي استخدمها المحافظ لإبلاغ القرويين أن عليهم البحث عن اسم مختلف، ولكن تبقى حقيقة أنه بعد أسابيع قليلة وجد تقرير من السافاك طريقه إلى مكتب زوجي، ليلقي ظلالا خطيرة على هذا المحافظ الذي «رفض» أن يسمح بأن يحمل الحمام العام اسم الملك. وكان الرجل المسكين قد وقع بالفعل في بعض المتاعب، التي اضطر زوجي أن يستغرق وقتا في معالجتها. وحاول أن يخفف من الأمر، ولكن كانت تجاوزات السلطات في الواقع تسيء إليه مثلما تفعل بالنسبة إليَّ. فهذه التصرفات لم تستطع إلا الإضرار بالحكم الملكي.

وحتى الصحفيين أنفسهم، بسبب فرط حماس البيروقراطيين في وزارة الإعلام، وجدوا صعوبة شديدة في تجاوز هذه الطريقة السلطوية في التفكير. وكنت أتناقش معهم عند سفري إلى الأقاليم، أو عند قيامي رسميا بافتتاح شيء ما. فأقول لهم: «**لا تضعوا صورتي في كل مكان، نحن هنا لنفتتح مستشفى جديدًا، لذلك تحدثوا عن المستشفى بدلا من الحديث عني. الناس يهتمون أكثر بذلك. وهم ليسوا بحاجة إليكم كي يعرفوا أنني هذا النوع أو ذاك من الملكات. دعوهم يفكرون بعقولهم**».

وكان وجود صور زوجي في كل مكان مبالغا فيه أيضا. ومن المفهوم أن صورته الشخصية يجب أن تتصدر أي مؤسسة حكومية، ولكن ليس كل مكان. وتحدثت إليه عن ذلك. وبنفس الروح طلبت بيانا بجميع البنايات والأماكن التي تحمل اسمه، حتى يمكن تخفيض العدد. وكان الضغط قويا في كل القرى، لأن اسم الملك يستخدم للحصول على دعم. فالناس يقولون: «**كيف يمكن أن يحمل هذا الشارع اسم «بهلوي»، وهو ليس مرصوفا على الأقل؟!**» ورأى زوجي أن الوقت سوف يغير طريقتهم في التفكير، لأننا في معركة الصور هذه سوف نواجه أيضا عقلية بعض عملاء الأمن الجامدة.

وفي ١٩٥٧، أنشئت هذه الهيئة الأمنية لمواجهة التخريب الشيوعي في السنوات المضطربة بعد الحرب. وأدت واجبها بامتياز. وفي ذلك الوقت كان الاتحاد السوفيتي بأقماره الصناعية، فضلا عن بعض الدول العربية الراديكالية، يحتفظون بعملاء في إيران لإثارة المتاعب. وصار حتميا كشف المحرضين، واعتقالهم إن أمكن. وكان الملك نفسه ضحية محاولات اغتيال قامت بها جماعات إسلامية قريبة من الشيوعيين، وقتل ثلاثة من رؤساء وزاراته على أيدي أصوليين. وأراد «توده» بوضوح أن يجعل من إيران جمهورية سوفييتية، لخدمة مصالح «الكرملين».

ولا شك أن بعض عملاء «السافاك» ارتكبوا تجاوزات، ويقال إنهم ارتكبوا تصرفات لا يمكن الدفاع عنها. فهل كانوا مدركين ذلك؟! المشكلة أنهم عبر إساءة استخدام سلطتهم، دون قصد ربما، أساءوا إلى السلطة المعنوية للملك والملكية. ولكن العديد من رجال «السافاك» ساهموا بإخلاص في أمن واستقرار البلاد. وفي السبعينيات بدأ زوجي تدريجيا في إصلاح مجال سلطتهم. وتم سحب بعض سلطاتهم، وأعطيت للدرك والشرطة. وإذا كان قد أتيح للملك وقت كاف لكانت «السافاك» ستتحول تدريجيا إلى جهاز مناظر لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية أو هيئة الاستخبارات البريطانية.



القسم الثالث

الفصل السابع عشر

في ربيع ١٩٧٧، طلب بروفيسور «عباس صفويان» مستشار الجامعة الوطنية في «طهران» مقابلتي. كنت وقتها في باريس، وهو أيضا في زيارة للعاصمة الفرنسية. ولم يكن طلبه مستغربا، فنحن نعرف بعضنا جيدا ويناقش البروفيسور معي بانتظام مشكلات عديدة تتعلق بالجامعة. ولكن هذه المرة تركني ما كان مضطرا لقوله متحيرة؛ طلب مني أن أتفضل باستشارة ثلاثة من الأطباء الفرنسيين البارزين، البروفيسور «برنار» والبروفيسور «ميلييه» والبروفيسور «فلاندران». وشرح لي أن ما يجب عليهم إبلاغي به سر بالغ الأهمية، حتى أنه لا يمكنني أن ألتقيهم في السفارة. وينبغي أن أقابلهم في مكان شديد الخصوصية، حيث لا يستطيع أحد أن يتنصت على محادثتنا.

وما أن غادر البروفيسور «صفويان» حتى بدأت أشعر بقلق غامض. ولكن لم يكن يبدو هناك مبرر له فأبناؤنا الأربعة، الذين يتم فحصهم بانتظام، في صحة ممتازة، وبالنسبة للملك، رغم شعوره بالتعب من حين لآخر، إلا أنه نشط وقوي على نحو مذهل بالنسبة لرجل في السابعة والخمسين.

كانت إحدى خالاتي تعيش في باريس. ومن خلال البروفيسور «صفويان» أبلغت الأطباء الفرنسيين أنني سأقابلهم عندها. وعندما غادرت السفارة الإيرانية، حرصت على الجلوس في مقعد السيارة الخلفي من جهة اليمين، لعلمي أن الصحفيين قد يكونون متابعين لتحركاتي.

مازلت أشعر بالخوف الجليدي الذي ملأني في ذلك اللقاء. ولم يستطع الوقت أن يمحوه. أفصح الأطباء عن أن زوجي يعاني مرضا في الدم، قالوا إنه مرض «متلازمة والدنستروم»، وهو مرض خطير غير أنه قابل للعلاج، إن لم يكن الشفاء. من الذي

ذكر كلمة سرطان للمرة الأولى؟ ربما أنا عندما سألتهم. لم يرغبوا في إثارة قلقي أكثر من اللازم، وأكدوا لي أن هناك وسائل لمكافحة المرض. وللحق فإنهم لم يتأخروا في بدء المعركة، حيث ظهر أول أعراض المرض في خريف ١٩٧٣!

وأضاف هذا التصريح الثاني ارتباكا إلى الألم، فهؤلاء الأطباء كانوا يعالجون زوجي لأربع سنوات، لكنني بقيت بعيدة عن السر بناء على طلبه. وقرر الأطباء من تلقاء أنفسهم إجراء هذا اللقاء ضد أوامر الملك، لأنهم ـ حسب ما قالوا ـ رأوا أنني أستطيع أن أؤدي دورا نافعا للمريض في المستقبل.

وكنت أعرف شجاعة زوجي وقوة إرادته. لقد أراد، ومازال يريد، أن يحميني من هذه المحنة. وعند عودتي إلى «طهران»، دارت كل أفكاري حوله وحول الأسرة التي بدأنا تكوينها بعد زفافنا قبل ثمانية عشر عاما. كان شيئا قد تجمد داخلي، غير أن الأطباء لم يدمروا ثقتي، بل إن ما حدث هو العكس تماما.

ولم أكتشف القصة الخفية لمرض زوجي بالتفاصيل، إلا من خلال الرواية التي أتاحها لي البروفيسور «جورج فلاندران» بعد سنوات عديدة. فهذا الرجل الذي ظل إلى جانب زوجي حتى النهاية، والذي أقدر كفاءته وإخلاصه الشديد، تولى تسجيل شرحه للمرض في ثلاثة خطابات مطولة إلى أستاذه الجليل بروفيسور «جان برنار».

وتأثرت تماما بهذه الخطابات. لم تكن أي وثيقة أخرى قادرة على تقديم وصف أفضل لجدية وانفعالات هذه الزيارات السرية للملك، التي بدأت في مايو ١٩٧٤ واستمرت حتى أيام المنفى. وهي تظهر الدور الحيوي الذي أداه وزير البلاط السيد «عَلَمْ» في تقديم الأطباء الفرنسيين إلى الملك. وكان «أسد الله عَلَمْ» هو نفسه يعالج من مرض في الدم تسبب في وفاته عام ١٩٧٨:

«وهكذا حدث في أول مايو ١٩٧٤ أن ذهبنا إلى «طهران» للمرة الأولى. وكنتَ أنت اتصلت بي مساء الأحد في البيت، وغادرنا صباح الثلاثاء، وألغى كلانا مواعيد العيادة الخارجية لذلك اليوم في الدقيقة الأخيرة. وعلق سكرتيرك: «حسنا، «فلاندران» سوف يلغي أيضا مواعيد الثلاثاء مثل الرئيس». لم نكن قادرين على أخذ الاحتياطات إلا في آخر دقيقة، أي صباح الاثنين، بعدما أوضحت لي في مكتبك سبب رحلتنا. وكان الدكتور «عباس صفويان» قد اتصل بك تليفونيا، وطلب منك الحضور إلى

«طهران» وإحضار «رئيس مختبرك» كما قال، مستخدما التعبير القديم. وأوضح أنه ينبغي ألا يكون هناك اتصال بالأطباء المحليين، ويجب أن نحضر معنا أي معدات نعتبرها ضرورية. وعندما أبلغتني هذه المعلومة، اعتقدت مثلك أنها مهمة كبيرة... ومع ذلك تمنيت أننا سنقتصر على مجال تخصصنا، وهو أبحاث الدم.

وبعد تفكير، أبلغتك أن أي شيء ممكن بالضرورة، ما عدا اصطحاب ميكروسكوب معي، وأنه يجب العثور على واحد هناك. ولكن التجربة أظهرت لي أنه كان بإمكاني المخاطرة على أي حال، فبعد شهور قليلة ذهبت في رحلة إلى سويسرا ومعي ميكروسكوب في حقيبة يدي، من دون أن أجذب أي انتباه... والمعروف أن التفتيش في المطارات عام ١٩٧٤ لم يكن بنفس الدقة التي صار عليها بعد ذلك. وهكذا غادرت طائرة «إير فرانس» إلى «طهران» من مطار «أورلي»، حيث كنا صباح الثلاثاء نحاول تخمين سبب هذا الطلب الغامض. وكنا في الليلة السابقة تسلمنا تذكرتين للدرجة الأولى مدفوعتي الثمن، وقبيل ركوبنا الطائرة مباشرة قلت لك في خجل: «ماذا لو كانت هذه مداعبة؟!» وهو ما رددت عليه ردا معقولا: «وفقا لخبرتي، المداعبات لا يأتي معها تذاكر للدرجة الأولى». وهكذا كانت تلك هي الأولى بين العديد من الرحلات التي قمت بها من باريس إلى «طهران» بصحبتك. وفي «مهرآباد» كان بانتظارنا عند سلم الطائرة سيارتان بأضواء كاشفة، وصافحنا بعض السادة الذين لم نقابلهم من قبل، ولكن تلك الوجوه سوف نقابلها بانتظام عند وصولنا إلى «طهران» بعد ذلك. واصْطُحِبنا إلى صالة كبار الزوار، حيث استقبلنا الدكتور «صفويان» الذي كان بانتظارنا هناك. وكان دكتور «صفويان» أستاذا شاملا بالجامعة الفرنسية، وعميدا لإحدى كليات الطب، ومنها أصبح رئيسا للجامعة. وصافحني «صفويان» قائلا: «فلاندران، من الواضح أنك لا تتذكرني!» واستغرق الأمر بضع كلمات لإنعاش ذاكرتي. كنا نعمل بالفعل معا من الخارج تحت رئاسة بروفيسور «جلبير دريفو» في «أوبيتال دو لا بيتييه». وكان «صفويان» يتذكر ذلك على نحو أفضل منِّي، ولكن ربما تغيّرَ هو بصورة أكبر. وبعد أن أعيدت إلينا جوازات سفرنا، غادرنا إلى فندق كبير في «طهران»، هو فندق «هيلتون»، حيث لا تبدو هناك حاجة لسرية خاصة. وما أن أصبحنا في غرفتنا، حتى شرح لنا «صفويان» أننا بصدد فحص فخامة «أسد الله علم» وزير البلاط. وكنت أنت تعرف بالفعل مشكلته الصحية حيث طلب البروفيسور «ميلييه»

نصيحتك بشأنه قبل ذلك. وأشَرْتَ إليَّ جانبا أنه يبدو أن هناك قدرا كبيرا من الغموض يحيط بحجم مشكلة الوزير، كانت مشكلة بسيطة، ونحن نعرف كل شيء عنها. ثم قابلنا السيد «علم»، الذي أبلغنا أننا سنرى جلالة الشاه. أتذكر جيدًا أن وزير البلاط قال لنا إننا سوف نعتني بصحة «رئيسي» وهي الكلمة التي استخدمها مع أفضل ابتسامة. ثم نُقِلنا من منزله إلى قصر «نيـاوران» واصطُحِبنا إلى جلالته.

بالنسبة لي، كان لديَّ شعور بسابق المعرفة، مثلما تفعل مع بعض المعالم الطبيعية. أو كما أحسست أنا عندما شاهدت «ماتشو بيتشو»[1] أو سور الصين العظيم للمرة الأولى. فبسبب التليفزيون صار الناس محبطين بهذا القدر الكبير من العالم، وهو ما قضى على الغموض والانبهار الذي لابد أن مسافري القرن الماضي كانوا يشعرون به عند رؤيتهم أشياء شهيرة للمرة الأولى، وقتما كانوا لا يحصلون على معلوماتهم إلا من خلال النقوش الموجودة في المتاجر المتخصصة في بيع الأشياء الغريبة المتنوعة. أما هذا فكان العالم الذي يمكن التنبؤ به؛ هنا يقف أمامنا بالضبط الرجل الذي توقعه كلانا بوجهه وهيئته. المفاجأة الصغيرة الوحيدة كانت صوته؛ ناعما، ويتحدث الفرنسية بطلاقة، من دون أي لكنة، ولكن مع جَرْس خاص، ذي غنَّة طفيفة. ويقف إلى جانب سيده رجل قليل الحجم يرتدي زيا عسكريا، وفيما عدا هذا لم يكن يشبه إلى حد كبير شخصا عسكريا. كان هو الجنرال «عيادي» الطبيب الخاص لجلالته. جلسنا جميعا حول طاولة، وكان جلالته بنفسه هو من شرح مشكلته، فأخبرنا أنه قبل شهور قليلة، أي في أواخر ١٩٧٣، أثناء وجوده في جزيرة «كيش»، لاحظ نتوءًا في أعلى الجانب الأيسر من البطن، فتحسس نفسه، ووضع لنفسه تشخيصا دقيقا؛ تضخما في الطحال. ومن بين جميع الاستشارات التي أجريناها بعد ذلك، ربما كانت الأولى هذه هي الأغرب. وردا على أحد أسئلتك ولتوضيح مدى تأكده من تشخيصه التشريحي، ربط جلالته الكلمات بالإشارات، ففتح سترته ورفع قميصه، ووضع أصابعه تحت قفصه الصدري وأخذ شهيقا..كما في الكتب! واستطعنا بعد ذلك فحص جلالته بأنفسنا. حيث رقد على فراش ضيق فيما يشبه القبو، معلق عليه لوحة زيتية صغيرة من لوحات «رينوار». وكان الطحال متضخما بالفعل، وهو العَرَض المادي الوحيد،

(١) أطلال حضارة قبائل الإنكا في بيرو. وهي مدينة بنيت في القرن الخامس عشر الميلادي على ارتفاع ٢٣٤٠ مترا فوق سطح البحر، بين جبلين من سلسلة جبال الأنديز. (المترجمة).

من دون تضخم في الخلايا الليمفاوية[1]. كنا ننظر إلى رجل مازال شابا: كان جلالته في الخامسة والخمسين (وكنت أنا في الأربعين وأنت في السابعة والستين في ذلك الوقت). ومن الناحية البدنية كان الرجل رياضيا، وأدهشني عندما وضعت رباط الذراع لأقيس ضغط الدم. وما أن أجرينا الفحص الإكلينيكي وأخذنا العينات اللازمة، ذهبنا إلى مكتب بالقرب من غرفة النوم.

وحتى هذه المرحلة كان كلُّ شيء بسيطا نسبيا، والآن عليَّ أن أقدم بعض الابتكارات الفنية. ومن حقيبة الكتف التي استخدمتها كحقيبة اليد أخرجت الأجزاء الصغيرة التي تكوِّن بعد تركيبها المعدات المطلوبة لعد صفائح الدم، وكرات الدم البيضاء، وقياس الهيموجلوبين، والقيام بالصبغات الأساسية للدم وعينات النخاع. ولاشك أنك مازلت تستطيع أيضا تخيُّل مكتب جلالته حيث قمنا بعملنا. فخلال الرحلات الخمس والثلاثين التي قمت بها إلى إيران في السنوات التي تلت ذلك، اعتدت تماما على هذه الحجرة وطريقة عملي هناك، حيث الميكروسكوب وأجهزتي كلها مُعدَّة من أجلي... كانت حجرة صغيرة نسبيا، مضاءة جيدًا، تطل على حدائق قصر «نياوران»، مع عازل من أشجار الدُّلب الشرقية الضخمة تخفف من الضوء الساطع لذلك اليوم الربيعي. وكان بالحجرة مكتب تحوَّل إلى طاولة مختبرنا، حيث وضعنا بالفعل الميكروسكوب الذي أحضره الجنرال «عيادي». والمكتب موضوع فوق سجادة، هي بالفعل نسخة من أشهر وأعرق سجادة فارسية؛ سجادة «البازيريك» بحوافها الموشاة بالخيول. وصار عليَّ أن أواصل عملي في هذا النوع الجديد من المختبرات.. دون التسبب في إحداث بقع فقد كنت أحتاج للماء كي أصبغ شرائح الميكروسكوب، وللمرة الأولى في حياتي أُجري صبغة «جيمسا» في حمام مكسو بالرخام ذي صنابير مذهبة.

ونظر كلانا إلى الشرائح وعليها العينات تحت الميكروسكوب. وكما نعرف كان جلالته يعاني من مرض التضخم المزمن في الخلايا الليمفاوية بالدم، وهو ما شخصناه في ذلك الوقت. ومن ثم كان شكلا غير معتاد إلى حد ما من اللوكيميا الليمفاوية المزمنة مع طحال متضخم. وأبلغنا الجنرال «عيادي» منذ البداية الأولى

(١) تم الاحتفاظ بالمفردات الطبية التي استخدمها بروفيسور «فلاندران» لغرض الدقة التاريخية.

لاستنتاجاتنا. فإذا بالمعلومة التي التصقت بذهنه هي كلمة لوكيميا، وأعلن أنه لا ينبغي استخدامها فيما يتعلق بجلالته، يجب إبلاغه أن كل شيء على ما يرام! وكان مطلبا زائدا على الحد، ورغم ذلك كان المرض كما شخَّصنا تضخم الخلايا الليمفاوية في الدم، ومن المسلم به أنه مزمن، ولكنه يمكن أن يكون خبيثا في النهاية! وبالإضافة إلى ذلك، لابد أن يكون هناك علاج وسوف يصعب وصفه من دون تفسير. وخلال هذه الزيارة الأولى لم نكن حصلنا بعد على نتيجة عينة الارتحال الكهربائي المناعي التي سوف تثبت إفراز الضد المناعي IgM وهو ما يميز مرض متلازمة «والدنستروم». ولما كانت حالة المريض لا تبرر القلق قررنا أن نحتفظ بتوصياتنا العملية لحين عودتنا إلى باريس واستكمال جميع الاختبارات وفحصها. وبعد ذلك، وعندما صارت جميع النتائج في أيدينا، اخترنا التعبير «مرض متلازمة والدنستروم»، مدركين أنه ليس الشكل المتقدم منه، لأن الضد المناعي IgM لم يكن واضحًا في هذه الحالة. وتوافقت مبرراتنا الشخصية لاستخدام هذا التعبير، مع رغبة الجنرال «عيادي» في عدم التهويل من الموقف، وكنا ببساطة نتبنى الموقف الذي يجب أن يستخدم مع أي مريض آخر.

وغادرنا القصر بعد هذه الزيارة الأولى، ونحن نحمل انطباعات مختلطة. وأعود بالذاكرة إلى الهيلتون، حيث أبديت أنت هذه الملاحظة: «غدا سوف يُستشار أطباء أمريكيون، وسيكونون هنا حيث نحن الآن». وهو ما يوضح أن أي شخص يمكن أن يُتَّهم بالخطأ، لأن توقعك لم يكشف الحقائق. فهناك الكثير مما لا نعلمه بعد، ونحن لم نحسب حساب القوة الشخصية والنفسية للمريض. ومجيئك إلى طهران، وأنا معك، كان اختيارا متعمدا ومدروسا من جلالته. فهو قد فهم على الأقل أن تضخم طحاله يشير إلى مرض في الدم، وأحضرك إلى هنا عبر السيد «علم». وهو الشخص الذي قابله جلالته بعد الذي اكتشفه في «كيش»، وقال له: «اطلب من أطبائك الباريسيين الحضور إلى هنا»، كما أخبرني السيد «علم» بعد ذلك. ومن المؤكد أن كل شيء كان مرتبا بين جلالته والسيد «علم»، كي لا يتجاوز الأمر مجموعة محكمة للغاية، حتى أن جلالته لم يستشر تقريبا أي أطباء آخرين بعد ١٩٧٤. وطبقا لذلك، فأول خمسة أشخاص عرفوا بالأمر هم: «النواة الصلبة» المكونة من كلينا ولدينا جميع المعلومات والمعرفة الدقيقة بأسباب المشكلة، وثالثنا الجنرال «عيادي» ولديه جميع المعلومات

لكنه وجد صعوبة في تقبل النتائج، وجلالته لديه المعلومات التي استطعنا حتى الآن توصيلها له، نظرا لأن «عيادي» دقق فيها أولا. أما الخامس فهو السيد «علم»، الذي رتب ما قمنا به، على الرغم من أننا لم نعطه معلومات دقيقة عن النتائج الطبية.

وبعد أن عدنا إلى باريس وتحادثنا بشأن استنتاجاتنا، لم يحدث شيء من أول مايو حتى سبتمبر ١٩٧٤. وكما هي القاعدة في المواقف الطبية المماثلة قررنا أن نبدأ بالرعاية دون العلاج. ولدهشتنا، طُلِبَ منَّا العودة إلى طهران في ١٨ سبتمبر ١٩٧٤».

في الفترة من٢٤ حتى ٢٩ يونيو ١٩٧٤، كنَّا ـ زوجي وأنا ـ في زيارة رسمية إلى فرنسا بدعوة من رئيس الجمهورية المنتخب حديثا «فاليري جيسكار ديستان». واستقبلنا الرئيس الفرنسي بحفاوة رائعة، وأعد حفل استقبال فاخرًا في قاعات قصر «فرساي». وكان الملك سعيدا وفخورا بالاعتراف الذي لقيته إيران الآن من جميع الدول الكبرى في العالم. فخلال نصف قرن تم إنجاز الكثير، ومهندسا هذا الانتعاش الهائل هما «رضا شاه» وزوجي الذي شَهدْتُ انتصاره بمشاعر الامتنان والفرحة. ولم يكن هناك ما يدفعني للشك في المرض الذي بدأ ينال منه.

ولم تكن البلاد من قبل في مثل هذا الموقف المطمئن، الذي كانت عليه ذلك العام ١٩٧٤ . فإنتاجنا من البترول الخام ارتفع من ٧٣ مليون طن في ١٩٦٣ إلى ٣٠٢ مليون طن، لتصبح إيران رابع أهم الدول المنتجة للبترول، بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي والمملكة العربية السعودية. وفي ١٩٧٣، كانت اتفاقية ١٩٥٤ للبترول قد عُدِّلت بالكامل تقريبا وفق توجيهات الملك الشخصية. ومن ذلك الوقت فصاعدا سيطرت شركتنا الوطنية على البنية الأساسية للبترول بأكملها، من الإنتاج إلى المبيعات إلى البحث. وصارت الشركات الأجنبية المشتري الرئيسي للبترول الإيراني. وكان سعر البترول الخام قد ارتفع للتو أربع مرات ـ في فترة الازدهار ١٩٧٣/ ١٩٧٤» ـ لترتفع عائداتنا البترولية بنسبة ٦٤ في المائة خلال سنة مالية واحدة. وسمح لنا مثل هذا الارتفاع أن نأمل في زيادة سنوية بنسبة ٢٦ في المائة خلال السنوات الأربع المقبلة. وهي أرقام مذهلة، لكنها تتفق مع التحديث الموعود في بداية الستينيات. وكانت هذه الصورة واضحة للغاية في «طهران»، حيث يتدفق المستثمرون ورجال الأعمال من جميع العواصم الكبرى في العالم. وفنادقنا مكتملة العدد، حتى أن بعض الزائرين باتوا على استعداد لتأجير حمام لقضاء الليل. كان ذلك أشبه بتدفق الذهب،

وقال الناس إن جداول المياه في «طهران» تفيض دولارات. ونتيجة لهذا الحماس ارتفعت الأسعار على نحو كبير، خاصة أسعار الإيجارات. وهكذا، بينما أصبح بعض الإيرانيين أثرياء بدأ آخرون يعانون من آثار التوسع الاقتصادي في البلاد.

كنا نحلِّق في جميع القطاعات، وبدا الأمل في الانضمام إلى الدول المتقدمة في متناولنا خلال عشره أو خمسة عشر عاما. وحققت جهودنا في مجال التعليم تقدما ملحوظا، فبعد أن كانت نسبة من يستطيعون القراءة والكتابة تتراوح بين ٢٥ في المائة و٣٥ في المائة عام ١٩٦٢، زادت النسبة إلى ما بين ٥٥ و٦٠ في المائة. وارتفع عدد المدارس من سبعة آلاف و٩٠٠ مدرسة إلى ٢١ ألف و٩٠٠ مدرسة، توفر التعليم المدرسي لأكثر من خمسة ملايين طفل ارتفاعا من ١,٥ مليون في ١٩٦٢. وأنشئت ثماني جامعات وعدد كبير من الكليات والمدارس الفنية في المدن الرئيسية بالأقاليم. وأتذكر، كرمز لهذه الثورة الثقافية، حماس جدَّة جاءت تبلغني أنها الآن تستطيع أن تقرأ الخطابات التي يرسلها إليها حفيدها من الخارج وترد عليها. وكانت قد انتظرت أكثر من ستين عاما حتى تتحقق «معجزة» محو الأمية.

وعلى الصعيد الصناعي استكملت جميع مشروعات الإنشاء الكبرى التي بدأ العمل بها أوائل الستينيات، وبوجه خاص خط أنابيب الغاز عبر إيران، وميناء بترول «الخَرَجْ»، وهو الأكبر في العالم، ومصانع الصلب في «أصفهان»، ومصنع الألومنيوم في «آراك»، ومجمعا المنتجات الكيماوية في «شيراز» و«عبدان»، وسدًّا «دِز» و«كارون». وحققت الزراعة أيضا قفزة للأمام من خلال زيادة الأراضي التي أمكن ريها عبر هذين السدين. وتظهر عدة أرقام مدى ضخامة هذه القفزة؛ فيما بين ١٩٥٧ و١٩٦٤ بلغ عدد مبيعات الجرارات ألف و١٥٦ جرارا فحسب، بينما تم شراء ثلاثة آلاف جرار سنة ١٩٦٨ وحدها. وبحلول عام ١٩٧٣ كان هناك ٣٠ ألف جرار في مناطقنا الريفية. وفي نفس الوقت تم تشجيع القطاع الخاص حتى صار مزدهرا. وكانت صناعات السيارات والنسيج والكهرباء تتطور بأقصى سرعة لتلبية الطلب الجديد من المواطنين الذين صاروا تدريجيا يكتشفون الراحة والترفيه.

نعم، كان لدى الملك كل الحق في أن يشعر بالرضا والتفاؤل، فقد اقترب من الوفاء بالتعهد الذي بذله للشعب عندما أطلق «ثورته البيضاء» قبل اثني عشر عاما. وتدين إيران بهذا النجاح لشعبها، للرجال والنساء، والعمال، والمهندسين، والباحثين،

وكذلك للمسئولين البارزين السياسيين والمنتخبين البارزين، الذين من أجل توفير حياة أفضل لأبنائهم ناضلوا بأجسادهم وأرواحهم لتطوير البلاد وفتح أبوابها للتقدم في جميع المجالات؛ الصحة، والتعليم، وحياة الأسرة.

وعلى المستوى الثقافي شهدت البلاد انفتاحا ملحوظا، فكان الفنانون الإيرانيون يعملون في جميع أنحاء البلاد، حيث تقام المعارض لرسامينا، وتترجم أعمال شعرائنا، ويحظى مخرجونا السينمائيون بالاعتراف، وينالون جوائز. وعلى الجانب الآخر يلقى الفنانون والأكاديميون الأجانب الترحيب طوال الوقت في المدن الإيرانية الكبرى. وكلما سافرت خارج البلاد ألاحظ هذا التقدير من تجمعات الفنانين والمثقفين أكثر فأكثر. فكنت ألقى ترحيبا وديا من الجامعات وفي الدوائر الفنية، وشعرت بيقين أنهم يريدون من خلالي تكريم فناني إيران المبدعين الشباب. وفي هذا الصدد قدمت فرنسا تكريما خاصا لفنانينا ورغبتنا في الانفتاح على بقية العالم عندما استقبلتني في أكاديمية الفنون الجميلة كعضو من خارج البلاد في ٢٥ يونيو ١٩٧٤.

ولم أنس كلمات الترحيب التي قالها رئيس الأكاديمية: **«عندما يعود المسافرون الذين زاروا إيران وتحدثوا مع حكامها، إلى بلدهم الأصلي، يؤكدون إلى أي حد رائع تساعدين جلالتك زوجك الشاه. ويقولون نفس الشيء بالنسبة للإنجاز الضخم الذي تحقق بشجاعة على يديه ويديك لتحويل إيران إلى دولة عصرية»**.

ورددت: **«أوقن أنكم تأملون في تكريم معاونيَّ، والشعب الإيراني بكامله، من خلالي. لأنه بدون مشاركة المعاونين وتأييد الشعب لم أكن كمسئولة عن التنظيم لأستطيع القيام بالمهمة الصعبة التي كان عليّ أداؤها»**.

ومنذ بداية توسعنا الاقتصادي اقترحت على رئيس الوزراء «هويدا» أن ننتهز هذه الفرصة لإعادة شراء مجموعة مختارة من التحف الإيرانية التي تمثل ماضينا الثقافي. فتحركت الحكومة، وسرعان ما استطعنا، إقامة عدة متاحف من بينها متحف السجاد، ومتحف «نكارستان» لأعمال عصر «القاجار»، ومتحف «رضا عباسي» لتحف عصر ما قبل الإسلام والعصر الإسلامي، ومتحف «خورم آباد» بمجموعته من برونز «لوريستان»، ومتحف «أبكينه» الذي يضم أعمال الخزف والزجاج، ومتحف الفن المعاصر، فضلا عن ثلاثة مراكز ثقافية أنشئت أيضا في ذلك الوقت.

فهل كان الملك باعتباره قائدا لإيران التي تفور بالنشاط، إيران التي وهب لها حياته، مدركا في ذلك الوقت مدى خطورة مرضه؟! لم يكن يبدو قلقا بهذا الشأن، لأنه ترك صيف ١٩٧٤ يمر قبل أن يرد على تشخيص الأطباء الفرنسيين، طالبًا منهم العودة إلى «طهران» في ١٨ سبتمبر ومعاودته. وكنا في الليلة السابقة على ذلك اليوم افتتحنا معا معرض طهران الدولي الثاني، وفي نفس اليوم كان مقررًا سفرنا في رحلة طويلة استثنائية، تستغرق ثلاثة أسابيع في خمس بلدان مختلفة: سنغافورة، وأستراليا، ونيوزيلندا، وإندونيسيا، والهند. وفي يوم ١٨ سبتمبر، كان عليه أن يرى الأطباء في الصباح الباكر، بينما كنت مشغولة بترتيبات اللحظات الأخيرة قبل السفر.

وواصل «جورج فلاندران» في خطابه للبروفيسور «جان برنار»:

«لم نعد طبيبين فرنسيين، وإنما ثلاثة. ولم يعد السر قاصرا على خمسة أشخاص، إنما سبعة.. أم هم ثمانية؟ فبين جلستيّ المشاورات سُمِح للبروفيسور «صفويان»، وهو ـ ضمن أمور أخرى ـ طبيب السيد «علم»، بالاطلاع على السر مما دعا للاطمئنان حيث أضاف لنا حضورا طبيا فوريا عالي المستوى. ولعل «صفويان» لم يرغب أن يكون مسئولا بمفرده عن مثل هذا السر، فرأى من المنطقي أن يبلغ أستاذه الفرنسي، البروفيسور «بول ميلييه» أيضا، وهو ما يجعل العدد سبعة. والثامن، الذي ربما لم يطلع على السر ولكنه عرف السبب في وجودنا هناك، هو شخص قريب من جلالته والسيد «علم»، وهو من كان يستضيفنا في مقر إقامته بالغ الترف في حي «شميران»، خلال كل رحلة من رحلاتنا. وهناك، بعد ثاني الاستشارات في القصر، التقينا جميعا؛ أنت و«بول ميلييه» و«عباس صفويان» وأنا. وأستطيع أن أتذكر سيرنا في الحديقة صباح ذلك اليوم المشمس من أيام الأحد، ونحن نتناقش مطولًا حتى نتفق على الموقف الذي سنتخذه. وأصر «صفويان» على أن يظل كل شيء في أشد درجات الكتمان. وكان يتخوَّف من أن جلالته ربما يقول شيئا من دون تدبر، حيث يبدو أن الملك يتحدث كثيرًا عن مشكلاته الصحية، ويمكن أن يطلع أحدا من حاشيته على السر. ومن الناحية الطبية كان المريض لا يزال في صورة بدنية ممتازة، غير أن طحاله تضخم بدرجة أكبر. وقررنا أن نبدأ فورا بالعلاج التقليدي المناسب، ٦ مليجرامات من «كلورامبيوسيل»، مع الفحص الشهري المعتاد لصورة الدم. وظننَّا أن مهمتنا سوف تنتهي عند ذلك الحد، وأننا لسنا بحاجة إلى الدخول في التفاصيل العملية لتنفيذ هذه

التعليمات البسيطة. ولكن ما حدث فعليا كان مختلفا للغاية، فبعد أن غادرنا بدا أن المريض لم يتلق علاجا سوى لمدة أسبوع فحسب، عندما أمر الجنرال «عيادي» بتحليل صورة الدم. وكان الأسبوع فترة أقصر كثيرًا من أن يجرى بعدها هذا الاختبار، الذي كشف ظاهريا (وهو ما يبدو مثيرا للشك للغاية) عن انخفاض كبير في كريات الدم البيضاء. فحدث هلع، وتم وقف العلاج! ونتيجة لذلك لم نر جلالته للمرة الثالثة إلا في ١٨ يناير ١٩٧٥، وعلمنا وقتها فقط أنه لم يتلق علاجا!

وجرت هذه الاستشارة الثالثة مرة أخرى في حضور نفس الأطباء؛ «عيادي» و«صفويان» و«ميلييه» وأنت وأنا، ولكن هذه المرة في «زيوريخ». فقد تصادف أن كان جلالته في أوروبا ذلك الوقت، بعدما مارس التزلج في «سان موريتز»، التي كان يزورها بانتظام. كنا نقيم في فندق «بور أولاك» في «زيوريخ» وذهبنا لرؤية المريض في فندق جراند دولدر. وكنت طرحت استفسارات مسبقة عن المعدات التي سأجدها هناك، وعرفت أن ميكروسكوب «طهران» ليس بين الأمتعة. ومن ثم غادرت باريس ومعي ميكروسكوب «كارل زيس» صغير، نسخة من الموجود لديَّ في «طهران»، ووضعته مفككا في حقيبة كتفي. كان الشاه يبدو سليمًا بدنيًّا، سليمًا جدًّا في الواقع، لأنني جعلته يخبرني عن عدد المرات التي يسير فيها يوميا في طريق «ديافوليتزا». ولأنني شخصيا أمارس التزلج أعجبت ببطولته، لكنني كنت جزعا، عندما تخيلت ما يمكن أن تسببه سقطة خاطئة، بعدما أصبح طحاله ضخما. واكتشفنا في الواقع أن العلاج الذي وصفناه لم يطبق، فقد تضخم الطحال، وصار من الممكن رؤيته بوضوح كورم في أعلى يسار البطن. وكان ينبغي إعطاء العلاج ووصف «الكلورامبيوسيل» مرة أخرى. وعلى الجانب الإيراني الذي يجب أن يكون مسئولا عن مراقبة المريض، كان الطريق مسدودا تماما بواسطة كل من «عيادي» و«صفويان». وشرحا لنا أنه ليس من الممكن إجراء صورة الدم بانتظام وكما ينبغي، وفي نفس الوقت يبقى الأمر كله سرا. وحاولت أن أقنع «صفويان» أن يجد خالة عجوزًا أو ابن عم مزيفًا ليوفر هوية مختلقة، فأخبرني أن ذلك مستحيل وسرعان ما سيُكتشف. ولا بد أنه كان يعرف ما يقول، ولم تشجعنا المحاولة البائسة غير المنسقة التي تُرِكت للجنرال «عيادي» على تكرارها. وكانت تلك هي اللحظة التي أَحْكَم فيها القدر الطوق من حولي. وتحولت جميع الأعين نحوي، وأصبحتُ في تلك الأعين «الرجل المناسب للمهمة». كان الأمر

بهذه البساطة... وكان كل شيء بسيطا بالفعل في المرة الأولى، وبدا من الصعب عدم الموافقة، عليَّ فقط العودة إلى «زيوريخ» لإجراء هذا الاختبار، حيث إن جلالته سيظل شهرا آخر في سويسرا... وبعد ذلك سوف نرى! وذلك ما فعلته، وهذا ما رأيناه، فبعد أن اتخذنا الخطوة الأولى لهذا العد للدم في «زيوريخ»، دفعتني النتيجة المنطقية لأن أذهب سريعا إلى «طهران» في ١٩ فبراير ١٩٧٥، و١٨ مارس١٩٧٥، و١٩ أبريل ١٩٧٥، و٢٠ مايو ١٩٧٥، و٢٠ يونيو ١٩٧٥، و٧ أغسطس ١٩٧٥، و١٣ سبتمبر ١٩٧٥، وأول نوفمبر ١٩٧٥، و١٤ ديسمبر ١٩٧٥ وهلم جرا. وأصبحت زائرا دائم التردد على مطاري «رواسي» و«مهرآباد» في صباح أيام السبت كل شهر تقريبا، أحيانا معك وأحيانا بمفردي حتى آخر زيارة لي في نهاية ديسمبر ١٩٧٨. وفي كل مرة تجرى نفس الإجراءات. الاجتماع الإداري الذي ترأسه أنت صباح السبت من الساعة التاسعة وحتى العاشرة والنصف، وتمر أنت على أحد الأجنحة بالمستشفى، وأمر أنا على المعمل، ثم فرار سريع معك أو بمفردي عند الظهر تقريبا بالسيارة أو بالتاكسي إلى مطار «رواسي»، وعادة ما نستقل الخطوط الجوية الفرنسية، رحلة «باريس ـ مانيلا» عبر «طهران»، الدرجة الأولى، الصف الأول إذا أمكن حتى لا نكون واضحين جدًّا للعيان، والنافذة اليسرى إذا أمكن لمشاهدة البوسفور والقرن الذهبي. والوصول إلى «طهران» ليلا عادة، والهبوط من الطائرة لنجد نفس السيارات ذات الأضواء الكاشفة أسفل سلمها، ونفس المصافحات، ونفس الوجوه المبتسمة المجهولة، ونفس فناجين الشاي في صالة كبار الزوار انتظارا لختم جوازيّ السفر، ومن هناك سيارة ذات سائق صامت، يتم تغييرها أحيانا في الطريق، والوصول إلى نفس المنزل، ووجبة إيرانية شهية، وخدم من الذكور من دون أي كلام أو موسيقى، وصعوبة في النوم بسبب كل ذلك الشاي في المطار، ثم المغادرة عند فجر الأحد إلى القصر. ورحلة عودة سريعة إلى المنزل، وانتظار طويل، والقراءة أو ضجر لا ينتهي يوم الأحد، كما لو كان من غير الحكمة أن يرانا أحد بالخارج، والعودة ليل الأحد، ثم مواصلة العمل في «سان لوي» صباح الاثنين.

وفي القصر كانت اللقاءات قصيرة غالبا، فبمجرد إجراء الفحوص البيولوجية وتسليم النتائج للجنرال «عيادي» ننتظر حتى يتم إبلاغ المريض. وعادة لم يكن يُطَلب منا مقابلته مرة أخرى للتعليق على النتائج. وفيما بين يناير ١٩٧٥ وديسمبر

١٩٧٥، كانت التطورات الحيوية جيدة على نحو ملحوظ. فالطحال عاد إلى حدوده التشريحية العادية، وتم تصحيح التفاوتات في صورة الدم، واختفت أيضا من الدم الزيادة في البروتين المناعي. وعلى الرغم من هذا التحسن استمر العلاج بنفس كمية الجرعة وعدد مرات تناوله، كما يتم عادة في هذه الأحوال. وفي فبراير ١٩٧٦، ذهبت بمفردي لفحص جلالته، وكان يقضي عطلة شتوية في منتجع للتزلج شمال «طهران». وأنا أذكره وهو يراني أنظر من نافذة غرفة نومه، ثم يسألني عما إذا كنت أريد الذهاب للتزلج، عارضا أن يعيرني ما أحتاجه. كان ذلك كريما للغاية لكنه لم يكن حكيما للغاية، ورفضت عرضه في أدب. وبدا متبسطا بوجه خاص ذاك اليوم، وهو الحال غالبًا عندما أكون بمفردي. أعتقد أنه كان يتهيبك، أو أنه على الأقل كان يبدي مع شخصية مهمة مثلك تحفظا شبه رسمي، تخلى عنه تدريجيا معي بمرور الوقت. فعندما لا تكون موجودًا كان يمزح معي قليلا، وخلال ١٩٧٥ عندما عرف أنني اجتزت الامتحان لدرجة أستاذ شامل حياني بابتسامة ساخرة قائلا لي: «حسنا، الآن ينبغي أن أدعوك بروفيسور!»، وربما كان يجد متعة في الصعوبات والتعثرات التي تواجهني مع البروتوكول واستخدام ضمير الغائب.

ومع ذلك، ففي ذلك اليوم من فبراير ١٩٧٦ واجهت مفاجأة غير سارة عندما تحسست طحاله مرة أخرى، ورأيت كريات غير عادية في دمه، بينما كان يفترض أنه يواصل تلقي العلاج. ودفعني ذلك للتفكير في أن المرض ربما نشط، وسوف يحتاج بالفعل علاجا أقوى. غير أن ذلك كان مجرد تحذير كاذب. وهذا ما حدث؛ كنا قد قررنا عدم استخدام الاسم «كلورامبيوسيل»، وهي ربما أفضل طريقة لدفع اللعبة إلى الأمام، فمن الممكن معرفة تشخيص حالة متلقي المنتج، أو على الأقل إدراكها بالتقريب، من مجرد وجود هذا الدواء. واقترح السيد «ميلييه» إحلال دواء مُجاز لا ضرر منه، وهو «كينرسيل» الذي يباع في صورة أقراص بيضاء تشبه كثيرا «كلورامبيوسيل». وكنتُ أنا وحدي من يجلب هذا الدواء، واشتريت العقارين في باريس، ووضعت «كلورامبيوسيل» في علب «كينرسيل» المسافرة إلى «طهران». واتفقنا أيضا أن نضع كلمة «كينرسيل» محل كلمة «كلورامبيوسيل» في تقاريرنا. وسارت خطتنا على مايرام، ولكن صار لها في نفس الوقت أثر معاكس. فقد فكر خادم جلالته الخاص الوفي أن سيده ربما يقوم ذات يوم برحلة طويلة إلى أماكن بعيدة، وأخذ احتياطه

الذي يستحق الثناء، بتخزين كمية من الدواء الذي يناوله لسيده يوميا. ومن ثم اشترى مئونة من الدواء المزيف (كينرسيل) وظل المريض لمدة شهرين يستخدم «كينرسيل» الحقيقي، وبذلك انقطع علاجه الفعال، من دون أن يدرك هو أو نحن الأمر. وعندما شاهد «صفويان» دهشتنا إزاء هذا النشاط المبكر للمرض، أجرى استفسارات دقيقة، وبعد أن تحدث إلى الخادم الخاص، فهم الخطأ الذي وقع. وبدأ العلاج الحقيقي مرة أخرى في أبريل ١٩٧٦، وأعيدت صورة الدم إلى حالتها الطبيعية.

وفي نهاية الأمر كان لهذه «الثغرة العلاجية» غير المقصودة تأثير مفيد وإن لم يكن متعمدا بالنسبة للعلاج في المستقبل. فلم يكن جلالته مقتنعًا بأن برنامج العلاج الذي وصفناه له أي تأثير حقيقي، حتى أظهرت هذه التجربة ضرورة استمرار العلاج بهذا الدواء. فقد كان لديه رؤيته الخاصة بشأن حالته الصحية، وبالتحديد بشأن حجم طحاله حيث ظن أنه يستطيع أن يكشف زيادة حجمه ونقصه ثم معاودته البروز مرة أخرى من الإحساس الزائف الذي يشعر به عندما يتحسس نفسه. واعتقد أن هذه التفاوتات المفترضة تحدث بمعزل عن علاجنا، وهو ما أثار بعض المجادلات الحادة أحيانا. وذات مرة اضطررت لأن أقول له: «مولاي، فيما يتعلق بالطحال أنا الوحيد ذو السلطة!» فضحك، ولكن بدا أنه يتمسك برأيه. والأهم أن المبرر كان أن برنامجنا العلاجي بدا ضعيفًا، فهو مجرد ثلاثة أقراص صغيرة، تؤخذ بدون أعراض جانبية، وهو ما لم يبد بالنسبة له قادرا على إحداث أي قوة علاجية. ووفقا للجنرال «عيادي»، وهو متعهد كبير لجلب مجموعة متنوعة من العقاقير، فإن المريض اعتاد طوال حياته تناول أدوية مختلفة يصفها أو يوصي بها أشخاص، سواء كانوا أطباء أم لا، وخلال حياته لجأ مرة أو مرتين إلى طريق المشعوذين الذين أمدوه، سواء لأغراض شريفة أو غير شريفة، بأقراص مختلفة. وبالتالي لم تحدث ثلاثة أقراص صغيرة أخرى انطباعا جيدا لديه. وتم شرح خطأ استبدال العلاج الحقيقي بالعلاج الخاطئ له، وبدأ مرة أخرى العلاج الصحيح. وظهر تأثيره الإيجابي بصورة أوضح عليه لأن الانتكاسة كان يصاحبها إرهاق، وصاحب تخفيف الحالة إحساس متجدد بالارتياح. وتقبل تفكيره المنطقي هذا الإثبات، ومنذ هذا الحدث كان جلالته يلتزم تماما بالنصيحة التي نسديها له كلما وجدنا الفرصة».

وعلى الرغم من أنني لم أكن أعرف شيئا عن مرض الملك، لاحظت عرضا أقلقني

مع بداية ١٩٧٦، عرضا له علاقة بانقطاعه عن تناول «كلورامبيوسيل»، كما عرفت فيما بعد عندما قرأت خطابات بروفيسور «فلاندران» ـ فذات صباح لاحظت أن شفة زوجي العليا منتفخة بصورة غير طبيعية. وعندما استشرت جنرال «عيادي» شخَّصَ الحالة على أنها حساسية، وطمأنني ذلك. وكان الملك قد أصيب وهو طفل بالحمى التيفودية والملاريا، وهو ما ترك لديه كبدا بالغ الحساسية. فكان يتحسس من أشياء معينة، خاصة السمك. ثم عادت جميع الأمور إلى طبيعتها، وتوقفت فورا عن القلق.

وفي الحقيقة أدت آثار التنمية السريعة في منتصف السبعينيات، والعدد المتزايد على نحو بالغ من المشروعات، إلى طغيان أنشطتنا على حياتنا العائلية، حتى أنها حرمتنا من الوقت الذي اعتدنا أن نمضيه معا. كنا نشعر كلانا بالتأثر لعدم رؤية الأطفال فترات كافية، وعندما نتناول عشاءنا وحدنا، فمازال هناك مشروعات فات موعد الانتهاء منها وينبغي إنجازها، أو خطاب شكوى مرسل إليَّ، يؤكد حقيقة أنه على الرغم من معدلات التقدم المتزايد صارت التوقعات ملحة أكثر فأكثر.

والمفارقة أن خلال هاتين السنتين بالذات ١٩٧٥-١٩٧٦ بدأت دمدمات الاستياء تدوي في أنحاء البلاد، وكنت شخصيا على علم بها من النتائج التي ظهرت في مسح اقتصادي واجتماعي أمر الملك مجموعة من الأكاديميين بإجرائه. وكان رئيس مجموعة المسح «هوشانج نهاوندي» الأستاذ بجامعة «طهران»، والذي سيصبح لاحقا رئيس سكرتاريتي. واستغرق البحث الذي أجروه عدة شهور في المحافظات والضواحي، وأظهرت الصورة التي رسموها لما يفكر فيه الإيرانيون تناقضا واضحا مع جميع الإنجازات الإيجابية التي تحققت. وقال الناس إنهم واعون حقا بأن ظروف حياتهم تحسنت على مدى جيل واحد، لكنهم تحدثوا أكثر عن خيبات الأمل أوالإحباطات التي جلبتها لهم تلك القفزة إلى الأمام.

وكان الفساد الذي اشتبهوا بممارسة الطبقة الحاكمة الجديدة به جانبا كبيرا من سبب هذا الاستياء أو التشاؤم. وزعموا أنه تفشى حتى بين حاشيتنا. وكنت سمعت بالفعل عن أشياء معينة، وتحدثت مع الملك عنها دائما. وشعرت أن هذه الشائعات أضرت بنا بصورة كبيرة. فلم يكن أي منا ـ زوجي أو أنا ـ لديه أي اهتمام بالمال، وأعرف أنه في كل مرة يُبلَّغ الملك بحالة اختلاس محتملة، خاصة في التعاقدات، يفعل اللازم لإقرار العدالة. ورأينا أن البلاط الملكي قدم المثل على النزاهة الكاملة،

فعلى سبيل المثال عدم التهرب من الضرائب بحجة أن يكون الشخص وزيرا أو أخا للملك، والتوقف عند الإشارة الحمراء مثل أي مواطن آخر. ولم يكن الاتهام بالفساد جديدا، ففي ١٩٥٨ اضطر الملك لإصدار مرسوم بمجموعة من القرارات لوقف الفساد، سواء الفعلي أو المزعوم، من أجل استعادة الهدوء. وأظهر المسح الذي قاده «هوشانج نهاوندي» بأمر من الملك أن كل إصلاح تسبب في احتجاجات جديدة، وأثار هذه الفئة الاجتماعية أو تلك ضد الحكم الملكي. فالإصلاح الزراعي أغضب عددا من كبار ملاك الأراضي، الذين شعروا منذ ذلك الحين بعداء متزايد نحو الملك. وعلى الطرف الآخر ظن بعض صغار المزارعين أن القانون كان ينبغي أن يكون أكثر سخاءً معهم. كما أدى نفس قانون الإصلاح الزراعي إلى إثارة عداء جانب كبير من رجال الدين لفترة طويلة قادمة، بسبب إعادة توزيع جزء من الأراضي التي كانوا يملكونها. ولم يثر تحرير المرأة والانفتاح على الثقافات الأخرى سوى عداء الملالي. وفي نفس الوقت طالب الشباب، وهم المستفيدون الرئيسيون من هذا الانفتاح، بالمزيد من حرية الاعتقاد والتعبير ـ وهو ما يسبب سخطا عظيما لدى رجال الدين المحافظين عندنا ـ وكان أكثر معارضي النظام الملكي عنفا هم بالتحديد هؤلاء الشباب، الذين حصلوا على منح قدمتها لهم الدولة للدراسة في الولايات المتحدة أو أوروبا. وأخيرا الحزب الشيوعي واليسار المتطرف، داخل وخارج الدولة، الذي واصل تجنيد الشباب المثاليين أو المتعصبين الذين يريدون الإطاحة بالنظام، وإقامة ديكتاتورية شعبية على المثال السوفييتي أو الصيني.

وكان ينبغي أن يلقى هذا التقرير اهتمام الحكومة، فمن شأنه أن ينبههم إلى حالة الاستياء. وقد سلمه الملك للحكومة، التي لم تأخذه على محمل الجد بما يكفي. والحقيقة أن العديد من التقارير استقرت على مكاتب عدد من الوزراء المعنيين.

وعلى أي حال كنت أيضا مدركة لقدر من الضيق، فكلما قمت بجولات أو زرت منشآت، ألقى دائما نفس دفء الترحيب، لكنني استشعرت أن الأمور لا تسير على ما يرام. فمازال الناس يجيئون إليَّ، كما هو الحال دائما، لكنهم يركزون على الأمور السلبية أكثر من الإيجابية. ونقلت إلى الملك ما استمعت إليه. وكثيرا ما فكرت في أن كل ما أنقله إليه صار شكاوى. فهو يبذل جهدا هائلا في عمله، وعندما نلتقي في المساء يكون متعبا، وعندها لا يكون معي له سوى أخبار سيئة. ولمَّا بدا أن أيًّا من حاشيتي أو أعضاء الحكومة لا يشاركني تشاؤمي، ظننت في النهاية أنني أبالغ كثيرا

أو أنني مثالية. فالأعمال المعقدة التي تتولاها الحكومة لا يمكن إنجازها بدرجة الكمال، ولا شك أن المرء عليه أن يقبل درجة معينة من عدم الكمال.

وفي ذلك الوقت كان «أمير عباس هويدا» رئيسا للوزراء منذ عشر سنوات حيث عُيِّن في ١٩٦٥ . ويتمتع بثقة الملك المطلقة وصداقته أيضا. وبالنسبة لي كانت علاقاتي معه على نفس القدر من الثقة والصداقة. فلم يرفض أبدًا مشاركة الحكومة في المنظمات الاجتماعية والثقافية التي رأستها. وفي المقابل حرصت على إبلاغه بما كنا نفعله. وبمرور السنوات صار السيد «هويدا» وزوجته جزءا من دائرة أصدقائنا القريبين الضيقة. وأحببنا الذهاب إلى منزلهما، وأحيانا نذهب إلى فيلتهما على بحر قزوين للزيارة أو لتناول العشاء. وكان السيد «هويدا» ينتمي إلى خلفية اجتماعية متواضعة، وهو ذكي ومثقف، لكنه لا يحب الزهو والمباهاة (لم يكن لديه سائق، وكان يقود سيارة إيرانية)، وكان يمتلك جميع الكفاءات الضرورية ليصبح رئيسا ممتازا للحكومة؛ قدرة عظيمة في جميع المجالات، سواء الاقتصادية أو الدبلوماسية، بالإضافة إلى قرب طبيعي إلى الشعب، ونزاهة شخصية عظيمة. وكان من القليلين الذين يصغي الملك إليهم بنفس الطريقة التي يصغي بها إلى السيد «علم»، ومن ثم كان من الممكن أن يساعد في كسر القيود المفروضة على الملك، مثله مثل معظم الحكام ورؤساء الدول. والأمر الغريب للغاية أن السيد «هويدا» اختار بدلا من ذلك الأسلوب العكسي، فكان يميل إلى التخفيف من الأمور حتى يستطيع أن يقدم للملك باستمرار بيانا مطمئنا عن حالة البلاد. فهل هوَّن من شأن الاستياء؟! لاشك. وقد حرمتنا وفاته المأساوية من التعرف اليوم على منظور مهم.

وبعد فوات الأوان يمكن للمرء أن يرى قوة تأثير تداعيات النشوة التي صاحبت ارتفاع سعر البترول الخام عام ١٩٧٤ على إيران. ومنذ ١٩٧٥ تدهور الموقف، وصار ينبغي تخفيض توقعاتنا، التي كانت تبدو مستبشرة للغاية. فمن ناحية، خفضت الدول المشترية للبترول ـ الغرب واليابان ـ وارداتها منه لصالح مصادر طاقة أقل ثمنا. ومن الناحية الأخرى ارتفعت أسعار المنتجات الصناعية والغذائية التي تستوردها إيران من الغرب بصورة كبيرة، مع انفلات التضخم في تلك البلدان. وانخفض دخلنا بينما ظلت نفقاتنا في تزايد. وتحت هذه الظروف تعيَّن تأجيل الكثير من التعهدات والوعود الحكومية الطيبة أو حتى إلغاءها، وتسرب تدريجيا شعور بخيبة الأمل إلى جميع مستويات السكان.

ولم يكن لدينا رؤية واضحة عن هذا السخط وقتها، وحتى لو كان لدى الملك أي مخاوف بشأنه، فقد تأثرنا بتفاؤل بعض الأشخاص المحيطين بنا. ومع ذلك لابد أن الاستياء كان ملحوظا، لأنني تفاجأت بزيادة عدد رجال الأمن حولنا عندما نسافر إلى المحافظات. وكما وصفت من قبل كان رجال الأمن يتدخلون دائما في طريقة اتصالي المباشر بالناس، لكن الحرس تعلم مع الوقت أن يكون أكثر تكيُّفًا.

وفي ٢١ مارس ١٩٧٦، احتفلنا بالعيد الخمسين على قيام أسرة «بهلوي» الملكية. وفي ذلك اليوم بالتحديد شعرت أن شيئا تغيَّر بين الشعب والحكم الملكي؛ شعرت بذلك داخل عظامي كرياح جليدية مفاجئة. بدا لي أن هناك ظلا غامضا يخيم على الانسجام والثقة بيننا. ومع ذلك أعاد زوجي تكرار إخلاصه لشعب إيران عند قبر «رضا شاه»؛ ثم قال هذه الكلمات التي تملؤني اليوم بحزن لا حدود له: «**خرجنا من هذا الشعب، وولدنا على أرض إيران المقدسة، وسندفن في هذه الأرض**».

فهل كان لهذه الإشارة غير المتوقعة إلى موته علاقة بالمرض الذي يخفيه عني؟!

وفي اليوم التالي ذهبنا إلى جزيرة «كيش» لقضاء بضعة أيام من الراحة، وأظن أن تورم شفته الذي أقلقني لفترة وجيزة حدث هناك.

وعندما أرجع بذاكرتي للوراء أرى أنه اتخذ قرارا في الشهور التالية بدا أنه يوضح القلق الذي كان لديه وقتها، فقد بدأ يوجهني ومعي ابننا الأكبر «رضا» في شئون البلاد. ويأخذني و«رضا» عدة مرات أسبوعيا للتباحث مع رئيس الوزراء، ثم مع كل من الوزراء المعنيين في الشئون الجارية. واستقبلنا أيضا قادة القوات العسكرية، وممثلي مؤسسات مختلفة، وخاصة ممثلي البرلمان. وجدت الموقف صعبا وحساسًا. لأنني لم أتخيل لثانية واحدة أنني سأخلفه ذات يوم، غير أنه كان من الواضح أن عليَّ أن آخذ هذا «التدريب» على محمل الجد، وأسأله كما لو كان سيموت.

وبينما أكتب هذه السطور أتذكر أن الملك اتخذ بالفعل خطوة في هذا الاتجاه قبل ذلك بثلاث سنوات. ففي ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣، وفقا لما هو مدون بأرشيفي، استدعى رئيس الوزراء، وأعضاء البرلمان، وقادة القوات المسلحة إلى القصر ليلقي عليهم، في حضوري، نوعا من الوصية أو الشهادة السياسية.

وهذه خلاصة ما قاله لهم: «**من الممكن أن أموت في أي وقت. فإذا حدث ذلك**

ولم يكن ولي العهد قد بلغ السن القانونية ليخلفني، تؤول السلطة إلى الملكة ومجلس الوصاية. ويجب أن تظل القوات المسلحة موالية للملكة ثم الملك الشاب لاحقا. ويمكن أن تصدر الأوامر من امرأة أو شاب، وينبغي إطاعتها. فأمننا وحياتنا يعتمدان على ذلك». واليوم، وبفضل رواية بروفيسور «فلاندران»، يمكن رؤية هذه المبادرة الأولى في ضوء جديد وخطير، فالملك ربما كان قد عرف لتوه أنه يعاني من مرض متلازمة «والدنستروم».

وأقلقني أحيانًا احتمال أن أصبح وصية على العرش: «**أتمنى على الله الكريم ألا يشاء ذلك، ولكن إذا حدث لك شيء ما الذي يجب أن أفعله؟ ما أول شيء ينبغي أن أقوم به؟**».

فابتسم ابتسامته غير المحسوسة قائلا: «**سوف تتدبرين الأمر جيدا**».

وابتسمت أيضا. كنت موقنة أن ذلك لن يحدث أبدًا. فهو مازال شابا، و«رضا» ليس بعيدا عن عيد ميلاده العشرين، وهو شرط سن تولي العرش.

وكان إبلاغي بمرض الملك موضع نقاشات مطولة بين الأطباء الذين لم يقرروا ذلك إلا لمصلحة المريض.

ويتذكر بروفيسور «جورج فلاندران»:

«كان «صفويان» في ذلك الوقت ـ بخلاف السيد «علم» وجنرال «عيادي» ـ الإيراني الوحيد الذي يمكن أن نبحث معه موضوع السرية المفروضة بكامله. فمثل هذه السرية كانت حملًا ثقيلا عليه أكثر منها بالنسبة لنا، لأنه بدا واضحا له أنه سيتعرض للوم ذات يوم، من عائلة المريض على الأقل، لأنه لم يطلع أحدًا على الحقائق التي يعرف أن لها عواقبها السياسية. وبعد أن بحثنا هذا الأمر مرات عديدة، بدا إبلاغ زوجة المريض منطقيا. ولقي ذلك بعض الاعتراضات، ولكننا اتخذنا هذا القرار. وقبل التحدث إلى جلالة الملكة، التي لا تعلم شيئا عن الأمر، قمنا ببعض المحاولات لإقناع جلالته حتى يتحدث مع زوجته عن حالته الصحية، ولكن في كل مرة يتحاشى جلالته الموضوع. وربما كنا نتخذ قرارا مثيرا للجدل هناك، لأن السرية الطبية يجب أن تطبق حتى على أقرب أقارب المريض، وهي زوجته في هذه الحالة. ولكن ما دفعنا لذلك أننا شعرنا أنه لصالح صحته. وأوضحت لنا الأحداث التالية ضرورة أن تتولى جلالة

الملكة المسئولية عن مشكلة زوجها الصحية، وبوجه خاص في بداية فترة منفاهم، مادامت قادرة على ذلك. ولخشيتنا من تدهور متوقع في المرض أردنا إبلاغ زوجته، حتى تصبح مستعدة معنويا ونفسيا لما سيحدث بلا ريب ذات يوم. وهكذا كان أمامنا رسالة يصعب إبلاغها بها، والأكثر من ذلك ينبغي أن يتم في سرية مطلقة وإذا جاز لي أن أتحدث بجرأة من خلف ظهر المريض، وحرسه السري، وعائلاتنا، وأصدقائنا، ناهيك عن أعدائنا، وأي شخص آخر قد يكون فضوليا بطبيعته. وكان تفاقم الوضع هـو الحقيقة التي لم نستطع معها الحديث عن قرارنا مع جلالته أو مع السيد «علم»، الذي ييسر لنا الأمور عادة، والذي لم نستطع أن نطلب منه هذه المرة أن يفتح لنا الأبواب.

وكان علينا أنا و«عباس صفويان» إعداد سيناريو للقاء غريب للغاية وسري للغاية. واختيرت باريس باعتبارها المكان الوحيد الممكن، وتم رفض «طهران»، لأنه لا أمل في السرية هناك ما لم يرتب «علم» اللقاء. ومن ثم، ظللت غير مطمئن بشأن ظروف هذا اللقاء. وأوقن أنك تذكر كيف كانت تلك الفترة مشحونة بالانفعال. كنا هناك نحن الأربعة أنت والسيد «ميلييه» و«صفويان» وأنا. وكانت الظروف المعدَّة لهذا اللقاء غير عادية، وظلت جلالة الملكة لا تعلم بدقة سبب حرصنا الشديد على مقابلتها، والسبب في هذه السرية الشديدة. وكان «صفويان»، الذي يعمل الآن رئيسا للجامعة، يلتقي بها من أجل أمور جامعية، وأقنعها بمدى أهمية هذا الاجتماع. وربما تتذكر هذه المحادثة الأولى مع جلالة الملكة، لأنك من نقلت المعلومة التي كان علينا نقلها، وتلاك السيد «ميلييه»، ولم أتفوه أنا إلا ببضعة تعليقات، عندما سئلت عن نقاط دقيقة محددة بشأن التحاليل الطبية. وكان الأمر صعبا عليها. فزوجها الذي يبدو سليمًا صحيًّا، يعاني مرضا مزمنا وخطيرا في الدم. وعلاوة على ذلك إنه يعلم ذلك ولا يرغب في أن يقول شيئا عنه. وكان ينبغي عليها تَفَهُّم كل ذلك، إن لم يكن تقبله، في مثل هذا الوقت القصير، ثم الاحتفاظ به لنفسها. غير أن الأصعب من ذلك كيف ستخبر زوجها أنها تعلم الآن كل شيء؟ وكان السبيل الوحيد أمامها أن تحصل على تصريح بعقد «اجتماع رسمي» مع الأطباء الفرنسيين، من دون أن تضطر للقول إنها قابلتهم سرا بالفعل. وأخيرا حصلت على تصريح، وعندما ذهبنا إلى «طهران» في المرة التالية، دعينا بعلم الملك إلى لقاء مع الملكة. وهكذا اطلع شخص جديد على

السر، وظلت دائرة الأشخاص الذين يعرفونه كما هي، حتى حدث تدهور المرض في جزر «البهاما»، وبصورة خاصة في المكسيك، قبل مغادرته إلى نيويورك».

وعودة إلى «طهران» في شهر يونيو من عام ١٩٧٧، كيف جعلت الملك يخبرني عن مرضه؟ لقد تحدث إليَّ عنه بتعبيرات مخففة للغاية، قائلا: إن لديه مشكلة مع صفائح الدم والكريات الحمراء، وإن العلاج الذي يتناوله صحح الخلل. وفي الشهور التي تلت ذلك، وعندما لم تعد هناك سرية بيننا، لم يتردد في أن يشير إلى مرضه. لكنه يفعل ذلك على نحو عارض، وهو ما جعلني أعتقد أنه لا يعرف خطورة المرض، أو أنه يعرف لكنه أراد أن يحميني من معرفته. وكان يتحسس طحاله في وجودي، معلقًا: «**يبدو أنه منتفخ قليلا اليوم، أخبريني ماذا ترين؟**» فكنت أجرب بنفسي وأقول: «**نعم، قليلا**» أو: «**لا، إنه أفضل من الأمس**». لكن محادثاتنا لم تتطرق أبدا لأكثر من تبادل هذه التعبيرات السطحية، نظرا لأنه كان مُفْتَرَضا أنني لا أعلم أكثر مما أراد أن يخبرني به، مجرد خلل وظيفي في تركيب الدم. ومن ثم كان الأمر صعبا للغاية بالنسبة لي وداعيا للحزن: «**عليَّ أن أتحمل هذا القلق المحطم للقلب وحدي، شاعرة بإحساس مروِّع لعجزي عن مساعدته**». وأفكر في نفسي: «**لو أطلَعني على كل شيء لاستطعنا أن نتحدث عنه بصراحة، فلا يضطر أن يتحمل هذا العبء بمفرده، ولاستطعت أن أساعده، وأمنحه بعض طاقتي**».

أنا أكتب هذا، لكنني مازلت لا أعرف حتى اليوم إلى أي مدى كان واعيا بمرضه في ذلك النصف الثاني من ١٩٧٧ وخلال ١٩٧٨. فخلال هذه الفترة طلب الأطباء الفرنسيون مقابلة ثانية معي، **هذه المرة** في قصر «نياوران». وأخبروني أنهم رأوا ضرورة إبلاغه بمدى خطورة مرضه، ولمَّا أبديت نوعا من الدهشة، معتقدة أن الملك كان يعلم بالفعل كل شيء عن هذا الأمر، **اعترفوا لي أنهم لم يذكروا له أبدا كلمة «سرطان»، وإنما مجرد مرض متلازمة «والدنستروم» أو تضخم الغدد الليمفاوية، وهو التعبير الغامض الذي يستخدمه الأطباء غالبا مع الأشخاص من خارج الوسط الطبي.**

فإذا كنت فهمت **ما قالوه** ـ على نحو صحيح ـ فأنا **أعرف** فعليا الآن أكثر مما يعرفه زوجي. ووضع ذلك على كتفيَّ مسئولية أخلاقية وسياسية، فقلت لهم إن عليهم إبلاغ الملك بحقيقة حالته الصحية دون إبطاء. وأكدت لهم: «**لديه القوة والشجاعة لسماع ذلك. ومسئولياته تحتم أن يكون لديه صورة واضحة عن حالته الصحية**».

وأضفت: «**إنني أرى أنه سيكون أسهل عليه أن يتكيف مع هذه الصدمة اليوم، وهو يشعر بصحة جيدة، منه عندما تذبل صحته**». وفي نهاية هذه المحادثة أكد لي الأطباء أنهم سيحاولون التحدث إليه، ولكن بعد بضع ساعات أبلغوني أنهم مرة أخرى لم يستخدموا اللفظ «سرطان» عندما تحدثوا إليه.

فهل من الممكن أن الملك لم يفهم؟! أشك في أن رجلا بذكائه كان دائما حريصا على صحته لم يستطع أن يكوِّن صورة واضحة من البداية عن المأساة التي تنتظره. وما قاله للرئيس «جيسكار ديستان»، الذي قابله في «سان موريتز» شتاء ١٩٧٥، يؤكد شعوري، فعندما أبدى الرئيس الفرنسي دهشته للنمو السريع الذي تشهده إيران، أسرَّ له زوجي من دون توضيح:

«**مشكلتي أنه ليس لدي وقت كاف. لن أبقى في الحكم طويلا. وأعتزم الرحيل خلال سبع أو ثماني سنوات. سأكون قد تخطيت الستين. وكنت أفضل أن أغادر قبل ذلك، لكن ابني مازال صغيرا جدًّا. سأنتظر حتى يصبح مستعدًّا، لكنني أفضل أن تكون الأمور الأساسية جاهزة قبل أن يتولى الأمر. سوف يواجه الكثير من المصاعب في البداية. وسيكون عليَّ أن أحقق التحوُّل في إيران. وأنا مصمم على ذلك**».

واستطاع دائما أن يتفادى إعطائي الانطباع أنه عرف أمر صحته، لذلك لم أتوقف حتى اليوم عن التساؤل إلى أي حد كان يعرف.وكان الأطباء أنفسهم مترددين، كما يوضح بروفيسور «فلاندران» في رسالته الطويلة إلى «جان برنار»، وهو يصف الاجتماع الذي أرادوا فيه إبلاغ الملك:

«**في نفس الصباح الذي حاولت أن تدير دفة الحديث إلى مرضه، وإلى مساره المحتمل، مع مراعاة كل الاحتياطات، والاختلافات البسيطة فيما يجب أن يقال للمريض ـ أبدى الملك تعليقا يستبعد تماما، في رأيي، افتراض أنه لم يفهم ما أردنا إبلاغه به. فوقتها كان ابنه الأكبر في الأكاديمية الأمريكية للقوات الجوية. وقال: «أطلب منكم فقط أن تساعدوني في الحفاظ على صحتي لمدة عامين، وهي فترة كافية حتى ينهي ولي العهد سنة في الولايات المتحدة ويقضي سنة أخرى في طهران**».

ومع ذلك، فبعد فترة طويلة كنت مع فخامة «علم» في منطقة «بيرجاند»، الواقعة في الجبال شرق إيران، وتحدث كثيرا عن نفسه وعن الملك. وفيما يتعلق بشخصية سيده

وصف بعض السمات المتناقضة التي كانت جميعها حقيقية بلا شك. فعلى سبيل المثال، قال لي ذات يوم: من الغريب أن هذا الرجل الذي صعد إلى مثل هذه السلطة يمكن أن يظل ساذجا في بعض النواحي حتى أنه يصدق ما يقوله له الناس. ومن ناحية أخرى أخبرني أيضا: «إن الملك الذي اعتاد على القيام بدوره منذ طفولته، لديه قدرة مدهشة على أن يخفي تماما ما يفكر فيه وما يعرفه». وقال لي: إنه كثيرا ما يشهد دليلا على ذلك عندما يأتي لإبلاغ الملك معلومة يعرف «علم» أن الملك سمعها من قبل. وكان الملك قادرا على عدم إظهار أدنى لمحة عن ذلك. ولهذا كنت دائما أرى أننا لا يمكن أن نعتمد على انطباعاتنا لمعرفة ما إذا كان الملك فَهِم بالفعل ما نخبره به عن صحته».

ومن المرجح أن زوجي عندما أدرك أن فترة بقائه باتت محدودة الآن كان يعد البلاد من أجل خليفته، فكرر مرات عديدة أن ابنه ليس عليه أن يحكم بنفس الطريقة التي حكم بها هو، ولأن «رضا» سيرث بلدا تخلص أخيرا من تخلفه فستكون مهمته نشر الديمقراطية في إيران. وفي ربيع ١٩٧٧، بدأ صوت المطالبات بتحول النظام إلى الليبرالية يعلو بصورة ملحة، عبر المعارضة السياسية، والمثقفين، وبشكل خاص من صحفي ساند بعد ذلك «خوميني» والملالي. وفي خطاب مفتوح إلى الملك طالبه هذا الصحفي بالذات بالحكم وفقًا للدستور، ومنح البلاد حرية تعبير تساوي ماهو قائم في الغرب والولايات المتحدة. وتحدث «شابور بختيار» و«مهدي بازركان» علنا في نفس القضية[١].

وكان الملك يعتزم الإسراع بخطى تحول البلاد إلى الليبرالية. وحتى يوضح للبلاد أن وقت الديمقراطية حان، أحل في صيف ١٩٧٧ رجلا بارعا ومثقفا بالغ النزاهة هو «جمشيد آموزكار» محل السيد «هويدا» كرئيس للوزراء.

---

(١) ذكرت المؤلفة في بداية الكتاب أن «شابور بختيار» كان آخر رئيس وزراء عينه الشاه، ولد ١٩١٤ واغتيل في باريس عام ١٩٩١ بعد محاولتي اغتيال فاشلتين، وكان قد فر إلى فرنسا ـ التي درس فيها القانون في شبابه وانضم للجيش الفرنسي أثناء الحرب العالمية الثانية ـ بسبب خلافاته مع قادة الثورة الإيرانية لميوله العلمانية. و«مهدي بازركان» (تنطق بازرجان) ١٩٠٧ ـ١٩٩٥: أكاديمي إيراني درس الهندسة في فرنسا أيضا ليرأس أول قسم للهندسة بجامعة طهران أواخر الأربعينيات، كما رأس أول شركة بترول وطنية في عهد «مصدق»، أصبح رئيس الحكومة الانتقالية بعد قيام الثورة الإسلامية. (المترجمة).

وكتب زوجي لاحقا في مذكراته: **«لديه سمعة جيدة كرجل شريف حقيقي. وبالإضافة لذلك كان سكرتير عام حزب النهضة، مما يعني أنه يستطيع أن يعتمد على تأييد تلك الحركة. ولا يعني قراري بتغيير رئيس الوزراء أي شكوك حول كفاءة السيد «هويدا». بل على العكس تماما، فهذا الرجل الواعي المثقف خدم بلده جيدا لمدة ثلاثة عشر عاما لكن مواقع السلطة مرهقة للغاية، وهو نفسه فكر في التنحي قليلا عن شئون الدولة. ولتوضيح أنني مازال لدي ثقة كاملة فيه جعلته وزير بلاطي، حتى أستطيع أن أحتفظ به قريبا مني وأتحدث إليه يوميا. وبمجرد تشكيل الحكومة الجديدة أعلنت تأييدي لمبادئ الليبرالية، بشرط تطبيقها من دون إحداث تفكك في البلاد»**.

وكانت مهمة رئيس الوزراء الجديد حساسة بالفعل، حيث سيكون عليه الإشراف على انفتاح البلاد، في الوقت الذي يتصاعد فيه الاستياء، بسبب الإحباط الذي تلا فترة ازدهار أسعار البترول. وصار من اللازم التخلي عن خطة التنمية السادسة، التي كانت تبدو واعدة، لصالح اقتصاد أكثر تقشفا، وهو ما أدى أيضا لتعزيز حالة التشاؤم.

ولم تكن المطالبات بالليبرالية وانفتاح البلاد جديدة، لكنها صارت أقوى مع وصول رئيس ديمقراطي إلى البيت الأبيض، هو «جيمي كارتر»، في نوفمبر ١٩٧٦. وكان زوجي على علاقة وثيقة مع أسلافه الجمهوريين، خاصة «ريتشارد نيكسون»، الذي ظل صديقا. وكان لديه شعور بأن الإدارة الجمهورية تتفهم الصعوبات الهائلة التي يواجهها في محاولة انتشال إيران من تخلفها، وتعرف أنه لا يستطيع ذلك من دون السيطرة على قدر معين من السلطة. وكان «هنري كيسنجر»، الدبلوماسي الأمريكي الكبير، الذي يعرف إيران جيدا، يُكِنُّ إعجابا كبيرا بما تم إنجازه خلال عقد. وطوال حملة «جيمي كارتر» الانتخابية كان يدعو لموضوع حقوق الإنسان، وحرية الشعب، وهو ما يجب التعامل معه بحذر في الواقع، مع وضع السياق الاقتصادي والثقافي لكل بلد في الحسبان. ووجدت المعارضة الإيرانية في «كارتر» حليفا للمعارك المستقبلية. ولا شك أن ذروة المطالب في ربيع ١٩٧٧ ما كانت لتصبح بهذه الضخامة لو كان شخص آخر انتخب للبيت الأبيض.

ولم يهدئ تعيين رئيس الوزراء الجديد من المطالبة بالليبرالية. وفي أكتوبر ١٩٢٧، نظم اتحاد الكتاب الإيرانيين أمسيات شعرية في معهد «جوته» بطهران، وضم في ذروة هذه المظاهرات نحو خمسة عشر ألف شخص. والأهم من الكلمات كانت الرسالة واضحة: المثقفون يتعجلون الدخول في عصر جديد.

وفي نوفمبر سافرنا في زيارة رسمية إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وهي زيارة مهمة لأن زوجي سيجري محادثات للمرة الأولى مع الرئيس الجديد. فهل كان الرجلان على نفس الموجة؟! إن أحدهما يبدأ لتوه الحكم، والآخر يحكم منذ سبعة وثلاثين عاما.

وكانت لحظة وصولنا إلى البيت الأبيض صعبة. فالمظاهرات احتشدت خلف صفوف قوات الأمن، البعض يحيينا، وآخرون يسبوننا، وعندما تبادل زعيما الدولتين أولى كلماتهما في الحديقة أمام جمهور من الصحفيين والمسئولين، اندلعت معارك عنيفة بين المتظاهرين، واضطر البوليس للتدخل مستخدما الغازات المسيلة للدموع، حتى أن الغاز وصل إلينا، واستطاع مشاهدو التليفزيون في أنحاء العالم رؤية المشهد الاستثنائي لرئيس الولايات المتحدة وملك إيران وهما يسعلان ويمسحان أعينهما، بينما يواصلان خطابيهما كأن شيئا لم يحدث.

ثم ذهبنا إلى قاعات الاستقبال، وتوسل إلينا الرئيس «كارتر» وقرينته أن ننسى ما حدث ـ كانا محرجين بالفعل ـ لكنني قلت لنفسي إنه في عهد «ريتشارد نيكسون» لم يكن يسمح للمظاهرات أبدا بالاقتراب منا إلى هذا الحد. ألا يظهر هذا التساهل رغبة الإدارة الجديدة في إحراجنا؟! لكن المحادثات الأولى بين زوجي والرئيس «كارتر» خففت هذا الانطباع غير السار. وأمضى الملك، الذي كان في حالة عظيمة ذلك اليوم، بعض الوقت في شرح رؤيته لتوازن القوى في العالم ثم تحدث عن الدور الذي تريد إيران أن تلعبه. وفيما بعد أقر الرئيس ومستشاروه أنهم اقتنعوا بتحليل الملك وتأثروا به.

ومع ذلك استمرت المظاهرات العدائية في الخارج، تحت نوافذنا بالضبط. وبدا أن المتظاهرين حصلوا على جدول تحركاتنا الخاصة. ونتيجة لذلك عندما وصلت إلى إحدى عيادات «مينيسوتا» لإجراء بعض الفحوص الطبية، واجهت مفاجأة غير سارة، حيث وجدت نحو عشرين معارضا يلوحون بلافتات عدائية ضد الملك. وبعد ذلك بفترة طويلة اعترف لي إيراني كان وقتها ضمن المعارضة أن الإدارة الأمريكية أعطتهم معلومات كان ينبغي أن تظل سرية.

وخلال هذه الزيارة الرسمية دُهِشتُ لرؤية صورة أحد رجال الدين تلوح بها

مجموعة من الطلاب، كانوا يطالبون بالمزيد من الحرية، وهو ما استطعت أن أتفهمه، ولكن ما لم أستطع فهمه هو كيف أنهم يرون في أحد الملالي رمزا لليبرالية والحداثة. فإذا كان هناك قطاع من المجتمع متورط للغاية في عرقلة جهود الملك لتحقيق انفتاح البلاد، فهو مجموعة رجال الدين الأشد محافظة! فمن حق النساء في الاقتراع، إلى الإصلاح الزراعي، إلى محو الأمية، كان زوجي يلاقي دائما معارضة من رجال دين معينين (على الرغم من أنه كان لديه علاقات جيدة للغاية مع رجال دين آخرين، وبالتحديد آيتي الله «بهبهاني» و«خونساري»). فعلى مدى قرون ظلوا يسيطرون على عقول الناس، واعتبروا التقدم والانفتاح على العالم خطرا يهدد هيمنتهم. وهكذا سألت عن اسم هذا الملا الذي يحبه المتظاهرون من شبابنا، والذي لم يكن مظهره المتحدي يعني شيئا لي، فكانت الإجابة: «آية الله روح الله خوميني»، وأعاد اسمه ذكرى بعيدة. وكان قد اعتقل بعد أن ألقى خطابات ملتهبة ضد تحرير المرأة، وحرَّض حشود المؤمنين ضد «الثورة البيضاء»، ثم عفا عنه الملك، ونُفِيَ. وغاب عن «طهران» أكثر من عشرة أعوام، ولو لم أشهد عودته للظهور على لافتات ترفرف في شوارع نيويورك، لقلت بالتأكيد إن البلاد نسيته كما نسيته أنا نفسي.

وبعد بضعة أسابيع قام الرئيس «كارتر» وقرينته بزيارة إلى الهند، وفي الطريق توقفا في «طهران» للاحتفال ببدء سنة ١٩٧٨ معنا. وأوضحت هذه الحقيقة في حد ذاتها الانطباع القوي الذي تركه الملك في نفس الرئيس الأمريكي الجديد. فبعد أن رحب زوجي بانتخاب رئيس ديمقراطي اعتبر أن الاهتمام الذي أبداه السيد «كارتر» دلالة طيبة على المستقبل.

ودعونا الزوجين الأمريكيين إلى عشاء ٣١ ديسمبر ١٩٧٧ في قصر «نياوران». وفي عشية ذلك العام، ١٩٧٨، الذي سيتضح أنه عام درامي للغاية، أعرب الملك عن ثقة في المستقبل لا أستطيع أن أنساها. فقال:

«وفقا لتقليد قديم في بلدنا فإن زيارة أول ضيف في العام الجديد تعتبر فألا للعام كله. وضيف هذا المساء شخص له من الحيوية وحسن النية ما يجعلنا نعتبر هذه الزيارة بشرى ممتازة للغاية».

ثم نهض «جيمي كارتر» ليثني على الملك بأقوى كلمات المديح. ولم يولِ رئيس أمريكي من قبل الشاه مثل هذا التكريم:

«إن إيران التي يوجه الشاه مصيرها على هذا النحو الملحوظ جزيرة للاستقرار في واحدة من أكثر مناطق العالم اضطرابا. وتلك شهادة عظيمة لكم يا جلالة الملك، وللمهمة العظيمة التي أنجزتموها في إيران، وللاحترام، والإعجاب، والحب الذي يحمله لكم شعبكم.

فخلال جولتنا اليوم مع الشاه بالسيارة في شوارع «طهران» الجميلة، رأينا الآلاف حقا من المواطنين الإيرانيين يصطفون في الشوارع لإظهار صداقتهم. ورأيت أيضا مئات وربما آلاف من المواطنين الأمريكيين جاءوا للترحيب برئيسهم في هذه الأمة التي تبنتهم، وحيث يشعرون بأنهم في وطنهم...

إن شعبكم وقيادات أمتينا يتشاركان نفس التعلق بحقوق الإنسان.

وما من دولة أخرى في العالم قريبة منا بنفس القدر في التدعيم العسكري لأمننا المتبادل. وما من أمة أخرى نجري معها مشاورات وثيقة بهذا القدر في مشكلات المنطقة التي تهم كلينا. وليس هناك حاكم دولة أشعر معه أننا بهذا الود وأحس تجاهه بهذا الامتنان».

وكان العاهل الأردني الملك «حسين» قد وصل إلى «طهران» قبل يومين للاجتماع بزوجي، ومد إقامته حتى يجتمع مع الرئيس «كارتر». وبعد العشاء الرسمي انضم إلينا في حجرة المكتبة، حيث دعونا الرئيس و«السيدة كارتر» للاحتفال بالعام الجديد في جلسة أكثر حميمية. وأنا أحتفظ بذكرى سعيدة لتلك الأمسية التي كانت هادئة، وودية، ودافئة. فاستطاع الملك «حسين» والرئيس «كارتر» وزوجي أن يتباسطوا ويتحدثوا ويتعرف كل منهم على الآخر، بينما يعزف «رضا» الموسيقى.

وبعد أقل من عامين على ذلك اللقاء اقتحم حرس الثورة الإسلامية مقر السفارة الأمريكية في «طهران»، واحتجزوا السبعين موظفًا الذين كانوا يعملون بها، واتخذوهم رهائن.

واندلعت أولى المظاهرات في السابع من يناير ١٩٧٨ في مدينة «قُمْ» المقدسة. وفي ذلك اليوم اتخذ طلاب الدراسات الإسلامية من مقال نشرته صحيفة «اطلاعات» اليومية يسب «آية الله خوميني» ذريعة للخروج إلى الشوارع. و«قُمْ» هي المدينة التي قام «آية الله» بالتدريس فيها حتى عام ١٩٦٣. وفي تلك السنة وقعت هبات بتحريض

منه احتجاجا على الإصلاحات التي أجريت بموجب الاستفتاء. وعرفنا بعد ذلك أن بعض طلبته السابقين أبقوا أسطورته حية منذ نفيه. وهذه المقالة التي لطخته بالأوحال هي ما كان المؤمنون به يريدونه بالضبط؛ ليصرخوا منددين بالكفر، ويطالبوا بالتحرك باسمه.

وسرعان ما خرجت الحركة عن نطاق السيطرة، وفي التاسع من يناير هاجمت المظاهرات مبان حكومية. وهاجموا كل ما اعتبروه رمزا للحداثة؛ دور السينما، والمطاعم، ومدارس البنات. واضطرت الشرطة للتدخل، وأعيد الهدوء ولكن بعد قتل ثمانية أشخاص، ستة من المتظاهرين واثنين من الشرطة.

ويكتب الشاه في مذكراته: «**منذ تلك اللحظة أتاحت «خطة الحداد» الفرصة كل أربعين يوما لأولئك الذين تلاعبوا بالجماهير من أجل تعبئتهم للخروج في مظاهرات جديدة، لديها كافة فرص الانحراف إلى أعمال تمرد، بسبب ما يرتكبونه من عنف، ومن ثم ادعاء وقوع ضحايا جدد. وبهذه الطريقة يصل غضب المواطنين الذي كان ساذجا ومتعصبا معا إلى منتهاه. وفي الحقيقة أنه وفقا لتقليد إسلامي على أهل وأصدقاء الميت الذهاب والترحم عند قبره بعد أربعين يوما على وفاته. ولا أعتقد أن وفاة شخص تستغل على هذا النحو المخزي لأغراض سياسية في أي مكان آخر**».

وفي ١٨ و١٩ فبراير، بعد أربعين يوما من أحداث «قُمْ» المأساوية، وبدعوى إحياء ذكرى أربعين الضحايا في الظاهر، نُظِّمَت في «تبريز» عاصمة «أذربيجان» مظاهرات ضخمة. وللمرة الأولى انضمت المعارضة السياسية، والطلاب، وتجار البازار إلى رجال الدين للمطالبة بالمزيد من حرية التعبير وزيادة الأجور. وبدا هذا التحالف غير مفهوم بالنسبة لنا. فكيف يمكن لأولئك الذين يريدون التحول السريع إلى النمط الغربي في نظام الحكم والمجتمع بوجه عام أن يسيروا إلى جانب الملالي وعلماء الدين، المطالبين بالعكس تماما؛ العودة إلى المبادئ الدينية المتشددة، وانغلاق إيران أمام النفوذ الثقافي الغربي «غير الأخلاقي»، وإجبار النساء على ارتداء الحجاب، وما إلى ذلك؟! ومرة أخرى تحولت الاحتجاجات إلى أعمال الشغب. وهاجم المتظاهرون كل ما اعتبره الملالي رمزا «للفساد» وأحرقوه ـ مثل دور السينما ومتاجر المشروبات الروحية، ومتاجر السلع الفاخرة ـ فضلا عن المباني الحكومية

مثل «قصر الشباب»، ومكاتب حزب «رَستاخيز»[1] السياسي. ولما عجزت الشرطة عن مواجهة هذه الموجة من الكراهية والعنف اضطرت إلى طلب العون من الجيش وانتهت المواجهات بوفيات على الجانبين مرة أخرى. وكان الجيش مدربا تدريبًا جيدًا للغاية للدفاع عن البلاد، لكنه لم يُعَدُّ للقيام بعمليات الشرطة في المدن.

وأتذكر فيما يتعلق بهذا أن الإدارة الأمريكية زادت من صعوبة هذه المهمة عندما رفضت إمدادنا بالرصاص المطاطي وقنابل الغاز المسيل للدموع.

ولما خرج «خوميني» علنا للمرة الأولى من مخبئه، منذ لجأ للعراق، أعرب عن سروره لهذه المأساة بتعبيرات مخزية، ملأتني بالخوف: «**حركتنا مازالت نبتا ضعيفا يحتاج لدماء الشهداء حتى يصبح شجرة قوية**»!! فمن أي شيء قُدَّ قلب هذا الرجل حتى يريد الموت لشعبه؟!

وفي ٢٩ مارس ١٩٧٨، وقعت مظاهرات جديدة في عدة مدن، وبالتحديد في «طهران»، بحجة إحياء ذكرى أربعين ضحايا «تبريز». وأصدر زوجي أوامر مشددة للمسئولين عن قوات إرساء القانون والنظام، والشرطة والجيش، من أجل تجنب إراقة الدماء للمرة الثالثة بأي تكلفة. غير أن «الشهداء» كانوا مطلوبين، ومن ثم فقد تم إنتاجهم.

وقال الملك فيما بعد: «**لم تعرف ألاعيب المحرضين حدودا. لقد تلقيت تقارير عن حالات تؤخذ فيها جثث أشخاص توفوا وفاة طبيعية، أو بسبب مرض أو حادث، بمجرد وصولها إلى المدافن، وتُحْمَل على أكتاف بعض زعماء الفتنة، الذين يسيرون بهم عبر المدينة نائحين: «هنا ضحية للنظام! جريمة أخرى اقترفتها قوات الأمن!**»».

وتؤكد تعليقات «محسن رضائي» قائد قوات الحرس الثوري الإسلامي هذه التقارير. وهو يلخص استراتيجية التمرد التي استخدمت طوال عام ١٩٧٨ قائلا:

---

(١) أنشأه الشاه في الثاني من مارس ١٩٧٥، ليكون الحزب الوحيد الذي يحتكر السياسة في إيران، ويعني اسمه بالعربية «الإحياء» ورأسه «أمير عباس هويدا» رئيس الوزراء في ذلك الوقت، وكان يضم في عضويته جميع أفراد الشعب الإيراني، أو هكذا كان الغرض من إنشائه، وقضي على الحزب بالطبع بعد الإطاحة بالشاه، لكن أنصار الحكم الملكي مازالوا يعلنون انتسابهم له في المنفى ويطالبون بإقامة ملكية دستورية في إيران. (المترجمة).

«تُنَظَّم جنازات مزيفة لنشرها على نطاق واسع في وسائل الإعلام. وينبغي أن تحتوي الأكفان على أسلحة، خاصة السكاكين التي يمكن استخدامها مباشرة إذا تدخلت قوات القانون والنظام. ويتمركز المشيعون من الجنسين في المدافن، كسلاح سياسي ديني لنصرة الثورة. وتُسْتَخدم الملابس الملطخة باللون الأحمر كأدوات نفسية وسياسية ودعائية لحشد الناس وترك انطباع لدى الرأي العام»[1].

وأبلغني شهود أنهم شاهدوا طلابًا في الجامعة «يصنعون شهيدا». حيث يرقد أحدهم على نقالة ويغطى بقماش أبيض. ويسكب فوقه دم من زجاجة، ثم يرفع أفراد المجموعة النقالة على أكتافهم، ويطوفون عبر الشوارع صائحين: «**ارتكبوا جريمة قتل أخرى! قَتَلوا مرة أخرى!**» وبوجه عام كان لدينا انطباع بأن الثوار منظمون جيدا بصورة ملحوظة، وممولون بشكل فعال، والمظاهرات تُرتَّب وتدار على نحو بالغ الدقة. ولديهم كل شيء؛ مكبرات الصوت، والأقنعة، وأجهزة لاسلكي للإرسال والاستقبال، ولاحقا: أسلحة.

ومع مرور الأسابيع صار واضحا أن «الليبراليين» واليساريين، والكثير منهم لا يشترك في شيء مع الملالي، التصقوا بالحركة للوصول إلى قطاع أوسع من السكان. وهكذا استخدم الدين بصورة مخزية كأداة لإثارة غضب الناس، وعلى نحو خاص بواسطة الشيوعيين الذين يعتبرون حظر ممارسة الشعائر الدينية أحد أهدافهم عندما يصلون للحكم. وكان لكل عنصر من العناصر المكونة لهذا التحالف الثوري المتنافر ـ التيار الديني، والليبرالي، والماركسي ـ مصلحة انتهازية في الائتلاف مع الآخرين، لكنه كان واضحا أنهم إذا سيطروا على البلاد ذات يوم فلن يتوقف أي منهم قبل أن يقضي على أعوانه السابقين، وهو ما حدث بالضبط.

غير أن التحالف كان قائما وقتها، وسرعان ما تلقى مساندة منتظمة من تجار البازار، وهم ينتمون إلى طبقة وسطى غنية ومتدينة، لهم نفوذ طاغ في المدن. وساعدتهم طفرة البترول ونمو الاقتصاد بوجه عام على أن يصبحوا أثرياء. ولإحساسهم بأنهم تعرضوا للعقاب بواسطة التدابير الاقتصادية المتشددة لحكومة «آموزكار»، واستيائهم من التدابير الجديدة لمحاربة الفساد التي عرقلت أعمالهم ـ وقفوا إلى جانب «آية الله خوميني»، بل إن بعضهم كما تبين بعد ذلك قدم له دعمًا ماليا هائلًا.

(١) لم يُذكر بالكتاب المصدر الذي نقلت عنه هذه الفقرة، ولم أفلح للأسف في العثور عليه. (المترجمة).

وانخدع الشباب في هؤلاء المخططين ذوي الأجندات المختلفة، فسلّموا قواهم وتأثيرهم لهؤلاء القادة عديمي الضمائر. وكتب الملك: «**كانوا يحتاجون قوات. ووجدوها في الجامعات، وسرعان ما وجدوها حتى في المدارس. وقد أعدوا أنفسهم للوصول بشبابنا إلى حالة من التسمم الفعلي. ونجحوا لسوء الحظ. ولم أتوقع بالطبع أن يصبح الشباب محافظين. فهم في كل البلاد يتحولون إلى النماذج التي تبدو لهم الأكثر نبلا. ويستطيع المرء أن يفعل أشياء عظيمة باسم العدل، لكنه قد يفعل أيضا أسوأ الأشياء بنفس الاسم**».

وكنت وأنا أشاهد هذه المظاهرات المتكررة، تنمو كل فترة، أتردد بين عدم التصديق والانزعاج. وأصعب ما يمكن تصديقه أن وسائل الإعلام العالمية صارت تصف كل شيء إيجابي حققته الملكية لإيران بصورة سلبية. ونفس الأشخاص الذين كانوا الأكثر إشادة بالملك في أوائل السبعينيات أدانوا الآن عمله. وأولئك الصحفيون الأجانب الذين كانوا حريصين على الدقة فيما يتعلق باحترام الحريات بدا أنهم يرون في «آية الله خوميني» تجسيدا لعالم الروح في مواجهة المادة. بل إن أحد الفلاسفة الإيرانيين تحدث عن «غاندي» جديد! أما بالنسبة لنا نحن الذين نعرف المشاعر والطموحات الكامنة لهذا الرجل كان ذلك بعيدا عن التصديق. وقال الملك بعد ذلك: «**الخطأ الذي ارتكبته أنني لم أستخدم وسائل إعلامنا لمواجهة هذا التلقين المتواصل**».

وطلبت النخبة المثقفة والسياسية في البلاد مقابلتي، فاستقبلتهم جميعا، بأمل أن يساعد ذلك زوجي. وجاء أكاديميون، وقادة سياسيون سابقون، وعلماء اجتماع، ورجال دين، وصحفيون. ودخلوا مكتبي واحدا إثر الآخر. كانوا أيضا مذهولين من التحول الأخير في الأحداث. وعندما سألتهم السؤال العملي عما يرون أنه ينبغي القيام به لطمأنة خواطر الناس، واستعادة زمام المبادرة، كانت الإجابة دائما هي نفسها: «**على الملك أن يكلف شخصا بارزا فوق الشبهات. شخصا ذا شعبية، شريفًا، ذكيًّا، يجتمع الجميع على اسمه**». فوافقت، ثم كان عليَّ أن أسأل: «**من الذي في أذهانكم؟**» فاقترحوا جميعا أسماء رجال عظماء من الماضي. فقلت: «**أتفهم موقفكم. ولكن من تقترحون من بين الأحياء؟**» ولم يكن هناك رد إلا الصمت الطويل. والحقيقة أن المعارضة بمرور السنوات شوَّهت الطبقة السياسية كلها من خلال اتهام البعض بالفساد، والبعض الآخر بمناصرة الولايات المتحدة أو إنجلترا.

وخلال هذه الاجتماعات اتهمني بقدر من العدوانية وزير سابق صار يشعر بالمرارة والخوف بأنني ساهمت في مضايقة رجال الدين عندما حوَّلتُ «شيراز» التي كانت مكانا للثقافة إلى مكان للخراب، فرددت عليه: «**هل ذلك كل ما فعلتُه أيها الوزير؟!**» فلم يستطع إلا أن يتمتم واعتذر، وفي اليوم التالي أرسل لي نسخة من القرآن! فقد الناس الثقة وبدءوا يفقدون عقولهم.

ومع استمراري في بعض أنشطتي المعتادة، في المستشفيات، والمدارس، والمكتبات، استطعت أن أستشعر تفاقم الموقف. وصار الزمن الذي كنت أغافل فيه حراسي الأمنيين وأقترب من الحشود المتحمسة ـ أمرا من الماضي. والآن استطعت أن أرى بوضوح أن ذلك لم يعد ممكنا. فبعض الناس يحيونني بكلمات مشجعة، وآخرون يقفون جانبا وأستطيع أن أستشعر عداوتهم. وانقطع الحوار معهم، وهو ما كان مقلقا للغاية. كنت أعود للقصر لأحاول بصورة يائسة إيجاد سبيل لاستعادة الثقة.

كان الملك صامتا وجادا، ومع ذلك استمر في العمل من الصباح إلى الليل. وقد فقد بعض وزنه وبدا أضعف. وذلك ما أقلقني أكثر من أي شيء. فهل هذا التدهور بسبب تطور مرضه، أم القلق بشأن مشكلات البلاد؟! وكل اندلاع جديد للعنف يؤثر عليه تأثيرا حادا، فيردد مرة بعد أخرى: «**لماذا يفعلون ذلك؟! لماذا؟!**» كان يشعر أنه على تواصل جيد مع الشعب منذ فترة طويلة، ولم يستطع أن يفهم كيف استسلموا إلى التكهنات المشوشة لرجل دين ظلامي.

وشارك آية الله الكبير «كاظم شريعة مداري» زوجي حيرته. ونظرا لمعارضته تعصب «الخوميني» أرسل رسائل إلى الملك يطلب منه اعتقال أكثر رجال الدين تطرفا، وقدَّم قائمة بالأسماء. وظن أن الحركة الشعبية سوف تتلاشى بمجرد إسكات هؤلاء الأشخاص. ورأيت القائمة وأتذكر أن اسم «صادق خلخالي»[1] كان ضمنها. ولم يوافق الملك على الاعتقالات مفضلا حلا سياسيا يسهل استعادة الحوار.

---

(١) ١٩٢٦-٢٠٠٣، ولد في أذربيجان.أحد رجال الشيعة الاثنا عشرية المتشددين في إيران، اختاره «آية الله خوميني» في فبراير ١٩٧٩ لمنصب «حاكم الشرع»، وهو رئيس المحاكم الإسلامية حديثة النشأة وقتها، أصدر أحكاما بالإعدام على مئات من رجال العهد السابق بتهمة «نشر الفساد في الأرض» و«الحرابة»، بعد محاكمات لم تشهد إجراءات تقاض طبيعية ولم يكن بها محامون، ومن بين من أصدر الحكم بإعدامهم وأشرف شخصيا على تنفيذ الحكم «أمير عباس هويدا»، ويقال إنه أطلق الرصاص عليه بنفسه، رغم الالتماسات التي وردت من أنحاء العالم تطالب بوقف الحكم. (المترجمة)

وفي يونيو نشر ثلاثة أشخاص بارزون من الجبهة القومية ـ «شابور بختيار»، و«داريوش فروهر»[1]، و«كريم سنجابي» وهو أستاذ جامعي ـ رسالة مفتوحة إلى الملك، يطالبونه فيها مرة أخرى بأن يحكم وفقًا للدستور. وطالبوا بإنهاء نظام الحزب الواحد القائم منذ عام ١٩٧٤، كما طالبوا بحرية الصحافة، وإطلاق سراح السجناء السياسيين، وتشكيل حكومة مكونة من مسئولين منتخبين، مدعومين من الشعب. وكانت هذه الطريقة في تقديم التماس علني للملك جديدة ـ فلم تكن مطبقة في إيران ـ وكان لديَّ شعور قوي بأن هؤلاء الأشخاص يتصرفون بهذه الطريقة لأنهم يتمتعون بمساندة الولايات المتحدة، وإدارة «كارتر» الجديدة. لكن هذا ليس كل شيء، فعند قراءة ما أراد هؤلاء الرجال الثلاثة أن يقولوه، يمكن للمرء أن يظن أن الحكم الملكي لم يقدم أي شيء إيجابي لإيران، بينما حققت البلاد قفزة لا يمكن إنكارها إلى الأمام في جميع الميادين خلال العشرين عاما الماضية. وسوف يصبح «شابور بختيار» آخر رئيس وزراء عيَّنه الملك. وانضم الموقِّعان الآخران على الرسالة المفتوحة إلى «خوميني» قبل أن تنتهي حياة كل منهما نهاية مأساوية. فـ«داريوش فروهر» الذي عمل وزيرا لفترة في ظل الجمهورية الإسلامية قبل أن ينتقل للمعارضة قتل مع زوجته في ظروف مروِّعة، بينما توفي «كريم سنجابي» في المنفى.

وبعد صدامات جديدة شهدتها مدينة «قُمْ» في مايو، ثم مدينة «مشهد» المقدسة في يوليو لإحياء ذكرى «شهداء قُمْ» ـ قرر الملك الإسراع بالمزيد من التحول الليبرالي، وفي يوم الدستور ـ الخامس من أغسطس ١٩٧٨ ـ أعلن أن الانتخابات البرلمانية المفتوحة أمام كافة الجماعات السياسية سوف تجرى في ربيع ١٩٨٠. وهذا كل ما طالبت به المعارضة، والمفترض أنه يلبي أمانيها، لكنه فُسِّر على أنه علامة ضعف من جانب الملك، وسرعان ما استغلها الزعماء الثوار.

وفي ١١ أغسطس، اندلعت مواجهات جديدة في «أصفهان»، وأُعْلِنت الأحكام العرفية في المدينة.

---

(١) «داريوش فروهر» علماني قومي، ولد في ١٩٢٨. وأسس حزب «ميلت إيران» (الأمة الإيرانية). وكان وزير العمل في حكومة «بازركان» الانتقالية، ثم اختلف مع توجهات الثورة وعارضها، وأخيرا اغتيل مع زوجته عام ١٩٩٨ ضمن سلسلة اغتيالات للمعارضين، وانتحر المتهم الأول باغتيالهما داخل السجن وهو من رجال المخابرات الإيرانية في عهد الثورة. (المترجمة).

ثم وقعت كارثة دار سينما «ركس» في «عبدان»، ولا شك أنها هدفت لزيادة حدة الغضب، وإثارة الكراهية، وتسجيل نقطة اللاعودة عن تمزيق البلاد. ففي ١٩ أغسطس وبمجرد أن بدأ عرض فيلم في أكبر دار سينما في «عبدان» حتى اندلعت النيران. وحُرِقَ أكثر من أربعمائة شخص أحياء. ولمَّا لم يكن لديَّ شك في أن هناك مسافات طويلة سياسيا ينبغي قطعها للخروج من هذه المأساة، طلبت فورا «آموزكار» رئيس الوزراء لأبلغه بنيتي الذهاب إلى «عبدان» لأكون مع الضحايا وعائلاتهم، فحثَّني على عدم الذهاب، وبينما أستمع إليه شعرت فجأة أنه فقد الثقة؛ الثقة في الملك وفيَّ شخصيا باعتبارنا رمزي القوة والتناغم في البلاد. شعرت أنه لم يعد يحتفظ لي بنفس الصورة التي كانت، الصورة التي سمحت لي بالحديث بصراحة وإخلاص مع الإيرانيين على مدى عشرين عاما. لاشك أنه كان محقا في حديثه عن إلغاء الرحلة، لأن «آية الله خوميني» في الساعات اللاحقة لذلك تجاوز كل ما يمكن احتماله واتهم الحكومة بأنها وراء تلك الفعلة الشنيعة.

ومنذ بداية الاضطرابات أحرق الإسلاميون الأصوليون خمس عشرة دار سينما تقريبا. وإذا كان حريق سينما «ركس» عملا جنائيا فهناك كافة المبررات لتصديق أنه من عمل نفس المتعصبين، وأكد التحقيق ذلك، لكن المدبِّر - يبلغ التاسعة عشرة من العمر، عضو في جماعة «جمشيد» المتخصصة في عمليات التخريب - فرَّ إلى العراق، ثم أنقذته الثورة الإسلامية. وفي نفس الوقت أثار التساؤل الذي لا أساس له حول علاقة النظام بهذه المأساة المروِّعة المزيد من المعارضة للحكم الملكي.

ويكتب زوجي في مذكراته: **«في نهاية أغسطس جاء قائد قوات الأمن جنرال «مقدم»[1]، لمقابلتي بعد محادثة أجراها مع رجل دين مهم، لاشك أنني لا أستطيع الإفصاح عن اسمه. وأبلغني ما قاله هذا الشخص. كان خلاصة ما قاله: «سيدي، أتوسل إليك افعل شيئا ضخمًا. جميع مصالحنا تعتمد على ذلك». وكرر جنرال «مقدم» عدة مرات الصفة التي استخدمتها هذه الشخصية رفيعة المستوى «شيء ضخم!» ولم أستطع أن أبقى دون حراك عقب رسالة كهذه، ولكن نظرا للموقف الذي وجدنا أنفسنا فيه وقتها، ما هو الشيء الضخم الذي يمكن أن نفعله؟ خطر لي أنه**

(١) «ناصر مقدم» (١٩٢١-١٩٧٩) رابع وآخر رئيس «للسافاك»، أعدم بعد قيام الثورة الإسلامية بأمر من «خوميني». (المترجمة).

ليس هناك سوى تغيير الحكومة الذي يمكن أن يلبي هذا التطلع، حكومة أمنحها حرية حركة كاملة».

وانشغل الملك باختيار رئيس الوزراء الجديد، وهو ما أفصح لي عنه. كان ينبغي أن يكون رجلا عمليا، عصريا، متفتح الذهن، حتى يستطيع أن يوسع قاعدة الحكومة، ويكون فوق الشبهات أخلاقيا. واقترحت رئيس سكرتاريتي «هوشانج نهاوندي»، فهو خبير اقتصادي تدرَّب في فرنسا، مقتنع بالليبرالية، ورجل قادر على اتخاذ القرارات، وهو رئيس سابق لجامعة «طهران» له أصدقاء عديدون بين المثقفين. وأخيرا كنت أعرف أنه أراد دائما أن يصبح رئيسًا للوزراء.

وفضَّلَ الملك «جعفر شريف ـ إمامي»[1]. وكان السيد «شريف ـ إمامي» يتمتع بخبرة مكثفة في الحياة السياسية، لأنه رأس الوزارة قبل ذلك وكان رئيسا للبرلمان لمدة خمسة عشر عاما. وكانت لديه صلات عديدة برجال الدين. ومع ذلك كان أول تصريح أعلنه للبلاد أنه لم يعد «شريف ـ إمامي القديم»، الأمر الذي جانبه فيه الصواب.

ولم يحدث تغيير الحكومة الصدمة الكهربائية المتوقعة، وجاءت نهاية رمضان يوم الخميس السابع من سبتمبر حجة لمظاهرة جديدة في شوارع «طهران». وللمرة الأولى طالب مثيرو الشغب برحيل الملك وعودة «آية الله خوميني». وبسبب صدور دعوة للتظاهر اليوم التالي في جميع المدن الكبرى في البلاد قررت الحكومة خلال الليل فرض الأحكام العرفية في إحدى عشرة مدينة، منها «طهران» التي وُضِعَت تحت سيطرة الجنرال «غلام علي أويسي»[2].

وعندما سمعت بالأمر انزعجت فورا وسألت الملك عن كيفية إنذار الناس بالأحكام العرفية، حيث فُرِضَ كل من حظر التظاهر وحظر التجوال، وكان هذا سؤالا أساسيًّا. فإذا لم تجد الحكومة وسيلة لإنذار السكان، فسوف يواجه الناس اليوم التالي

---

(١) تولى رئاسة الوزراء قبل ذلك عام ١٩٦٠ولد ١٩١٠ لأسرة من رجال الدين، وتوفي في مدينة نيويورك ١٩٩٨. (المترجمة).

(٢) بعد الثورة شارك في تجميع قوات لنشرها على الحدود التركية الإيرانية، وتجنيد خلايا عسكرية داخل إيران من الموالين للشاه من أجل تنظيم ثورة مضادة، غير أنه قتل مع شقيقه بالقرب من شقته في باريس فبراير ١٩٨٤ ولم تعثر السلطات الفرنسية على القاتل. (المترجمة).

خطر الوجود غير المشروع في الشوارع من دون أن يدركوا ذلك، وفي مواجهة قوات الجنرال «أويسي» الذي لم يعرف عنه اللين. وقيل لي إن الأنباء سوف تبث في الإذاعة في نشرات خاصة كل نصف ساعة.

وفي الحقيقة لم يعلن الخبر قبل الصباح الباكر يوم الجمعة، عندما كانت مئات من المتظاهرين تمضي في طريقها، بينما كان كثيرون باقين في الشوارع منذ اليوم السابق ولم يُمكن تحذيرهم. وربما ذهبت أقلية إلى البيوت، وهم على الأقل تمتعوا بالحماية، لأن هذه الجمعة الثامن من سبتمبر «الجمعة السوداء» كما أطلق عليها المتمردون، ستصبح يوما مأساويا آخر في تاريخ البلاد.

وكان الجيش الذي ينتظر المتظاهرين في ميدان «جاله» جنوب شرق «طهران»، قد تلقى أوامر مشددة من جنرال «أويسي». ولم يكن من الممكن وقف الصدام لأن كلا من الجانبين كان مسلحًا، وأطلق أفراد فلسطينيون في ملابس مموهة، وسط الحشود وفوق الأسطح، النار على جنودنا، الذين ردوا بنيران مضادة. وقتل واحد وعشرون متظاهرا وسبعة من قوات القانون والنظام.

وبعد أسبوع كما لو كان تأكيدا لحقيقة أن إيران تغرق في أسوأ الكوابيس وقع زلزال عنيف في «تاباز»، بمحافظة «خراسان» الشرقية، وقتل ٢٥ ألف شخص. وكنت أعرف «تاباز» جيدا، كانت بلدة صغيرة، صُنِّفت على أنها أثر تاريخي، وتابعتُ مراحل ترميمها.

وانتابني شعور حقيقي بالترنح تحت وطأة هذه اللطمات. متى يتوقف هذا؟! كانت آثار المعاناة واضحة على وجه زوجي. ونظرا للموقف المتوتر رأى أنه لا يستطيع مغادرة «طهران»، وهكذا قررت أن أذهب إلى سكان «تاباز» المنكوبين بمفردي. تحدثت إلى رئيس الوزراء بهذا الشأن، وطلب مني الانتظار قليلا. وأحسست وأنا أستمع إليه أنني لم أعرف من قبل هذا الشعور القوي بمدى زعزعة الحكومة، وأي أزمة ثقة عليه أن يتعامل معها، فلم يكن السيد «شريف ـ إمامي» يعرف الطريقة التي سوف أُسْتَقْبَل بها، ولم يكن متأكدًا من رد فعل السكان. وكانت الحكومة في الواقع فاقدة الاتجاه. حيث كانت تتعرض لوابل من الآراء المختلفة من الساسة، ورجال الدين، والجيش. وغادرت بالطائرة إلى «تاباز» مثقلة القلب. ووجدت رجال الدين

وصلوا إلى هناك بالفعل، منظمين تنظيما جيدا. ورغم أن «جمعيات الأسد والشمس الحمراء»[1] تدفقت بالمعونات على الموقع، أحضر رجال الدين معونات إضافية. واضطررت لتحمل استياء بل غضب المنكوبين. واتضح أن شائعة كاذبة انتشرت عن أن الملك سمح للأمريكيين بإجراء اختبارات تفجير تحت الأرض قرب «تاباز»، وهو ما تسبب في الزلزال. وعزا البعض الكارثة إلى غضب من الله! وأمضيت اليوم هناك، في محاولة لتقديم المساعدة بأقصى استطاعتي وتخفيف مخاوف الناس. وانتهزت شخصيات محلية بارزة فرصة حضوري للإعراب عن شعورهم بقلة الحيلة. واستمرت المظاهرات في الأيام التي تلت هذه الجمعة المريعة. وكان الملك قد استجاب بالفعل لمطالب انفتاح البلاد، لكن الآن ينبغي استعادة الهدوء حتى يمكن تطبيق ليبرالية النظام. ولم يكن من الممكن تطبيق أي شيء في مثل هذه الحالة من الاضطراب. وكان واضحا أن قيادات العصيان لا ترغب في رؤية تطبيق هذه الإصلاحات، خاصة الانتخابات الموعودة.

وكتب الملك فيما بعد: «**من الواضح أن الأحكام العرفية لو كانت قد طبقت بصرامة لظلت المحاكم منعقدة نهارًا وليلًا. فلم تكن الأحكام العرفية سوى مجرد تحذير لم يربك مثيري القلاقل. ولم يطلق جنودنا النيران إلا على مشعلي الحرائق، واللصوص، أو أعضاء الجماعات المسلحة**».

وجاءت الأوامر من المساجد لهذه الوحدات المسلحة، وقامت المساجد بعمليات الاتصال. وكان يمكن رؤية المحرضين وقتها وهم يعلنون أنه لا يوجد تعارض بين الأصولية الإسلامية والاشتراكية على النمط السوفييتي. وهذه النظرية المفاجئة استوردها أفراد جماعة «مجاهدي خلق»، الذين تلقوا تدريبات في لبنان وليبيا.

وأشارت الصحافة اليسارية في البلدان الغربية إلى نظام الحكم الرهيب، لكنها لم تذكر الإرهابيين. فالإرهابيون وفقا لهذه الصحف هم من أنشئوا البوليس و«السافاك». وإذا كانت هذه الصحف نفسها صادقة لكانت سجون الشاه تضم أكثر من مائة ألف معارض. لكن حقيقة الموقف هي: لم يكن هناك أكثر من ثلاثة آلاف و١٦٤ سجينا سياسيا. وفي نوفمبر ١٩٧٨ لم يكن هناك سوى ثلاثمائة فقط وجميعهم لهم سجلات جنائية.

---

(١) المقابل لجمعيات الهلال الأحمر أو جمعيات الصليب الأحمر. (المترجمة).

ومن الواضح أن موقف إرهاصات الثورة الذي نواجهه الآن تم التخطيط له بعناية. فقد تكونت جماعات حرب العصابات في المدن الكبرى، حيث مازالت الأحكام العرفية مفروضة. وكان لديهم أسلحة آلية ومتفجرات، والمعدات اللازمة لحرب عصابات المدن. وسرعان ما صدر إليهم الأمر بالهجوم على السفارات والمصالح الحكومية. وكان الهدف هو الدفع بالبلاد إلى حافة الفوضى بأسرع ما يمكن.

وظل زوجي يستشير الجميع بلا حدود وبلا كلل، من أجل طرح اقتراحات بكيفية إعادة الصلة مع الجماعات المختلفة في البلاد. واقترح الكثير من أولئك الذين تحدث إليهم اللجوء للقوة، وهو ما رفضه مذكرا إياهم بأن أي حاكم لا يمكنه أن يطلق النار على شعبه وإلا فقد شرعيته.

ونتيجة لذلك قرر أن يخاطب الأمة من القلب وليس من العقل، لأن المتظاهرين لم يعودوا يصغون إلى صوت العقل. وجاء خطاب الملك مؤثرًا، وذهب إلى حد الاعتراف بأنه ارتكب أخطاء. وقتها شعرت بأن حديثه لابد أن يلقى إصغاء وتفهمًا. ولكن بدلا من ذلك سرعان ما فُسِّر خطابه على أنه اعتراف جديد بالضعف. ولمَّا كنا منهكين بسبب التوتر الذي استمر عدة شهور، ربما لم نكن في حالة تسمح لنا بتقدير عنف وإصرار خصومنا. فكنا نلجأ لأشخاص حكموا علينا بالموت بالفعل.

وفي أكتوبر كتبت هذه السطور القليلة في واحد من دفاتري الشخصية: «**لدي شعور بأنه لم يعد هناك أمل. علينا أن نحارب على كل الجبهات. فالموقف ليس سيئا بهذا الشكل حاليا فحسب، ولكنني متشائمة. كما أنني متعبة! مازلت أفعل ما أستطيع. ينبغي أن أظل قوية، فهو السبيل الوحيد للمواصلة**».

«**أنا قلقة بشأن الأولاد**».

وبعد ذلك بقليل: «**ينبغي أن نقيم حوارا مع الناس على نحو ما. ليس هناك حل آخر. لكن الأمر يبدو كما لو كنا نحن الإيرانيين أصبنا بالجنون، إننا أصبنا بالحمى، ونحن نهذي. أظل على التليفون من الصباح حتى الليل، أتلقى معلومات، وأنقلها. ونضع الخطط. متى تذهب الحمى؟! لا بد أن هناك سبيلا للخروج من هذا الكابوس**».

وفي نفس ذلك الشهر العسير، أكتوبر، تلقيت خطابًا وديًّا للغاية من السيدة «كارتر» تكرر فيه تعبيراتها المليئة بالمشاعر التي أثَّرت فيَّ.

ويوم الأحد الخامس من نوفمبر، انطلق آلاف المتظاهرين عبر «طهران». وهذه المرة أمر الملك ـ الذي صدمته تجربة قتلى ميدان «جاله» ـ قوات القانون والنظام باحتواء المشاغبين وعدم إطلاق النار إلا عند الضرورة القصوى. فارتبك جنود الجيش والشرطة، وانطلق المتظاهرون يخربون كل شيء في طريقهم؛ دور السينما، والبنوك، والمباني الحكومية. وتعرضت وزارة الإعلام للنهب، ودمِّرت السفارة البريطانية جزئيا بفعل النيران، ونجت السفارة الأمريكية ـ التي كان يحميها الجيش ـ بالكاد من نفس المصير.

وفي نفس المساء تقدَّمَ «جعفر ـ إمامي» باستقالته إلى الملك الذي قَبِلها.وعند منتصف أكتوبر أضرب العاملون في مصنع تكرير «عبدان». ومن ملجئه في بلدة «نوفل لو شاتو» قرب باريس، دعا «آية الله خوميني» إلى العصيان المدني والإضراب العام. وأعادت وسائل الإعلام الفرنسية وإذاعة «بي بي سي» بالفارسية بث دعوته (بعد وصول «خوميني» إلى باريس استشارت فرنسا الشاه لمعرفة رأيه فيما ينبغي عمله مع «خوميني». وأشار زوجي على فرنسا أن تسمح لـ«خوميني» بالبقاء معتقدا أن رجل الدين سيكون ضرره أقل في فرنسا منه في ليبيا أو الجزائر). ودأبت الإذاعة البريطانية على بث جميع رسائل «خوميني» بانتظام. وبالفعل أقر ضيف «نوفل لو شاتو» أن الـ«**بي بي سي هي صوتي**». وفي ١٩٤١، أدارت نفس الشبكة الإذاعية حملة للدعوة إلى رحيل «رضا شاه»، وتنحي الملك، وفي خريف ١٩٧٨ تذكر الإيرانيون هذه الواقعة، ومن ثم قالوا: «**إذا كانت البي بي سي ضد الشاه، فهي نهاية الملكية**». وعلى أي حال دفع احتمال تدهور البلاد إلى حالة الشلل إلى اتخاذ الملك قرار تشكيل حكومة عسكرية. فلا يمكن السماح بانهيار الاقتصاد، ويجب أن تعود البلاد للعمل.

وكان اختيار جنرال يستطيع تجنب هذا الخطر موضوع استشارات عديدة. وحثَّ البعض زوجي على استدعاء جنرال «أويسي»، المعروف عنه الشدَّة. ولم أُفضِّل ذلك الخيار، لكن الأمر يرجع إلى الملك. واتصل بي عدة أفراد من العائلة بعدما تم رفض «أويسي» رسميًّا يأسفون لعدم اختياره أو اختيار شخص معين غيره. وقلت لكل منهم إن الملك عندما يختار شخصا بدلا من غيره، يكون لديه مبرراته، وإنه يعمل لتحقيق أفضل مصلحة للبلاد.

وأخيرا كلَّف زوجي الجنرال «غلام رضا أزهري»، رئيس الأركان العامة، الذي

عُيِّنَ رئيسًا للحكومة المؤقتة حتى يتيح للملك وقتًا لمعالجة الموقف السياسي. وكان جنرال «أزهري»، وهو رجل مثقف ومتحضر، يعتبر معتدلا ومنفتحا للحوار. ومن بين أولى مبادراته الأمر باعتقال رئيس الوزراء الأسبق السيد «هويدا»، الذي طالب الكثير من الناس ـ حتى في الجيش ـ بسجنه. ورأى أن محاكمة «هويدا» سوف تزيل مظاهر سوء الفهم التي أثارت الغضب.

وكتب زوجي: «**لم أقتنع بأن هذه الحجة صائبة. لكن السيد «هويدا» الذي أكن له احتراما عظيما، كان من بين أهم أهداف المعارضة. وفي الواقع كنت أنا من يحاولون مهاجمته من خلاله**».

لا، لم يرد زوجي له أن يعتقل، فذلك يناقض كل ما شعر به. واتُّخِذَ القرار في اجتماع حضره عدة أعضاء من الحكومة وكبار قيادات الجيش. وأيدوا جميعا إجراء تحقيق مع «هويدا»، وفي النهاية نزل الملك على إجماعهم. وبعد ذلك بقليل أخبرني أن الشخص الذي كان معه على التليفون أثناء الاجتماع هو الجنرال «مقدم»، قائد الأمن، الذي أبلغه رأيه أن اعتقال السيد «هويدا» أكثر أهمية من خبزنا اليومي.

كنت حاضرة في الاجتماع، لكنني لم أعارض اعتقال السيد «هويدا»، رغم أن ذلك مزق قلبي. وساد الاعتقاد بأن علينا أن نفعل المستحيل لحماية البلاد في هذا الإعصار القادر على الإطاحة بكل شيء. ورأى المسئولون العسكريون الحاضرون أن السيد «هويدا» يستطيع الدفاع عن نفسه، وسوف يخرج من هذه المحاكمة مرفوع الرأس.

وأنا الآن أرى وفاة «عباس هويدا» المروِّعة ـ قتل في السجن على يد الجمهورية الإسلامية ـ مأساة. ولكن أيا منا لم يفترض أن اعتقاله، الذي كان حركة سياسية خالصة اتخذت في مناخ ارتباك عظيم، سوف تنتهي بتلك الطريقة. ولا يمكن أن يخفف من حزني التسليم بقسوة التاريخ التي لا يمكن توقعها. وجاء تعيين جنرال على رأس الحكومة بنتيجة فورية نافعة، فاستؤنف العمل في مصنع تكرير «عبدان»، وتوقفت المظاهرات كما لو أن في الأمر سحرًا، وبدت شوارع «طهران» لبضعة أيام كما لو أنها عادت تقريبًا إلى طبيعتها. وفشل الإضراب العام الذي دعا «خوميني» إلى تطبيقه في ١٢ نوفمبر.

وخلال هذه الأسابيع الرهيبة لم أكن قادرة على تقدير تأثير رجال الدين الهائل على

عقول الناس[1]، فقد فتح جنديان شابان ـ كانا قد انضما إلى الأصوليين الإسلاميين ـ هما الرقيب «عبيدي» والجندي «سلامات ـ بخش» النيران على مجموعة ضباط في قاعة الطعام بحامية الحرس الإمبراطوري. وقيل لي إن عددا قليلا منهم للغاية أصيب إصابات بالغة ـ كان هناك ثلاثة عشر قتيلا وثلاثين مصابا ـ فذهبت إلى هناك فورًا للمساعدة والتخفيف بقدر المستطاع. كان الأمر مؤلما للغاية. ولا أستطيع أن أنسى بشكل خاص كيف نظر إليَّ واحد من الرجال وفي عينيه ولاء شديد وأنا أمسك بيده الباردة. ومات عقب بضع ساعات. وأُعْدِم القاتلان. وعُرِضت عليَّ صورة من آخر رسالة كتبها الجندي «سلامات بخش» لزوجته، وقال: «**فعلت ذلك وفقًا لأوامر «خوميني». وسوف أذهب إلى الجنة. ولكن لا تقلقي لن أنظر إلى الحور العين. سوف أنتظرك هناك**».

وخلال نفس الفترة نجح المتمردون الأصوليون بالتحديد في خداع الكثير من العقول البسيطة أو الساذجة من خلال نشر قائمة تضم نحو ألف من الشخصيات البارزة أنصار الملكية (ضباط كبار، ورجال أعمال، وساسة) لإظهار حجم الأموال التي نهبها كل منهم من البلاد. وكان من الواضح أن الأرقام المبالغ فيها كاذبة، لكنها كافية لإثارة الرأي العام. وفي محاولة من رئيس الوزراء الجديد الجنرال «أزهري» لإبطال مفعول هذه الدعاية بسرعة، رد ببيان يعلن أن الأشخاص الموجودين على القائمة ممنوعون من مغادرة البلاد! وكان ذلك سقوطا في الفخ، حيث أعطى مصداقية لمجرد كذبة، وكان من الواضح أن تأثيرها كارثي[2].

ولم يدم الهدوء بعد تعيين الجنرال «أزهري» طويلا. فمع بداية شهر الحداد

---

(١) في ١٨ نوفمبر ١٩٧٨ ذهبت مع ابنتي «فرح ناز» وابني «علي رضا» إلى كربلاء والنجف، المدينتين المقدستين في العراق لدى الشيعة. وكنت هناك لمقابلة آية الله الكبير «خوئي»، الذي يتمتع بنفوذ كبير لدى الطائفة الشيعية. واستقبلني في حجرة صغيرة حيث يعيش في بساطة شديدة، وأعطاني خاتما من العقيق الأحمر عليه أدعية منقوشة هدية للملك. وطلب مني أن أبلغه أنه سيدعو من أجله ومن أجل نجاحه في خدمته للإسلام وإيران.

(٢) ولنفس الهدف، وهو خداع الناس، ظهر ذات يوم تسجيل صوتي للشاه أثناء اجتماع مع مستشاريه العسكريين وهو يعطي الأمر بإطلاق النار على الحشود، ويطلب الاحتفاظ بالبترول كاحتياطي لإسرائيل. واستمعت بنفسي إلى الشريط، كان تقليدا متقنا لصوته يقول هذه الكلمات التي تدين قائلها. وكانت بقية الشريط مقتطفات من خطب فعلية ألقاها زوجي. وأرسلنا الشريط إلى معمل أمريكي لتحليله، ولكن في الوقت الذي وصل فيه الدليل على الخدعة كان الضرر قد وقع بالفعل.

(محرم)[1] في الثالث من ديسمبر اشتعلت البلاد مرة أخرى. واستطاع «آية الله خوميني» من «نوفل لو شاتو» إغراق إيران بأشرطة التسجيل التي تحوي خطبه الملتهبة[2]. والآن صار الناس في آلاف البيوت يستمعون إلى هذا الرجل المتعصب بخشوع ـ كما لو كانوا يستمعون إلى مواعظ دينية ـ وهو يدعوهم إلى تدمير كل شيء حتى يمكن إقامة نظام إسلامي جديد. وبدأ الناس كل مساء في الساعة الثامنة تماما يتسلقون الأسطح بتعليمات من «آية الله» ويهتفون معًا: «**الله أكبر**». وبالنسبة لي كان لهذا الدعاء تأثير مهدئ منذ كنت فتاة صغيرة؛ واعتقدت وقتها أنني كلما سمعته في المستقبل سوف يرسل رجفة بين ضلوعي. ولا يمكن أن يكون الرجال الذين استطاعوا أن يفعلوا ذلك ـ تحويل دعاء إلى صيحة كراهية ـ رجالا مخلصين لله.

وفي التاسع والعاشر من ديسمبر طالب «آية الله خوميني» بخروج مظاهرات في أنحاء البلاد إحياء لذكرى استشهاد الإمام الحسين في تاسوعاء وعاشوراء. ومرة أخرى واجهنا السؤال: كيف نرد؟ ولمّا كانت الأحكام العرفية مطبقة حبَّذَ الجنرال «أويسي» منع المتظاهرين من النزول إلى الشوارع. وقال إنه مستعد للدخول في مواجهة، ولكن زوجي المخلص لمبادئه رفض. ومن ثم سحب الجيش دباباته من وسط «طهران»، واحتفظ فقط بتواجد سري قرب المباني الحكومية. واحتلت الحشود المدينة، وظلت لمدة يومين تهتف بسقوط الملكية. وسمعنا للمرة الأولى مطالب المتمردين بإقامة جمهورية إسلامية.

ويتذكر الملك: «**ثم بدأت الإضرابات بهدف هدم البلاد. فالكهرباء كانت تنقطع عدة ساعات، وحدثت إضرابات في قطاع المواصلات، وفي المياه والبترول، ثم البنوك، والوزارات، وتعطلت جميع القطاعات الرئيسية، الواحد إثر الآخر أو كلها معا، حتى تشل البلاد، وتلقي بالحشود التي تركت العمل إلى الشوارع، وتشحن الصدور بالمرارة. وهدد زعماء المتمردين العمال وغيرهم من المضربين بإلحاق الأذى بهم أو بعائلاتهم. ونحن نعرف جيدًا أن الأمر لا يحتاج سوى بضعة أفراد يتمركزون في أماكن استراتيجية في محطات الكهرباء حتى ينقطع التيار. ونعلم جيدا أن نفس**

(١) في يومي التاسع والعاشر من محرم من كل عام يحيي الشيعة ذكرى استشهاد الإمام الحسين بن علي رضي الله عنه في موقعة كربلاء عام ٦١ هجرية. (المترجمة).

(٢) كان لدى «خوميني» عدة خطوط تليفون تحت إمرته. أما شرائط خطبه فكانت تسجل في باريس وتأتي إلى «طهران» عبر طائرات «إير فرانس» أو عبر ألمانيا الشرقية.

الأمر ينطبق على محطات ضخ البترول. ويوضح هذا العدد القليل كيف أمكن تنسيق إضراب المتمردين بهذا الإتقان التام».

وفي نهاية ديسمبر تنحى جنرال «أزهري» الذي عمل رئيسا للوزراء ستة أسابيع فحسب عن منصبه بعد أن أصيب بأزمة قلبية. وكانت البلاد وقتها في شلل تام، وتقترب من الاختناق: صادراتنا البترولية توقفت في ٢٦ ديسمبر، ومنذ ذلك اليوم لم يغادر برميل واحد إيران.

عندها فكر الملك في دعوة «غلام حسين صديقي» لرئاسة الحكومة. وكان وزيرا للداخلية في حكومة «محمد مصدق»، ويتمتع باحترام كبير في كل مكان. وقَبِل السيد «صديقي»، لكنه أراد أسبوعين لتشكيل حكومته، وهي فترة طويلة بالنظر لوضع البلاد الملح.

وعند هذا المنعطف طلب الجنرال «أويسي» والجنرال «مقدم» ـ الذي كان قائدا للأمن ـ لقائي. وأخبراني أن الموقف خطير للغاية، وهما يريان أن المتمردين ربما يهاجمون القصر إذا لم يعيِّن الملك رئيس وزراء جديدًا خلال يومين أو ثلاثة أيام. وطرحا اسم «شابور بختيار»، موضحين أنهما يعتقدان أنه سيقبل. ونقلت اقتراحهما للملك، الذي لم يعارض هذا الاختيار، فرئيس الجبهة القومية يمثل الجماعة المعارضة التي ظلت مخلصة للدستور. وكان بعض الأشخاص قد تحدثوا بالفعل إلى السيد «بختيار»، ولكن بدا أنه لا يريد المجيء إلى القصر من أجل اجتماع أوَّلي. ومن ثم اقترحت على زوجي أن أقابله بنفسي في منزل خالتي، «لويز قطبي»، التي تنتمي إلى عائلة «بختيار». ووافق الملك وتم اللقاء. ولم أكن أعرف السيد «بختيار» الذي بدأ مباشرة الحديث عن الفساد وانعدام الحرية. وأوضحت له أن البلاد في خطر عظيم. وأبلغني أن من بين شروط قبوله رئاسة الحكومة إطلاق سراح «كريم سنجابي»، وهو من المقربين إليه في قيادة الجبهة القومية. ونقلت حديثنا إلى الملك، الذي أمر بالإفراج عن السيد «سنجابي»، الذي كان أول ما فعله ـ للأسف ـ الإشادة بـ«خوميني»، وسافر بعدها إلى «نوفل ـ لو ـ شاتو».

وبعد تلبية هذا الشرط، جاء السيد «بختيار» إلى القصر. ويتذكر زوجي:

«وهكذا استقبلته. أعتقد أن جنرال «مقدم» بنفسه هو من أحضره إلى قصر

«نياوران» ذات مساء خارج ساعات الاستقبال المعتادة. وأجرينا حديثا مطولًا. وكرر السيد «بختيار» إبداء مظاهر الولاء للملكية، وانطلق يثبت لي أنه الشخص الوحيد القادر على تشكيل حكومة في الأوقات العصيبة التي نواجهها. وعندما أعلن أنه يريد أن يحترم الدستور بدا اقتراحه مقبولا لي».

وفي نفس الوقت[1] كانت بعض الشخصيات المهمة، ومنها سفيرا الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى، تحث الملك على مغادرة إيران لفترة، معتقدين أن رحيله سوف يساعد في تهدئة الأمور. وأيد السيد «بختيار» أيضا هذا الرأي. وسرعان ما أصبحت ألتقي كثيرا مع قادة القوات المسلحة، بوجه خاص، الذين كان الملك قائدهم الأعلى. وشاهد ضباطنا وجنودنا عددًا كبيرًا من مسئولي البلاد وكبار رجالها يفرون من البلاد، بعدما تعرضوا لمضايقات استمرت شهورًا. ومن ثم رأوا أن الملك لابد أن يظل في موقعه. وبصورة خاصة قال لي رئيس الأركان العامة الجنرال «عباس قره باغي»: «**إذا رحل جلالته، لن يتحمل الجيش**». واقترح بعض الضباط، ومن بينهم الجنرال «بادري» والجنرال «خسروداد»، أن يذهب الملك إلى جزيرة «كيش» بينما يصلحون هم الموقف. وكانوا مخلصين ومستعدين للتضحية بأنفسهم، إذا لزم الأمر.

واستقبلت أيضًا وفدًا من أعضاء البرلمان الذين قدموا نفس الالتماس. بل إن بعض هؤلاء النواب المنتخبين، وسط هلعهم من فكرة رحيل الملك، اقترحوا حتى أن يحشدوا الناس في مناطقهم ويقوموا بتسليحهم لمواجهة المتمردين. وخلال هذه الأسابيع الأخيرة تلقى معظم هؤلاء الضباط ونواب البرلمان تهديدات بقتلهم وقتل زوجاتهم وأبنائهم. وسوف يقتل بعضهم في الشهور الأولى من الثورة الإسلامية.

وفي الحقيقة لم أعتقد أن رحيل الملك كان هو الحل لتخفيف الكراهية العمياء

---

(١) في ذلك الوقت وصل إلى «طهران» الجنرال «روبرت إي. هويسر» (٥ يناير ١٩٧٩). ولم يكن هناك شيء غير معتاد في مثل هذه الزيارة. فإيران كانت عضوا في حلف بغداد (الحلف المركزي). وعرفت بعد ذلك أن مهمته كانت مطالبة الجيش بالبقاء على الحياد. وبعد سنوات عديدة أبلغني جنرال «ألكسندر هيج»، رئيس قوات الناتو، أنه استقال احتجاجا على مهمة جنرال «هويسر»، وكان يرى أن الجيش ينبغي أن يتحرك لمنع انزلاق إيران إلى الفوضى. ورأى جنرال «هيج» أنه كان ضروريا الحفاظ على الاستقرار في المنطقة.

التي يُعبَّر عنها يوما إثر الآخر، لكن زوجي صار مقتنعًا بأنه ينبغي قبول هذا الحل إذا كان سيمنع المزيد من إراقة الدماء. فأي أفكار كان من الممكن أن تملأ رأس رجل وهب كل لحظة من حياته، على مدى سبعة وثلاثين عاما، لبلده وشعبه، وبذل الكثير لانتشال إيران من التخلف، وهو يرى نفسه الآن مرفوضا بصورة ظالمة؟! والأكثر من ذلك أنه كان مجْهَدا بسبب المعركة التي كان يخوضها على جبهتين طوال ذلك العام الرهيب ١٩٧٨؛ على الصعيد العام في مواجهة عدو عنيد هو «آية الله خوميني» لأنه يخفي نواياه الحقيقية، وعلى المستوى الخاص ضد مرضه.

وعلى الرغم من الصعوبات المتزايدة لم يوقف بروفيسور «جورج فلاندران» رحلاته إلى «طهران». وتأخذني اليوم إعادة قراءة ما كتبه للبروفيسور «جان برنار» إلى الجو الرهيب الذي خيم على تلك الشهور الأخيرة في إيران:

«بدأ الوضع يتعقد، بعد وفاة السيد «علم»، وبالتحديد الزمني عام ١٩٧٨. ففي رحلتنا الأخيرة إلى هناك معًا سوف تتذكر بالتأكيد الصعوبات التي واجهتنا في العودة إلى القصر واللقاء عندما كنا ننتظر صديقنا «صفويان»، ونحن ننتظر في الشارع سيارة الجنرال «عيادي» التي من المفترض أن تعبر بنا عبر مواقع الحرس.

وفي زياراتي التالية، حتى نهاية ١٩٧٨، أصبح هذا النوع من المشكلات وغيرها متكررا على نحو متزايد. ونجم عن وفاة السيد «علم» ثم انسحاب الجنرال «عيادي» الانهيار التدريجي للتنظيم الذي خدمنا جيدا وبسرية تامة حتى ذلك الوقت. غير أن الشكل الأساسي استمر، وبقيت جميع التفاصيل المعتادة لوصولنا إلى المطار ومغادرتنا له كما هي، تعمل بصورة آلية. ومع ذلك صارت هذه الأيام صعبة أكثر فأكثر، حيث لم أعد أستطيع الوصول إلى مقر الإقامة السري الذي اعتدنا البقاء فيه، وكان عليَّ أن أذهب إلى الفندق وأحاول عدم مغادرة حجرتي كثيرا. وكلما صارت الأمور أسوأ قلَّت رغبتي في الخروج، بسبب الاضطرابات، وانقطاع التيار الكهربائي، ومظاهرات الشوارع ـ التي تقترب أحيانا من الشغب ـ مما حوَّل حتى زياراتي القصيرة التي ينبغي أن أقوم بها للقصر إلى مشكلة بالفعل.

أما بالنسبة للمريض فظل لطيفا كما هو دائما، لكن الزيارات صارت قصيرة، ويستطيع المرء أن يشعر ـ خاصة في لقاءاتنا الأخيرة ـ أنه متوتر ومشغول للغاية. وعلى

المستوى الطبي تركزت المناقشات أساسًا على أنواع المهدئات العصبية التي ينبغي أو لا ينبغي وصفها. وكان صديقنا «صفويان» بجانبي عادة ـ ولكن ليس دائما ـ خلال تلك الاستشارات الأخيرة في إيران. وكانت آخر رحلاتي في نهاية ديسمبر ١٩٧٨، هي زيارتي التاسعة والثلاثين لجلالته (منها خمس وثلاثون زيارة في إيران).

وفي تلك المناسبة الأخيرة صار من الصعب التعرف على المريض تقريبًا، فمن الواضح أنه يعاني من توتر يبدو رهيبا. ولم يتوقف عن الاستماع إلى الأنباء من الراديو بينما أقوم بفحصه صباح ذلك الأحد».

نعم، كان الملك مجهدا. فقد اتخذ الآن لتوه القرار الحاسم بمغادرة البلاد لفترة. لكنني كنت متأثرة للغاية بحزن التابعين المخلصين، خاصة الجيش. وأدى بي ذلك لأن أسأله إذا كنت أستطيع أن أبقى في إيران. وقلت له: «**لن أفعل شيئًا. لن أستقبل أحدا، لكنني سأبقى هنا في القصر، كرمز لحضورك**».

فأجاب في حزن: «**لست مضطرة لأن تكوني جان دارك**»، وطلب مني أن أبقى إلى جواره.

وجاء يناير، وبدأ الجليد يتساقط بغزارة فوق طهران. ويكتب زوجي: «**الأيام الأخيرة كانت أياما كئيبة وليالي مؤرقة. كان عليَّ أن أواصل العمل، مدركًا أن موعد رحيلنا يقترب**».

وخيم الحزن العميق تدريجيا على القصر بكامله. كان الناس يقومون بأعمالهم كالمعتاد، ولكن كالكائنات الآلية، وأحيانًا أمر بواحد منهم يبكي في صمت. قلت لهم إننا سنعود. وأرادوا تصديق ذلك، مثلما أردنا تماما، لكننا شعرنا من أعماقنا بنفس الرجفة في قلوبنا. أي اضطرابات درامية يخبئها لنا التاريخ؟!

القسم الرابع

الفصل الثامن عشر

تركنا في طهران الرياح الجليدية. وعندما هبطنا في «أسوان» بعد عصر ذلك اليوم ١٦ يناير ١٩٧٩، كانت تهب على المدينة نسمات خفيفة تشبه نسمات الربيع تقريبا. وكان الرئيس «السادات» وزوجته في انتظارنا عند منزل سلم الطائرة. واستقبلانا بحنان خاص، لعلمهما بمدى مصيبتنا، ولكنهما لا يعرفان بمرض الملك. وعندما انتهى زوجي من هبوط سلم الطائرة ببطء، تقدم الرئيس المصري واحتضنه، وقال له: **«اطمئن، لأن هذا البلد بلدك، وإننا إخوتك وأهلك»**.

ثم كشف الملك الذي كان بادي الإجهاد عن بعض المشاعر التي أحسها، ووقف الرجلان للحظة ينظر كل منهما إلى الآخر. ثم قبلتني «جيهان السادات» بحنان وكلمات ترحيب دافئة، وعندما ألقت ابنتها «جيهان» ذراعيها حول عنقي شعرت فجأة أنني وجدت عطف الأسرة الحقيقية بعد شهور من التوتر وتحطم القلب.

وكانت الروابط بين زوجي و«أنور السادات» تعود إلى السبعينيات، عندما خرج الرئيس المصري على دبلوماسية سلفه، واستهل تقاربًا مع الولايات المتحدة قاد إلى اتفاقيات «كامب ديفيد». وقبل ذلك قام الرئيس «السادات» بمبادرة الذهاب إلى القدس في نوفمبر ١٩٧٧، في زيارة اعتبرت منذ ذلك الحين حدثًا تاريخيًّا. وأيد الملك إقامة سلام دائم بين البلدان العربية وإسرائيل، وكان دائما على اتصال قوي بالرئيس «السادات» خلال السبعينيات. وفي ربيع ١٩٧٥، أقنع إسرائيل بإعادة حقول بترول سيناء إلى مصر. علاوة على أن إيران كانت تدعم بانتظام التنمية في مصر بتقديم العديد من المنح والمعونات، وبصفة خاصة لإعادة فتح قناة السويس التي دُعِي إلى الاحتفال بها نجلنا «رضا». وكنت أعرف «جيهان السادات» من خلال

لقاءاتنا الرسمية، لدرجة أننا أصبحنا صديقتين حقيقيتين بصرف النظر عن أنشطتنا الرسمية. وتحادثنا تليفونيا بصورة منتظمة خلال خريف ١٩٧٨، وكانت هي من دعتنا للحضور إلى «أسوان». قالت ببساطة: «**فرح، تعالي، نحن هنا في انتظاركم**». أحببت الطريقة الخاصة التي ذكرت بها اسمي الأول، فيها دفء وحنان حقيقي.

وأراد الرئيس «السادات»، من أجل إبداء عظيم اهتمامه، أن يحظى حضورنا بكل مظاهر الزيارة الرسمية العادية. ومن ثم طلب من المصريين الترحيب بنا، وهكذا اصطف حشد كبير في طريقنا. ورفرف علما بلدينا في كل مكان، والناس يحملون صورًا للملك مثلما فعلوا خلال آخر زيارة لنا. وفي مساء ذلك اليوم أقام «السادات» حفل عشاء على شرفنا.

فإلى أين كنا ذاهبين؟! وكم ستطول هذه الإقامة في أسوان؟! أراد الرئيس «السادات» أن نبقى في مصر مادام الموقف يتطلب ذلك. فهل كان باستطاعتنا أن نفعل ذلك من دون أن نسبب له صعوبات خطيرة مع المعارضة الأصولية المتعصبة في بلده؟! لم أرد البقاء في الولايات المتحدة أو بريطانيا العظمى؛ رأيت أن الإيرانيين سيأخذون الأمر على محمل السوء، وخشيت أن نجد في الولايات المتحدة نفس المظاهرات، والإهانات تصل حتى بابنا. وهنا استقبلنا الناس كأصدقاء على الأقل. نعم، كنت أتمنى أن نبقى. وكتبت في دفتري منتصف تلك الليلة الأولى: «**من الفظيع ألا يكون لديك جدول أعمال، وألا تعرف إلى أين تذهب. كم ستطول مدة ترحالنا؟ شهرا؟ شهرين؟ وإذا لم نعد إلى إيران فإلى أين سنذهب؟! وماذا سيحدث للأولاد؟!**».

في ذلك الوقت كان الأربعة في الولايات المتحدة، فالصغيران «ليلى» و«علي رضا» تركا إيران في ١٥ يناير قبل يوم فقط من مغادرتنا، واستقلا طائرة النقل العسكري «سي ١٣٠» بصحبة والدتي والآنسة «كولروخ» مربية «ليلى» وضابط هو الكولونيل «حسين همرز». ولأن الطائرة غير معدَّة لنقل مسافرين، أُجْلِسوا في قمرة القيادة خلف الطيار، وأعد لهم طباخ القصر قدرا من الأرز، تم تقديمه في أطباق فناجين القهوة لأنه لم يكن على الطائرة أطباق من الخزف. وكانت الرحلة طويلة جدًا بالنسبة لطائرة «سي ١٣٠». وهبطوا في «مدريد»، حيث ذهب الضابط لشراء بعض الطعام من المطار. ثم ذهبوا إلى نيويورك. ومن هناك إلى «لوبوك» في ولاية تكساس، حيث يقيم «رضا» منذ عدة شهور بينما يتلقى تدريبات طيار مقاتل. وقبل شهر لحقت «فرح ناز»

بـ«رضا» لقضاء عطلات أعياد الميلاد معه. وكانا في «هاواي» مع السفير الإيراني، عندما بلغهما أننا غادرنا «طهران». فحاولا أولا الاتصال بنا من الفندق الذي يقيمان به، وبمجرد أن عرفا ما حدث، عادا فورا إلى «لوبوك» لاستقبال «ليلى» و«علي رضا». وفي ذلك الوقت كان المنزل محاصرا بالصحفيين ومصوري الصحف، ومصوري التليفزيون والسينما. وخشية وقوع أعمال عدائية قررت السلطات الأمريكية مؤقتا استضافة أبنائنا الأربعة في القاعدة العسكرية حيث يتدرب «رضا».

وجرت استضافتنا في فندق «أوبروي»، المبني على جزيرة وسط النيل، ومن هناك صرنا أخيرا قادرين على الاتصال بالأولاد. كنا قلقين عليهم، وحاولوا بشجاعة بالغة طمأنتنا. وكان الكبيران قلقين علينا، فقد شاهدا بوضوح عداوة الولايات المتحدة لنا. وظلت «فرح ناز» تقول: «**لا تجيئا إلى هنا، إنه غير آمن**». وإذا بالملك، الذي ظل يعمل طوال حياته حتى آخر لحظة، يجلس الآن صامتًا مشدوهًا ويغرق في التفكير. وكان يطرح في حزن نفس السؤال على الأشخاص القليلين الذين اتصلوا به، ومنهم الرئيس السابق «جيرالد فورد»: «**لماذا؟!**». وجاء أيضا الملك «قسطنطين» ملك اليونان والملكة «آن ـ ماري» للتعبير عن صداقتهما، ومواساتنا بحرارة. ومن جانبي واصلت المهمة التي بدأتها في الطائرة: الكتابة ودعوة العالم إلى مساعدة شعبنا. ثم حاولت الاتصال بأقرب أصدقائنا في إيران، لكن البلاد كانت انهارت، مما جعل الاتصالات صعبة للغاية. كنا ننتظر لساعات، وأتذكر جهاز التليفون الأحمر وفي نهايته سلك طويل ننتقل به من حجرة لأخرى.

وخلال هذه الأيام الأولى التي أمضيتها فيما يشبه الذهول عاود البروفيسور «فلاندران»، ومن الواضح أنه جدير بالاعتماد عليه، زيارة زوجي. وكنت نسيت زيارته التي تذكرتها عندما قرأت السرد الذي كتبه للبروفيسور «جان برنار»:

«كان جلالته غادر بلده. وأبلغني «صفويان» أننا يجب أن نذهب ونراه في أسوان. وكان ذلك في ٢٠ يناير، بعد أربعة أيام فحسب من رحيله عن إيران. وانطلق كلانا إلى القاهرة، في ظروف ملتبسة للغاية، لكن ذلك كان فقط البداية لمجموعة متنوعة من المغامرات الكوميدية. ولإضفاء المزيد من السرية على زيارتي لم يهيئ لي «صفويان» أي ترتيبات، ووصلت ليلا، واضطررت للانتقال من فندق لآخر في سيارة أجرة للعثور على مكان للنوم. وبعد منح موظف الاستقبال في «الميريديان» رشوة

مناسبة منحني أخيرا واحدة من كابينات الاستحمام حول حمام السباحة بهذا الفندق على ضفة النيل. وبعد لقاء «صفويان» في نفس الفندق اليوم التالي أخذنا طائرة معًا إلى أسوان. وبمجرد أن وصلنا كان علينا أن نعبر فرع النيل حتى الجزيرة التي يقيم بها جلالته في فندق «أوبروي».

لم يكن هناك أي ترتيبات لتوصيلنا إلى هناك، ولا حتى ترتيب للسرية على الأقل. فلا يمكنك أن تقول إن شروط السرية كانت منسقة! فقد تمركز عدد من الجنود المصريين على طول النيل، وأمام الفندق استطعنا أن نرى رجالا عسكريين في زي التشريفة بالمعاطف الحمراء الواسعة في انتظار وصول الرئيس «السادات». وعلاوة على ذلك عرفنا أن الرئيس السابق «فورد» متوقع الوصول أيضًا! وبدا أن كل ما نستطيع عمله هو الكشف عن وجودنا أو المغادرة. وأسدى إليَّ صديقنا «صفويان» التكريم المريب، بأن قرر أنني أقدر منه على التحدث بالإنجليزية، لذلك فأنا من ينبغي عليه الاتصال تليفونيًا. وقررنا أن السبيل الوحيد هو الاتصال بجلالة الملكة، فهي الشخص الوحيد الذي يستطيع تدبير الأمر من دون أن ينكشف. وهكذا اتصلت من تليفون حانة محلية صغيرة بمكتب استقبال الفندق، قائلا: «هل لي أن أتحدث إلى الملكة «فرح»؟» ولم يكن الأمر صعبًا، فبعد بضع دقائق سمعت صوتا مميزا للغاية، وتعرَّفَتْ علي فورا، وقالت: «آه! أنت هنا؟!» فرددت:

ـ نعم، لكننا على ضفة النهر ولا نستطيع أن نعبر.

ـ عليك أن تستقل القارب!

أوضحت لها أن الطوق الأمني لن يسمح لنا بالمرور من دون بعض الوثائق. ففهمت جلالتها الأمر وضحكت، قائلة إنها سوف ترسل من يأتي بنا.

وجاء ضابط مصري في زورق آلي صغير، واصطحبنا تحت أعين حرس الشرف حتى بهو الفندق المهجور تقريبا. واتصل «صفويان» مباشرة بالإيرانيين في الحاشية الملكية وانطلق إلى أعلى، وتركني في البهو مع حقيبة يدي الصغيرة. وانتظرت هناك فترة طويلة، ربما ساعة... وفي النهاية جاء شخص ما ليبلغني رقم غرفتي ويأخذني عبر الفندق الخالي تقريبا. واضطررت أن أنتظر هناك مرة أخرى لفترة طويلة من دون أي معلومات عما يحدث. وأهم ما أتذكره أن الحجرة كانت باردة للغاية. وفتحت النافذة،



عندما توَّجني الملك في ٢٦ أكتوبر ١٩٦٧، شعرت بأنه يتوِّج جميع نساء «طهران»



الإصلاح الزراعي. الملك
يقدم سندات ملكية
أراضيه هدية للفلاحين

في رحلة داخل البلاد، الحشود تندفع إلى السيارة في تعبير تلقائي عن الفرحة. وكل شخص يحاول تسليمي خطاب



في «لوريستان»، بجوار شلال مياه. ربطت بعض الفتيات في حب عمامة الرأس التقليدية فوق رأسي، وهي تتكون من سبع أوشحة على الأقل

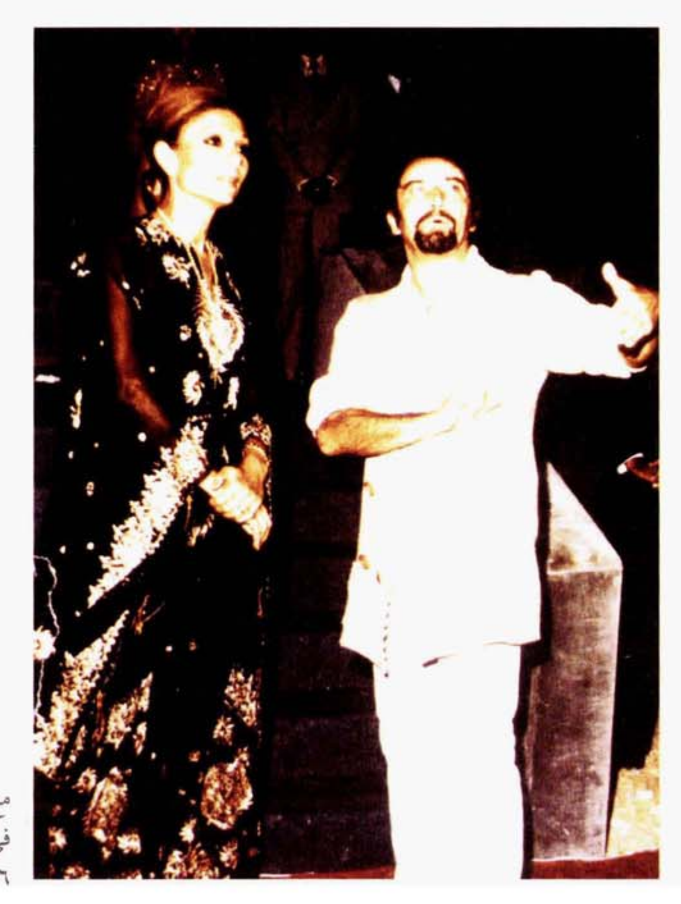
مع مرضى الجذام

مع أطفال مدرسة
للقبائل البدوية



ترحيب مؤثر من نسوة عقب زلزال

أثناء إحدى زياراتي إلى ملجأ للأيتام. أتساءل كثير عما ألم بهم



مع «موريس بيجار»
في مهرجان «شيراز»
١٩٧٦

أولى زياراتي للولايات المتحدة مع الرئيس و«جاكي كيندي»





الرئيس «ريتشارد نيكسون» وقرينته في زيارة رسمية «لطهران»



أولى زياراتي الرسمية إلى باريس. استقبلنا جنرال «ديجول» وقرينته في قصر «الإليزيه»





واحـدة مـن رحـلات عـديـدة للاتحاد السوفيتي، مع «ليونير بريجنيف» و«أليكساي كوسيجين» و«نيكولاي بود جورني».



في زيارة رسمية إلى الهند، ورحبت بنا أنديرا غاندي التي أعجبت بها للغاية

الأمير «خوان كارلوس» والأميرة «صوفيا» في زيارتنا بـ«طهران»

الملك «الحسن الثاني» في «طهران»



مع عاهل الأردن «الملك حسين» والملكة «صوفيا» أثناء الاحتفال في «برسبوليس»



١٦ يناير ١٩٧٩. ونحن نغادر إيران، التأثر يسيطر على الملك



توليت مهمة تجديد الروابط القديمة التي كانت قائمة بين الصين وإيران من خلال الذهاب إلى الصين في سبتمبر ١٩٧٢ على رأس وفد يثير الإعجاب...

الرئيس «السادات» وزوجته يستقبلاننا في المطار عند وصولنا إلى أسوان. طوال فترة المنفى سوف يكونان الوحيدين اللذين يقدمان يد المساعدة. وبعد وفاة زوجي بعام، اغتيل «أنور السادات» الذي كان كالأخ بالنسبة لي والعم لأولادي، على يد متعصب. ونكبنا جميعا بالحزن مرة أخرى

في حجرتنا بفندق «أوبروي» في أسوان



في المنفى. بعد أن انفصلنا لعدة شهور، التقينا مرة أخرى بأولادنا في المغرب

«كويرنافاكا» في جنوب المكسيك. التقط لنا «رضا» الذي جاء من الولايات المتحدة لرؤيتنا، هذه الصورة ليأخذها معه



في جزيرة «كونتادورا»، بجوار مدينة «باناما»، في ١٩٧٩. يتصارع الأطباء، وتتدهور صحة الملك، ويصيبني قلق رهيب

آخر صورة التقطت لنا كأسرة. انضم إلينا الأولاد في القاهرة قبل أول عملية يجريها زوجي الذي احتفظ بابتسامته رغم مرضه الشديد

الجنازة الرسمية في القاهرة في ٢٩ يوليو ١٩٨٠

في الصف الأول عن يساري: «ليلى» و«فرح ناز» و«علي رضا». وعن يميني: «ريتشارد نيكسون» و«رضا» والرئيس «أنور السادات»

في قصر القبة، بالقاهرة في ٣١ أكتوبر ١٩٨٠. «رضا» أصبح في العشرين، وخلف والده رسميا

مازلت في قصر القبة بعد فترة قصيرة من وفاة زوجي. منغمسة في البريد

«فرح ناز» التي درست علم النفس في جامعة «كولومبيا»، حصلت لتوها على الدرجة الجامعية

«علي رضا» (في الصف الثاني) حصل لتوه على درجة الماجستير في التاريخ الإيراني قبل الإسلام

آخر صورة لي مع «ليلى»





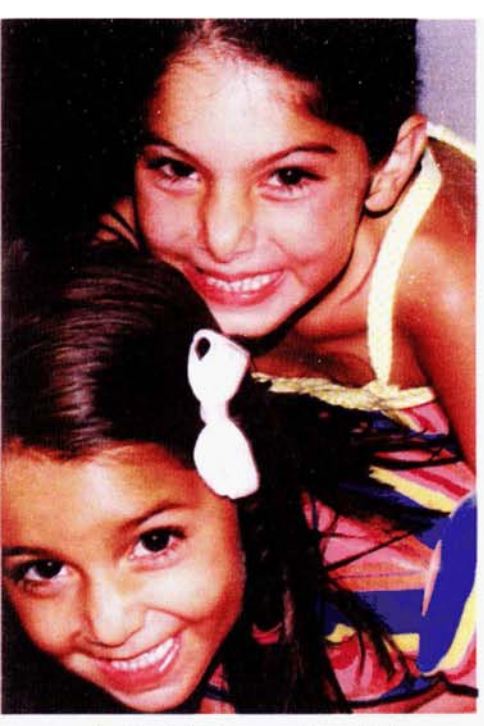
أمام منزلي في «جرينتش» (الولايات المتحدة)، «رضا» وياسمين يطلقان الحمام، رمزا لحسن الحظ بمناسبة زواجهما في ١٢ يونيو ١٩٨٦



في الولايات المتحدة مع «نور»، حفيدتي التي انفجرت في الضحك رغم أنه يبدو عكس ذلك



والدتي، أنا سعيدة للغاية لأنها عاشت حتى شهدت ابنتَيْ حفيدها



«نور» و«إيمان» اللتان تضيء ابتساماتهما حياتي

«ياسمين» زوجة ابني، مبتسمة بين «نور» و«إيمان» في يوم حصولها على الشهادة بمناسبة استكمال دراستها للقانون



القاهرة، في يوليو ٢٠٠٠ أحيينا الذكرى العشرين لوفاة الملك. وشاهدت الصغيرتان ضريح جدهما للمرة الأولى



معا في نيويورك للاحتفال بعيد ميلاد «علي رضا»



في بيتي في ٢٠٠٣ لنحتفل بعيد النوروز (العام الجديد) الإيراني. وفي الصورة «علي» و«ياسمين» و«نور» و«إيمان»



محاطة بأسرتي احتفالا بعيد ميلادي الستين في «جرينتش»، بـ«كوكنيكتيكت»، ومن حولي «نور» و«رضا» و«علي رضا» و«ياسمين» و«ليلى» و«إيمان» و«فرح ناز» (من أعلى اليسار باتجاه سير الساعة)

وخرجت إلى شرفة تطل على النهر. وكانت سماء الشتاء صافية على نحو مدهش، في ضوء الشمس الساطع، غير أن الأشعة لم تصلني. وكنت متجمدا ومنزعجا، لكن الأمر يشبه حلما مفككا. شاهدت مبهورا زوجا من نسور العقاب يدور ويدور، ثم ينقضُّ فجأة على الماء. بل إنني أتذكر أن أحدهما أسقط فريسته بينما يحلق في الجو مرة أخرى.

ثم جاء أحدهم ليقتادني من دون أن يخبرني إلى أين نحن ذاهبون. ووجدت نفسي في حجرة جلالته. وكان صديقنا «صفويان» هناك بالفعل. إنها واحدة من اللحظات التي أحس ترددا في وصف ذكرياتي عنها، لأنها تتعلق بالخصوصية الشخصية للرجل الذي أمامي، فقد أعطاني انطباعًا أدهشني تماما؛ تسبب فيه مشهد هذا الرجل، الذي أضاء وجهه مع نظرة فرح لا تخطئها العين عندما رآني داخلا الغرفة. أخذت انطباعا بأنه سعيد حقا لرؤيتي هناك، وقال لي «صفويان» فيما بعد إن جلالته خشي أن يتخلى طبيبه عنه. فطبقا لما بلغني فإن بعض رجاله انفضوا من حوله بعد بضعة أيام فحسب. ومن الناحية التقنية لم يعد هناك الكثير مما يمكنني عمله، وليس هناك جديد يقال بشأن العلاج. وعندما تحدث انتابني شعور أنه يتأكد من أننا سوف نواصل خطة العلاج التي بدأناها قبل خمس سنوات. واختفت الآن النظرة المتوترة الذاهلة التي رأيتها في وجه هذا الرجل القلق قبل أسابيع قليلة. وأعتقد أنه تحدث إليَّ فترة أطول مما كان يفعله من قبل».

وفي ٢٢ يناير، بعد ستة أيام فقط من وصولنا إلى مصر، سافرنا إلى المغرب بالطائرة. وجاءت دعوة الملك «الحسن الثاني» كنجدة لزوجي، الذي لم يرغب في إساءة استغلال كرم ضيافة الرئيس «السادات»، على الرغم من أن الرئيس جدد دعوته. وأوضح بوجه خاص أن مصر أقرب إلى إيران من أجل تنظيم المقاومة التي كان يعد لها. وكان «السادات» من بين القليلين من قادة الدول الذين رأوا «خوميني» على حقيقته منذ البداية، واعتبره بالفعل نصابا[1].

وكانت علاقات مودة وصداقة تربط بيننا وبين الملك «الحسن الثاني» وأسرته. فبالإضافة إلى الزيارات الرسمية، كنا وجهنا دعوة لأبناء الأسرة العلوية[2] الحاكمة

---

(١) في الرابع من يناير ١٩٧٩ اجتمع الرئيس «جيمي كارتر» رئيس الولايات المتحدة والمستشار الألماني «هلموت شميث» ورئيس الوزراء البريطاني «جيمس كالاهان» والرئيس الفرنسي «فاليري جيسكار ديستان» في حزر جوادلوب، وقرروا تأييد تغيير نظام الحكم في إيران.

(٢) لقب اتخذته الأسرة المالكة التي بدأت الحكم في المغرب عام ١٦٦٦.

للإقامة معنا على بحر قزوين، وتعرفوا على أبنائنا جيدا وصارت بينهم علاقة طيبة. ولا شك أن عناية الملك «الحسن» بنا نبعت من هذه الروابط. وعند ترحيبه الحار بنا في مطار «مراكش» جاءت معه زوجته «لالا لطيفة»، في استثناء خارج على البروتوكول الملكي. وأنزلنا في فيلّا عصرية جميلة ذات حديقة واسعة. بنيت في واحة خارج البلدة، عند مدخل جبال «أطلس». وكانت والدة الملك «الحسن»، وشقيقتاه، وشقيقه في انتظارنا هناك للترحيب بنا. ومن نافذتي كنت أستطيع مشاهدة النخيل وأشجار البرتقال والزيتون، وتظهر عن بعد قمم الجبال مغطاة بالجليد. وجاء هذا الوضع الهادئ ملائما لزوجي، الذي أصابه الضعف بسبب هذه الرحلة الأخيرة، وعلى الرغم من عبء الأحداث الأخيرة شعرت بسعادة تقريبا عندما رأيته يخلد للنوم. كان علينا أن نستمتع بأي شيء طيب تقدمه لنا اللحظة الحاضرة، وألا نستسلم للقلق، الذي كان يدفع بي أحيانا إلى الجحيم.

وشرعت في الكتابة والاتصال بإيران مرة أخرى. ما الذي فعلته حكومة «شابور بختيار»؟ وفيم يفكر رجل الشارع؟ وهل مازالت المظاهرات مستمرة؟ وماذا يقولون عن الملك الآن؟

وذات يوم سمعت عن مظاهرة ضخمة نظمها أنصار الدستور في «طهران»، وملأني الخبر فجأة بالأمل. وقلت لزوجي، الذي ابتسم ابتسامة خفيفة. ما الذي كان يفكر فيه في أعماقه؟ هل فكر في أنه مازال يستطيع العودة لاستكمال مهمته وتثبيت أقدام إيران في القرن العشرين؟ عندما اقترح الرئيس «السادات» إحضار طائراتنا المقاتلة إلى مصر، قال لا بحسم، مع تعليق بسيط: **«القوات الجوية تنتمي لإيران»**. كان واضحًا أنه لن يفعل شيئًا لاستعادة السلطة بالقوة.. ولكن سينتظر، وفيًّا لمبادئه، حتى يدعوه الشعب للعودة.

وصار الناس الآن يتحدثون عن العودة الفورية لـ«آية الله خوميني». وجاء أحد الضباط الذين معنا إلى الملك مقترحا إسقاط طائرة هذا القائد الظلامي قبل وصولها «طهران». ورفض زوجي بشكل قاطع. ولم تكن هذه الفكرة جديدة، فقد اقترح بعض ضباط القوات الجوية نفس الخطة على الملك ونحن في إيران، ورفضها بالفعل.

وفي الأول من فبراير، سمعنا في الإذاعة أن «مرشد» الثورة وصل إلى «طهران».

وأردت أن أتصل فورا ببعض الأشخاص في إيران، لكن «الحسن الثاني» طلب مني ألا أفعل أي شيء، وأن أبقى هادئة لمدة يومين، وهو ما كان صعبا. ولاحظ زوجي أن رئيس الوزراء مازال في منصبه، والقوات المسلحة موالية للحكومة الدستورية. فهل سيقنع آية الله بإرشاد الأرواح؟ وسرعان ما اتضح أنه لن يفعل ذلك، حيث تجاهل رجل الدين عروض «بختيار» للمصالحة، وعيَّن حكومته وعلى رأسها «مهدي بازركان»، وهو أحد رفاق «بختيار» السابقين.

وبدأت المظاهرات المؤيدة لهذه الحكومة الإسلامية في السابع من فبراير. ورد «شابور بختيار» على ذلك بأن أطلق على برنامج «خوميني» أنه «عتيق وينتمي للقرون الوسطى». ولكن في ١١ فبراير، اقتحم مثيرو الشغب الثكنات واستولوا على الأسلحة، وبدأ الجنود الذين تعرضوا لمحنة صعبة طوال عام في الفرار. وفي اليوم التالي أطلق النار على العميد «عبد العلي بدري» قائد القوات البرية، واللواء «أمين بجلاري» قائمقام قائد الحرس الإمبراطوري، اللذين عارضا بشدة تحييد الجيش، في مقري عملهما. ولما ضيق الظلاميون الخناق على «شابور بختيار» استطاع الفرار إلى فرنسا، حيث سيقتل بوحشية بعد عشر سنوات (السادس من أغسطس ١٩٩١) بعد أن ناضل بلا هوادة وبشجاعة ضد الجمهورية الإسلامية.

وفي ذلك اليوم ١١ فبراير ١٩٧٩، استمع الملك وجميع الإيرانيين الذين برفقتنا إلى إذاعة «طهران»، ونحن في فيلَّا «مراكش»، وبينما كنت أعبر القاعة سمعت: «**انتصرت الثورة، وانهار معقل الديكتاتورية**». وظننت لثوان أننا انتصرنا. فبالنسبة لي كنا الأخيار وهم بالتأكيد معقل الفزع. ولسوء الحظ كانوا هم من فازوا للتو، فقد أطاحوا بآخر حكومة عينها زوجي.

وانتشرت في اليوم التالي أنباء مذابح الضباط في الشوارع، وأوامر الإعدام التي أصدرها المتعصبون. وكان الملك محطما ولاذ بالصمت لبعض الوقت. وبعد فترة قليلة استطعت أن أتصل تليفونيا بصديقة عزيزة، كان زوجها «نادر جاهنباني» الجنرال بالقوات الجوية قد أعدم لتوه. فقد أهانه أحد حراس الثورة، وكانت لديه الشجاعة ليصفعه على وجهه قبل أن يموت. كانت تنتحب، وأنا التي يجب أن تجد كلمات لتعزيتها لم أستطع إلا أن أبكي معها. وذلك المساء كتبت وأنا في غاية القنوط سطورا قليلة في دفتري: «**لا أحس أنني أملك القوة داخلي لمواصلة النضال. أفضل أن أموت**

بشرف من أجل وطني بدلا من أن أنجرف نحو الموت بفعل اليأس الذي يتملكني. يا إلهي العزيز، إذا كنت موجودا، امنحني القوة لأستمر».

وأدرك الملك بالطبع أن فصلا جديدا بدأ، وأنه لم يعد لدينا أمل في العودة إلى إيران حاليا، فدعا الطاقم العسكري للطائرة «بوينج ٧٠٧» التي أقلتنا من «طهران» حتى «مراكش» وأعفاهم من مهمتهم. كما أعفى أيضا بعض أفراد الأمن الذين رغبوا في العودة. وأراد أن تعاد الطائرة إلى إيران، فضلا عن أن جميع هؤلاء الأشخاص تركوا عائلاتهم خلفهم. وقال لهم: «**نحن لا نعرف متى سنعود. ولكن حان الآن وقت عودتكم.. وإذا حدثت أي متاعب عندما تصلون فأنا أسمح لكم بأن تقولوا إنني أجبرتكم على مرافقتنا تحت تهديد السلاح**». وكرر نفس القول للأشخاص الآخرين الذين أتوا معنا، وقرر بعضهم العودة إلى إيران، وسعى آخرون للحصول على حق اللجوء إلى أوروبا أو الولايات المتحدة. وعند وصولهم إلى طهران لم يضطر طاقم الطائرة لأن يعاني بسبب نقلهم لنا، فالطيار الذي كان ابن أحد الجنرالات انضم فيما بعد إلى المجاهدين. وكان قبل ذلك ـ في مفارقة تاريخية ساخرة ـ هو من أخرج اثنين من حلفاء «خوميني» «أبو الحسن بني صدر» و«مسعود رجوي» من إيران.

ومع ذلك تزايدت الإعدامات في إيران عقب محاكمات صورية، وسرعان ما ثارت مطالبات بعودتنا حتى يمكن «محاكمة» الملك. ونظرا لهذا الوضع هل كنا نستطيع البقاء في «مراكش»؟ وعندما علمنا في ١٤ فبراير أن السفارة الأمريكية في «طهران» حاصرها حرس الثورة الإسلامية، واحتلها لعدة ساعات قبل تحريرها بطلب من «بازركان»، أدركنا أن العثور على أبواب مفتوحة أمامنا في المنفى صار صعبًا. فهل ستظل الولايات المتحدة التي يقيم فيها بالفعل أبناؤنا الأربعة تطرح عرضها للاستضافة؟! وما هو البلد الذي سيكون من الشجاعة بحيث يستضيفنا إذا هدد النظام الجديد في إيران رعاياه بتلك الطريقة داخل «طهران» وداخل حدود ذلك البلد نفسه؟!

وتجنب الملك ـ الذي أمضى وقته في القراءة، والاستماع إلى الإذاعة، وإجراء مقابلات ـ الحديث عن مستقبلنا عندما أكون معه. حاول كل منا أن يخفف عن الآخر بعدم السماح لمخاوفنا الشخصية بالظهور. كنت متأثرة للغاية بشجاعته. فلم ينطق بكلمة شكوى أبدا، رغم هزاله وإنهاكه بسبب المرض والمأساة الهائلة التي نعيشها. وأمضينا بعض الوقت معا، وعندما نظرت إليه في صمت أدركت كم أحببته! وكم هو

مؤلم أن أراه يعاني! لقد عشنا معا عشرين عاما في دوامة مستمرة، وإذا كان القدر قد قارب بيننا مرة أخرى، فذلك لكي يسمح لنا بأن نواجه هذه المحنة معا. وعندما قلت لنفسي ذلك استطعت أن أتقبل حياتنا الجديدة كما هي، وأيضا أن أحدد الكيفية التي سأتحرك بها، مهما حدث، ينبغي أن أقف بثبات وأمنح الرجل الذي أحبه حبا نفيسا، وكل ما أستطيع شحذه من قوة.

وخلال هذه الأيام العصيبة، كان متأثرا بزيارات ملك إيطاليا السابق «أمبرتو»، وعمدة باريس. وتوفي «نيلسون روكفلر» الذي كان سيحضر، قبل أيام قليلة فقط من موعده المحدد لزيارتنا.

ومثَّل وصول الأولاد إلى المغرب قبيل عامنا الإيراني الجديد فرحة لنا غير متوقعة، وكان رَكْبُنا قد تأخر في الذهاب إلى مطار «مراكش»، لذلك التقينا بالأولاد في منتصف الطريق إلى هناك. وتوقفت جميع السيارات، وارتمى كل منا بين أذرع الآخرين في وسط الطريق. ولم أكن قبَّلت الصغيرين «ليلى» و«علي رضا» منذ تركا «طهران» مع والدتي قبل شهرين. وكانت الفترة أطول بالنسبة لـ«رضا» و«فرح ناز».

وتركنا «مراكش» مباشرة إلى قصر رائع في الرباط، وضعه الملك «الحسن الثاني» تحت تصرفنا. وكان لهذه الأيام القليلة من الحياة العائلية السعيدة ـ كفاصل للراحة في تلك الفترة التي صار فيها الخطر أكثر سوءا وأكثر تكرارا ـ أثر غير عادي على معنويات الجميع. وانبسطت ملامح الملك. وسمعته يضحك مرة أخرى، بل إنه لعب مع «ليلى» في الحديقة.واحتفلنا بعيد ميلاد «فرح ناز» السادس عشر والسنة الجديدة في نفس الوقت. وانضم إلينا أبناء الملك «الحسن»، وعندما عرض لنا شقيقه فيلم «المغامرات المجنونة للحاخام يعقوب» بطولة «لوي دي فينيس» في إحدى الأمسيات، سعدت لسماع زوجي ينفجر في الضحك مرة أخرى، وهو ما لم يفعله منذ أكثر من عام.

تلك لحظات مسروقة من المأساة المحيطة بنا والتي تجعل القلب ينفطر. وكانت هناك حديقة حيوانات صغيرة في ساحات القصر، وأذكر بصفة خاصة خروفا بريا مسكينا، يقف مدلدل الرأس منهوك القوى، بعيدا عن الطبيعة والحرية، وقد نمت أظلافه بصورة كبيرة حتى أنها التفت حول نفسها. استطعت أن أتوحد معه، وأرى نفسي فيه الآن وأنا سجينة في مساحة تصغر يوميا، محاطة بأسوار تؤلمني.

وكان «ألكسندر دو مارنش»، قائد القوات الخاصة الفرنسية، التقى زوجي بالفعل في «مراكش» ليبلغه المخاطر التي يواجهها مضيفنا «الملك الحسن» بسببنا. وهي مخاطر بالطبع ذات طبيعة دبلوماسية وأيضا شخصية، فوفقا لما ذكر السيد «دو مارنش» أمر «آية الله خوميني» تابعيه المتعصبين بخطف أفراد من الأسرة الملكية، حتى يمكن مبادلتهم بنا. وأبلغ السيد «دو مارنش» الملك «الحسن» الذي رد بشجاعة هائلة: «**إنه أمر فظيع، لكن ذلك لا يغير قراري بأدنى قدر. لا أستطيع أن أرفض استضافة رجل يمر بفترة مأساوية في حياته**».

ومع هذا الوضع صار الآن العثور على ملجأ آخر أمرًا ملحًّا. وانسحبت فرنسا، فهي وفقا للسيد «دو مارنش» لا تستطيع أن تضمن سلامتنا. وانطبق نفس الأمر على سويسرا، رغم أنها رأت احتمال وجود إمكانية في المستقبل، كما انطبق على إمارة موناكو حيث كان ابننا «رضا» قد ذهب إليها. وكانت الإمارة وافقت في البداية، قبل أن تسحب عرضها تحت ضغط من فرنسا. وكان «ربما فيما بعد» هو الرد الأساسي من الولايات المتحدة. وفي بداية فترة المنفى تلقينا رسالة من بريطانيا العظمى بأن «مارجريت تاتشر» سوف تقبل استضافتنا عقب فوزها بالانتخابات. ولكنها لاحقا بعدما أصبحت رئيسة للوزراء ونحن في جزر «البهاما» لم تف بتعهدها. وقيل لنا إنها تعرضت لضغط من لورد «كارنجتون» وزير الخارجية ومن «أنتوني بارسونز» وهو سفير سابق لبريطانيا العظمى لدي إيران، الذي أقنعها أن إيواءنا سوف يضر بمصالح بريطانيا.

كانت لدينا علاقات مع معظم بلدان العالم ـ بعضها علاقات وثيقة وعلاقات صداقة ـ والآن يديرون جميعهم ظهورهم لنا. وخلال هذه الأيام الرهيبة جاءنا بعض العزاء من الخطابات التي وردت إلينا. بعضها من إيرانيين لم يوقعوا خطاباتهم خشية تعرضهم للانتقام، وخطابات أخرى من غرباء أحبوا إيران وشاهدوا التقدم الذي تحقق خلال عشرين عاما، وكتب لنا أيضا بعض الحكام وقادة الدول بصفة شخصية. وكانت جميع هذه الخطابات مؤثرة، حافلة بالمشاعر والدفء.

ووضع الملك «الحسن» طائرته الخاصة تحت تصرفنا، ولم نكن بحاجة إلا لمعرفة وجهتنا فقط حتى تقلع بنا. ثم علمنا أن جزر «البهاما» سوف تستقبلنا، ولكن لثلاثة شهور فقط. وحصلنا على هذه الدعوة في اللحظة الأخيرة بفضل جهود كل من «ديفيد روكفلر» و«هنري كيسنجر» صديق زوجي. وكان «كيسنجر» يشعر بالعار

إزاء الجحود الذي تعاملت به إدارة «كارتر» مع زوجي. كما تحرك «ديفيد روكفلر» بسبب العلاقات التي ربطت بين زوجي وشقيقه «نلسون»، الذي توفي فجأة مؤخرًا. ونجح الرجلان في إقناع رئيس «أرخبيل البهاما» بتوفير استضافة مؤقتة لنا في جزيرة «بارادايس»، حيث أمكن العثور على فيلّا بصورة سريعة.

وهكذا، أقلعنا في ٣٠ مارس ١٩٧٩ إلى «ناساو»، عاصمة «البهاما»، وبرفقتنا والدتي، وطبيبة الأطفال الدكتورة «لويزا بيرنيا»، والكولونيل «جاهانبيني» المسئول عن أمن الملك، والكولونيلات «نويسي» و«ناصري» و«همراز» و«محمدي» و«قمبيز عتابي»، ومربية «ليلى» الآنسة «كولروخ»، وأخيرا وصيف الملك «محمود إلياسي».

وكان بانتظارنا عند الطائرة رجل حسن المظهر، هو «روبرت أرماو»، وعرفناه لأنه كان متخصصا في العلاقات العامة، أرسله «نلسون روكفلر» إلى «طهران» في أواخر ١٩٧٨ في محاولة لتقليل الآثار المدمرة لدعاية المعارضة. لكن الوقت كان قد فات بالنسبة لإطلاق أي نوع من حملات العلاقات العامة، فأمضى السيد «أرماو» بضعة أيام مع زوجي، ثم عاد إلى نيويورك.

وهكذا، جاء مرة أخرى لمساعدتنا، بتوصية من أسرة «روكفلر» والأميرة «أشرف»؛ وهذه المرة لتسهيل التعاملات على المستوى الدبلوماسي مع سلطات «البهاما»، وعلى المستوى العملي مع المسائل الأمنية، والحياة اليومية. وسوف يكون أيضا الصلة بيننا وبين الحكومة الأمريكية. ومعه «مارك مورس» أحد زملائه.

وكانت الفيلّا التي سمح له بتأجيرها من أجلنا بمبلغ ضخم ـ ترتفع الأسعار الآن بمجرد معرفة اسمنا الأخير خمس أو حتى عشر مرات ـ تتكون فقط من حجرة معيشة وغرفتين للنوم. ورتبنا الإقامة فيها بأفضل ما نستطيع. كانت أصغر كثيرا من أن تضم أمتعتنا ـ خمس عشرة حقيبة للعائلة كلها ـ لذلك اضطررنا لوضعها في الفناء تحت غطاء من المشمع. واضطررنا للبحث عن أجنحة صغيرة أو حجرات فندقية لإقامة الأشخاص المرافقين لنا.

وكانت فترة الشهرين والأيام العشرة التي قضيناها في «البهاما» من أسود أيام حياتي، فبعد فترة قصيرة سمعنا عن إعدام «أمير عباس هويدا». فعقب محاكمة صورية سُحِبَ رئيس الوزراء السابق إلى فناء السجن وقتل بعدة رصاصات أصابت الرأس والعنق.

وملأنا هذا الخبر بقنوط لا يمكن وصفه. فخرج الملك من الحجرة ليبكي بمفرده. وغلبني الحزن، يا إلهي، متى ينتهي هذا الرعب؟! واستطعت أن أتصل تليفونيا بنيويورك وتحدثت إلى «فريدون» شقيق السيد «هويدا»، الذي عمل من قبل سفيرا في الأمم المتحدة، لإبلاغه بمشاطرتنا الخالصة أحزانه، ومدى التمزق الذي نعانيه.

ولم تقبل سلطات «البهاما» استضافتنا إلا بشرط عدم إبدائنا لأي آراء سياسية، وهو ما أدهشني لأن «البهاما» لا تربطها علاقات بإيران. ولكن كيف نستطيع ألا نقول شيئا في مواجهة مثل هذه الجرائم؟! لقد أحببنا هذا الرجل، الذي أعطى الكثير لبلده، وهي تعيش الآن مثل هذا الوضع المزري. كيف نستطيع أن نلتزم الصمت؟! وفي فورة من الشعور بالغضب العاجز واليأس قلت لزوجي إن السبيل الوحيد المتاح أمامنا هو استئجار زورق وإرسال رسالة إلى المياه الدولية، تدين بأقوى تعبيرات ممكنة هذا النظام من القتلة الدمويين المفترض أنهم يستوحون حكم الله!

وأضافت صحيفة «باري ماتش» بعدًا جديدا لقسوة هذا الصمت المفروض، عندما نشرت بعد أسبوع صورة جثة «أمير عباس هويدا» يحيط بها قتلته ومازالت البنادق في أيديهم، وعلى الصفحة المقابلة صورة للملك على شاطئ جزيرة «باراديس». وأعطى ذلك انطباعا بأن الملك يستمتع بينما زملاؤه السابقون يذبحون. وصدق الكثيرون ذلك، ومن بين الخطابات الفظيعة التي تلقيتها في أعقاب ذلك آلمني على نحو بالغ خطاب أرسلته «سعيدة» ابنة الجنرال «حسن بقروان» الذي أعدم لتوه، وكانت هذه المرأة المسكينة المنكوبة حانقة، وكتبت إليَّ أننا بينما نستمتع على شواطئ «البهاما» كان والدها يقتل بالرصاص. وفيما بعد زارت «سعيدة» الملك في القاهرة قبيل وفاته. وقابلتها أيضا، حيث تأثرت من لفتتها، بالرغم من ذلك.

ولم يتركنا الأبناء منذ كنا في المغرب ـ ولم يكن لهم مكان في الفيلّا، فاضطررنا لتأجير أجنحة لهم ـ ونظرا لاقتراب عيد ميلاد «علي رضا» قررت أن أستجمع كل قوتي للاحتفال به على الرغم من كل شيء. وأنا أحكي هذه القصة لأنها تظهر الحالة الذهنية التي كنا نعيشها ذلك الوقت. اشتريت اللوازم، وهيأت المنزل الضيق بقدر استطاعتي، ثم قررت أن أرتدي ملابسي كما لو كانت حفلة حقيقية. وحاولت والدتي، التي كانت لحقت بنا مع الأولاد، مساعدتي. وأنا موقنة من أنها لم تكن تدرك مغزى ما قالته، لكنها عندما رأتني أخرج من حجرتي متأنقة عن أي يوم عادي، همست إليَّ:

«حاولي ألا تضحكي كثيرًا، لا تظهري سعادة كبيرة، ذلك لن يخلق انطباعا جيدا». وأجهز ذلك عليَّ، وأفقدني قدرا كبير من قوة رغبتي في تنظيم حفلة عيد ميلاد ولدي الصغير، ولم يكن ينبغي لي ذلك، حتى ذلك! كيف أمكن لأمي أن تظن أنني أستطيع أن أشعر بأي سعادة وسط هذا الكابوس الذي نحياه؟! تألمت جدًّا حتى أنني ذهبت مباشرة إلى حجرتي وأغلقتها على نفسي وتناولت مهدئًا. وعندما جاء الأولاد يدقون الباب لم أستطع أن أبارح حجرة نومي.

وصارت الحياة عبئا غير محتمل. وضاق صدري من الجزع نهارًا وليلًا. وشعرت أن الملك على الرغم من أنه لا يشكو، إلا أنه يمر بنفس الألم المبرِّح. وحطَّمت قلبي رؤية هذا الرجل الذي ظل نشيطا للغاية طوال حياته، وهو يغالب الأيام الصامتة، والخانقة، اللزجة، بصحبة الدكتورة «بيرنيا» ووالدتي. أنهكه المرض، وكنت أدعو الله ليلا أن يخلد إلى النوم، وعندما أسمع تنفسه منتظمًا أستيقظ مرة أخرى ولا أستطيع العودة للنوم. فكنت أخرج وأتناول سيجارة، أو أسير جيئة وذهابا في الفناء الضيق حيث كوِّمت الأمتعة. وأنتظر حتى ظهور الضوء الأول للنهار لألقي بنفسي في حمام السباحة، وأسبح بعنف ذهابا وإيابا، محاولةً استعادة قدر من الطاقة على الرغم من الكابوس الذي لا ينتهي، حتى أستطيع أن أواصل وأظهر للملك في صورة امرأة قوية. وأتذكر أن الإذاعة كانت تذيع أغنية «سوف أبقى» لـ«جلوريا جاينور»، فتعلقت بهاتين الكلمتين «سوف أبقى» حتى لا أستسلم.

وكتبت الأميرة «أشرف» خطابا للرئيس «كارتر» تطلب منه قبول استضافة الملك. وعرض «أرماو» الخطاب على زوجي الذي لم يرد إرساله لحسن الحظ، فلن نقلل من شأن أنفسنا لدرجة تقديم التماس إلى الرئيس «كارتر».

ووجدت هذه السطور من دفتر مذكراتي كُتِبَت ذلك الحين:

«ماذا نفعل، تائهين في وسط المحيط من دون وطن؟! أنا جالسة على كثيب من الرمال بالقرب من الماء. المكان هادئ للغاية، جميل للغاية، الشمس قاربت على المغيب وتستطيع أن تسمع صياح طيور النورس. وأنا أبحث عن كلمات تصف معاناتي، غير أنني أشعر بالحرج لوجودي هنا: أفكر في الحارسين الأمريكيين اللذين يقفان خلفي، يرابطان هناك من أجل سلامتي، وأخشى أنهما بلا شك يشعران بالضجر. أفكر في

إيران فأشعر بغصة من الحزن. كيف وصل الأمر إلى هذا؟! موت، ودم، وخوف. وهذا الصمت المرعب! لم يرتفع صوت واحد لإدانة الفزع. أين الصحفيون، والأكاديميون، والفنانون، ومنظمات العالم التي تهتم كثيرا لحقوق الإنسان في إيران؟! أين الطلاب الذي خرجوا في مسيرات من أجل حرية التعبير، والديمقراطية؟! يا للأبناء المساكين، كما لو أن سحابة كثيفة سوداء خيمت على شبابنا!

يجب ألا أستمع إلى الإذاعة أو أقرأ الصحف بعد ذلك. فما يحدث وحشي للغاية. إنهم يقتلون أفضل الأشخاص، أولئك الذين ضحوا بحياتهم من أجل المصلحة العامة؛ الجنود، والمثقفين، ورجال الإدارة... والدول التي سارعت بشدة لانتقاد زوجي في السابق ليس لديها الآن ما تقوله. سويسرا وحدها عبرت عن الغضب».

ثم أبلغتنا بريطانيا العظمى عبر سفيرها السابق لدي طهران «دنيس رايت» الذي جاء إلى «البهاما» أنها لا ترغب في وجودنا على أي من أراضيها. وبلغني أن السير «دنيس» جاء متنكرا في شارب وقبعة على نحو لا يمكن معه التعرف عليه، ربما خشية من أن يتعرض لأسئلة الصحفيين، ويضطر علنا لتفسير سبب زيارته. ومع ذلك، بينما أدارت عواصم العالم ظهورها لنا واحدة إثر الأخرى، تلقينا خطابات مؤثرة للغاية من كل مكان. أرسل أشخاص لم نلتق بهم أبدًا من قبل يعرضون استضافتنا، في كندا والمكسيك، وألمانيا. وعرض أشخاص أكثر تواضعا بيوتهم الخاصة. كانت هذه الخطابات عزاءنا الوحيد. وفي أعماق هذه التعاسة أثار علمنا بأن «صادق خلخالي» - رجل الدين الذي أمر بإعدام «هويدا» حكم علينا بالإعدام ابتسامة حزينة على الأقل. وبدت فكرة موتنا أقل مدعاة للألم من أن نسمع، يوما إثر الآخر، عن إعدام أولئك الذين أحببناهم. وفي صيف ١٩٧٩، قال «خلخالي» في تشفّ ساخر: «**في بعض الليالي تنقل الشاحنات نحو ثلاثين جثة من السجن، إن لم يكن أكثر**».كانت تلك الكراهية المتعطشة للدماء الوجه الحقيقي للثورة الإسلامية. وأعلن «خلخالي» أنه سيرسل القتلة وراءنا، وفي نفس الوقت وعد بمكافأة تساوي ١٣٤ ألف دولار لمن يتخلص من الملك. وفي وقت لاحق أضاف هذه الكلمات: «**إذا قتلته «فرح» ستحصل على المكسب ليس من المال فحسب، وإنما العفو أيضا، وربما تعود إلى إيران**».

ومع ذلك حرص بعض الأصدقاء على الاتصال بنا خلال هذا الليل الطويل.

واهتم الملك «حسين» عاهل الأردن بإرسال الجنرال «خمش» برسالة صداقة وتعزية. واتصل بنا الملك «بودوين» والملكة «فابيولا». وجاء إلينا نساء، كن صديقات طفولة، أكثر المخلصين إخلاصا، لطمأنتنا أنهن سيكن إلى جانبنا دائما بصرف النظر عما حدث.

وتفاقمت حالة الملك المرضية. ووافق البروفيسور «فلاندران» الذي كان قد زاره مرتين في المغرب، على أن يأتي إلينا في جزيرة «بارادايس». ومرة أخرى سوف أستخدم الرواية التي رواها للبروفيسور «جان برنار»:

«عند زيارتي الأولى بدت الحالة الصحية مستقرة، ولكن بعد بضعة أسابيع وجد المريض تضخما فوق الترقوة. ولم يكن من الصعب التنبؤ بالتشخيص حتى عبر التليفون. وذهبت ومعي كل ما هو مطلوب للقيام بالعلاج الكيميائي إذا لزم الأمر. واستنتجت التشخيص من تعداد خلايا العقد الليمفاوية التميُّزي: تورم الخلايا الليمفاوية. وجرى نقاش بشأن العلاج الذي سيتبع، وربما تتذكر أنني استشرتك تليفونيا في ذلك الوقت.

وعلى العكس مما قيل بعد ذلك أنا متأكد من أن المريض كان مدركا تماما لحالته الصحية. وعلى أي حال كنت ملتزما بأن أشرح له بصراحة كاملة، فنظرا لنتائج العلاج الذي سأوصي به، كان يستحق تفسيرا لتغيير أسلوبي وزيادة قوة علاجه. ومن ثم شرحت له ذلك، فبعد كشف طبي عادي كان يجب أن يذهب إلى مركز طبي متخصص جيد التجهيز لأخذ خزعة من العقدة الليمفاوية التي حددتها بالفعل، وإجراء فحوص إشعاعية، ومن المحتمل جدًّا شق البطن واستئصال الطحال، حتى قبل البدء بعلاج كيميائي إضافي يليه علاج إشعاعي. وكان الخيار الآخر هو إجراء ثلاثة مجموعات من العلاج الكيميائي الإضافي من دون تضييع الوقت في الفحوصات، ولتقدير حالة الأضرار بعد تلك الشهور الثلاثة ثم ربما يجرى استئصال للطحال، وعلاج إشعاعي في موضع متلازمة «ريختر» التي كانت حديثة الاكتشاف.

وصار التعامل مع الموقف صعبا بالنسبة لي، حيث تسلل بعدٌ شخصي إلى النقاش. فقد طلب جلالته مني المخاطرة باللجوء للخيار الثاني، وفعل ذلك بوعي تام ومعرفة كاملة بما يتضمنه ذلك الخيار. وتجاوزت مبرراته مجرد المشكلة الصحية، وقال لي بوضوح: «في الوقت الذي يُقتَّل فيه الضباط المخلصون لي في بلدي، لا أستطيع أن

أدفعهم لليأس الكامل بالكشف عن حالتي الصحية». وطلب مني مواصلة السرية خلال تلك الشهور الثلاثة، ووعدني أنه بعد هذه المجموعات الشهرية الثلاث من العلاج الكيماوي الذي أردته له، سوف نتخلى عن السرية حتى يمكن استئناف المزيد من الفحوص الطبية العادية. وكان شاقا للغاية على جلالة الملكة من الناحية المعنوية اتخاذ القرار وتقبله، نظرا أيضا لإدراكها أسباب خيار زوجها. ويجب أن أعترف أنني لم أطرح اعتراضات كثيرة أمام ما بدا أنه رغبة مؤكدة للمريض. فضلا عن أن الاستراتيجية التي كنا سنتبعها بها بعض الأفكار والمزايا الجيدة...

وكان لدى جلالة الملكة الشجاعة كي تتجاوز ألمها، وفي ختام مناقشة طويلة ذكَّرتني أن اتخاذ القرار يرجع إليَّ في نهاية المطاف. والأهم من كل شيء أنها كان يجب أن تمتلك الشجاعة لقبول حقيقة أن ضرورة استمرار السرية تعني أنها لا تستطيع أن تعتمد إلا عليَّ، وعلى وعيي، ومعرفتي المفترضة بالمشكلة. ويمكن للمرء بسهولة أن يتخيل مدى صعوبة ذلك بالنسبة لأناس كانوا يستطيعون في ظروف أخرى اللجوء إلى أهم الأطباء المتخصصين.

ومن ثم بدأت تطبيق العلاج الكيميائي الإضافي بالتقطير، في ظروف قاسية، حيث تعمل جلالة الملكة وحدها كممرضة. وواصلت إجراء اختباراتي الحيوية الأخرى بالمعدات والميكروسكوب الذي كان يتبع جلالته منذ «طهران». وسمحت صلابة بنية المريض له باجتياز بداية العلاج بصورة جيدة ملحوظة. ولممارسة العلاج في اليوم الأول والثامن شهريا كنت مضطرا للذهاب إلى «ناساو» أسبوعين على التوالي كل شهر، بينما أحاول في نفس الوقت أن أحافظ على ظهوري مفعما بالنشاط ومنتبها في باريس».

وقبل نحو ثلاثة أسابيع من انتهاء تصاريح إقامتنا أبلغتنا سلطات «البهاما» أنها لن تُجدد. فإلى أين نذهب؟! رفضتنا السفارات واحدة إثر الأخرى. «السادات» فقط من كرر دعوته في شجاعة، معلقًا على نحو عابر بأنه من المؤسف أن يجد «**جميع هؤلاء الناس الخائفين من توفير ملاذا!**». غير أن الرئيس «السادات» كان قد وقَّعَ لتوه اتفاقيات «كامب ديفيد»، مما أثار جانبا كبيرا من العالم العربي ضده. ورأى زوجي أن ذلك يكفيه.

وأخيرا، عرضت المكسيك استضافتنا بطلب من «هنري كيسنجر». وكان الملك قد التقى الرئيس «خوزيه لوبيز بورتيلو» عندما كان وزيرًا للمالية وأعجب به، ولا بد أن هذه العلاقات السابقة لها اعتبارها. لكننا شعرنا أيضًا أن المكسيك كانت سعيدة بتلقين الولايات المتحدة درسا في أخلاقيات السياسة.

وواصل «روبرت أرماو» بذل أقصى جهده لتيسير أمورنا طوال إقامتنا في «البهاما». فطار مباشرة إلى المكسيك للعثور على منزل مناسب لنا. وسوف يقول لاحقا: «**طوال عامين لم أعش إلا من أجل الشاه. طفت أنحاء العالم لأعثر له على بيت. كنت أنطلق إلى باريس في طائرة كونكورد لأتناول العشاء، وأعود في الصباح التالي لأقفز مباشرة في طائرة أخرى لأصل إليه. لم تمر ساعة دون أن أراه. كنت بالقرب منه عندما يستيقظ، وفي المساء عندما يذهب إلى الفراش**». وفي هذه المرة كان السيد «أرماو» بصحبة الكولونيل «جاهانبيني»، الذي صار قلقا أكثر فأكثر إزاء التهديدات بقتل الملك، كان يريد التأكد من أمن مقر إقامتنا القادم.

ووقع اختيارهما على «كويرنافاكا» في جنوب المكسيك. وكان المنزل عبارة عن فيلَّا معزولة في موقع مناسب للمراقبة. ومع مجيئنا من «البهاما»، حيث عانينا من الإقامة الخانقة ومجموعة من الحساسيات الأخرى، دهشنا جميعا من مقر إقامتنا الجديد، تخفيه عن الشارع حديقة استوائية، وكانت الفيلَّا واسعة بحيث تستوعب الأشخاص المرافقين لنا. ومع ذلك كانت رطبة ويغطيها العفن الفطري، لأنها مهجورة منذ فترة، وصُدِمتُ عندما وجدت عقارب على الجدران، غير أن ذلك لم يزعج الملك الذي هتف وهو يتفقدها: «**أخيرا سنستطيع العودة للحياة ثانية!**».

وأبدى دلائل على ذلك بأن شرع في كتابة مذكراته بمجرد انتقالنا. وهو عمل شجاع في حالته، حيث كانت قوته تتلاشى بدرجة كبيرة، ولم يكن لديه وثائق تدعم تذكُّرَه. أما لقاء من عملوا معه ـ على الأقل أولئك الذين مازالوا أحرارًا ـ فكان مستحيلا. فلم يعد الناس ـ مع استثناءات قليلة ـ يريدون أي علاقة معنا، كانوا يفرون منا فرارهم من الطاعون، لعلمهم أن قتلة «طهران» يمكن أن يصلوا أي مكان في العالم.

ومن ناحيتي بدأت تعلم الإسبانية، وانضمت إليَّ في هذه المحاولة الدكتورة «بيرنيا»، واستأجرنا معلمة لتأتي إلينا في البيت. وكانت أول جملة في كتابنا الدراسي:

(Donde está la embajada Americana?)[1]، واتفقنا على أن التاريخ أحيانا يرسل إشارات لا يستطيع أحد تخيلها. وأردت أن أتعلم الإسبانية منذ فترة، وبدا أن المكسيك تميل لاستضافتنا فترة طويلة. وهكذا اتجهنا ـ زوجي وأنا ـ للأنشطة الثقافية مرة أخرى، بعيدا عن الوضع المحزن الذي كان جزءًا من حياتنا اليومية، منحنا ذلك شعورا لحظيا بالعودة للحياة مرة أخرى.

ودعينا للعشاء عدة مرات في بيوت بعض الأشخاص في «كويرنافاكا»، وهو ما ساعد أيضا في إعادة بعض مظاهر الطبيعية إلى حياتنا. بل إننا وجدنا الشجاعة للقيام ببعض الرحلات السياحية؛ كنا شغوفين بالتعرف على هذا البلد الذي زرناه بصفة رسمية قبل بضع سنوات. وعرفنا السعادة المختلسة في الخروج معا، كما لو أنها انتزعت من وسط الكآبة، وأيضا الانفعال الذي أحسسته عندما شاهدت زوجي يبتسم مرة أخرى ويستمتع بجمال الأشياء ودفء الجو. وأتذكر على نحو خاص زيارتنا إلى «أواكساكا» وأهرامات «مكسيكو سيتي».

وحرص الملك في شجاعة على أن يراعي إخفاء ما يسببه مرضه من الألم المستمر والإجهاد. وعندما يأخذ حمامه كنت أجلس في ركن ونتبادل الدردشة. وكنا نتحدث بطبيعة الحال عما يحدث وعن مستقبل الأولاد. وحاولت أن أكون دائما إيجابية وقوية، وأن أظهر له أنني مازلت أؤمن أن الأيام الأفضل سوف تأتي ثانية. ولم يرد لكلمة «سرطان» ذكر بيننا أبدا، حتى يحتفظ كل منا بوهم إمكانية الشفاء العاجل، خاصة أمام الآخر. ولكنه أفلت هذه الكلمة المُحَرَّمة أثناء المناقشة ذات مساء. فهل هي مصادفة أم أنه فعل ذلك بغرض أن يظهر لي أنه عرف وليس لديه أمل؟! فانتبهت من الصدمة وقلت له إنني واثقة من أنه سيتغلب على مرضه، حتى لو كان السرطان، وكان من اللطف بحيث وافقني. وفي نفس الوقت، بدأنا البحث عن مساكن مع احتمال بقائنا لبعض الوقت في المكسيك، التي بدا أنها لم تستجب لتهديدات رجال الدين في إيران. وكانت رحلات البحث هذه دليلا على أن زوجي آمن بالمستقبل، وأن رغبته في الحياة مازالت قائمة. ووجدت هذا مريحا ومحبطا للغاية في نفس الوقت. فقد أحزنني على نحو لا يوصف رؤية الرجل الذي تحمَّلَ قَدَرَ إيران لنحو

(١) أين السفارة الأمريكية؟ (المترجمة).

أربعين عاما، ينحدر به الحال فجأة إلى المقارنة بين المطابخ والبحث عن دواليب. وهو نفس الشيء عندما يطلب منه شخص الانتظار، لم يكن يظهر أي حساسية، وإنما يظل هادئا، منتصب القامة كالعادة، غير أن ذلك أحزنني بالفعل.

ومن حسن الحظ كان الأولاد يقضون معنا أياما قليلة. فلم يعرفوا شيئا عن مرض والدهم. وتمتعنا ببعض الأوقات السعيدة معا كعائلة محبة، متناسين النحس الذي يهددنا على كل جانب. وكانت تلك آخر لحظات حياة الأسرة السعيدة، لأن الانهيار المفاجئ في صحة الملك سرعان ما سيضطرني لإبلاغهم. وفي سبتمبر سوف يذهب الثلاثة الصغار للدراسة في الولايات المتحدة، بينما يدرس «رضا» العلوم السياسية والأدب الإنجليزي في كلية «ويليامز» بـ«ماساتشوستس». ولم تكن الترتيبات لبدء دراستهم سهلة. فبعد أن غادروا «البهاما» في مايو مع والدتي وبعض الضباط انتقلوا إلى مسكن فاخر للأميرة «أشرف» في مدينة نيويورك. وتم تدبير مدرس للغة الإنجليزية حتى يتمكنوا بسرعة من متابعة دروسهم بتلك اللغة، إلى جانب مدرس للفارسية لضمان أنهم لن ينسوا لغتهم. وفي نفس الوقت شرع «روبرت أرماو» في البحث عن مدارس، وهو ما صار محنة أخرى له. حيث تَقَبْلُهم المدارس ثم سرعان ما تسحب عرضها قائلة إن أولياء الأمور قلقون بشأن سلامة أبنائهم. وكان ذلك صعبًا للغاية على الصغار الثلاثة فهم يزورون المدارس، ويكونون سعداء للغاية عندما يعرفون أنه تم قبولهم، ثم يكتشفون أنه غير مرغوب فيهم، وأن الناس يتجنبونهم كما يتجنبون الطاعون. وفي نهاية الأمر استطعنا أن نلحق كل منهم بمدرسة، واستطاعوا الآن أن يطمئنوا قليلا.

وقام «ريتشارد نيكسون» أيضا بزيارة إلى «كويرنافاكا». وتحدث مع زوجي لعدة ساعات، والأهم من الحديث أن ذلك الإخلاص من الرئيس الأسبق للولايات المتحدة أثَّر في الملك تأثيرا عميقا بينما يدير العالم كله تقريبا ظهره لنا. وجاء «هنري كيسنجر» وزوجته «نانسي» أيضا لزيارتنا في المكسيك.

واتصل بنا «شابور بختيار» من باريس تليفونيا. وكان قد استطاع الخروج من إيران سالما. وكنا نتناول الطعام عندما اتصل. ورفض الملك الحديث إليه. «**هل تريدني أن أذهب للرد عليه؟ لو كنت تحب**». وقال لي رئيس الوزراء السابق إنه يعتزم الآن النضال ضد رجال الدين الذين سيطروا على البلد، وطلب مني أن أنقل احتراماته للملك.

ومع أوائل الصيف كان «صادق خلخالي» قد أعلن أن القتلة التابعين له في طريقهم إلى «كويرنافاكا». ومن ثم توقعنا أنهم سيظهرون بطريقة أو أخرى، وكاد هذا التوقع أن يتسبب في سوء فهم قاس. فذات يوم أراد «رضا» ممارسة الطيران، وذهب إلى نادي الطيران مع «مارك مورس»، مساعد «روبرت أرماو». وبعد ساعة استنفر صوت مروحية حالة التأهب العام حول الفيلَّا. وقتها كنا نتناول الغداء في الحديقة. وكان هبوط كوماندوز من السماء احتمالا قائما بالفعل، فبمجرد أن ظهرت المروحية بدأ الحرس يطلقون عليها النار. واتضح أنه لم يكن قاتلا، وإنما ابننا، الذي كان يقترب منَّا في سعادة حتى نستطيع أن نراه. وعندما أدركت الخطأ جريت نحو رجال الأمن صارخة فيهم أن يوقفوا إطلاق النار. يا إلهي، أي مأساة كان يمكن وقوعها إذا أصابت الرصاصات هدفها؟! ومع ذلك زعم «صادق خلخالي» أنه أرسل كوماندوز إلى المكسيك.

وظل الملك يعمل على مذكراته لمدة ثلاثة شهور تقريبا، عندما شعر أنه مريض للغاية مرة أخرى. وكان بروفيسور «فلاندران» الذي جاء بالفعل إلى «كويرنافاكا» لإعطاء الجرعة الثانية من العلاج الكيماوي، على وشك العودة بعد فترة قصيرة لإعطاء الجرعة الثالثة. وفي نفس الوقت كنت قد استدعيت أطباء محليين، الذين ظنوا أنها الملاريا، لأنهم من الواضح لم يعرفوا شيئا عن مرض الملك. وتلقى زوجي العلاج الملائم، لكن حالته لم تتحسن. فأخذ «روبرت أرماو» زمام المبادرة، لإحساسه بالمسئولية عن صحة الملك بينما لا يعرف شيئا عنها، وأحضر طبيبًا أمريكيا متخصصا في الأمراض الاستوائية، وهو دكتور «بنجامين كين». وأدى وصول الدكتور «كين»، الذي تم الإعداد له بنية حسنة للغاية، إلى فترة من التشخيص الخاطئ، انتهت بما أطلق عليه بروفيسور «فلاندران» «سلسلة كاملة من الكوارث».

ورفض الطبيب الأمريكي فرضية الملاريا، متوقعًا مشكلة في البنكرياس ـ كان الملك يعاني ألما قويا في جانبه الأيمن ـ وقال لمريضه إنه يعتزم أخذ عينة دم، وهو ما رفضه زوجي فورا. فقد كان لديه ثقة تامة في البروفيسور «فلاندران»، كما أنه مازال غير راغب في كسر نطاق السرية المحيط بمرضه الحقيقي. وعاد الدكتور «كين» إلى نيويورك، غير مسرور لكنه بالتأكيد مأخوذ بالقيود التي فرضها مريضه.

استدعيت أيضا البروفيسور «فلاندران» مرة أخرى. وسأترك له سرد ما جاء بنا إلى مستشفى نيويورك، بدلا من مستشفى المكسيك التي كان زوجي يفضلها، وأنا كذلك.

«عندما وصلت لم أكن أعلم أن دكتور «كين» جاء قبلي، ولم أعرف ذلك إلا لاحقا. وعندما شرحت تغير الوضع الصحي للمريض وجلالة الملكة، اتُّفِقَ على أنه ينبغي دخول المستشفى للفحص والعلاج بدون تأخير. وأظن أنه كان يوم أحد أو اثنين. وانتقل الملك إلى نيويورك يوم الخميس (أو الجمعة). ويفصل بين اليومين أقل من أسبوع، غير أن هذه الأيام القليلة شهدت الكثير. ولا شك أن التاريخ الذي سوف يسجِّل عن تلك الفترة الحاسمة سوف يسلط الضوء على أن المعارك السياسية «بين الأمريكيين» كانت خلفية ما بدا لي وقتها مجرد مناقشة طبية. فكانت أول مشكلة تجادلنا حولها هي المكان الذي ينبغي أن يوجد به المستشفى. وعندما ذكرت احتمال الولايات المتحدة رد جلالته بطريقة حاسمة: «بعدما فعلوه لي، لن أذهب حتى لو توسلوا إليَّ راكعين». كان ذلك يوم الاثنين، وفي الخميس التالي له كان قد تقرر ذهابه إلى الولايات المتحدة! أعتقد أنني أستطيع القول إن جميع حجج اتخاذ القرارات كانت خرجت من يده، وإن أمانيه كافة كان لابد من أن تفسح الطريق للحجج التي تجاوزتها.

وهكذا تقرَّر في يوم الاثنين ذلك أنني يجب أن أستكشف الإمكانيات المتاحة في «مكسيكو سيتي»، حيث ذهبت مباشرة مع شخص من الحاشية. وأمضيت الليل هناك، ثم أخذوني لمقابلة رئيس الإدارة الطبية للمستشفى الدكتور «جارسيا». وشرحت مشكلتي له طالبا منه عدم الاستفسار عن هوية المريض في المقام الأول. أردت أن أعرف إمكانيات قبول مريض ذي حالة صحية دقيقة، يحتاج إلى ترتيبات أمنية خاصة، وسوف نحتاج من أجله جميع الإمكانيات الحديثة للعلاج الإشعاعي. وقدمت اسمك (بروفيسور جان برنار) كجهة إحالة حتى أجعله يقبل هذه المتطلبات الصعبة. وكان دكتور «جارسيا» استقبلني في مكتبه بعد الظهر. وبدا أنه غير مندهش ولا فضولي، غير أنه لم يرفض طلبي، وحدد موعدا آخر ليراني في اليوم التالي في إدارته بالمستشفى. ومن أجل إدخال المريض للعلاج، أغلق ملحقا صغيرا كان شاغرًا من الناحية العملية. وكان عيبه الوحيد هو مظهره من الخارج. وتفحصت جميع الإمكانيات الفنية وأوليت معدات العلاج الإشعاعي اهتمامًا خاصًا، حيث اعتبرتها ضرورية للعلاج اللاحق. واستطعت إجراء محادثة شخصية مع خبير العلاج الإشعاعي المكسيكي، الذي تلقى تدريبا في أفضل مراكز كندا العلاجية، وقدم جميع الضمانات التي اعتبرتها مطلوبة.

ثم عدت إلى «كويرنافاكا»، حيث قدمت تقريرا مؤيدا لاحتمالات «مكسيكو سيتي». وذهب بعض أشخاص من الحاشية لتفقد الظروف الأمنية، ووفقا لما قيل لاحقا، بدا أنهم لم يجدوها مُرْضِيَة. وتبقى الحقيقة أنني اتصلت تليفونيا بالدكتور «جارسيا»، وأبلغته هوية المريض ـ بتصريح من جلالته ـ وطلبت منه أن ينضم إليَّ في كويرنافاكا للتشاور، ورأينا المريض معا، وتوصَّل إلى نفس النتائج التي توصلتُ إليها: إجراء تشخيص لمسببات حمى انسداد اليرقان في أسرع وقت ممكن، وهو ما سيؤدي بالتأكيد إلى إجراء عملية جراحية. ومن الناحية الطبية لم يكن الوضع معقدا في ذلك الوقت، ولكن ما حدث بعد ذلك سوف يوضح أنه لن يعود بسيطا مرة أخرى.

وأدركت بسرعة أن الفريق الأمريكي لا تعجبه فكرة البقاء في المكسيك. فطرحت كل حججي على «أرماو»، قائلا له إن الإمكانيات المتاحة في مكسيكو سيتي تبدو مناسبة وكافية. ولم أدافع عن «مكسيكو سيتي» في مواجهة الولايات المتحدة، وإنما قدمت ببساطة إجابة على السؤال الذي طُرِحَ عليَّ: «هل يمكن إجراء ذلك في «مكسيكو سيتي»؟» فكانت إجابتي: «نعم، بالتأكيد» وكان رد «أرماو» في الواقع: «بالنسبة لمريض مثل هذا، فإن حقيقة أنه يمكن إجراؤه ليست كافية. يجب الحصول على الأفضل والولايات المتحدة وحدها يمكنها أن تقدم الأفضل». وسرعان ما تأكد أن حججًا كافية عُرِضَت لإقناع جلالته بقبول الذهاب إلى الولايات المتحدة، على الرغم من الإعلان المؤكد الذي صرح به لي قبل أيام قليلة. وبلغني أن قرار الذهاب إلى الولايات المتحدة يجري اتخاذه. ولاعتقادي أنني مازلت أملك سلطة اتخاذ قرارات طبية، وجهت اهتمامي إلى اختيار الفريق الطبي الذي سيعالجه (لما كانت زيارة «كين» الأولى أُخْفِيَت عني في ذلك الوقت لم أشك في أن خيارا آخر قد تقرر بالفعل). وبدا واضحًا أننا بحاجة إلى فريق مشهور يستطيع أن يستخدم خبرته في تصويب هذه المشكلة العلاجية المتمثلة في الأورام الليمفاوية الحادة، بصرف النظر عن طبيعة المضاعفات الخطيرة الظاهرة الآن. وفكرت في بعض الاحتمالات: من الغرب «إس. روزنبرج» ومن الشرق «إي. فراي». وعندما اتصلت بك لطلب مشورتك، أوصيتني بأن أحاول الاتصال بـ«بيورشانال» إذا كان المرجح اختيار نيويورك للعلاج. وفي الساعات التي غادرت فيها، حاولت أن أتصرف على نحو مستقل عن «أرماو» وأسعى للاتصال بهؤلاء الأشخاص تليفونيا. ولم أنجح في التحدث إليهم مباشرة

كما لم أستطع أن أترك رسالة توضيحية، غير أن أطلب منهم محاولة الاتصال بي. وكان كل شيء يحدث بسرعة، حيث قيل لي إن طبيبا وصل من نيويورك. وكان دكتور «بنجامين كين»، الذي عاد، لكنه قُدِّم إليَّ باعتباره يأتي للمرة الأولى.

ومن ثم تحدثت إلى دكتور «كين»، مبديًا نوعًا من الدهشة، وعندما عرفت مجال خبرته الطبية، أعلنت أنني لست بحاجة إلى متخصص في الطب الاستوائي، وأن نقل صلاحياتي إليه لا يبدو معقولا بالنسبة لي. فأقنعوني أن أطباء نيويورك الذين أردتهم لم يستطيعوا المجيء، ولكنهم أرسلوا أحد مساعديهم، في الواقع كان «كين» هو من وجدته. وعندما اعترضت قدموا لي كل أنواع التطمينات اللفظية، ووعدوني بأنهم سيطلبون المتخصصين في نيويورك فورًا. وكلما أجريت مناقشات طبية مع «كين» شعرت بدهشة تامة. ورأيت أن هذا الرجل الذي سوف يشرف على الوضع ليس على دراية كافية بأبحاث الدم أو علم الأورام الحديث. ودفعني كل ذلك للسخط والتشاؤم. فمن الناحية الطبية كنت أشاهد نشاطا في الورم الليمفاوي الذي كان يرتد فيما فوق الترقوة، ومن وجهة نظري في ذلك الوقت ربما كان في مرحلة ما تحت الحجاب الحاجز، وسط ندرة الخلايا في الدم الذي يعوق العلاج الكيميائي. ومن ناحية المهارة كانت توقعاتي لما سيحدث بعد ذلك دقيقة للأسف. وكنت فهمت وقتها أن السياسة التي وضعها الشريكان «أرماو وكين» معا سحبت بالفعل كل فرص الحركة من بين يديَّ. أضف إلى ذلك الأسف بسبب معرفة أن قرار الذهاب إلى الولايات المتحدة لم يكن جلالته يريده من البداية (كما أن ما أراده في الحقيقة ليس مؤكدا). وأخيرا، عندما علمت أنه سوف يُرسَل إلى مستشفى نيويورك أصبحت أكثر تشاؤمًا، فمازلت أذكر الظروف غير السارة لمناقشاتي مع أشخاص معينين في ذلك المستشفى عندما كان عليّ أن آخذ السيد «علم» إلى هناك.

وعندما أُبلِغتُ أن الوجهة هي مستشفى نيويورك كنا واقفين حول فراش جلالته، فهمست لجلالة الملكة بما فكرت فيه. فرفعت صوتها فورا وقالت: «يعتقد الدكتور «فلاندران» أن...» وكررت ما قلته لها. وقدم «كين» و«أرماو»، اللذان كانا حاضرين أيضا، كل أنواع التطمينات اللفظية. وقالا بتحديد أكثر إن هذا المستشفى تم اختياره لضمان القدر الأكبر من الحذر، وإلى آخر ذلك، وإن الفريق الطبي الذي أردته سوف يتولى مسئولية المشكلة.

ولم يكن هناك في الواقع وقت للمناقشة. وما اكتشفناه بعد ذلك يؤكد حقيقة أن كل شيء كان معدًّا جيدا ومقررًا سابقًا. ويبدو أنه من بين الحجج التي ساعدت في إقناع جلالته بعدم البقاء في المكسيك رأي بعض الشخصيات المكسيكية المهمة فيما يتعلق بالطب في بلدهم. ولمَّا لم يكن أحد أبلغني بذلك فقد فهمت بالطبع أن دوري انتهى وكل ما ينبغي أن أفعله الآن هو أن أكون أخلاقيا ومهذبا وألَّا أدمر ثقة المريض في الأطباء. ومن ثم أرسلت خطاب شكر واعتذار للدكتور «جارسيا» في «مكسيكو سيتي»، قائلا له: إن ظروفا حتمت خلاف المتوقع. وأضفت أيضا تقريرا جديدا إلى ملف السنوات الست الأخيرة الذي كنت قدمته إلى «كين».

وشرحت لجلالته أنني أشك كثيرا فيما إذا كنت أستطيع القيام بدور فعال معه في نيويورك، نظرا لما أعرفه عن نظام الطب في الولايات المتحدة، لكنني يمكن أن أرافقه إذا أراد. فشكرني قائلًا ـ مثلما كان دائما مجاملًا في جميع زياراتي السابقة ـ إن التزاماتي المهنية لا بد أنها تتطلب وجودي في باريس، وإنني قدمت له الكثير بالفعل. وأضاف: إننا ـ على أي حال ـ سوف نلتقي ثانية بعد ذلك. وطلب مني أن أنقل امتنانه لك وأيضا للبروفيسور «ميلييه»، مضيفًا: إنني معجب بهذا الرجل الذي كان «عجوزًا للغاية ومريضًا للغاية» لكنه وجد الشجاعة ليأتي من باريس من أجل مساعدتي. ثم قابلتني جلالة الملكة على انفراد وباسم جلالة الملك وباسمها منحتني قدحا من الفضة المكسيكية منقوشًا عليه شعار أسرة «بهلوي»، معتذرة لعدم قدرتها منحي شيئا فارسيًّا أصيلًا. وأضافت بابتسامة خجلى على سبيل الاعتذار: يمكن أن تضعه على مكتبك للاحتفاظ بالأقلام مرتبة! وأعطيتها خطابا لجلالته يحتوي بضع كلمات شخصية، وأمنيات طيبة، ومعربا عن ثقتي الكاملة في امتياز الطب الأمريكي وزملائنا الذين سيعتنون به الآن. وفي تلك اللحظة شعرت بوحدة شديدة.

ورتبت للعودة إلى فندق «لاس كوينتاس» الفاخر، حيث كنت أقيم، ثم سافرت مرة أخرى على الطريق الجميل من «كويرنافاكا» إلى «مكسيكو سيتي»، ومرت بخاطري هذه المغامرة الطويلة منذ أول اتصال تليفوني منك في مساء يوم أحد... ومن زيارة إلى الأخرى ـ ولا بد أن عدد هذه الزيارات بلغ الخمسين ـ كنت أفكر دائما مع كل زيارة أنها ربما تكون الأخيرة لسبب أو لآخر. وهذه المرة جاءت النهاية. شعرت بمزيج مما يشبه الراحة لانتهاء مهمتي، والقلق المتجدد لأنني لم

أستطع تخليص نفسي من المخاوف التي أحسست بها إزاء مريض شاركت في علاجه ولم أستطع أن أفعل له شيئا».

وصحيح تماما أن الملك، وكذلك أنا، فضلنا مستشفى في المكسيك. فهناك شيء مُذِلٌّ في أن يسمح لنا بالدخول إلى الولايات المتحدة لأسباب صحية، بعدما رفضوا استقبالنا كلاجئين. وخشيت شخصيا من مظاهرات العداء التي يمكن أن يثيرها وجودنا، وبصورة عامة أكثر عداء المؤسسة السياسية الأمريكية لنا. غير أن «أرماو» و«كين» لم يكونا وحدهما من دفعانا نحو الولايات المتحدة، فعائلة الملك كانت تضغط بكل ثقلها للتحول إلى هذا الاتجاه، خاصة الأميرة «أشرف»، التي رأت أن شقيقها سوف يتلقى رعاية هناك أفضل مما في «مكسيكو سيتي». ووضعني ذلك الجدل أمام معضلة معنوية مؤلمة، فإحساسي الشخصي يميل بي إلى الأخذ بنصيحة البروفيسور «فلاندران» والبقاء في المكسيك، ولكن من ناحية أخرى لم أرد أن أتولى هذه المسئولية الضخمة بمفردي. فلو حدث شيء للملك لن أغفر لنفسي أبدا. ولهذا قررت ألا أعارض التيار.

فعبر أي سبيل قررت الولايات المتحدة، التي تخشى على سلامة سفارتها في «طهران»، فتح حدودها أمامنا؟! جمع الصحفي «بيير سالينجر» المناقشات التي جرت في أعلى مستويات الحكومة الأمريكية في ذلك الوقت. وشرح كيف اتخذ البيت الأبيض القرار:

«عندما أكدت وزارة الخارجية أن الشاه مريض للغاية وأن الرعاية الطبية الملائمة لا يمكن تقديمها له في «مكسيكو سيتي»، أعاد وزير الخارجية التوصية بأن يسمح له الرئيس «كارتر» بالدخول إلى الولايات المتحدة. وأكد «سيروس فانس» على أنها حالة طبية ملحة لا يمكن تفسيرها على أنها تصريح بالإقامة.

واتخذ البيت الأبيض القرار في ١٩ أكتوبر ١٩٧٩ خلال الاجتماع الأسبوعي على الإفطار، الذي يخصصه «جيمي كارتر» لقضايا السياسة الخارجية. والأمر ينطوي بالتأكيد على نوع من أنواع المخاطرة، لكنهم مدينون بذلك للشاه، بعدما عاملوه بطريقة سيئة للغاية لعدة شهور، عندما أراد أن يستقر في الولايات المتحدة، وتم إبلاغه أنه غير مرحب به.

وكان «كارتر» نفسه مؤيدا للقيام بهذه اللفتة تجاه الشاه. ويرجع تردده إلى خشيته وقوع مكروه للسفارة الأمريكية في «طهران». وقبل أن يتخذ القرار النهائي سأل الأشخاص الذين يحضرون الإفطار عادة «ولتر مونديل» نائب الرئيس، و«سيروس فانس»، و«زبيجنيو بريزنسكي»، و«هارولد براون»، ووزير الدفاع، وكبير موظفي البيت الأبيض «هاميلتون جوردان». وجاءت التوصية بالإجماع: دع الشاه يدخل الولايات المتحدة.

وسلَّم «كارتر» بوجهة نظرهم، ثم أضاف: «وبماذا سوف تشيرون إذا احتلوا السفارة، وأخذوا رجالنا رهائن؟»(١).

وبعد أسبوعين، في الرابع من نوفمبر ١٩٧٩، حدث ما كان الرئيس «كارتر» يتخوَّف من وقوعه: داهم الطلاب الأصوليون والشيوعيون السفارة الأمريكية. واحتفظوا بالدبلوماسيين الذين يزيد عددهم على الستين رهينة لمدة ٤٤٤ يوما.

وكتب «سيروس فانس» لاحقا: «كان علينا أن نختار بين اللياقة العامة والإنسانية وبين احتمال وقوع ضرر لموظفي سفارتنا في طهران». ورفضت الجمهورية الإسلامية تصديق أن زوجي مريض حقا. وادعت أنه ذهب إلى الولايات المتحدة لاستعادة السلطة في «طهران» بمساعدة أمريكية.

وفي ٢١ أكتوبر، عشية المغادرة إلى نيويورك، كتبت في دفتر مذكراتي: «أنا قلقة للغاية بشأن صحة زوجي. أظل بالطبع متفائلة. وأحاول أن أنقل إليه ذلك، لكن القلق قائم. لقد فقد الكثير من وزنه وتنتابه أحيانا نوبات من الألم غير المحتمل. ولم أعد أعرف ما أستطيع أن أفعله من أجله. وليس هناك أي دواء يساعده. والأطباء لا يستطيعون أن يفسروا سبب هذه النوبات. وكان اتخاذ قرار الذهاب إلى نيويورك صعبًا بالنسبة لي. وكان الأمريكيون على وشك إرسال أحد أطبائهم للتأكد من أن زوجي مريض حقا، وأن تلك ليست خدعة للحصول على تأشيرة دخول. لو كانوا فقط يعلمون أن أيا منا لم يرغب في الذهاب إلى هناك!».

وسافرنا إلى نيويورك ليلة ٢٢ أكتوبر على متن طائرة خاصة صغيرة. ولم نأخذ معنا

---

(١) Pierre Salinger, Otages, les négociations secrètes de Téhéran, Paris, Buchet-Chastel, 1981.

إلا الحد الأدنى من الأمتعة، حيث أكد لنا الرئيس «خوزيه لوبيز بورتيلو» أننا نستطيع العودة إلى فيلتنا في «كويرنافاكا» بمجرد إجراء العملية. وكنا سنتوقف في «فورت لودرديل» بولاية فلوريدا لاستكمال شكليات الدخول، ومن تلك اللحظة سار كل شيء على نحو خاطئ. فقد هبط الطيار في «فورت لودرديل» ولكن في المهبط الخطأ، لذلك لم يكن هناك من ينتظرنا. وكان الجو حارا للغاية داخل الطائرة، فخرجت لأتجول حول الطائرة برهة رغم أن ذلك كان ممنوعا. وخلال تلك الفترة اتصل «روبرت أرماو» تليفونيا محاولا تخفيف سوء الفهم. وصعد مفتش من وزارة الزراعة إلى الطائرة ليسأل عما إذا كنا نحمل نباتات ويأخذ أي مواد قابلة للتلف أحضرناها معنا.

وأخيرا، وبعد انتظار دام ساعة كاملة، وصل المسئولون الذين كانوا ينتظرون عند المهبط الآخر واستطعنا الإقلاع مرة أخرى إلى نيويورك. ووصلنا عند مطلع النهار. ولحسن الحظ لم تكن وسائل الإعلام هناك. وطلبنا توصيلنا إلى شقة الأميرة «أشرف» في الجانب الشرقي، حيث يقيم الأولاد. إلا أنه عند مدخل شارعها أشار لنا أحد الأمريكيين الذين يعملون مع «روبرت أرماو» طالبا ألا نقترب أكثر، حيث كان حشد من الصحفيين ينتظر خارج مبنى الأميرة «أشرف». وهكذا دار السائق إلى الخلف وأخذنا مباشرة إلى مستشفى نيويورك.

وكانت هناك حجرتان محجوزتان لنا في الدور السابع عشر، واحدة للملك والأخرى كغرفة انتظار للأشخاص المرافقين له. كانتا في نهاية ممر، حتى يمكن مراقبة المدخل جيدا، ويمكن سد جزء من الممر.

وما أن أصبح زوجي على فراشه يلقى الرعاية، غادرت إلى شقة الأميرة «أشرف». فطوال رحلة الطائرة من «كويرنافاكا» إلى نيويورك كنت أفكر في كيفية إبلاغ الأولاد نبأ مرض والدهم بمرض خطير. ونويت التحدث إليهم بهدوء قبل نقل زوجي إلى المستشفى، لكن ازدحام الصحفيين حال دون ذلك. والآن صار الأمر ملحًّا، فالسرية المحيطة بمرض الملك يمكن أن يكسر نطاقها أطباء مستشفى نيويورك في أي وقت. وسوف تنقل محطات الإذاعة والتليفزيون الخبر فورا، وهناك مخاطرة هائلة بأن يعرف أبناؤنا هذه المصيبة من الصحفيين بأصعب الطرق التي يمكن تصورها مباغتةً وإيلامًا. واستطعت أن أنذرهم في الوقت المناسب، وأتمنى أن أكون نقلت إليهم الأمل الذي كان لديَّ.

وكان من المقرر أن تجرى العملية يوم ٢٤ أكتوبر التالي لوصولنا. وسمح لي أن أظل مع زوجي حتى باب غرفة العمليات، وبينما هو يدخلها قال لي ـ ربما خشية من أسوأ الاحتمالات ـ هذه الكلمات القليلة وهو يضغط زندي بحزم: «**اعتني بالأولاد ولا تدعي أحدا يستغلك**».

وأزال الجراح المرارة، ولكن كان واضحا أنه ينبغي استئصال الطحال. وشرح لاحقًا أنه رأى أن إجراء عمليتين مرة واحدة سيكون صعبا، ثم قال: إن الشق الذي أحدثه في البطن لم يسمح له بالوصول إلى الطحال. ومع ذلك، بدا وقتها أنه راض عن عمله، قبل أن يخفف من تفاؤله. وعندما أعيد قراءة ما كتبته في دفتر مذكراتي يوم ٢٥ أكتوبر أستطيع ملاحظة هذا التحول المفاجئ: «**هذا الصباح كان لدي أمل. كنت واثقة وممتلئة بالطاقة. حاولت أن أرفع معنويات جميع من اتصلوا بي. ولكن منذ برهة أبلغني الأطباء أمرًا أصابني بذعر ٥٠ في المائة من المرضى بهذا المرض يمكن أن يظلوا على قيد الحياة بين اثني عشر شهرا وثمانية عشر شهرا و ٥٠ في المائة يمكن أن يأملوا في التعافي. وعندما لاحقتهم بالأسئلة، تراجعوا قائلين إنه لا توجد قواعد، وإن ذلك يعتمد تمامًا على طريقة استجابة المريض للمرض... آمل فقط أن يستجيب زوجي بصورة مواتية! لقد شعر بتحسن منذ وهلة وبدا الأطباء واثقين**».

ولم أكتشف أن هذه العملية لم تكن متقنة إلا بعد فترة طويلة. وعرفت أن تكلفة إجراء العملية كانت باهظة للغاية، وقيل لي إن أي مريض غير معروف يلقى عناية أفضل من شخص معروف. وبعد سنوات قدم بروفيسور «فلاندران»، الذي سرعان ما اضطررت لاستدعائه، هذا التقرير الذي يحتوي على الإدانة مرة أخرى في خطابه إلى بروفيسور «جان برنار»:

«ولا شك أنك تتذكر أنني تلقيت اتصالا في باريس من خبير الأورام الأمريكي دكتور «مورتون كولمان»، الذي استُدْعِيَ لفحص المريض. وشرحت له التاريخ المرضي بالكامل بأفضل ما أستطيع. وعلى الرغم من أنه من الناحية النظرية كان يجب أن يكون على معرفة به، لأنني قدمت التاريخ التفصيلي للحالة إلى «كين».

ولم يف «كين» بالوعود التي قطعها لي. فوفقا لما اتضح بعد ذلك دُهِش «مورتون كولمان» (الذي اختاره «كين» باعتباره متخصصًا في الأورام) عندما عرف أن جلالته

خضع لعملية جراحية من دون إبلاغ «كولمان» بها، ومن دون أن يستطيع تقديم توصياته. وأشرك «كين» رئيس قسم الأمراض الباطنية دكتور «هـ. وليامز» باعتباره طبيب غدد صماء من أجل تقديم المساعدة. كان الجراحِ قد دخل إلى البطن عبر شق صغير مائل تحت الضلوع مباشرة، بعدما قرر بداهةً عدم استئصال الطحال. غير أنه كان هناك أيضا مشكلات خطيرة، فرغم إزالة الحصوات تحت ظروف طبية مناسبة، ترك حصوة سدَّت القناة الصفراوية، حيث لم يجر فحص الأشعة النهائي أثناء العملية. وعمت الدهشة، وعدم التصديق، بل والضجة الساحة الطبية في الولايات المتحدة وغيرها. فلم يكن ذلك «الأفضل» الذي يمكن أن يقدمه الطب الأمريكي، وإنما الأسوأ، كما يمكن أن يوجد في أي بلد في العالم. كان ذلك مروِّعًا بالفعل. وما تلا ذلك كان سلسلة من العواقب التي تسبب فيها هذا الخطأ الفادح».

وسرعان ما بدأ زوجي يشعر بألم رهيب مرة أخرى. ولم يكن يشكو غير أن المعاناة تبدو واضحة على وجهه. ثم أدرك الأطباء أنه لم يتم إزالة جميع الحصوات. وعندما تقرر اللجوء إلى المناظير بدلا من فتح البطن مرة أخرى اعترض الطبيب الشاب الذي تم الاتصال به بدعوى أنه ذاهب للأوبرا ذلك المساء! كنت مذهولة، بلغ الألم بزوجي مبلغه، وهذا الرجل الذي وظيفته تخفيف المعاناة والعناية بالناس، لا يشغله سوى مقعده بالمسرح أولًا وأخيرًا!

وفي نفس الوقت بدأ دكتور «مورتون كولمان» المعركة ضد سرطان الملك. ويقع مركز «ميموريال سلوان ـ كيترنج» لعلاج السرطان قبالة مستشفى نيويورك. ويربط بين الاثنين سراديب في البدروم، وطُلِب منَّا استخدام هذه السراديب ـ التي يستخدمها عمال الصيانة ـ عندما نذهب من أجل العلاج الكيميائي. وحدث ما خشيته فما أن عُرِف خبر وجودنا، حتى هُرِعَ متظاهرون إيرانيون إلى المستشفى، ووقفوا خارجها يوميا. فهل سمعهم زوجي وهم يَدْعون عليه بالموت صارخين «الموت للشاه!» في نفس الوقت الذي كان يصارع فيه الموت؟! لا أعرف وأحب أن أعتقد أن الله أعفاه من ذلك على الأقل. وعلى أي حال كان هناك موقفا أثَّرَ في مشاعري للغاية، فقد ذُعِرَ بعض عمال أمريكيين في موقع إنشاء قرب المستشفى من الطريقة التي كان المتظاهرون يتصرفون بها، وأخذوا يحتجون هم أيضا ولكن ضدهم. وحتى لو لم يكن الملك قد لاحظ شيئا في هذه الفوضى لم يكن يستطيع تجاهل التوتر البالغ

حولنا، فقد أبدى العاملون بمركز علاج السرطان تأففهم من تقبلنا، خشية أن يصيروا ضحايا انتقام من «طهران». ولذلك تم فرض جميع أنواع الإجراءات الأمنية، وهو ما أجبرنا تقريبا على التخفي. فكان يقال لي: «لقد تقرر ذلك في الخامسة صباحا» فأستيقظ في الرابعة وأذهب إلى المستشفى لأجد أن الموعد تأجل إلى العاشرة مساء، أو أن الطبيب ليس هناك، وإنما ذهب إلى الريف. لقد دفعونا بالتأكيد للشعور بأننا غير مرحب بنا. وفي كل مرة نضطر للمرور من تلك السراديب الكئيبة تحت الأرض، التي تبعثرت فيها أكياس من الكتان القذر، والملك على كرسي متحرك، وأنا أحميه من تيارات الهواء بقدر ما أستطيع. كنت أحمل داخلي صورة مفزعة للمستشفيات منذ وفاة والدي، فصار الكابوس الذي عشناه تذكيرا مؤلما بها.

نعم، كان كابوسًا، ففي نهاية أكتوبر كتبت:

«يارب، إذا كان يجب أن يرحل ذات يوم، فلا تدعه يعاني. هل هذه مكافأته مقابل حياة قضاها في خدمة الآخرين؟! إنه لا يشكو أبدا، بل إنه يجد الشجاعة كي يبتسم. الزهور، وبطاقات المجاملة، والبرقيات من جميع أنحاء العالم. الأصدقاء القريبون. ملوك ورؤساء الدول، وأيضا الطلاب، يجب أن أرد عليهم، وأجد الشجاعة كي أشكرهم. لم يعد للعالم أهمية بالنسبة لي. أشعر بخواء. في «طهران» قال «خلخالي» إنه سيرسل شخصا لقتل الملك في حجرته بالمستشفى. ويريد «خوميني» أن يرسل طبيبين للتأكد مما إذا كان الملك مريضا بالفعل أم أنه يكذب. وادعى أن «سي آي إيه» تحمي زوجي.

أذهب للمستشفى كل صباح. وأحيانا أدخل من الباب الأمامي، ولكنني في أغلب الأحوال أضطر للذهاب عبر البدروم المليء بحقائب القمامة، والمقاعد والطاولات المحطمة. أشعر بالأسى للعمال المساكين الذين يعملون في البدروم. أبقى بجوار زوجي، ذلك هو المكان الوحيد الذي أشعر فيه أنني على ما يرام. وفي الخارج الناس متوترون وقلقون. لا أريد أن أرى خوفهم، أو أسمع نصيحتهم. كما ينبغي الاعتناء بالأشياء الصغيرة، كإجراء اتصالات تليفونية، والرد على البريد... لا أستطيع أن أرى الأولاد بقدر ما أحب. ليس لدي الوقت حتى لأطالع كتبهم المدرسية...

أنا في حجرته. والساعة الثالثة بعد الظهر. هو نائم وقلبي يملؤه الجزع. لا أستطيع

أن أمنع ذلك. والضوء ينساب عبر الستائر. كل شيء هادئ. ولا يمكن سماع إلا صوت السيارات في الأسفل، وأحيانا عويل صفارة الشرطة أو الإسعاف، أو أزيز مروحية. يجب أن يقوم بقليل من التمشية، لكنني لا أستطيع تحمل مشاهدته. يؤلمني أن أرى إلى أي حد صارت ساقاه نحيفتين. ينبغي أن أمنحه الأمل، وأرفع روحه المعنوية، وأبتسم في وجهه. هذا الرجل الذي شاب شعره عبر سنوات طويلة من خدمة بلده...

اتصل الرئيس «السادات». وقال له: «أخي، طائرتي على استعداد لنقلك. ستكون على الرحب والسعة متى أردت أن تأتي». واتصلت «جيهان السادات» أيضا عدة مرات. وقالت لي كثيرا: «لا تلق بالا لما تقوله الصحف». ثم تضيف: «نحن هنا، «فرح»، نحن هنا».

وأثناء هذه الأيام المرعبة، ابتهج الملك بهذا الخطاب الحافل بالحب والاحترام، الذي تلقاه من ابننا الأكبر «رضا»:

والدي العزيز:

أدعو الله العزيز أن يعيد إليك الصحة في القريب العاجل. وأنا واثق من أنه سوف يجيب دعائي، لأنني كلما فكرت في الأمر، كلما رأيت أنك لم ترتكب خطأ. وهبت حياتك كلها لخدمة الشعب وتنفيذ مشيئة الله. لتطمئن أنك لن تكون وحدك إطلاقًا، فدعوات ملايين الناس معك. وخدمتك التي لا تقدر بثمن لوطننا لن تنسى أبدًا.

أدعو الله أن يرعاك دائما، فأنت المبرر الوحيد لحياتي.

مع حبي

«رضا»

وسيخبرني ابني بعد ذلك بفترة طويلة كيف شعر بالصدمة عند اكتشافه الطريقة التي تحدثت بها الصحف فجأة عن والده، بعد الإشادة بعمله سنوات عديدة: «إنه أمر لا يصدق. لقد أصبح طاغية ومستبدًا بين ليلة وضحاها. لقد اعتقدت فعلا أنهم لا يتحدثون عن نفس الرجل. الشخص الذي عرفته دائما يحترم الآخرين كثيرًا، وكان مخلصا لبلاده للغاية. فجأة يحاولون إقناع العالم أنه مارس الحكم كديكتاتور، لكننا نعلم أنها كذبة».

نعم، كان التوتر حولنا مرعبا، والكراهية أيضا، والصيحات التي تلاحقني. شعرت أنني أطارد من قبل حشود مخبولة، ومعادية، يدفعها حرسي ورجال الشرطة الأمريكيين ضخام الأجسام بعيدًا عني. مازلت أذكر واحدا منهم وهو يجذبني نحو المصعد منذرا: «**ربما يمر بك شخص ما ببساطة ثم «طراخ» يطلق الرصاص على رأسك**». وعندما قالها أشار بإصبعيه نحو جبهتي. قلت لنفسي: «**يا للباقته!**».

واستطاع بضعة أشخاص مهمين الوصول إلى الملك والتعبير عن مساندتهم، رغم الطوق الأمني من حوله. وأذكر بوجه خاص زيارة وزير المالية السابقة «هوشانج أنصاري»، والدكتور «عبد الحسين سميعي» وزير العلم والتعليم العالي السابق، وجاء أيضا «فرانك سيناترا» الذي كان قد غنى في إيران وأعطى زوجي ميدالية عليها «سان كريستوفر» القديس راعي المسافرين، التي أثَّرت في مشاعري كثيرا ونحن في حالة المنفى. وقابل الملك أيضا آخر رئيس لسكرتاريتي «سيد حسين نصر»، ففي طريقه إلى المستشفى تم إيقافه بسبب السرعة الزائدة، ولكن عندما أخبر رجال الشرطة عمن هو في طريقه لزيارته، أعربوا عن تعاطفهم، حسبما قال، وتركوه يمضي.

واستطعت أن أجد طريقة للهروب مرة أو اثنتين، لأذهب إلى حديقة الحيوانات مع «ليلى» و«علي رضا»، صغيريَّ المسكينين، التائهين في هذه العاصفة. ولكن على الأقل لم يكونا تعيسين للغاية في المدرسة؛ «ليلى» في مدرسة «ماري ماونت» وشقيقها في «سان ديفيد». وكنا ألحقنا «فرح ناز» في مدرسة «إيثيل ووكر» كطالبة بالقسم الداخلي، من أجل حمايتها من الجو الرهيب الذي يحيط بنا. وكانت مدرسة ممتازة، لكنها لم تكن سعيدة. شعرت بأنها بعيدة عنا جدًّا، وكان التغير مفاجئا لها بشدة، وقد نَدِمْتُ كثيرا جدًّا بعد ذلك لأنني لم أتركها مع الصغيرين، والأهم عندما عرفت أنهم لم يرأفوا بحالها، بل العكس تماما، فذات يوم، عندما كانت مريضة، علمت أن إحدى مدرساتها علقت: «**هل تثيرين كل هذه الضجة لكونك أميرة؟!**» كان والدها يحتضر، وفقدت كل شيء، ولكنها لم تحظ بالقليل من الشفقة في ظل تلك الظروف.

وذات مرة وافقت على قضاء ساعة أو اثنتين في متجر كبير مع صديقة، مثل أي امرأة عادية. وقررنا أن نتخفى في مظهر امرأتين فرنسيتين، وأن نطلق على إحدانا اسم «ميشيل» والثانية «جاكلين». وعند أحد منافذ البيع وقفنا أمام بائعة نظرت إليّ باهتمام وقالت:

ـ عذرا، مدام، لكنك قريبة الشبه من واحدة.

ـ حقا؟ من؟!

ـ زوجة الشاه!

ابتسمت قائلة: «قيل لي هذا».

فأضافت: «حسن! أنا آسفة من أجلك. ليس سهلا أن تشبهي تلك المرأة في هذه اللحظة!».

لا، لم يكن سهلا، وتزايد التوتر حتى بلغ نقطة الانهيار في الرابع من نوفمبر، عندما اكتشفت أمريكا أنه ردًّا على دخولنا الولايات المتحدة احتُلَّت سفارتها في طهران، وصار دبلوماسيوها سجناء لدى الأصوليين من الآن فصاعدا.

فعندما علم «خوميني» بوصولنا إلى الولايات المتحدة قبل اثني عشر يوما ثار ضد «المؤامرة الأمريكية لإعادة الشاه إلى السلطة». وبعد ذلك بقليل دعا الطلاب، وخصوصا طلاب الدراسات الدينية إلى «**تشديد هجماتهم ضد الولايات المتحدة وإسرائيل، لإجبار أمريكا على إعادة المجرم، الإمبراطور المخلوع**». وهكذا صار واضحا أن أسر الرهائن يحظى بدعم «مرشد» الثورة، وأنه تقرر من أجل تسليم الملك إلى إيران.

غير أن ذلك لم يحظ بتأييد رئيس الوزراء «مهدي بازاركان»، الذي قدم استقالته، وكذلك وزير الخارجية «إبراهيم يزدي»، وحرما بذلك الولايات المتحدة من شريكيها الوحيدين في التفاوض داخل النظام الإيراني الجديد. وكان «مهدي بازاركان» الرئيس السابق لحركة الحرية قد شهد دون أن تهتز شعرة من رأسه الإعدامات السريعة لمئات من النساء والرجال الذين كانت جريمتهم الوحيدة أنهم خدموا إيران في عهد زوجي. أما «إبراهيم يزدي» فكان جلس مع القضاة ومرتكبي التعذيب، الذين أصدروا أحكاما بالإعدام ـ ضمن أشياء كثيرة اقترفوها ـ ضد رجال كانوا معروفين بشجاعتهم، ونزاهتهم، وولائهم، ومن بينهم جنرال «مهدي رحيمي»[1] و«نعمة الله ناصري». ولكن لاشك أن رئيس الوزراء ووزير الخارجية اعتبرا هذه المرة أن الهجوم على السفارة الأمريكية يتجاوز ما يمكن أن تقبله «أخلاقياتهما» الشخصية.

---

(١) قطعت ذراع الجنرال «رحيمي» اليمنى قبل إعدامه لأنه أدى التحية عندما نُطِق اسم الملك.

وأفزعت دراما السفارة الشعب الأمريكي تمامًا، ونقلت الصحافة فورا غضبهم المشروع. وفي موقعي كان من الصعب التماس الأعذار. فصحيح أن معظم الغضب بدا موجهًا ضد «تعصب القرون الوسطى» في «طهران»، ولكن تظهر تعليقات هنا وهناك تشير إلى أن هذا خطأ زوجي، وعندما حدث ذلك أعمتني المعاناة عن أي شيء آخر. كنت هناك أشهد محنته يوما بعد يوم، فكان الاستماع إلى هذا النبذ الجديد، وهذه المطالبات المكشوفة «تخلصوا منه» ـ أمرا يفوق احتمالي أحيانا.

وتوضح الملاحظات التي كتبتها في تلك الأيام المرعبة من نوفمبر ١٩٧٩ فكرة جيدة عن حالتي الذهنية في ذلك الوقت:

«٨ نوفمبر: لقد أرجئوا جلسة العلاج الكيميائي، خشية أن تهاجم منظمة التحرير الفلسطينية المستشفى. إنه أمر رهيب، لأننا أيضا لا نستطيع الذهاب إلى أي مكان آخر. وأعلم الآن أن أيا منا لن يجد السلام حتى نهاية عمرنا. وربما يتسبب مرض زوجي في إشعال حرب عالمية ثالثة. وفي الشارع ذهب بعض الشباب الأمريكيين إلى حد الدفاع عنا، ويتشاجرون مع الطلاب الإيرانيين الذين يطالبون بتسليمنا. ويهتفون خذوا «كارتر»، سنحتفظ بالشاه! والمفترض أن تدفعني هتافاتهم للإحساس بالراحة، ولكن معرفتي أنهم يضربون إيرانيين، ولو من تابعي «خوميني»، يجعلني حزينة جدًّا. فعلى غير رغبة منا صرنا سبب كل هذه التعاسة وكل هذا التوتر.

٩ نوفمبر: سوف يتلقى جلسته من العلاج الكيميائي الليلة أخيرا. طُلِبَ مني ألا أحضر لأسباب أمنية. فبقيت في الشقة، لكنني لم أستطع النوم. وفي الرابعة صباحا اتصلت لمعرفة ما حدث. قالوا لي: كل شيء كان على ما يرام. وتخيلته وهو يُدْفَع به عبر تلك السراديب الكئيبة... لم أستطع تحمل ذلك، قمت وطلبت إحدى سيارات الشرطة لتوصلني عبر شوارع نيويورك الهادئة. واتصلت بالمستشفى لأراه في طريق عودته، وجعلني ذلك أشعر براحة.

١١ نوفمبر: استيقظت مبكرا لزيارة مدرسة «فرح ناز»، الواقعة خارج المدينة. وكان ذلك يبعث على التهدئة من إحدى النواحي، حيث أستطيع متابعة المناظر، ورؤية الأشجار، والاستماع إلى بعض موسيقى «فيفالدي» أو «موتزارت». وتعطي مدرسة «فرح ناز» انطباعا جيدًا، لكن الفتاة الصغيرة المسكينة ليست سعيدة على الإطلاق هناك. وآلمني أن أراها وحيدة. ويا لصعوبة جميع هذه المشكلات بالنسبة للطفلة!

١٤ نوفمبر: أحاول أن أظل إيجابية، لا أتابع التليفزيون، ولا أستمع إلى الراديو، ولا أقرأ الصحف. فنغمة التليفزيون، بوجه خاص، تثير انزعاجي بشدة. و«كارتر» يقول إنه لن يشتري أي بترول جديد من إيران، ورد الإيرانيون بأنهم سوف يبيعون إلى مكان آخر وبسعر أعلى. وبدءوا يتحدثون الآن عما يسمى ثروتنا. وحددوها من ٢٣ مليار دولار إلى ٣٠ مليار دولار، وهو غير صحيح بالمرة. وقال «خوميني»: أخذوا معهم ما يساوي إنتاج عام من البترول؛ يجب تسليمهم ومحاكمتهم. وأعلن «بني صدر»[١] أن التاريخ لم يشهد رجلًا أسوأ من زوجي. وصار الأمريكيون المساكين في موقف صعب للغاية، فعندما تتعامل مع مجانين، لا تعرف ماذا تفعل، ومن المستحيل أن تتوقع المستقبل.

١٥ نوفمبر: المناخ صعب، لكنني ينبغي أن أحافظ على الأمل في الأفضل. لا أريد أن يقول الناس ذات يوم: الأمر السيئ، أنها لم تستطع تحمل كل تلك المشكلات. أرى أننا لا بد أن نرحل من هنا، لأنهم يوغرون صدر الشعب الأمريكي ضدنا بكل أكاذيبهم عن ثروتنا المفترضة. وأخذوا يقولون: إن الملك لابد أن يحاكم كمجرم دولي. «خوميني» يدمر شعبًا بأكمله، لكن زوجي هو من ينبغي محاكمته. فإذا كان هناك إله، لماذا لا يرينا قدرته؟

١٦ نوفمبر: أكتب في حجرة نومي. هناك سنجاب صغير لطيف يأتي بانتظام إلى شرفتي وأمنحه الفول السوداني. وأصبحنا أصدقاء. عملت مع «س» على إعداد مخطوطة مذكرات زوجي. وكنت قلقة بعد ظهر اليوم في المستشفى. أخشى أن الولايات المتحدة ربما تسلم زوجي أو أن يؤيدوا هذه المحكمة الدولية لمحاكمته.

٢٠ نوفمبر: أطلق الطلاب سراح الأمريكيين من أصول أفريقية، لكن أحدهم قال فورا: نحن أمريكيون مثلنا مثل الآخرين، ولا نريد أن يستغل لوننا بهذه الطريقة.

---

(١) «أبو الحسن بني صدر»: ولد عام ١٩٣٣، أول رئيس للجمهورية الإيرانية الإسلامية، شارك في الحركة الطلابية المناهضة للشاه منذ بداية الستينيات واعتقل مرتين ثم أصيب خلال انتفاضة ١٩٦٣، وفر من إيران والتحق في باريس بحركة المقاومة التي تزعمها «خوميني». وعاد مع «خوميني» عقب الإطاحة بالشاه. وفي ١٩٨١ اختلف مع «خوميني» وفر مع «مسعود رجوي» إلى باريس حيث حصلا على اللجوء السياسي ونظما حركة معارضة للحكومة الإسلامية. (المترجمة).

وهدد «كارتر» بالتدخل العسكري إذا تعرضت الرهائن للأذى. ويبدو أن غواصة نووية غادرت الفلبين.

لا أملك لحظة هدوء. قلت لنفسي: إذا غادرنا الولايات المتحدة وقتلوا الرهائن، سيقول الناس لو لم نذهب لما حدث ذلك. ولكن إذا بقينا، ربما يجرون تلك المحاكمة الدولية... فكرت في أطفالي. أردت بشدة ألا يعانون!

أنا مستعدة تماما لتسليمي، أنا فقط، حتى لا يلطخ اسم زوجي وعمله، فهو بالتأكيد من أفضل من حكموا إيران، وحتى لا يضع جندي أمريكي قدمه فوق تراب إيران، وحتى لا ينحدر العالم إلى فوضى بسبب مهووسين دينيا.

٢٧ نوفمبر: إنها الساعة العاشرة، والملك سيجري عملية أخرى لإزالة الحصوة التي تركها الجراح. وجاء طبيب ألماني من كندا. وكان مقرر إجراؤها غدا، ولكنهم يجرونها ليلا لأسباب أمنية.

وتدفع قصة هذه المحاكمة الدولية بالبرودة إلى دمي. أشعر كما لو أنني أعيش في طابور الإعدام. فإذا اضطر الملك للمثول أمام محكمة، ماذا سنسمع من جميع رؤساء الدول الذين ظلوا لمدة سنوات يشيدون بعمله من أجل إيران. هل سيدينونه هم أيضا؟! إذا كان هذا هو حال العالم، فأنا أفضل ألا أكون من هذا العالم.

دخلت حجرة العمليات. كان زوجي هادئا. ووضعوا أنبوبا تحت زوره، وكانت رؤيته وهو يحاول الابتسام لي تحطم القلب. وفي نفس الوقت كانوا يقولون في طهران: لدينا ما يثبت أن الشاه ليس مريضا، بينما كنت أشاهده هناك مع القسطرة، والملاءة التي تغطيه مبقعة بالدم... قلبي يوجعني من أجله. ليس من العدل أن يعاني بهذا القدر، ليس جسديا فحسب، وإنما عاطفيا وذهنيا أيضا.

٢٨ نوفمبر: أدلى «كارتر» بحديث إعلامي. قال: لن نستسلم للابتزاز، وهو ما يعني أنه لن يسلِّم زوجي، فكرت للمرة الأولى أن الرئيس الأمريكي بدا شجاعا. وأضاف: نعتبر الحكومة الإيرانية مسئولة عن احتجاز هؤلاء الرهائن. وتابع: عندما جاء الشاه إلى هنا لم يضغط أحد عليَّ. كان ذلك قراري الشخصي وأرى أنني فعلت ما هو صائب. لست نادما ولا أطلب السماح من أحد. وعندما تسمح صحة الشاه يستطيع أن يرحل».

وكان الشاه قد نقل مخاوفه منذ الثامن من نوفمبر إلى الرئيس «كارتر»، وأوضح له أنه سوف يغادر في أقرب وقت ممكن، لتفادي تعقيد المفاوضات التي ظهرت جميع الدلائل على صعوبتها البالغة. وطُرحت فكرة تشكيل محكمة دولية لمحاكمته في بعض المحافل، فيما يبدو أنه لتهدئة طهران التي كانت تطالب بتسليمه. وخيم ذلك بدرجة كبيرة على ذهني كما أستطيع أن ألاحظ عند إعادة قراءة مذكراتي، لأنني أعتقد أن الصحافة نقلت ذلك على نحو موسع. ثم لم يعد أحد يذكرها، وبقي فقط التهديد بالتسليم. ورغم التطمينات من الرئيس «كارتر» ظل الخطر معلقا فوق رأس زوجي حتى مارس ١٩٨٠ عندما عدنا إلى مصر، حيث سيموت بعد أربعة أشهر.

وقبيل نهاية نوفمبر: رأى الأطباء أن الملك يمكن أن يغادر المستشفى قريبا. وأخبرونا أنهم أيضا يريدون السرير. شعرنا بارتياح أننا نستطيع الآن البدء في التفكير بشأن عودتنا إلى «كويرنافاكا». وأرسل «روبرت أرماو» مساعده «مارك مورس» إلى هناك لوضع الفيلا مرة أخرى تحت الحراسة، وللتأكد من أن كل شيء معد جيدًا. وتقرر أن يكون وصولنا في الثاني من ديسمبر. وفي ٣٠ نوفمبر تلقينا خبرا أذهلنا جميعًا: المكسيك ترفض الآن منحنا اللجوء السياسي.

ولم يكن من الممكن فهم هذا التغير المفاجئ في موقف الرئيس «خوسيه لوبيز بورتيلو» فلو كانت حكومة المكسيك تخشى على سفاراتها في العالم العربي، مثلما قيل وقتها، لماذا جدد دعوته منذ احتجاز الرهائن في الرابع من نوفمبر؟! تلقيت لاحقا تفسيرا مختلفا يبدو أن «فيدل كاسترو» أبلغ الرئيس «لوبيز بورتيلو» أن كوبا سوف تصوت لصالح دخول بلاده مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة بشرط أن يرفض منحنا اللجوء.

وعندما علم «روبرت أرماو» بتغير موقف المكسيك من قنصل عام ذلك البلد في نيويورك انعقد لسانه عن الكلام، حسبما ذكر «بيير سالينجر» الذي قام بجمع حقائق تلك الحادثة. وقال «أرماو»: «**لا أصدقك، تلقينا تأكيدا من القصر الجمهوري هذا الصباح أن كل شيء على ما يرام**». فطلب منه القنصل أن يتصل بالسفير السيد «هوجو مارجان» الذي أكد ما قاله بهذه الكلمات: «**لم يعد الشاه شخصا مرغوبا في وجوده بالمكسيك. عليك أن تفهم، لقد صار وجوده تهديدا لمصالحنا القومية**».

ويواصل سالينجر القول: «**وعاد أرماو محبطًا إلى المستشفى. وبقي في الحجرة المجاورة للشاه مدة ساعة، متحيرًا في كيفية نقل الخبر إليه. ثم دخل واحد من الحرس قائلا: «التليفزيون يذيع نشرة أخبار، وجهازه مفتوح، من الأفضل أن تذهب وتبلغه». ونظرا لأن القناة التليفزيونية التي كان الشاه يشاهدها لم تذع المعلومة، كان على «أرماو» أن يبلغه الخبر. وظل الشاه لوهلة يحملق إليه غير «مصدق». ثم قال أخيرًا: ولكن لماذا؟!**»[١].

وبحث البيت الأبيض عن حل بمجرد إبلاغه الخبر، ثم أرسل «لويد كتلر»، المستشار القانوني للرئيس لإبلاغ الملك بالقرارات التي اتخذت. وحدث كل ذلك بسرعة شديدة، وفي الوقت الذي كانوا يبلغوني بالخبر، كان مكاننا الجديد في المنفى تم اختياره: قاعدة لاكلاند الجوية في «سان أنطونيو»، تكساس.

وأبلغني زوجي بالأمر تليفونيا. وقال: «**نحن ذاهبون إلى تكساس. الحكومة الأمريكية تطلب منا أن تبقى وجهتنا في غاية السرية. لا تبلغي أحدًا، ولا حتى الأولاد**». ماذا؟! نحن ذاهبون من دون إبلاغ الأولاد، من دون أن نقول لهم إلى أين سنذهب؟! بدا الأمر قسوة غير محتملة ويتجاوز قدرتي على التعامل معه، لكنني وافقت. وتقرر رحيلنا في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي.

كنت مع الأميرة «أشرف» ذلك المساء، عندما اتصلت صديقة تدعوني إلى الغداء في اليوم التالي، قبلت لتفادي إثارة الشك. وسألتني عن الأطباق الإيرانية التي أفضلها. فكذبت بأقصى استطاعتي.

ولما كنت غير قادرة على النوم تلك الليلة، أمضيت ساعات في التحدث مع «قمبيز عتابي». كان الملك في المستشفى والأولاد يقيمون معي. فكرت فيهم، في مدى حزن «ليلى» عندما تستيقظ لتجد أنني اختفيت من دون حتى بضع كلمات حب لها. حطم ذلك قلبي؛ كانت في التاسعة فحسب. وذلك ما حدث بالضبط. سألت عني بمجرد استيقاظها - «**أين مامي؟**» - ولم تصدق «قمبيز عتابي» عندما قال لها إنني ذهبت. فبالنسبة لعقلها الطفل الصغير، لم يكن مقنعا أن تذهب مامي من دون أن تمنحها قبلة وداع، فجرت إلى حجرة نومي. وحتى اليوم لا أستطيع التحدث عن هذا

---

(١) Pierre Salinger, op. cit.

المشهد من دون أن يتغلب الحزن عليَّ. عدم تصديق «ليلى» ألمها عندما اكتشفت أنني لست موجودة...كان ذلك كافيا ليدفعني للجنون.

جمعت أغراضا قليلة في ساعة مبكرة من الصباح، وخرجت إلى الشارع. أعمتني فجأة أضواء كاميرات التليفزيون؛ كانت جميع وسائل الإعلام هناك، نبهها تسرب الخبر من حيث لا يعلم إلا الله. وها أنا حُرِمْتُ من أن أُقَبِّل أطفالي قبلة وداع بينما كان شخصٌ ما يبلغ الصحفيين! دُفِعْتُ إلى سيارة شرطة ثم انطلقت. كان ذلك مفزعًا ومضحكًا في نفس الوقت. كان هناك رجال من وكالة الاستخبارات المركزية ومكتب التحقيق الفيدرالي في سيارتي وشاحنات مليئة برجال أمن تحيط بنا. وانضم إليَّ الملك في المطار، الذي نُقِل تحت نفس الظروف. وكانت بانتظارنا طائرة عسكرية، يحرسها رجال يرتدون خوذات وسترات واقية من الرصاص، ومسلحون ببنادق آلية. وطُلِبَ منا الصعود. فهل كان التهديد ضدنا خطيرا بما يكفي لتبرير كل هذا؟! فكرت في تلك الليلة أن جميع الاستعدادات غير المعقولة اتُّخِذَت لدفعنا إلى الجنون.

ولم يخفف الاستقبال المذهل الذي لقيناه في قاعدة «لاكلاند» من هذا الانطباع. فما أن غادرنا السيارة حتى دُفِعنا بأقصى سرعة إلى سيارة إسعاف من دون كلمة ترحيب أو شرح. وانطلقت السيارة بسرعة بالغة، تدور وتقف بسرعة حتى أننا صدمنا بعضنا عدة مرات. واصطدم رأس المسكينة دكتورة «بيرنيا»، التي كانت معنا، بركن السيارة بشدة. وتوقفت عربة الإسعاف أخيرًا، وفتح أحدهم الأبواب، وها هو ملاذنا الجديد، مبنى العلاج النفسي في مستشفى عسكري! ووُضِعَ الملك في حجرة ذات نافذة بطول الجدار، وأُخِذت أنا إلى حجرة مجاورة لم يكن بها مقبض للباب من الداخل، وإنما ميكروفون في السقف. شعرت بالرعب، ولم أصدق عيني ولم يقدم الرجال ذوو المعاطف البيضاء ـ الذين بدا أنهم هناك لمراقبتنا ـ أي تفسير لما يحدث. ولما كان بحجرتي نافذة (ذات قضبان حديدية)، هُرِعْت لفتحها. كنت أشعر باختناق حقيقي، لكن ممرضا هز رأسه، مشيرًا إليَّ أنه ليس باستطاعتي لمس النافذة. ولحسن الحظ انضمت إليَّ دكتورة «بيرنيا» في نفس الوقت، فقلت لها: «**هل تسمحين أن تبلغيه أنني سأجن إذا لم يفتحها؟**» ثم وافق على فتحها قليلا، وفي الدقائق التي تلت ذلك أنقذتني هذه السنتيمترات العشرة

من الهواء الطلق. وحتى أتفادى ذهاب عقلي بدأت أصف هذه الحجرة بالتفاصيل الدقيقة في دفتري، بل إنني رسمت لها رسما تخطيطيا.

وعندما وصل «مارك مورس» مساعد «روبرت أرماو»، كنت قد خرجت عن شعوري وبدأت أصرخ: «**هل نحن في سجن؟! هل ألقى بنا «كارتر» في سجن؟! هل نحن معتقلون؟!**» سُمِحَ لي باستخدام التليفون، لذلك اتصلت بـ«قمبيز عتابي» في نيويورك وبعض أصدقاء. وقلت لهم جميعا: «**إذا لم نتصل بكم اعلموا أننا في «لاكلاند»، تحت الإقامة الجبرية**». كنت حزينة لدرجة أنني لم أعِ أننا لو كنا بالفعل تحت الإقامة الجبرية لما كانوا سمحوا لنا باستخدام التليفون.

وخلال ذلك الوقت ذهب «روبرت أرماو» ـ الذي كان ثائرًا أيضًا ـ ليتحدث إلى المسئول العسكري. واتضح بعد بضع ساعات أنهم وضعونا هنا على وجه السرعة، بينما يرتبون شقة صغيرة لنا في إحدى البنايات التي تستخدم من أجل العاملين في القاعدة. وعندما وجدنا أنفسنا أخيرا في هذه الغرف القليلة المؤثثة على نحو مقبول، شعرنا بالكثير من الارتياح.

وتحولت إقامتنا في «لاكلاند» ـ التي لن تستمر سوى أسبوعين ـ إلى إقامة أكثر متعة مما بدت عليه في أولها. فسرعان ما حضر قائد القاعدة، الجنرال «إيكر»، ليطمئن على راحتنا. وكان معظم الطيارين الإيرانيين قد تدربوا في الولايات المتحدة، ومن خلالهم تعرَّف الجنرال ورجاله على إيران وأحبوها، واحترموا الملك. ولا شك أن زوجي أسعده أن يجد نفسه وسط أصدقاء، وصاروا قريبين عندما تبادل خبرات الطيران مع بعض الضباط.

وبذل جنرال «إيكر» قصارى جهده لجعل منفانا محتملا، فدعانا إلى العشاء عدة مرات وقدم إلينا ضباطه، وعندما اكتشف أنني أود أن ألعب التنس عثر لي على شركاء من بين رجاله. وأنا أجد في التنس والرياضة بوجه عام نوعا من أنواع العلاج، وسيلة لأن أظل ثابتة بدنيا وذهنيا. وحتى اليوم يساعدني التنس خلال أسوأ المحن على ألا أستسلم. كان عليَّ أن أجبر نفسي على الذهاب، ولكنني شعرت بعدها بالآثار المفيدة لذلك. وكانت تلك مساحة الحرية الوحيدة المتاحة لي، لأن الجنرال منعنا بشكل مهذب من الخروج من المبنى الذي نقيم فيه، بسبب قلقه على سلامتنا. وكان

أقصى ما سمح لنا به السير حوله بصحبة ضابطينا الكولونيل «جاهانبيني» والكولونيل «نويسي»، وهما أيضا محاطان برجال أمن أمريكيين. ووجد ضابطانا الإيرانيان ذلك مرهقا، فكنت أغيظهما قائلة: «**حسنًا، الآن تعرفان بنفسيكما كم هو مزعج أن يكون إلى جانبك دائما حرس شخصي! قلت لكم ذلك كثيرا في السابق، لكن لم يكن يبدو عليكما أنكما تصدقانني**». وأحضر لنا الضباط الأمريكيون شرائط تسجيل تسخر من «خوميني» وقمصانًا عليها صور كاريكاتورية له.

غير أننا في السابع من ديسمبر ذلك العام ١٩٧٩ صدمنا بخبر مروِّع: علمنا أن ابن الأميرة «أشرف» «شهريار شفيق»، اغتيل في باريس، فأثناء دخوله مسكن شقيقته، فيلَّا «دوبون» في الحيّ السادس عشر من المدينة، أطلق رجل يرتدي خوذة دراجة نارية الرصاص عليه، فأصابه في العنق ثم أجهز عليه قبل أن يختفي.

وكان «شهريار» ضابطا بحريا في الرابعة والثلاثين من عمره. كان الملك مغرما به ويقدره كثيرا، مثلما كنت أقدره أنا أيضا. وظل في إيران حتى اندلاع الثورة الإسلامية، غير أنه استطاع مغادرة البلاد عابرا الخليج الفارسي في زورق صغير. وما أن خرج من البلاد حتى شرع في تنظيم المقاومة. وظل على اتصال بالعديد من زملائه الذين كانوا لا يزالون في إيران، حيث كان محبوبًا منهم ويحظى بتقديرهم بسبب بساطته وشمائله كضابط. وكان زوجي قد أمضى معه بعض الوقت في «البهاما»، وأبلغه «شهريار» أنه سيواصل المعركة. كان من أولئك الذين تستطيع دائما الاعتماد عليهم.

ودفع موته بالملك إلى حالة من اليأس الصامت. وانضمت إلينا الأميرة «أشرف» الثكلى، حيث لم نستطع أن نفعل لها شيئا سوى مشاطرتها الحداد. يا إلهي، متى تنتهي هذه الدوامة من الموت؟! جميع الرجال والنساء الذين جعلوا من إيران دولة عظيمة يختفون واحدا بعد الآخر.

ومثلما هو متوقع أصدر «صادق خلخالي» رجل الدين المتعطش للدماء الأمر بهذه الجريمة الأخيرة، منذرًا أن القتل سوف يستمر «**حتى نزيح كل هؤلاء الأذناب القذرة للنظام الفاسد**». ولم تعثر فرنسا أبدًا على قاتل «شهريار شفيق».

وربما كان الحزن عاملًا ساهم في تدهور صحة الملك. ولم يعد هناك طبيب يراه، فبدأ طحاله يتضخم. وعندما أخبرت بروفيسور «فلاندران» بالأمر تليفونيًّا، بدا مندهشًا

أن عقار «كلورامبيوسيل» تم وصفه لزوجي مرة أخرى. وكتب فيما بعد «**خطأ فادح آخر**».

ولم نستطع مواصلة إقامتنا في «لاكلاند»، بسبب كل من صحة الملك والبيت الأبيض الذي أراد أن يرانا نغادر الولايات المتحدة بسرعة. ولكن أين يمكننا أن نذهب؟ أبلغتنا وزارة الخارجية أن حتى جنوب أفريقيا التي كانت قد وافقت في إحدى المراحل على قبولنا لم تعد الآن راغبة. تألمت للغاية. وتملَّكنا إحساس بأننا صرنا منبوذين في أعين العالم كله، بما في ذلك البلدان ذات الأنظمة الرجعية مثل جنوب أفريقيا، حيث مازالت التفرقة العنصرية تمارس، وحيث لم أكن أريد الذهاب على أي حال.

وأخيرًا، في ١٢ ديسمبر، جاء «هاملتون جوردان» كبير موظفي البيت الأبيض لإبلاغ الملك أن «بنما» مستعدة لاستضافتنا. وكان السيد «هاملتون جوردان» قادما من هناك لتوه ومعه دعوة من جنرال «أومار توريوس». ولم يكن لدينا بالفعل خيار آخر سوى القبول.

وتبقى بعد ذلك القرار الطبي الذي ينبغي اتخاذه بشأن زوجي. وجاء لفحص الملك الدكتور «بنجامين كين»، الذي رتب للعملية في «نيويورك»، مع الطبيب المساعد له دكتور «وليامز» الذي كان عضوا في فريق العملية. وفي هذه المرة رأى الاثنان أنه لا بد من استئصال الطحال. وإذا كان الأمر ملحًا، فالإدارة الأمريكية تبدو مستعدة لإجراء العملية في الولايات المتحدة، ولكن «هاملتون جوردان» بدا متلهفًا في نفس الوقت على رؤيتنا نغادر البلاد بأسرع ما يمكن، فقرر زوجي: «**لنذهب، سوف نجري العملية لاحقا في بنما**».

كان المسكن الذي مُنِحَ لنا على جزيرة «كونتادورا» في «أرخبيل بيرل»، بعد نحو ثلاثين دقيقة بالطائرة أو المروحية من بنما سيتي. وهو مِلك للسفير البنمي لدى الولايات المتحدة «جابرييل لويس» الذي كان كريما بحيث وضعه تحت تصرفنا. وعندما خرجنا من الطائرة أدهشتنا درجة الحرارة شديدة الارتفاع، خاصة أننا وصلنا ونحن نرتدي ملابسنا الشتوية. وكانت الفيلا تضم أربع حجرات، إحداها كبيرة مستقلة ذات شرفة على الطابق الأول، حيث سوينا الوضع لزوجي بأفضل ما استطعنا. كان

يحتاج للراحة، والقليل من السلوى في حالة ضعفه، لكنني لم أستطع أبدا أن أمنحه هذا العزاء. فإذا أغلقت النافذة يشعر بالحر الشديد، وإذا فتحتها يصبح معرضا لتيار الهواء وهو غير مُحَبَّذ في حالته. فنظرت إليه في حب، وكنت تقريبا مسلوبة العقل من القلق. ما الذي أستطيع أن أفعله من أجله في هذا البلد، على هذه الجزيرة الصغيرة، حيث لا نعرف أحدا؟

وفي تلك الأيام الأولى في «بنما»، كتبت السطور التالية والحزن يغرقني:

«١٦ ديسمبر: الملك لا يشكو أبدا وإنما يظل هادئا ولطيفا مهما حدث. كم بقي له من الوقت في هذه الحياة؟ لا أعرف. مريض للغاية ومرهق على هذه الجزيرة البائسة في المحيط الهادئ، مع كل هذه الرطوبة والحرارة. يا لزوجي المسكين، حتى لو كانوا لطفاء، حتى لو كان الشعب ودودًا، فالجزر خانقة. أرى الجانب السيئ من كل شيء هذه الليلة، إنني مجهدة. وحتى تنهداتي تبدو مختلفة. ما من سبيل أمامي إلا أن أواصل الحياة، من أجل أولادي وزوجي. جميع الإيرانيين المنفيين ليسوا سعداء.

١٨ ديسمبر: تظاهر شباب بنميون أمام السفارة الأمريكية. وقال لنا جنرال «توريوس» ألا نقلق. آمل ألا يسببون مشاكل هنا. فإذا فعلوا ذلك فإلى أين سنذهب؟ ليس هناك سوى مصر، وليس مؤكدا أن الأمريكيين سوف يتركوننا نذهب إلى هناك.

١٩ ديسمبر: الملك يشعر باعتلال منذ عشرة أيام. لقد قرروا استئصال الطحال، ولكن متى؟ وأين؟ أنا قلقة للغاية. أتردد ما بين الأمل واليأس، والأيام تمر في حالة من الحيرة. أنا معجبة كثيرا بهذا الرجل، الذي يبقى مبتسما على الرغم من ألمه. لقد فقد المزيد من الوزن وعيناه تبدوان متضخمتين. وأرى القلق في عينيه بصورة عابرة. يا إلهي، دعه يعيش»!

ومن دواعي سعادتنا أن استطاع الأولاد المجيء إلينا في أعياد الكريسماس مع والدتي. فهم يعيشون الآن بعيدا عنا، لكنهم على الأقل لم يضطروا لمشاركتنا هذا الارتحال الفظيع، والمهين، والمحطم للروح، من مكان إلى مكان آخر. وهنا أيضا كانت الفيلَّا أصغر من أن تتسع لهم، لذلك أَجَّرْنا فيلَّا أخرى قريبة. وكانت هذه الأيام القليلة مثل استراحة قصيرة وسط المحنة التي لا تنتهي. خرجنا جميعًا معا كأسرة، وذهبنا للسباحة كما كنا نفعل خلال الزمن البعيد في «كيش». واتجهت إلى التنس مرة أخرى ولعبت مع «مارييلا»، وهي فتاة من «أوروجواي» تعمل في فندق قريب.

وجعلتني بلطفها أشعر بالانشراح. وجاء الملك الذي شعر بتحسن قليل وجلس بجانب الملعب ليتابعنا ونحن نلعب. بل إنه رمى بضع كرات! وهذه اللحظات المختلسة من إحساسنا المعتاد بالحزن والإحباط القاتم تبقى في ذهني كذكريات مليئة بالدفء والحب. وبعد ظهر أحد الأيام لم أستطع مقاومة الرغبة في ارتداء زلاجَتَيْ المياه مرة أخرى، فقد مرَّ وقت طويل منذ فعلت ذلك آخر مرة. ثم رأيت أشخاصا من كل ناحية يلوحون بأذرعهم لي على نحو محموم: كان الخليج مليئًا بأسماك القرش ولم نلاحظ.

وعلى مدى بضعة أيام أدلى الملك بحديث تليفزيوني إلى الصحفي البريطاني «ديفيد فروست». وقال إن رجال الدين لم يتفهموا العالم الحديث وإنهم سوف يتسببون في أضرار كثيرة لإيران. وأراد أن يجيب بصدق عن كل سؤال، من دون أن يخفي أي شكوك لديه. ولذلك عندما سأله الصحفي عن أسباب الثورة الإسلامية، قال الملك: «**أقول لك، يا سيد «فروست»، مازلت لا أفهم ما حدث**». وعندما سئل عما يسمى إصابته بجنون العظمة، رد مباشرة: «**هل هو جنون عظمة أن تساعد في خلق الاستقرار في منطقة المحيط الهندي؟!**» وأخيرا في موضوع «سافاك» التي ربما أضر دورها وصورتها بالملكية، كانت إجابة الملك: «**كانوا يطبقون ما يرون أنه في صالح البلاد، وربما يكونون مخطئين**».

واختارت السلطات البنمية دكتور «آدان ريوس» لمتابعة تطور حالة الملك المرضية. وكان متخصصا في علاج السرطان، تلقى تدريبه في الولايات المتحدة الأمريكية، وهو جاد ويبدو أنه طبيب كفء. وجاء دكتور «ريوس» عدة مرات خلال يناير ١٩٨٠ لفحص زوجي وأخذ عينات الدم التي يحتاجها.

وبعد مرور وقت طويل عرفت أن خلافات دبلوماسية بدأت أثناء هذه الزيارات، حول تحديد ما إذا كانت العملية سوف تجرى للملك في مستشفى «جورجاس» بمنطقة القناة الأمريكية القديمة، التي ما زال الأمريكيون يديرونها[1]، أو في مركز

---

(١) ظلت القناة التي تصل بين المحيطين الهادئ والأطلسي تحت السيادة الأمريكية منذ شقها فيما بين ١٩٠٤-١٩١٤. وفي ديسمبر ١٩٩٩ أعادت الولايات المتحدة ـ تطبيقا لاتفاقية ـ السيادة إلى بنما على القناة والمنطقة المحيطة بها التي كانت تضم قواعد أمريكية. (المترجمة).

«بيتيًّا» الطبي الذي يديره البنميون. وأيَّد دكتور «كين» ودكتور «وليامز» مستشفى «جورجاس»، بينما فضَّلَ دكتور «ريوس» مركز «بيتيًّا»، حيث أرسل زوجي إلى هناك في فبراير لإجراء سلسلة من الاختبارات التمهيدية عندما رأى أنه لا يمكن تأخير استئصال الطحال أكثر من ذلك.

كان ذلك عندما بدأ الخلاف في الواقع بين الأطباء الأمريكيين والبنميين، لكنه خلاف لن يؤدي إلا إلى إلغاء العملية والمخاطرة بالتعجيل بنهاية زوجي.

وفي تلك الأثناء كنت قلقة للغاية بالطبع، فاستسمحت الدكتور «فلاندران» أن يجيء إلى «بنما». وهكذا صار قريب الاطلاع على هذه المعركة من أجل الامتيازات، ولم نستطع ـ زوجي وأنا ـ إلا مشاهدة الآثار.

وتكشف رواية دكتور «فلاندران» عن المعركة لبروفيسور «برنار» الكثير عن هذه الواقعة المأساوية في منفانا:

«تلقيت اتصالا آخر من جلالة الملكة، تطلب مني الحضور إلى «بنما» لتقدير الموقف. ولم يكن وصولي أمرًا سهلًا. أخذت رحلة «الكونكورد» على الخطوط الجوية الفرنسية إلى «نيويورك»، على أن أتوقف لركوب الطائرة «برانيف» إلى «بنما سيتي». وعندما غادرت «الكونكورد» في مطار «كيندي»، فوجئت بسماع صوت يعلن: السيد «فلاندران»، اتصل بمكتب الاستعلامات من فضلك. ظننت فورا أن شيئا خطيرا قد وقع للمريض. لكن الرسالة التي تلقيتها كانت شيئا مختلفا تماما، لكنها لم تخفف من قلقي. طُلِبَ مني محادثة «روبرت أرماو» على تليفون بيته في «نيويورك». توقعت أن يُبَلِّغني المعلومة عندما أتصل به. كانت زوجته هي التي ردت، وقالت ببساطة إن «بوب» يُبْلِغُني ألا أواصل رحلتي وإنما أذهب لأقابله في بيته. وهكذا لم أستقل طائرة «برانيف»، وأخذت بدلا من ذلك تاكسيًّا إلى العنوان الذي أعطتني إياه. وبدا ذلك كله مؤكِّدًا للافتراض المتشائم الذي خطر بوضوح على ذهني. وتوقف التاكسي أمام بناية، في مكان ما بالقرب من وسط «نيويورك»، وهو ما أدهشني. ولم أسأله مباشرة السؤال الذي كان على شفتي، لكنني لم أستغرق طويلًا لأفهم أنه ليست هناك مشكلات صحية جديدة تتعلق بجلالته. دُهِشتُ، وقلت لـ«أرماو» إن علينا إبلاغ «بنما» فورًا أنني لست قادمًا. فطمأنني قائلًا إنها ليست مشكلة. غير أنني سمحت لنفسي أن أطلب تفسيرا واضحًا بينما أحاول البقاء هادئًا.

كل ما استطعت أن أفعله هو تقبل المشروب القوي، والتفسير الوحيد المقدّم لي، وهو أننا ينبغي أن نتقابل جميعًا غدًا للمناقشة. لقد أوقفوا رحلتي، وكنت منتظرا لأرى إذا كانوا سوف يوقفونني. وأوصلني مضيفي الجذاب إلى فندق، وعاد في الصباح التالي... ليأخذني إلى مكتب دكتور «كين» الخاص! كنت حانقًا. وكان «بنجامين كين» هناك، مرح، يقبض بأسنانه على سيجار كالعادة. وهناك أيضا رفيقه دكتور «وليامز» بشعره الأبيض، ووجهه الشاب، وابتسامته الهادئة. بالإضافة إلى «أرماو» الجذاب، وكان هناك ثلاثة أو أربعة أشخاص، لا أعلم. وتركز اهتمام الجميع عليَّ، وشعرت كما لو أنها هيئة محلفين أو محكمة، أكثر منها مجرد تناول شراب مع أصدقاء. وسرعان ما دخلنا في الموضوع. طلبت توضيحًا، مذكرا إياهم بشكل محدد أن جلالة الملكة طلبت مني الحضور بصراحة، وأنني أود مواصلة رحلتي، إذا لم أتلق منها تعليمات مغايرة. وطلبت تبريرًا لهذا الاعتقال المزدوج. وحاولوا تهدئتي بالطبع. وشرح «كين» بزهوه المعتاد أنه الطبيب الخاص لجلالته وأنه مسئول و... و... إلى آخر ذلك. باختصار إن الأمر لا يستحق ذهابي إلى «بنما»! غير أنني كنت مصمما على الذهاب، لقد كنت ساذجا وبسيطا، ولكنني لست كذلك من الآن. قلت لهم مرة أخرى إنني جئت بطلب من المريض نفسه، وهو الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يُحلِّني من ذلك الطلب، وإنني في كل الأحوال سوف أغادر بعد ظهر نفس اليوم على طائرة «برانيف» التي كان يجب أن أستقلها في اليوم السابق... إذا لم يكن لدى أحد اعتراض. وحقق إصراري التأثير المطلوب. وسوف أبقى في «بنما» لمدة شهر من دون أن أقول لزوجتي شيئا، وسيكون عليها استنتاج ما تستطيع استنتاجه من مشاهدة التليفزيون. وقررت ألا أقلق بشأن دكتور «كين»، وأن أفعل ببساطة ما يبدو لي مفيدا.

ولم تكن الواقعة التي حدثت في «نيويورك» سوى قلة عقل تافهة، أما ما حدث في «بنما» ـ مثل القرارات التي اتخذت في المكسيك ـ فهو إخضاع المشكلات الطبية للدوافع الدنيئة للسياسة ضيقة الأفق. عندما وصلت إلى «بنما سيتي» صرت على اتصال بالدكتور «آدان ريوس». وأخيرا وجدت طبيبا مناسبا للمهمة المطلوبة منه. لم نواجه مشكلة في التفاهم بيننا، أو في إعداد قائمة بالمصاعب حتى نستطيع اتخاذ القرارات معا. ولم يكن هناك أيضًا مشكلة مع الأطباء الأمريكيين في مستشفى «جورجاس». وبعد أن زرت المريض في مقر إقامته بجزيرة «كونتادورا»، كانت

ملاحظاتي كما يلي: على الرغم من عدم استكمال العلاج بالأشعة اختفت الآن العقد الليمفاوية فوق الترقوة من ناحية اليسار، والتي كان تحليل الخزعة أظهر تضخمها. وعلى الرغم من أن المريض لم يعد يتلقى عمليا علاجا كيميائيا فإنه يعاني من نقص الخلايا الشامل، مع نقص بالذات في صفائح الدم، ونقص الكريات البيضاء المتعادلة، فيما يتعارض مع قوة الاحتمال الإكلينيكي. ومع ذلك بدأت تحدث نوبات قليلة من عدوى الجهاز التنفسي الثانوية، لكنها أيضًا ليست خطيرة. والأهم من ذلك أصبح حجم الطحال هائلا، أضخم مما شهدناه عام ١٩٧٤ . وبدا أن هذه الزيادة في الحجم حدثت مؤخرا، ومن ثم تظهر تضخما سريعا، مما جعلني أتخوف من استقرار ورم ليمفاوي نشط في الطحال، بدلا من عودة متلازمة التكاثر الليمفاوي الأصلية. والآن وبعد أن تم عرض المشكلة بوضوح كان علينا أن نعرف حالة النخاع العظمي من أجل تحديد التأثير الكلي لتضخم الطحال أو غزو الورم للنخاع العظمي، على ندرة الخلايا المحيطة. ووافق «آدان ريوس» على تحليلي.. ونظرًا لأن «كين» و«وليامز» كانا لا يزالان في «نيويورك»، استطعت أن أؤدي آخر عمل مستقل كطبيب على الحالة بأخذ صورة للنخاع الشوكي، خضع لها المريض بقدرته المعتادة على التحمل.

حدث ذلك في اليوم التالي على وصولي إلى «بنما»؛ لم أر أي فائدة من إضاعة الوقت، فأخذنا ـ دكتور «آدان ريوس» وأنا ـ طائرة مروحية صغيرة، وعدنا إلى قناة «بنما». وكان يجرى معالجة عينات النخاع بالصبغات في «جورجاس»، حيث فحصت المسحات. وهنا وجدت مفاجأة سارة لم تكن متوقعة تقريبا: كان عدد الخلايا في النخاع العظمي جيدا بدون مظاهر ليمفاوية غير عادية. وهناك درجة معينة من تكاثر الأرومات، وهو ما جعلني أبحث عن علامات فرط انحلال الدم المناعي. وبالتالي ظلت هناك فرصة في ذلك الوقت لأن يكون نقص الخلايا الشامل مرتبط أساسًا بتضخم الطحال (...) وبعد استئصال الطحال نصحت بالبدء في علاج كيميائي مركب من نوع «سي. إتش. أو. بي» (ومجموعة جرعات عالية من هذا النوع). وتوصل «آدان ريوس»، وهو خبير كفء في العلاج الكيميائي، إلى نفس النتائج.

وأبلغنا جلالته بمقترحاتنا العلاجية، ثم بدأنا بحث الاعتبارات العملية المتضمنة في البرنامج العلاجي. وفي البداية لم يبد أن المتطلبات الجراحية الخالصة تمثل لنا

أي مشكلات خاصة. ولم يكن ذلك في أذهاننا في المقام الأول. ومن ناحية أخرى كان يمكن لمتطلبات العناية المكثفة بأمراض الدم أن تمثل مشكلات أكثر خطورة. ومن ثم اتصل «آدان ريوس» بالدكتور «أندرسون»، الذي اتصل تليفونيا بالدكتورة «جين هستر»، التي كانت شهرتها فوق مستوى الشك في شئون الإنعاش بنقل الدم، وبوجه خاص نقل خلايا الدم البيضاء. وبدت خبرتها في جهاز «آي. بي. إم» لفصل خلايا الدم قيمة لا ينبغي أن نعمل بدونها. وكان «آدان ريوس» يعرفها، ووافقت أن تجيء وتحضر معها مهندسًا من شركة «آي. بي. إم» حيث ينبغي أن تحضر معهما جهاز «آي. بي. إم» لفصل الدم، حيث لم يكن هناك جهاز من هذا النوع في «بنما».

وبدا أن خططنا تعمل في ظروف معقولة. وهكذا هاتفت «كين» لأبلغه أن الوضع الطبي يتطلب استمرار وجودي هناك. لذلك قام بالرحلة إلى «بنما» ووصل إلى «كونتادورا» مع دكتور «وليامز». وشرحت لهما الوضع ورغبتي في أن تتم عملية استئصال الطحال في أسرع وقت ممكن. وعندها نشبت حرب كلمات حادة بين «كين» وبيني. وأعلن أنه يعارض استئصال الطحال، ليس لأسباب فنية، وهو أمر يمكن أن يكون قابلا للنقاش، ولكن لأنه رأى أن استئصال الطحال خطير للغاية، وينتهي عادة بالوفاة! فاستشهدت له بمعدل الوفيات وهو أقل من واحد في المائة!

ولمَّا أعاد جلالته تأكيد ثقته فيَّ اضطر «كين» للنزول على قراراتي، حيث كان يخشى بوضوح أن يفقد سيطرته على هذا الأمر، فعاد مغلَّفًا بالابتسامات ليبلغ جلالته في حضورنا أنه سيُحْضِرُ «أعظم جراح على قيد الحياة!» فأمسك الجميع أنفاسهم، ثم أعلن اسم «مايكل ديبيكي». كنت سمعت الاسم بوضوح ـ كان متخصصا عظيما في جراحة القلب والأوعية الدموية ـ ولكن لم أكن أستطيع الحكم على صحة هذا الاختيار. ولم يبد جلالته أي رد فعل على هذا الاسم للحظة، فإما أنه لا يعني شيئا بالنسبة له، أو أنه لم يظهر شيئًا. وبدا «كين» محبطا للغاية، فمن الواضح أنه ظن الاسم وحده سيكون له تأثير السحر على عقل المريض. أما «آدام ريوس» و«جين هستر» فأبديا دهشتهما ومعارضتهما. وكنت حاضرا عندما أَبْلَغت «جين هستر» جلالته رأيها. وقالت بحسم وعلى نحو لا يدع مجالا للشك إن «ديبيكي» لا علاقة له بمشكلات جراحة سرطان البطن، وأن الفكرة كلها سخيفة. ولم أستطع المشاركة في هذه المناقشة، وكان عليَّ أن أقول إنني لست في موقف يسمح لي بالاختيار بين الجراحين الأمريكيين لأنني لا

أعرف أيًّا منهم. وأدرك «كين» أنه تم تحييدي في هذه النقطة، وأن كل ما يتعين أن يفعله هو اعتبار رأيي «آدان ريوس» و«جين هستر» كأن لم يكن، وهو ما فعله.

غير أن هذه السياسة اصطدمت بعقبة حيث لم يحسب الأمريكيون حسابا للبنميين. وكان هناك تسلسل هرمي طبي كامل يعلو «آدان ريوس»، لن يسمح أفراده بأن يجري كل ذلك على الأراضي البنمية من دون موافقتهم ومشاركتهم.

وقام تقريبا بدور المرتاب أشخاص معينون، وبالتحديد دكتور «جارسيا» ـ وهو شخص آخر غير «جارسيا» المكسيكي، يعمل جراحًا في عيادة «بيتيًّا» ـ واتضح بجلاء التدخل السياسي بين الحكومة الأمريكية وجنرال «توريوس»، وليس لي أن أعلق. لكنني أذكرك فقط أن عملنا الطبي جرى على خلفية مفاوضات بين إدارة «كارتر» و«طهران» من أجل عودة الرهائن، وكانت حقيقة هذا الوضع واضحة، حتى بالنسبة لي.

ومر الوقت مهدرا بلا فائدة. وثارت مشكلات بين الأمريكيين والبنميين حول اختيار موقع العملية، مستشفى «جورجاس» أم عيادة «بيتيًّا»؟ وتوترت العلاقات. ووصل «ديبيكي» في طائرته الخاصة مع مساعد، وخبير تخدير، وممرضة، وقد تم استجواب الجرَّاح قبل مغادرته «هيوستن». وكنا قد انتقلنا من مرحلة الرجل الخفي، التي مارستها، إلى مرحلة أضواء الكاميرات والبث التليفزيوني الحي. وبدا أن جانب الدعاية والشهرة في هذا الوصول لم يعجب الأطباء البنميين، كما يبدو أن تعليقا في وقت غير مناسب أدلى به «كين» لصحيفة أمريكية كاد أن يؤدي إلى أزمة، حيث تضمن تصريحه أن الطب البنمي غير قادر على حل المشكلة الطبية الجراحية، ومن ثم فالجراح الأمريكي أرسلته العناية الإلهية، وإلى آخر ذلك.

ومنذ تلك اللحظة اندلعت حرب مفتوحة بين الجانبين البنمي والأمريكي. ونُقِل جلالته إلى «بنما سيتي» وأُدخِل «بيتيّا»، وكانت تبدو عليه دلائل مضاعفات عدوى تنفسية. وفي ذلك الوقت كنت الوحيد الذي نجا من هذه الحرب الكلامية، لأنني الوحيد الذي لا يتبع أيًّا من المعسكرين. وحاول كل منهما أن يستقطبني ويستخدمني ضد الآخر. وكان «ديبيكي» جذابًا للغاية وودودًا نحوي. وشرح لي الجراح البنمي دكتور «جارسيا» وجهة نظره. حتى أنه قال لي ذات يوم: لماذا نحتاج هذا الاسم الكبير

«ديبيكي»؟! استئصال الطحال ليس مشكلة بالنسبة لي، أستطيع أن أجريها بيدي اليسرى، بينما اليمنى مربوطة خلف ظهري! فأوضحت في ردي أنه طحال متضخم وسط مرض خبيث في الدم، وأن هذا الوضع يحتاج احتياطات خاصة. وكان جلالته مدركا تماما للمعركة القائمة. ويؤكد ذلك الملاحظة التي أبداها لي خلال هذه الأيام: دكتور «فلاندران»، أنت مثل السويسريين، محايد بين جانبين متحاربين!

وتدهور الموقف من مجرد توتر إلى نزاع. وأحاط جنود بنميون بعيادة «بيتيًا»، وهي قريبة للغاية من فندق «هوليداي إن» حيث نقيم. ولم يكن أحد يستطيع الدخول، وانطبق ذلك على الأطباء الأمريكيين مثلما انطبق عليّ. وكانت الشرطة البنمية تراقبنا ونحن في حجرات الفندق، وأعطونا بطاقات مغلفة عليها صورنا التي التقطوها في الحال. وكان الأمر يشبه قليلا بطاقة هوية الشرطي... وبهذه البطاقات استطعنا أن نغادر فندقنا أخيرًا تحت أعين كاميرات التليفزيون ونذهب إلى «بيتيًا» سيرًا على الأقدام. وحدث نوع من محادثات المائدة المستديرة مع السلطات الطبية البنمية والأمريكية. ولم ألتقط جوهر مناقشاتهم كله، ولكن ظهر أن «ديبيكي» يمكن أن يساعد في العملية لكن من الواضح أنه لا يستطيع أن يكون القائد. ثم ذهبنا لرؤية المريض. واستقبَلنا جلالته مرتديا بذلة. وكان الجو باردا، فاستمع إلى الآراء، وبقدر ما أستطيع أن أتذكر كانت الخلاصة أنهم لا يجب أن يتعجلوا الأمور، وأدى الاعتلال الرئوي إلى تأجيل العملية لأيام قليلة، إلى آخره. وظللت هادئًا تماما، ولم أشارك في هذه المناظرة. وعندما كنا بصدد مغادرة الحجرة وبدأ الأطباء يخرجون، بقيت كما كنت، على نحو ملحوظ. ومنحني جلالته نظرة موافقة، وظللت بمفردي معه. ونظر البنميون والأمريكيون إلى بعضهم بأطراف أعينهم، ولم يبدوا أي رد فعل. وسألني جلالته بصراحة: دكتور «فلاندران»، هل تعتقد أنني يجب أن أجري العملية هنا؟ أجبت: بالتأكيد لا، لست واثقا مما قد يحدث، فقال: وهذا ما أراه أيضا. وبعد كلمات قليلة غادرت الحجرة أنا أيضا.

ولم يكن عدم الثقة الذي أحسست به راجعًا لأسباب فنية تتعلق بأي من الفريق الجراحي. حيث لم يكن لدي معرفة بأي منهم. وإنما جاء انعدام ثقتي من الجو الرهيب القائم، والذي بدا لي غير ملائم لما ينبغي أن نفعله. فالأمر لا يتعلق باستئصال بسيط للطحال، لكنه المرحلة الأولى من سلسلة طويلة وصعبة من القرارات الطبية. كان وجود جو صاف ضروريا، ولاشك أننا سوف نفتقر إليه.

وكنت قضيت في «بنما» قرابة شهر، واتُّخِذَ القرار الطبي في اليوم التالي مباشرة لوصولي، ومازال لم يطبق. والحالة السريرية للمريض، التي تركت من دون معالجة، تتدهور بالتأكيد، وكنت أفكِّر في التطور التشريحي المحتوم للورم الليمفاوي الذي أُطلِق له العنان. وبدا أن مغادرة «بنما» ومحاولة التصرف هي الفرصة الأخيرة. وكان يجب أن يتوصل الفريق الأمريكي، مهما كانت مسئوليته عن الوضع الحالي، إلى نفس النتيجة بالتأكيد.

ونحن نعرف الآن إلى أي مدى أثرت الدوافع السياسية الخفية المخزية على كل ما حدث. ولم أكن أعرف شيئا عن ذلك بالطبع، ولكن كان لدي شعور قوي بأن اعتبارات غير طبية وضعت في الحسبان. وذات يوم وبينما أدردش مع «ديبيكي» في حجرته، جاءه اتصال هاتفي من «نيويورك». وسأل المتحدث عما إذا كان قرار إجراء العملية مفيدًا جدًّا فعلا في هذا الوقت (خلال الأيام الأخيرة في «بنما»). وأجاب «ديبيكي» بأنه ليس سوى الجراح، وأن التوصية باستئصال الطحال كانت توصيتي، لكنها تبدو له بالفعل ضرورية. وأضاف: لكنني سأعطي دكتور «فلاندران» السماعة. إنه هنا بالصدفة ويمكن أن يشرح لك مبرراته. أظن أن «هاملتون جوردان» هو من كان على التليفون. وشرحت له رأيي، مضيفًا أن الوقت ينفد ويجب القيام بعمل. وبقدر ما فهمت كان من الواضح أن فكرة إجراء عملية في بنما ذلك الوقت ضايقته.

وعاد سلام نسبي بعد اجتماع «بيتيًّا». وقيلت واقعة مزيفة لم يصدقها أحد: أدت عدوى ثانوية في الجهاز التنفسي إلى تأجيل العملية. وعاد الجميع إلى بيوتهم للانتظار».

ولاشك أن مشكلة «هاملتون جوردان» (١)، التي أشار إليها بروفيسور «فلاندران» بتحفظ، يمكن تفسيرها بالسياسة التي اتخذتها بنما في محاولة لحل أزمة الرهائن. وتضمنت هذه السياسة اعتقال زوجي. هل كان ذلك بموافقة البيت الأبيض؟ لا أعلم.

وكان جنرال «توريوس» أراد منذ اليوم الأول أن يلعب دورا في تحرير الرهائن،

---

(١) في كتابه «الأزمة» يحكي «هاملتون جوردان» عن محادثة تليفونية مع دكتور «ديبيكي». كان «جوردان» قلقا من أن السماح للشاه بمغادرة بنما من أجل تلقي العلاج يمكن أن يعرقل المحادثات في أزمة الرهائن. وأوضح «ديبيكي» أن صحة مريضه هي أولى أولوياته وأنه لن يقدم تنازلات في هذا الأمر. (المترجمة)

للمساعدة في إخراج صديقه الرئيس «كارتر» من هذه الورطة المأساوية. ورأى الجنرال في الأمر فرصة لشكر الرئيس الأمريكي الذي أقنع «الكونجرس» في بداية عام ١٩٧٨ بإعادة القناة إلى دولة «بنما». ويمكن تفسير الاستضافة التي قدمها لنا «أومار توريوس» بهذه الرغبة الأساسية في مساعدة الرئيس «جيمي كارتر».

ولم نكن نعلم شيئًا عن ذلك وقتها، ولكن سرعان ما شعرنا بعدم الارتياح في «بنما». صار لدينا انطباع بأن ابتسامات الترحيب تخفي نوايا أقل احتراما. وفي حجرة خزين خلف المنزل اكتشفت فعلًا جهاز تسجيل صوتي ومعدات كهربائية، سرعان ما أدركت أنها تستخدم لتسجيل مكالماتنا الهاتفية. هل كان الجنرال يفكر في تسليمنا في مقابل إطلاق سراح الرهائن؟ ربما لا، حيث كان الأمريكيون يعارضون ذلك، علنا على الأقل. لكنه كان يبحث عن ذريعة لتهدئة «طهران» والوصول إلى حل.

وقدمت «طهران» بنفسها له الحل، حيث أرسلت اثنين من المحامين إلى «بنما» لتقديم طلب رسمي بتسليمنا. ويبدو أن «كريستيان بورجيه» وهو فرنسي، و«هكتور فيالون» وهو أرجنتيني، وصلا خلال عطلات عيد الميلاد التي كنا نقضيها كأسرة في «كونتادورا». وأُخْفِيت عنا هذه الحقيقة بالطبع، ولكن خلال يناير ١٩٨٠، أبلغنا إياها الرئيس البنمي «أريستيد رويو». واقترح بلطف أن نختار محاميًا محليًّا للدفاع عنا ضد تهديد قادم من إيران. فما هو السبب في كل هذا؟ قال لنا: إن اثنين من المحامين يعدان ملفا عن جرائم مزعومة ارتكبها الشاه. وبدا اختيار بنمي للدفاع عنا في مواجهة اتهامات مثل هذه أمرا منافيا للحكمة. فهو ربما لا يستطيع تقدير ما أنجزه زوجي، أو جنون هذا التصرف الذي تقوم به الجمهورية الإسلامية. وزاد ذلك من قلقنا قليلا بشأن نوايا السلطات البنمية.

وحرص الجنرال «توريوس» على طمأنتنا في كل فرصة، ولكن ما كان يريده بالفعل هو استغلال طلب التسليم لإعطاء ضمانات لـ«طهران». كيف؟ لقد اكتشف ذلك لاحقا. فبينما طلب التسليم مازال قيد البحث، كان القانون البنمي في ذلك الوقت يفرض على السلطات البنمية بمجرد تلقيها طلب التسليم اعتقال الشخص المراد تسليمه. ويبدو أن الجنرال أقنع نفسه أن اعتقال الملك سيكون له الأثر الرمزي الكافي لإقناع الطلاب الأصوليين بإطلاق سراح رهائنهم.

ووفقا للمؤرخين أيضا اعتقد «صادق قطب زاده»[1] ـ الذي كان يبرم صفقة لصالح رئاسة الجمهورية وقتها وأرسل اثنين من المحامين إلى «بنما» ـ أن مجرد إعلان فرض الإقامة الجبرية على زوجي سيكون كافيا لدفع الطلاب إلى التراجع.

وعلى الجبهة الطبية بينما كان المحاميان يعملان على ملف التسليم انشغل الفريقان بالحرب التي وصفها بروفيسور «فلاندران». وإذا لم تكن لدينا المعلومات لتقدير الحجم الحقيقي للتهديد المسلط على رؤوسنا، فإننا على الأقل شعرنا بالجو الشنيع الذي أحاط بنا والتوتر الذي بدا أن جميع تحركاتنا تثيره. وقال لنا بعض الصحفيين الذين كنا نعرفهم جيدا: «**اتركوا بنما. اذهبوا. إنها خطر**». وذات يوم اختفى ببساطة «مارك مورس» مساعد «أرماو» المسئول عن حل مشكلاتنا اليومية التي نواجهها على الجزيرة. واكتشفنا أن رجال الأمن البنميين اعتقلوه. واضطر «أرماو» لإبلاغ البيت الأبيض من أجل إطلاق سراحه. وقرب النهاية لاحظنا أن خطنا الهاتفي لم يعد يعمل. وأبلغت عن ذلك فقيل لي إن الخط قد قطع فعلا لأن الفاتورة لم تدفع! وأعيد توصيل الخط، ولكن لبضعة أيام. والغريب بالفعل أنه صار من المستحيل الاتصال بالجنرال «توريوس»، أو سفيره «جابرييل لويس»، الذي كنا نقيم في بيته.

وفي ظل هذا الوضع الجنوني اتصلت بـ«جيهان السادات»، التي كانت تسأل دائما عن أحوالنا. وكنت أدركت أنه لن يستطيع طبيب إجراء العملية في «بنما» لزوجي في ظل هذه الظروف، وأن موقفنا صار ميئوسًا منه. لكنني كنت موقنة أنه يجري التنصت على حديثي، وقلت لها وأنا في حالتي المرتبكة أن تتصل بشقيقة زوجي في «نيويورك» لتتعرف على ما يجري حولنا، من دون أن أشك أن تليفون الأميرة «أشرف» مراقب أيضًا. فهمت «جيهان السادات» وقالت لي: «**تعالوا. نحن بانتظاركم هنا في القاهرة**».

وفيما بعد، وصفت قرينة الرئيس المصري الواقعة في مذكراتها:

«في مارس ١٩٨٠ اتصلت بي «فرح» تليفونيًّا من «بنما». وقالت: «جيهان»، موقفنا يدعو لليأس. السرطان انتشر في طحال زوجي، وإذا لم يجر عملية فورا فسوف يموت. لكنني لا أستطيع الثقة في أحد هنا.

---

(١) «صادق قطب زاده» وزير الخارجية الإيراني خلال فترة أزمة الرهائن الأمريكيين، اتهم بالتحريض على قلب نظام حكم «الخوميني»، وأدين بالخيانة، وأعدم في سبتمبر ١٩٨٢.

فسألت: لماذا يا «فرح»؟! لماذا؟!.

بدا صوتها قريبا من البكاء وقالت: من الصعب أن أشرح في التليفون، وتركتني أستنتج أن تليفونها مراقب. وأضافت: لكننا يجب أن نغادر بنما فورًا. هناك أنباء تنذر بسوء.

وعرفت فورًا ما ترمي إليه، لأنني أيضًا سمعت شائعات عن أن «بنما» ربما تساوم «خوميني» على إعادة الشاه إلى إيران نحو موت محقق.

وسألتها: ولكن ماذا عن عملية الشاه، يا «فرح»؟ فقالت: أوه، جيهان، لا أعرف ماذا أفعل. يجب أن أخرجه من هذا المستشفى، عرفت بالضبط ما الذي لا تستطيع «فرح» قوله. على الرغم من أنني لم أرد أن أصدقه. هل يصل الأمر بـ«خوميني» إلى حد قتل الشاه على طاولة العمليات؟وسألتها: ألا تستطيعون إحضار أطباء أمريكيين لإجراء العملية؟

فقالت وصوتها يتهدج: رفضت حكومة «بنما» التصريح لهم.

فقلت: لاشك أن الحكومة الأمريكية يمكن أن تتدخل لصالحكم.

وردت «فرح» بأسى: الحكومة الأمريكية؟ لقد شبعنا من مساعدتها بما يكفينا بقية العمر.

وترقرقت الدموع في عينيَّ وأنا أستمع إليها. صوتها الذي كان قويا للغاية من قبل، صار الآن متوترًا. وتحطمت ثقتها السابقة. يا لقسوة الأربعة عشر شهرًا الماضية على الشاه وفرح!

اتصلت بـ«أنور» في مكتبه، لأبلغه بخطورة الموقف. وقلت: أخبرت «فرح» للتو أنها ينبغي أن تأتي هي والشاه فورا إلى مصر. وأضفت: هل أخطأت؟. قال: إطلاقًا يا «جيهان»، أبلغي «فرح» أنني سأرسل إليهم طائرة الرئاسة فورا.

قلت له: هل أنت متأكد؟ تعلم أنه سيكون هناك متاعب. لكنه كان واثقا، وقال: سوف يرضي ذلك الله.

ولم تستطع «فرح» أن تصدق عندما اتصلت لأنقل لها النبأ السار. وسألت غير مصدقة: هل ستسمحون للأطباء الأمريكيين بإجراء العملية؟! وأضافت: هل أنت

متأكدة؟ عاشت خائفة لفترة طويلة حتى أنها لم تعد تعرف فيمن تثق. كررت لها القول مرة بعد أخرى: نعم، «فرح»، نعم»[1].

وأثار احتمال سفرنا المباشر قلق الرئيس «كارتر»، فأرسل لنا مبعوثين مستشاره القانوني «لويد كتلر» ورجل من وزارة الخارجية عمل من قبل في إيران «أرني رافيل». فاستقبلناهما في «كونتادورا»، وصممت على البقاء إلى جانب زوجي طوال المناقشة. ورفضا حضور «أرماو» والكولونيل «جاهانبيني» الاجتماع. وبدأ السيد «رافيل» بتذكر الأعوام الخمسة التي قضاها في «أصفهان»، بتعبيرات مداهنة لنا للغاية، قائلًا إنه لاحظ إلى أي حد كان الملك يهتم بشعبه، وكيف عملت بجدية من أجل مصلحة الفقراء. لم تعجبني لهجته منذ البداية، لأنني توقعت أنه من خلال التركيز بهذه الطريقة على روح الإخلاص للشعب التي لدينا، أراد أن يحث زوجي على التضحية بنفسه في الأزمة الحالية. وصار كلما تحدث أكثر، شعرت بغضب حقيقي يثور داخلي. وقلت لنفسي: صحيح أن أي ملك ينبغي أن يضحي بنفسه من أجل شعبه، لكنه من غير المقبول أخلاقيا أن يضحي بنفسه من أجل تهدئة دولة مجرمة تجرؤ على أن تتخذ من دبلوماسيين أجانب رهائن على أرضها.

ثم وصف «لويد كتلر» قلق الولايات المتحدة من احتمال رحيلنا إلى مصر. وقال إن وجودنا في القاهرة يهدد بإضعاف الموقف الصعب بالفعل للرئيس «السادات»، ومن ثم يمكن أن يضر بجهود السلام في الشرق الأوسط. ورددت بصورة قاطعة وحادة: «**إن الرئيس المصري، الذي جدد دعوته، ليس بحاجة لأحد كي يخبره كيف يتصرف**». ومع ذلك، كرر السيد «كتلر» رغبته أن نظل في «بنما» حيث ـ كما قال لنا ـ يمكن ترتيب إجراء العملية في مستشفى جورجاس.

فرد زوجي بهدوء: «**أريد أن أموت بشرف، وليس على طاولة عمليات بسبب شخص ارتكب خطأ أو تمت رشوته**».

ثم طرح السيد «كتلر»، الدبلوماسي البارع، آخر كارت في جعبته: الولايات المتحدة مستعدة لفتح حدودها أمامنا مرة أخرى حتى يستطيع الملك إجراء العملية

---

(١) Jehan Sadate, A Woman of Egypt (Une femme en Égypte), New York, ed. Simon & Schuster, 1987.

في «هيوستن»، ولكن حتى لا تتفاقم المشكلات في «طهران»، يبدو أنه سيكون من الضروري أن يتنازل الملك عن العرش.

فرددت بهدوء: «**القوم لا يفهمون**»، ثم أضفت بعد لحظة صمت إنه إذا تنازل عن الحكم سيئول العرش لابننا «رضا». «**وإذا مات ابننا الأكبر، سيكون الابن الثاني، وإذا مُنِعَ ابننا الأصغر من الخلافة، فسيكون شخص آخر من عائلتنا**».

وكتب الملك لاحقا في آخر نسخة من مذكراته التي استكملها في القاهرة: «**لم آخذ عرض الأمريكيين على محمل الجد. فلمدة عام ونصف العام لم تكن وعود الأمريكيين تساوي شيئا**».

كان ذلك في ٢١ مارس ١٩٨٠. وفي اليوم التالي، السبت، اتصل الرئيس «كارتر» بالرئيس «السادات» ليثنيه عن استضافتنا غير أنه لم يفلح، وعلمت فيما بعد أن الرئيس المصري وجه له هذا التحذير المباشر: «**جيمي، أريد الشاه هنا، وأريده حيًّا**».

وفي يوم السبت نفسه، أخبر زوجي «لويد كتلر» أننا سنغادر إلى مصر في أسرع وقت ممكن. وكان الرئيس «السادات» قد اقترح إرسال إحدى طائرات الرئاسة المصرية إلينا، لكن الأمريكيين رأوا أنه من الأفضل لنا استئجار طائرة على القارة الأمريكية، وهو ما حدث ذلك اليوم. وتساءلنا وقتها لماذا لا يريدون الطائرة المصرية. وفهمنا الأمر في جزر «الآسورس»، عندما كاد التوقف للتزود بالوقود أن يتحول إلى محاولة لاحتجاز رهائن.

وأخيرا، في الساعة الثانية بعد الظهر من يوم الأحد ٢٣ مارس، ركبنا طائرة «دي. سي ـ ٨» التابعة لشركة طيران «إيفرجرين»، بعد ثلاثة شهور من وصولنا إلى جزيرة «كونتادورا». وكان زوجي يعاني حمى شديدة، غير أن الطائرة التي كانت تستخدم عادة لرحلات الشارتر، لا يوجد بها مساحة مريحة تسمح له بالرقود. وكنت قد سألت إحدى صديقات الطفولة، «إيلي أنطونيادس»، إذا كان من الممكن أن تتكرم وتأتي معنا إلى القاهرة، وكانت جاءت من «نيويورك» لترانا في «كونتادورا»، فلم تتردد للحظة. وجلسنا كل منا إلى جانب الأخرى، لكنني شعرت بيقين كبير أن هذه الطائرة مليئة بالميكروفونات، فلم أجرؤ أن أتحدث إليها.

وعقب الإقلاع مباشرة، كتبت: «**٢٣ مارس، تمزقني رؤية هذا الرجل المريض**

بعينيه اللتين تبدوان محمومتين. ومع «جيهان» سوف نكون بالطبع وسط أصدقاء، لكنني قلقة؛ أتمنى فقط ألا تسبب عناصر الإخوان المسلمين العديد من المشكلات... أطفالي المساكين، قلبي يتوجع من أجلهم. لم يستطيعوا الانضمام إلينا في عيد «النوروز» في يوم قبل الأمس. لم أستطع حتى أن أشرح لهم الموقف عبر التليفون، ولا أن أفسر لهم عدم إجراء والدهم العملية حتى الآن، رغم وجود كل هؤلاء الأطباء. لا بد أنهم عرفوا، أصواتهم كانت حزينة أكثر من المعتاد. وعندما أعلن قائد الطائرة أننا نغادر المجال الجوي لـ«بنما»، شعر الجميع بالارتياح. لكنها مازالت رحلة طويلة إلى القاهرة، وأخشى أن يشعر زوجي بسوء».

وخلال الليل هبطنا إلى «الآسورس»، للتزود بالوقود كما أعلن رسميا. وكان قد قيل لنا أن نتوقع ذلك، فتكبدت مشقة البحث عن «الآسورس» على خريطة قبل مغادرتنا. وفي البداية سار كل شيء وفقا للترتيبات. وبينما كانت الطائرة تزود بالوقود، جاء بعض المسئولين لتحية الملك وقدموا أنفسهم باحترام شديد. ورغم أن زوجي كان يقف على قدميه بصعوبة، وجد القوة كي يقف لاستقبالهم بمهابة ويشكرهم. وخرجت بعد ذلك بقليل لأتنسم الهواء، معتقدة أننا سنقلع في أي لحظة. وبينما أتمشى عند المهبط شرحت الموقف في إيران للمضيف الذي كان يرافقني. كان الجو باردا، فوضع سترته فوق كتفيَّ. ثم مر ربع ساعة آخر، لماذا لم نقلع؟!

وعندما عدت إلى الكابينة بالطائرة هبت الريح داخلها، ولاحظت أن درجة الحرارة انخفضت بشكل كبير، وبدأ زوجي يبرد، فطلبت بطانية. ثم بدأت أقلق فجأة: كنا هناك منذ ساعة! ما معنى هذا التعطيل؟! هل يخفي محاولة أخيرة لمنعنا من الوصول إلى مصر؟! كنا في قاعدة جوية أمريكية على متن طائرة أمريكية. كل شيء محتمل. وعندما ذهب «روبرت أرماو» لمعرفة ما يحدث، شرح لنا مسئول في القاعدة أن الطائرة عليها الانتظار لحين الحصول على تصريح للطيران فوق أراض معينة، وهو سبب كان من الصعب تصديقه. ومر أكثر من أربع ساعات على هذا الوضع، وبدأ القلق يستبد بنا جميعًا أكثر فأكثر. وأخيرا، وتوقعًا للأسوأ، اتصلت بصديق في «باريس» لأبلغه بموقفنا. وقلت له إن الملك في حالة حرجة، وإننا معطلون في «الآسورس». وأنا أعتمد عليه، إذا حدث شيء لنا، أن يخبر العالم كله. وفي نفس الوقت كان «أرماو» يحاول دون جدوى الاتصال بـ«هاملتون جوردان».

وأخيرا تلقت الطائرة تصريحا بالطيران. فما الذي حدث؟ قدم صحفيون ومؤرخون لاحقا تفسيرا لذلك الهبوط الذي لم يكن يبدو له نهاية. فيبدو أن «كريستيان بورجيه» محامي «طهران» الذي كان بصدد تقديم الطلب الرسمي للتسليم طلب من «هاملتون جوردان» اعتراض طائرتنا في «الآسورس» وإعادتها إلى «بنما»، حيث كان «صادق قطب زاده» قد قال إنه متأكد من إطلاق سراح الرهائن بمجرد إعلان اعتقال الملك. ووافق «هاملتون جوردان» على تعطيل طائرتنا مؤقتًا من دون إبلاغ الرئيس «كارتر»، الذي أعرب عن عدم رضاه عندما عرف بالأمر. ثم ومع مرور الوقت من دون أي دلائل مشجعة من «طهران» لابد أنه فقد إيمانه بمقترحات «قطب زاده» ومبعوثه «بورجيه».

ومع ذلك قُدِّم طلب التسليم الاثنين ٢٤ مارس، أثناء وصولنا إلى القاهرة، فما الذي كان سيفعله الجنرال «توريوس» لو كان الطلب وصل في موعده المناسب؟ كل شيء يدعوني إلى الاعتقاد أنه لم يكن ليتردد في وضع زوجي قيد الإقامة الجبرية.

وبعد سنوات عديدة سوف يبلغني الرجل الذي كان وزير خارجية البرتغال أثناء واقعة «الآسورس» أن موظفيه عندما وجدوا أن الطائرة لم تقلع مرة أخرى اتصلوا بالأمريكيين. وكشف عن أنه: «**كان هناك غموض شديد حول ذلك، ولم يعطونا أي تفسير معقول**». وغضبت الحكومة البرتغالية وأرسلت سفيرها إلى وزارة الخارجية الأمريكية في اليوم التالي. وكانت الإجابة التي تلقاها أن هذا شأن يخص الولايات المتحدة وحدها، وبالتالي لا يمكن إعطاء أي تفسير.

أربعة عشر شهرا من الارتحال، مع الكثير من المعاناة والمهانة، منذ رحيلنا من مصر. وفي محاولة لإزاحة هذه الفترة كان الرئيس «السادات» وقرينته بانتظارنا عند آخر السلم على السجادة الحمراء التقليدية. وكان حرس الشرف هناك أيضا. وتأثر الملك لذلك كثيرا حتى اغرورقت عيناه بالدموع. واحتضنه «أنور السادات» بدفء، مثلما فعل قبل أربعة عشر شهرا. وكان زوجي ضعيفًا للغاية. وكتبت «جيهان السادات» فيما بعد: «**عندما نظرت إليه صعقت مرة أخرى لقسوة الأمريكيين. هبط الشاه السلم بصعوبة. وكان نحيفا للغاية حتى أن ملابسه بدت أكبر منه بقياسين. وكان وجهه شاحبًا. فلو كان هناك رجل على الأرض بحاجة لأصدقاء أكثر من أي إنسان آخر فإنه هو**».

وقبل وصولنا جرت مناقشة في البرلمان وانتهت بتفويض السادات بأغلبية ٣٨٤ صوتا ضد ثمانية أصوات باستقبالنا في مصر باسم مبادئ الإنسانية وكرم ضيافة الذي حث عليه الإسلام. وهكذا عرف البلد بوصولنا، وتجمع حشد سعيد في المطار لتحيتنا.

وأعد لنا الرئيس المصري قصر القبة، الذي يقع في منطقة لطيفة بعيدا عن صخب المدينة. وفي لفتة رمزية أصر على أن يصطحب الملك العليل لمشاهدة القصر، قبل أن يأخذه إلى مستشفى المعادي العسكري، حيث خُصِّصَ له جناح. وكانت الظروف مهيأة الآن لاستئصال الطحال، الذي كان بروفيسور «فلاندران» قد أوصى به قبل عام، عندما كنا في «البهاما»، وظل يتأجل باستمرار منذ ذلك الحين.

وصارت الظروف ملائمة أيضا لضم الأولاد إلينا. أردتهم أن يكونوا قريبين من والدهم قبل هذه العملية، التي عرفت أنها قد تكون محفوفة بالخطر. فوصلوا سريعا، وللمرة الأولى منذ الأيام السعيدة البعيدة في «طهران»، نجتمع معًا كعائلة مرة أخرى من دون خوف من إبعادنا بين يوم واليوم الذي يليه. وأرادت «ليلى» التي لم تكن قد تجاوزت العاشرة من عمرها أن تفهم مشكلة والدها. وحاولت أن أشرح لها أن أحد أجهزة جسمه لا يعمل جيدًا، فسألت ـ كي تطمئن بالتأكيد ـ عما إذا كانوا سوف يعطونه عضوًا جديدًا أفضل.

ومرت خمسة أيام قبل إجراء العملية، خمسة أيام طويلة عشتها في حالة بالغة من الترقب. كنت أقوم برحلة طويلة، صباحًا ومساءً، بين قصر القبة ومستشفى المعادي، وأذكر أنني بعد ليال قضيتها في أرق، كانت ضجة أبواق السيارات الرهيبة في القاهرة تدفعني للاضطراب، فاضطررت إلى استخدام سدادات الأذن خلال هذه الرحلات، لأتفادى القفز الدائم في مقعدي. غير أن وجود أشخاص حول الملك مهتمين برعايته، أعاد إليه بعض الصفاء، وكان هذا أهم شيء. وأعرب المصريون عن صداقتهم بعدد من السبل؛ اتصل البعض بالمستشفى عارضين التبرع بدمائهم، وكتب لنا الكثيرون، وعلى أبواب المستشفى لم يكن لدى الباعة والمارة الذين سألهم صحفيون من جميع أنحاء العالم إلا الكلمات الطيبة من أجل الملك الذين أطلقوا عليه «أخ». صرنا بعيدين عن مظاهرات الكراهية التي حدثت أمام مستشفى «نيويورك».

وكان الفريق الطبي يتشكل خلال هذه الأيام تحت إشراف الدكتور «طه عبد العزيز»، الطبيب الخاص للرئيس «السادات»، الذي شعرت تجاهه فورا بثقة عظيمة. ومرة أخرى سوف أترك لبروفيسور «فلاندران» وصف الظروف التي أجرى في ظلها هذا الفريق، يوم الجمعة ٢٨ مارس ١٩٨٠، عملية استئصال الطحال التي طال انتظارها:

«علمت، مثل الجميع، أن جلالته قد غادر «بنما» إلى القاهرة. ودق جرس التليفون في البيت، وكما توقعت كانت جلالة الملكة تطلب مني الانضمام إليهم في القاهرة.

وعندما سافرت لم أكن أعرف بالضبط ماذا سيحدث. وما أن وصلت إلى القاهرة حتى علمت أن «ديبيكي» وفريقه تم توجيه الدعوة لهم للعودة. وأعتقد أنه علم بذلك عندما غادر «بنما». ووصل الفريق والأكثر من ذلك أنه تم تعزيزه. فهو مازال يضم المساعد الأسترالي المطمئن لنفسه، وطبيب التخدير، والممرضة، وأيضا فريق من البيولوجيين حل محل «جين هستر»، التي كانت بالتأكيد غاضبة من الخلافات. أضف إلى كل هؤلاء الثنائي «كين ـ وليامز»، اللذين وصلا بعد ذلك بقليل. وزرت جلالته الذي كان يعالج في مستشفى المعادي العسكري. ومن نافذته تستطيع أن ترى النيل، ومن بعيد أهرامات الجيزة، البلدة الصغيرة على أطراف القاهرة، حيث عيَّن الجنرال «بونابرت» جدي الأكبر «جوزيف فلاندران» حاكما أثناء الحملة على مصر. وفكرت في كل ذلك، بينما كنت إلى جوار ذلك الحاكم الآخر. وقد تغير المشهد منذ نظرت من جزيرة «كونتادورا» إلى المحيط، والبجع الطائر، ولكن ربما تغيرت أيضا المشكلة الصحية. وقد بدا على نفس هيئته في «بنما»، ولكن شهرا مضى من دون فعل شيء كما مرت أربعة شهور من دون علاج تقريبا منذ كنا في المكسيك.

وبدا على جلالته الارتياح عندما رآني. فما قلته له كان يدعو للتفاؤل ومشجعًا. ودفعني كل من المنطق والمعايير الأخلاقية إلى تأكيد كل الآمال التي وضعتها في بروفيسور «ديبيكي». وكنت قد بدأت أتساءل عما إذا كان منطق موقفي الذي قررته قبل شهر مازال صالحًا، لكنني لا أستطيع وقف حركة الدفع، وأفضل ما يمكن أن أفعله في الحالة الحاضرة هو تأكيد تضامني مع الفريق. وكان كل هرم وزارة الصحة المصرية في حالة تأهب للعمل، بقيادة إخصائي القلب الطبيب الخاص للرئيس «أنور السادات». ومثلت دماثة وهدوء ذلك الرجل، دكتور «طه عبد العزيز»، عونا كبيرا لي بعد ذلك، عندما حدث خلاف بين الفريق الفرنسي والأطباء المصريين. ووجدت

هناك صديقا قديما، الدكتور «أمين عفيفي»، طبيب أمراض الدم مع الفريق المصري وصهر الرئيس «السادات».

والآن، لاشيء يقف في طريق استئصال الطحال، الذي أجراه «ديبيكي» ومعه مساعده الأسترالي وبعض الجراحين المصريين، ومن بينهم الدكتور «نور». وأجري الاستئصال بسرعة، وكان الطحال ضخما. وأصررت على إجراء فحص لنسيج الكبد، وهو ما حدث. ولم يبد أن تقدير حجم الانتشار الذي أجري خلال استكشاف البطن قد أظهر أي تضخم ظاهري في الخلايا الليمفاوية. كنت في قاعة العمليات لكنني بعيد عن منطقة إجراء العملية، التي كانت بالطبع محاطة بجميع الفريق الجراحي. ومن ثم لم أشهد العملية بالتفصيل. وذكر لي «نور» بعد ذلك أنه أثناء استئصال النقير الطحالي رأى أن طرف البنكرياس قد جُرِح. وقال لـ«ديبيكي» أن يجفف الجرح ولا يخيطه، لكنه لم يفعل ذلك. وعندما انتهت العملية، حصل الجراح على التصفيق وهو يغادر مجمع العمليات. وكانت جلالة الملكة وابنها الأكبر يتابعان العملية على شاشة تليفزيونية في الطابق الأعلى.

وخلال اليومين الأولين كانت النتائج طبيعية. وفي اليوم الثالث أو الرابع بدأ المريض يشعر بألم في الصدر، وفي أسفل يسار الجزع، مع ألم حول الكتف. وبدا ذلك غريبًا لي وأبلغت «ديبيكي» عن مخاوفي بشأن ما حدث في منطقة الطحال. فألقمني المساعد الأسترالي ردا مقتضبًا، وسرعان ما أخذه «ديبيكي» في مهمة عمل، ولم يقل سوى: «كن حريصًا، عندما يقول «جورج» شيئا، فهناك عادة سبب لذلك!» وبعد ذلك بقليل، شاهدت المستحضرات النسيجية مما استؤصل في العملية. كان الطحال مليئا بالعقد التَوَرُّمية، وهو ما يشير إلى مواقع أورام الخلايا الليمفاوية. ومن المنطقي أن يشتبه المرء في أن الكبد كان موقع الآفات العقدية حول الوريد البابي التي من نفس النوع. والأخطر من ذلك أن شريحة من النسيج الغُدِّي ـ البنكرياسي ـ كانت متضمنة في النقير، ولديَّ دليل ميكروسكوبي على ذلك. وسمعتُ بينما أتحدث مع صديقي «عفيفي» عن الحادثة التي لاحظها «نور». وعدت إلى باريس بعد قضاء أسبوع في القاهرة، تاركا «ديبيكي» وفريقه، ومتخوفًا، مثلي مثل «نور»، من تكوُّن خراج تحت الحجاب الحاجز».

عند بداية العملية كنت حزينة للغاية في الواقع، وأدرت رأسي بعيدًا عند إجراء فتح

البطن، ولكن بعد ذلك لم تتحوَّل عيناي عن شاشة التليفزيون. كنت على استعداد لبذل أي شيء مقابل أن أنقل بعض قوتي وصحتي إلى زوجي. وكان «رضا» إلى جواري بالفعل. كان الطحال ضخما وبلغ وزنه كيلوجراما و ٩٠٠ جرام. وشعر الملك بقليل من التحسن، لكنني تمزقت عندما علمت أن الأطباء وجدوا خلايا سرطانية في الكبد. وعرفت أن فرص التعافي تكون هزيلة عند إصابة الكبد.

ورغم استمرار الألم بدا أن زوجي يتحسن ببطء، وسرعان ما سمح له الأطباء بمغادرة المستشفى. وعلى الرغم من توقعاتي التشاؤمية وقتها، فإن رؤية هذا الرجل الحبيب يسير ببطء عبر الممرات في حديقة قصر القبة، بدت كما لو كانت بركة من السماء. كان حيًّا، نجا من المرض الذي كان يلتهمه، ونجا من قسوة التاريخ التي لا تحتمل. كان علينا أن نستغل لأقصى درجة هذه الشعلة التي حافظت على بقائه. ولكن إلى متى؟

ولأننا صرنا معا جميعًا مرة أخرى، قررنا أن نظل بهذا الحال، كما أوصى الرئيس «السادات» وقرينته، وألحقنا أولادنا بمدارس في القاهرة، متفهمين أن الكبيريْن سوف ينهيان العام الذي بدأ في الولايات المتحدة. وهكذا ذهبت «ليلى» و«علي رضا» إلى الكلية الأمريكية بالقاهرة منذ ذلك الربيع في ١٩٨٠.

وعندئذ، بدأ يثور التساؤل المؤلم للغاية حول خلافة زوجي. وكان «رضا» مدركا مدى خطورة مرض الملك، وواعيا بثقل المسئوليات التي يمكن أن تقع على كاهله قريبا، ولكن كيف أستطيع أن أفتح الموضوع من دون الحديث صراحة عن موت والده؟! وذات يوم فاتحني في الأمر. وقال لي إنه ينوي أن يقوم بمهمته كاملة عندما يحين الوقت، وأن يخدم بلده مثلما فعل والده، وأن يقاتل ويموت إذا لزم الأمر من أجل صالح شعبه الذي يرزح الآن تحت نير رجال دين متعصبين من العصور الوسطى. مازلت أستطيع أن أتذكر كلماته: «**أنا وريث والدي. وليس للحياة معنى آخر بالنسبة لي غير خدمة إيران. وأنا مستعد للتضحية بنفسي من أجل بلدي. فإذا توليت بعده، فهذا أفضل، وإن لم يحدث سأكون قد حاولت. ولست خائفًا من الموت**». وشعر أنه يحتاج سماع نصيحة والده، ولكن كيف يمكن ترتيب هذه المناقشة من دون أن يشعر زوجي أننا فقدنا الأمل في تعافيه؟! لم يكن ذلك ممكنا من الناحية الإنسانية.

وبعد أن فكرنا في ذلك أيامًا قليلة، اقترحت على «رضا» أن يطلب نصيحة الرئيس «السادات»، الذي كان وقتها مثل أخ لي وعم لأبنائي. ولما كان الرئيس في الإسكندرية، ذهبنا إلى هناك معا. فاستمع إلينا بذلك الاهتمام الصادق النادر للغاية عند عظماء وأقوياء هذا العالم، وسرعان ما وجد الحل. ونصحنا: «**اسألا الملك من هم الرجال الذين يحب أن يكونوا إلى جانبه اليوم. وبالنسبة لـ«رضا» فمجرد تسمية هؤلاء الأشخاص تكون مثل وصية من والده. وسيكون قادرا على استدعائهم في المستقبل. وسوف يرونه السبيل كما كان والده سيفعل لو سمحت صحته**».

سؤال زوجي أسفر عن ثلاثة أسماء: «أمير أصلان أفشر»، الذي كان سفيرا لإيران في عدة دول قبل أن يصير رئيسا للبروتوكول وأن يتبعنا إلى المنفى، و«نصر الله معينيان» مدير مكتبه، والجنرال «رضاع غظيمي» الذي نفي إلى «باريس»، فلم يبق سوى رجلين: «أفشر» و«عظيمي» ممن يثق فيهم الملك.

ومرت بضعة أسابيع في جو من الوهم. ففي بعض الأيام أرى زوجي يبتسم وأشعر أنه صار أفضل قليلًا، وذهنه صاف، فأتشجع على الرغم من كل شيء. وأقول لأولئك الذي يتصلون بي: «**اطمئنوا. الملك يتعافى تدريجيا. علينا أن نأمل في المستقبل**». ولكن في اليوم التالي لا يجد القوة للقيام من فراشه، ويغلبني الانزعاج. ومع ذلك كان الصغيران سعيدْين، سعيدْين في مدرستهما الجديدة حيث كان المدرسون والأطفال لطفاء للغاية معهما، وسعيدْين لأنهما يجداننا عند عودتهما إلى البيت. وأبدى لهما جميع العاملين في القصر ورجال الأمن محبة عظيمة. لم أرد أن أفسد هذه اللحظات التي صارت الآن نفيسة للغاية، وهكذا روَّضتُ نفسي، داعية الله أن يمنحني القوة حتى لا أستسلم. كنا نؤدي الواجبات المدرسية معًا في المساء، مثل أي أسرة أخرى. وأحيانا يخرج الكبيران بعد العشاء مع أصدقاء. وأسمعهم وهم يضحكون أثناء خروجهم. وكان هذا هو الحال من يوم إلى آخر: أمل ويأس، مدركة بدقة أنه يجب التشبث بكل لحظة سعادة.

وخلال هذه الأسابيع التقى الملك عدة شخصيات إيرانية بارزة. وأتذكر بصفة خاصة زيارة «مهدي روحاني»، وهو جنرال سابق بالقوات الجوية. ونقل الجنرال إلى زوجي معلومات معينة عن حركات المقاومة. وكان زوجي على اتصال بالجنرال «أويسي»، الذي نظم شبكة مقاومة مكونة أساسًا من جنود، كثير منهم مازال يخدم

في إيران. وقابل الملك أيضا رئيس سكرتاريتي السابق «هوشانج نهاوندي»، الذي كان نشطا في المقاومة. وبعد ذلك بقليل، عقب العملية الثانية التي سيجريها زوجي، جاء جنرال «بهرام أريانا»، رئيس الأركان السابق، إلى جوار فراشه ليعرب عن ولائه. وكان جنرال «أريانا» أنشأ أيضا شبكة مقاومة من باريس، وأراد أن يبلغ الملك، الذي لم يعد أمامه في الحياة إلا بضعة أسابيع قليلة. وهو لقاء تحتفظ به ذاكرتي حافلا بالانفعالات. وأخيرًا، تأثرنا عظيم التأثر بزيارة الأمير «برنار» زوج ملكة هولندا، الذي جاء خصيصا ليقدم المواساة والمساندة.

وشيئا فشيئا، بدأت قوة الملك تتداعى، وعادت الحمى، وارتفعت درجة حرارته أكثر فأكثر. وتم إجراء العديد من عمليات نقل الدم له، وإعطاؤه الكثير من المضادات الحيوية، حتى لم يعد لديه وريد سليم. وفقد شهيته للطعام. وحاول الأطفال الترفيه عنه دون جدوى، وحاولت ملاطفته حتى يأكل، لكنه لم يعد يستطيع ابتلاع شيء. ولم يستطع الأطباء الاتفاق على سبب الحمى والضعف الرهيب. فتحدث الدكتور «كولمان» عن احتمال إصابته بـ«السالمونيلا». وتمسك بروفيسور «فلاندران» برأيه أن الملك يكوِّن خُرَّاجًا. ورأى القريبون من «ديبيكي» أنه التهاب رئوي. وكان عليه أن يذهب إلى المستشفى مرة أخرى.

وطلبت بروفيسور «فلاندران» مرة أخرى، وهذا هو وصفه للمعركة الأخيرة:

«لم أعد أحصل على أنباء مباشرة من القاهرة، لكنني ظللت أعرف الأخبار في باريس عبر صديق إيراني وثيق الصلة بالعائلة. وما سمعته كان محيرًا للغاية، لأنني مع مرور الوقت، ظننت أن فرضيتي ربما لم تكن صحيحة: فالموقف تدهور بصورة سريعة للغاية. وبدا أن أطباء أمريكيين في حالة ذهاب وإياب بصورة مستمرة. وفيما بعد تلقيت معلومة أكثر دقة من جلالة الملكة، ومرة أخرى بدا كل شيء متفقا مع تطور خراج تحت الحجاب الحاجز. وقلت لها إن الدكتور «ديبيكي» لا بد أن يستدعى، لأننا مقبلون على كارثة. وأعتقد أنني فهمت أنه لم ير أي مبرر للعودة، وطلب ببساطة أن تُرْسَل إليه صورة أشعة إكس للبطن. وعبر صديقي الإيراني واصلت إبداء دهشتي وتوقعاتي المتشائمة، وهي مفهومة تماما حيث كان يصف لي تدهورًا مستمرًا. وبدا أن «كين» ترك مبكرًا جدًّا اللعبة، التي عاد إليها «مورتون كولمان» طبيب الأورام من نيويورك، مع أطباء أمريكيين آخرين. ولم يكونوا أكثر من «ديبيكي» تقبلا لفرضية

خراج تحت الحجاب الحاجز. وكشفت لي قراءة الملف بعد ذلك أنهم حاولوا معالجة الحمى بتصعيد قوي للمضادات الحيوية. ومن الواضح أن ذلك كله لم يحقق فائدة. ولأسباب يمكن تفسيرها بلا شك، تم إبعادي - لكل الأغراض العملية - عن اللعبة التي كانت تتم. وكان آخر خبر أبلغني به صديقي الإيراني كارثيًّا تماما. فلم يخف حقيقة أنه يخشى الأسوأ، وقلت له إن كل شيء ضاع في ظل هذه الظروف. كل ذلك كان يحدث لمدة ثلاثة شهور، ولم يعد لي بصراحة ما أقوم به في المشكلة الطبية. فعاودت عملي في مستشفى «سان لوي» مرة أخرى، وأرسلت طلبًا إلى القاهرة للتصريح لي بالانصراف. ولم أكن حصلت عمليا على عطلة منذ ست سنوات، باستثناء إقامة قصيرة لدى والديَّ، حيث كان يسهل الوصول إليَّ عبر التليفون. وأردت أن أنفصل من الناحية النفسية. وحصلت على التصريح، فسافرت مع زوجتي للإقامة لدى شقيقة لي في «نانت». لكنني تركت رقم تليفونها على جهاز الرد الآلي، كآخر لفتة ضمير.

وأردنا الذهاب إلى «بِل - إيل»، التي لم أرها أبدا، غير أن عاصفة شديدة احتجزتنا في «نانت» لمدة يومين. وعندئذ تلقيت اتصالا يطلب مني الحضور إلى القاهرة فورا، وإحضار طبيب باطني معي. ورتبت ذلك مع زميل، ثم جاءتني مكالمة ثانية تبلغني أنهم في الواقع يريدون متخصصًا في الجهاز التنفسي يستطيع إجراء كشف بمنظار الألياف البصرية. وكنت على وشك العودة إلى باريس. وبمجرد أن وصلت باريس، التقيت أخيرا في وقت متأخر من الليل بروفيسور «فيليب إيفان»، الذي كنت أعرفه، وشرحت له الموقف. فقال لي: عندي الرجل الذي تريده بالضبط، مساعدي دكتور «هيرفي سور». سأقول له. وفي اليوم التالي، لاحظت في مطار «رواسي» شابًّا يحمل صندوقًا يشبه حقيبة آلة الكلارينيت. قلت لنفسي إنه ميكروسكوب الألياف البصرية بلا شك، وكان كذلك بالفعل. تعارفنا، وأعطيته فكرة سريعة عن القصة كلها. وبدا أن فكرة مناظير الألياف البصرية تلائم فرضية خراج في الرئة. ورأى «سور» قبل أن يشاهد المشكلة أن هناك تفاعلا في الغشاء البللوري المحيط بالرئة فوق الخراج تحت الحجاب الحاجز، وهو ما تبين أنه صحيح.

وعندما وصلنا القاهرة لم يكن جلالته يحتضر للدقة، حيث مازال يجد القدرة على المزاح معنا - «سور» وأنا - بخصوص أننا نبدو كالشباب. فقال لشخص كان بالحجرة، مشيرًا إليَّ: خمِّن كم يبلغ من العمر؟ وكنت في السابعة والأربعين وقتها،

وجعل من رؤية الناس يخفضون عشرة أعوام من عمري لعبة كبيرة. لكن الموقف كان كارثيا بالفعل. وبدت على المريض سمات شخص يعاني من عدوى خطيرة. وكان هناك في الواقع رد فعل في الغشاء الرئوي البللوري للتلوث تحت الحجاب الحاجز، الذي كان واضحًا أيضًا. وكان «سور» واثقا قبل الكشف بمناظير الألياف البصرية: المشكلة تحت الحجاب الحاجز. وقام بالإجراء الذي لم يظهر شيئا غير عادي، كما هو متوقع. فبعد ثلاثة شهور هل مازال هناك شيء يمكن عمله مع هذا التقيُّح تحت الحجاب الحاجز؟ كانت المشكلة في الجراح. ومن البديهي أنني لم أعترض على المصريين، ولكن لم يكن كل شخص قادرا على أداء ما يجب القيام به. وبفضل علاقة «سور» ببعض أطباء الإنعاش في باريس تم اقتراح بضعة أسماء. كان عليَّ أن أعمل بسرعة لأننا في ٣٠ يونيو، وأخشى أن يسافر الناس بسبب العطلة المدرسية في فرنسا.

وتبعًا لنصيحة، بدأت بالاتصال بالدكتور «بيير لوي فانييه»، الذي كان يعمل في مستشفى «أونري موندور» والذي مارس هذه الجراحة «التابعة». وقيل لي إنه يؤيد إجراء أساسيًّا وفعَّالا لمثل هذه المشكلة من تحلل النسيج البنكرياسي المتعفن. وبفضل تضامن وتعاطف الزملاء الذين تمت استشارتهم، توصلت لهذا الخيار واستطعت أن أتصل بـ«فانييه» في منزله بعد ظهر ذلك السبت مباشرة. فقبل واستطاع أن يستقل الطائرة إلى القاهرة في الصباح التالي. وأحضر معه طبيب التخدير الذي يرافقه في عمله.وذهبت للقائه في المطار، والتقيت بهذا الشاب الرشيق الباسم، غير المتكلف، الذي عقدنا عليه آمالنا الأخيرة.

وسرعان ما وجد الحل، فأكد توقعاتي، وشرح موقفه لجلالته. فخطط له رسما بيانيا لما سيفعله. ووافق جلالته وقال مستخدما التلميح المناسب: نعم، الآن علينا أن نقبض على الثور من قرنيه! كان المريض مصابا بالجفاف، وينبغي أن نعوضه ما فقده من ماء قبل التخدير. وبقي زملاؤنا المصريون سلبيين تمامًا، حيث لم يبد عليهم أنهم راضون عن هذا الغزو الجديد لأراضيهم. وتبين بعد ذلك أنهم كانوا مفيدين. وفي الصباح أجرى «فانييه» محادثة مع جلالة الملكة، قبل الذهاب إلى قاعة العمليات. فاتصلت بـ«ديبيكي» الذي كان في بلجيكا وقتها، فأجاب أنه لا يرى أي مانع من تدخل الجراح الفرنسي، لكنه أراد أن يتحدث إليه عبر التليفون. واتصلت جلالة الملكة مرة

أخرى لتدعو «ديبيكي»، لكنه لم يكن متاحًا هذه المرة. وطلبت جلالتها من «فانييه» تولي الأمر وإجراء العملية.

كان هناك زحام في حجرة العمليات: «فانييه»، وطبيب التخدير، والأشخاص العاديون الذين يناولون الأدوات، والجراحون المصريون، ومن ضمنهم الدكتور «نور»، الذي يقوم بالمساعدة، ولكن إلى جانبهم كثيرون آخرون. وعدَّ «فانييه» خمسة وثلاثين شخصا! وأشار إليَّ أن أفعل شيئًا بهذا الشأن. فأعطيت المثل بأن خرجت طالبًا من جميع أولئك غير المشاركين المغادرة أيضا. فتبقى نحو خمسة عشر شخصًا. وبقيت في حجرة صغيرة مجاورة، أدخل من وقت لآخر لأرى ما يحدث. واتبع «فانييه» تقنيته الخاصة، بأن أحدث شقا محدودا يسارًا تحت الضلوع، ليتجه مباشرة إلى مكان القيح ويجمعه. وبعد لحظة أرسل إليَّ، ارتديت زي العمليات ودخلت. كان «فانييه» والجراحون المصريون مبتسمين جميعًا، وهم يقومون بتصريف لتر ونصف اللتر من الصديد وبقايا الأنسجة المتحللة من البنكرياس. وخرجت من حجرة العمليات. وكان الخبر قد انتشر في جميع أنحاء مجمع العمليات. ونزلت إلى الطابق الأسفل، حيث تنتظر جلالة الملكة في الممر مع الأميرة «أشرف». وأخبرتها بما وجدوا. فأعربتا بصورة تلقائية عن الفرح والارتياح. وقالت لي جلالتها وسط حماستها: اصعد، واذهب إلى الدكتور «فانييه» فورا وأنشد في أذنه نشيد «المارسييز».

وكان المرء مضطرا للأسف للنظر أبعد من ذلك. فكَّرت في المكسيك مرة أخرى، وكل الفوضى التي توالت بعد ذلك. هل مازال هناك ما يمكن إنقاذه؟ لم يفعل «فانييه» سوى أن طبق ببراعة مقولة «أبقراط»[1]: فبعد «ماء» الأمريكيين، طبَّق «الحديد» لتصريف الخراج... أما بالنسبة للباقين، فكان ينبغي أن يكون من الممكن تطبيق «النار». فمشكلة السرطان الكاملة مازالت معلقة، وهذه المشكلة الأساسية يتم تجاهلها فعليا منذ المكسيك. وما تلا ذلك كان رهيبا، ولم يكن من الممكن أبدا استئناف العلاج».

---

(١) من بين الأقوال المأثورة للطبيب الإغريقي الأشهر «أبقراط» (الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد وهو صاحب القسم المعروف): «تلك الأمراض التي لا تشفيها الأدوية، يشفيها الحديد (فسره كثيرون بالمشرط أو السكين)، والتي لا يشفيها الحديد تشفيها النار، أما تلك التي لا تشفيها النار يمكن اعتبارها غير قابلة للشفاء كلية». (المترجمة).

وفي تلك الليلة، والليالي التي تلتها، نمت في المستشفى بغرفة مجاورة لغرفة زوجي. وتركت الباب مفتوحًا طوال الوقت، حتى أستطيع دائما أن أطمئن أنه يتنفس، وأنه حي. أما دقات قلبه التي يضخم صوتها جهاز مراقبة النبض، فكان نَفَسي يصاحبها شهيقًا وزفيرًا.

ولم يتبق لي من تلك الليالي المؤرقة - والمليئة بالترقب، وكرب الأولاد، وكربي الخاص - إلا تلك السطور التي كتبتها في دفتري وأنا فيما يشبه الغيبوبة:

«٥ يوليو، منتصف الليل: أنا خائفة الليلة، لا أعرف إن كان ذلك بسبب قلة النوم أم أنه نذير شؤم. زوجي نائم. ولم أعد أعرف ما الذي أكتبه، أو حتى بأي لغة أكتب. أحيانا يغرقني الأمر كله، فأظل أتقلب بين القوة والضعف، وبين التقبل والاستسلام والتمرد. أي أيام الأسبوع اليوم؟ لا أحد منَّا يعرف. أنتقل من حجرة لأخرى. وتقتلني تماما رؤية زوجي يرقد بهذا الضعف، فيما يشبه هيكلًا عظميًا على فراش المستشفى. ويبدو الناس جميعًا في الممر قلقين. وتمتلئ قلوبنا بالأمل مائة مرة يوميا، ليعود ويتلاشى بعد ذلك. ليس لديَّ الحق في الاستسلام، ينبغي أن أجد بضع كلمات لأقولها لكل شخص».

وكانت عملية «فانييه» ناجحة، وسرعان ما صار زوجي قادرا على الجلوس، ثم الوقوف. والتمس بعض الإيرانيين السماح لهم بمقابلته، وبعد بضعة أيام استطاع مقابلة أشخاص قلائل. وجاء وزير العمل السابق إلى جوار فراشه ليتحدث عن مشكلات المقاومة. وقال إنهم يحتاجون لشرح ماهية الهوية الإيرانية، والمكانة الضرورية التي احتلها الحكم الملكي في التاريخ. وسوف يبقى في مصر ليدرِّس لولي العهد الجغرافيا الاجتماعية لإيران[1]. وأثناء جلوسي هناك بالقرب من زوجي تأثرت بحماسة أولئك الذين جاءوا يلتمسون رأيًا أو نصيحةً من هذا الرجل المريض للغاية. وخطر لي أنه ربما يحب أن أقرأ له. فوافق بسرور، وقرأت عليه جزءًا من مذكرات الجنرال «ديجول». وكنا التقيناه معًا قبل عشرين عامًا، وظل زوجي يعتبره مثلًا للشجاعة والإصرار. ولم يعد زوجي يتكلم إلا قليلًا وفي جُمَل قصيرة للغاية.

كان مدركًا لحالته الصحية، وضعفه البالغ، وواعيًا أيضا بما يدور حوله. ولأن هذا الشهر - يوليو - وافق شهر رمضان، أعدَّ العاملون بالمستشفى حجرة طعام مؤقتة بها

---

(١) تولى السيد «شَفَا» تدريس التاريخ، وأشرف شخص آخر على تدريس الأدب الفارسي.

طاولة كبيرة في نهاية الممر حتى يستطيعوا تناول طعامهم عند المغرب. فإذا تصادف وجوده في المنطقة ذلك الوقت، يقول لي: «**لنرجع إلى حجرتي. إذا بقيت هنا، لن يشعروا بالراحة، ولن يتناولوا إفطارهم في سلام**». فأقول لنفسي: «**ها هو ذا، يتغاضى عن حالته الخاصة وهو يدنو من خاتمته، ويتناسى معاناته الخاصة ليساعد الآخرين**».

واحتفظت «جيهان السادات» بذكرى تلك الأيام، وهو ما أثر فيَّ تأثيرًا عميقًا:

«**صار الشاه أكثر نحولًا وشحوبًا عن أي مرة شاهدته فيها على الإطلاق. ولم يكن يستطيع التنفس إلا بأقصى صعوبة. بيد أنه لم يكن هناك ما يثير الشفقة فيه، ليس فيه ضعف بالمرَّة. بل على العكس يمكنك أن تستنتج من الطريقة التي يستند بها إلى الوسائد على فراشه أنه مازال مقاتلًا. قال الأطباء إنه يعاني ألمًا عظيمًا بسبب السرطان. لكن الشاه لم يشْكُ أبدًا. وبينما أنا واقفة إلى جواره في وحدة العناية المركزة، فكَّرت في أن الله يحب هذا الرجل بلا شك، حتى أنه وهبه هذه القوة ليتحمل المشاق عن طيب خاطر.**

وقلت للشاه: سرعان ما ستتحسن، ونمضي معًا أيامًا جميلة في الإسكندرية. ورأيت الدموع في عيني «فرح»، وقلت لها: تشجعي. لا تظهري مشاعرك، فهو ذكي للغاية وسيفهم»(١).

وفي بعض الليالي، كنت أنظر إلى النيل والأهرامات البادية عن بعد. وأقول لنفسي: «**ملوك، وحكام، وجنرالات في عصورهم، شهدوا هذا الموقع، وهذا الضوء البديع، وهذا النهر. عاشوا، وكانوا سعداء، وتمتعوا بحب الآخرين، وتعرضوا للخيانة، ثم رحلوا. والآن، ها نحن، وسنرحل بدورنا، بينما يواصل النيل التدفق لآلاف السنوات المقبلة**». وساعدني ذلك على تقبل المصير كما تكَشَّف.

وبدا الملك كما لو أنه يسترد عافيته بصورة معجزة، حتى أنني في ٢٦ يوليو قررت إرسال أبنائنا الثلاثة الصغار إلى الإسكندرية. أردت أن أبعدهم عن جو المستشفى فظيع التوتر، الذي عاشوه شهرًا.

وفي تلك الليلة نفسها سقط زوجي فجأة في نوع من الغيبوبة. وكتب بروفيسور «فلاندران» بعد ذلك:

---

(١) Jehan Sadate, A Woman of Egypt, op. cit.

«كان ذلك خلال الصيام، وفي مصر، ذلك البلد صارم الالتزام، وليس هناك مجال لتغيير عادات الناس. كنا نرجع إلى فندق «الميريديان» قرب المغرب، ولا نعود إلى مستشفى المعادي قبل الليل، بمجرد أن ينتهي الصيام، ويتناول السائق إفطاره. وهكذا، كنا في مساء تلك الليلة نتناول طعامنا في «الميريديان»، لكنني كنت قلقًا ومتوترًا منذ بضعة أيام. وكما لو أنني مدفوع بنوع من التنبؤ، نبهت على «فانييه» وطبيب الإنعاش بعدم التأخر، حتى نستطيع العودة إلى المعادي بأسرع ما يمكن. وعندما وصلنا إلى الطابق، وجدنا صمتًا غير معتاد وإحساسا عاما بالذعر. تدهورت حالة المريض فجأة، وبدا الجميع في حالة شلل، ولم نكن بُلِّغنا بالحدث، الذي لابد أنه وقع قبل ساعتين. ولم يكن لدى المريض نبض، ولا ضغط دم، في سياق نزيف داخلي شديد مفاجئ. وبدا أن حالة الذهول التي أصابت العائلة والحاشية أثرت على جميع المنظومة الطبية. فالممرضات المصريات الرائعات، اللاتي كن عمادنا الرئيسي، صرن الآن إما يلفهن الجزع تمامًا أو في حالة بكاء واضطراب. ولم يكن الأطباء المصريون هناك، لنفس سبب عدم وجودنا بلا شك؛ لابد أنهم كانوا في بيوتهم لتناول الإفطار.

ودفع هذا المشهد طبيب الإفاقة إلى العمل فورًا، بمساعدة «فرح ناز» ومساعدتي شخصيا. وبعد فترة قصيرة من استدعاء طبيب التخدير المصري، الذي كان سندًا عظيمًا طوال الوقت، وأحضر الدم الذي احتجناه (كانت مصادر المستشفى العسكري تعمل بكامل كفاءتها) استعاد المريض الوعي. وخرجت إلى الممر لألحق بجلالة الملكة وسمو الأميرة «أشرف». كان الجميع يشعر بانفعال لا يوصف، وحتى بعد مرور الوقت، مازلت أحسه بنفسي مرة أخرى. بدا الجميع في جزع. ثم حدثت الواقعة التي كانت أكثر ما أزعجني في كل هذه القصة الطويلة، لأنها لا تتعلق بالشخص الذي يحتضر، وإنما بأولئك الذين سيعيشون.

شرحت الموقف لجلالة الملكة وللأميرة. كنا نعرف أن النهاية ستقع تلك الليلة وأبلغتهما بذلك. وطلبت من الملكة أن تبلغ الأولاد. فقد تصادف أنهم ذهبوا في نفس اليوم إلى الإسكندرية. حيث كان هناك نوع من الشعور بالنشوة لبضعة أيام، فالملك استطاع السير والجلوس في حجرة الطعام ـ المرتجلة ـ عند نهاية الممر. كان ينبغي الاتصال بالكبيرين على الأقل بأقصى سرعة. ووافقت جلالة الملكة، وطلبت مني أن أبلغهما.

لم أفهم وقلت: ولكن، مولاتي، الأمر ليس لي. جلالتك من يجب أن يتولى إبلاغهما! وردت تحت تأثير انفعال شديد: لا، لا يمكن. لن أستطيع ذلك أبدًا. فحاولت مرة ثانية: ولكن، مولاتي، ينبغي أن يكون شخص آخر، شخص من العائلة. فقالت لي: لا يوجد سواك، عليك القيام بذلك.

وهكذا كان عليَّ أن أغالب انفعالاتي الخاصة، وأتصل بالإسكندرية. وأتذكر بوجه خاص الحديث مباشرة إلى الابنة الكبرى، الأميرة «فرح ناز»، التي قالت لي بصوت الفتاة الصغيرة: أوه، إنه أنت.. دكتور. كيف تسير الأمور؟ فاضطررت لإبلاغها أن الأمور في الواقع ليست على ما يرام على الإطلاق، وأن الأمر ليس سهلًا. وبفضل طبيبنا للإنعاش ظل الملك في وعيه الكامل بضع ساعات، واستطاع أن يتحدث على نحو مطول مع زوجته الملكة والأميرة «أشرف» توءمه وولي العهد وبقية أبنائه.

وأتذكر، بوجه خاص، مشهد الابنة الكبرى «فرح ناز» المؤثر وهي جاثية على ركبتيها بجوار الجانب الأيمن من الفراش، ممسكة بيد والدها تقبلها، وعلى وجهها ابتسامة ذاهلة، بينما تردد بالفارسية «بابا، بابا». وعلى الجانب الأيسر من الفراش واصلنا متابعة ضغط الدم الوريدي، وضخ الدم. لم نفعل سوى ما كان ضروريا. ورحل الملك بهدوء في الصباح. وبينما كنت هناك، سحبت جلالة الملكة كيسًا صغيرًا من التربة الإيرانية من تحت وسادة الراحل، كانوا جلبوها معهم عندما رحلوا إلى المنفى.

وبينما يحدث كل ذلك، ووسط كل ذلك الانفعال والألم، كان مشهد ولي العهد «رضا» مدهشا للغاية خلال الليل وفي الصباح. كان هذا الخَلَفُ الجديد شابا صغير السن للغاية ولكن تبين من وقار موقفه وضبط النفس الذي أبداه أنه عرف ما يتطلبه دوره الجديد. تحدث إليَّ مطولًا، وفي الصباح أعطيته نسخة من الوثائق التي في حوزتي. وأتذكر أنه قال لي بالنسبة للموضوع المتعلق بزملائي وبي: ربما يقول الناس ما يحبون، لكنني سوف أتذكر ما رأيته».

نعم، كانت «فرح ناز» بالفعل إلى جوار والدها، و«رضا» عند نهاية السرير، وأنا واقفة على الجانب الآخر، بالقرب من الأطباء. وتنفس الملك بسرعة مرتين، ثم أخذ شهيقًا طويلًا وتوقف. انتهى الأمر. وقفنا جميعا هناك مذهولين لبرهة. ثم همست لي

الأميرة «أشرف» التي كانت واقفة عند نهاية السرير: **«أغمضي عينيه»**. فعلت ذلك، ثم أخذت الكيس الصغير الذي يحوي تربة إيران والأدعية التي كنا وضعناها أسفل وسادته. لقد ظل طوال حياته يضع هذه الأدعية على جسمه في كيس من القماش. وخلعت الدكتورة «بيرنيا» خاتم زفاف الملك، وأعطته لي. ووضعته مع خاتمي في نفس الإصبع، من يومها.

وبعد لحظة طُلِب منا مغادرة الحجرة. ثم استطعنا أن ندخل واحدًا إثر الآخر، ونقبِّل الملك للمرة الأخيرة. وبينما كنت أضع شفتيَّ على جبهته أحسست للحظة شعورا خفيا بأنه حي. ودفع خبر وفاته بالأشخاص القليلين الواقفين في الممر ـ معظمهم إيرانيون ـ إلى حالة من الجزع الصامت. وتشاركنا نفس الحزن. قلت لهم: **«الملك لم يعد معنا، ولكن لا يجب أن يُثبط عزمنا. ينبغي أن نواصل المعركة ونحذو حذوه»**. ثم اتصلت بخالتي «لويز»، التي كانت تعيش في باريس. لم أرد أن تعرف الخبر من الراديو.

والآن صار علينا أن نبلغ الصغيرين، اللذين أمضيا الليل في قصر القبة، بأن والدهما توفي. وعندما وصلنا إلى القصر تأثرنا للغاية لرؤية الرئيس «السادات» وقرينته وابنته هناك. ثلاثتهم ينتظرون ليكونوا أول من يقدم لنا المحبة والعزاء، اللذين أبدوهما لنا دائما منذ أول أيام المنفى. وأخبرتني المربية أن «ليلى» بمجرد أن استيقظت ذهبت مباشرة إلى حجرة «علي رضا» كما لو كانت استشعرت شيئًا. فقد كانت قريبة للغاية إليه. وهكذا سمعا الخبر معا من مربيتهما، بينما نحن في طريقنا للعودة إلى المستشفى. قالت لهما: **«والدكما في الجنة مع الملائكة»**. فخرجت «ليلى» من الحجرة من دون إبداء أي أمارات على حزنها، وعندما دخلت مربيتها حجرتها وجدتها تضع ثيابها السوداء على فراشها.

وفي ذلك المساء شعرت بأنني لن أستطيع أن أمضي الليل وحدي وطلبت من الأطفال أن يرافقوني. وجاء «رضا» و«فرح ناز» و«ليلى» مباشرة، أما «علي رضا» فأراد أن يبقى وحده مع حزنه. ووضعنا مراتب على الأرض ونمنا هناك معا.

وتم تشييع الجنازة في ٢٩ يوليو ١٩٨٠، بعد يومين من وفاة الملك. وسُجِّيَ جثمانه في قصر عابدين حيث عزفوا السلام الإمبراطوري. وأثار سماعه انفعالنا جميعًا، فهي

المرة الأولى التي نسمعه فيها منذ رحيلنا من إيران. ووسط حر خانق غادر الموكب المصاحب للجثمان قصر عابدين إلى مسجد الرفاعي، الذي سيصبح المثوى المؤقت لزوجي. وفي البلدان الإسلامية لا تسير النساء تقليديًّا خلف النعش، لكنني صممت على أن أكون حاضرة. وقال الرئيس «السادات» لمسئولي البروتوكول: «**سوف نفعل ما تريده فرح**». وعلى طول الرحلة كان حشد ضخم يشيع نعش الملك المسجى على عربة مدفع تجرها الخيول: «**لا إله إلا الله**». وكنا على رأس الموكب. عن يميني «ليلى» ترتدي ثوبا أبيض، و«فرح ناز» و«علي رضا»، وعن يساري «ريتشارد نيكسون» وابني الأكبر «رضا» ثم الرئيس «السادات» و«جيهان السادات»، وكان حولنا إخوة الملك: «غلام رضا»، و«عبد الرضا»، و«أحمد رضا». وتبعنا بعض الأصدقاء المخلصين، الملك «قسطنطين» ملك اليونان والملكة «آن ماري»، والأمير «فيكتور إمانويل» من «سافوي»، وسط سفراء يمثلون عدة دول. وأرسل الملك «الحسن الثاني» واحدًا من أقرب أقاربه «مولاي حافظ علوي»، الذي أحضر معه قطعة من كسوة الكعبة لوضعها على ضريح زوجي.

وفي مسجد الرفاعي أُنزِل جثمان الملك إلى قبو خاص تحت الأرض. وصحبه «رضا»، ثم قرر «علي رضا» الذهاب معه أيضا من دون استئذان أحد، على الرغم من أن ذلك لم يكن مقررًا. وأخبرني الأطباء لاحقًا أنه كان مهمًا بالنسبة له أن يرى أين يرقد والده. وللأسف لم يكن مسموحا للنساء بالنزول، لذلك فلم تشهد «فرح ناز» أو «ليلى» ولا أنا وصول الملك إلى مثواه الأخير.

ومازلت أحمل ذكرى مؤثرة للغاية عن جنرال «روحاني» من القوات الجوية، الذي أبلغني حزنه الشديد، لأنه الممثل الوحيد للجيش الذي جاء هذه الرحلة الطويلة إلى هناك.

وكتبت «جيهان السادات» في مذكراتها:

«لم تنظم جنازة رسمية أكبر من هذه. نظم «أنور» كل شيء بنفسه، مشرفًا حتى على أدق التفاصيل. تقدم الموكب آلاف من طلاب أكاديميتنا العسكرية، كلهم يعزفون الآلات الموسيقية، ويرتدون الزي العسكري الأبيض، والأصفر، والأسود بحسب رتبهم. وسار وراءهم الجنود حاملين أكاليل الورود وزهور السوسن، يتبعهم

ضباط راكبين خيولا. ثم جاءت سرية من الرجال حاملي نياشين الشاه العسكرية فوق وسائد من القطيفة السوداء، تتقدم النعش الملفوف بعلم إيران، فوق عربة مدفع يجرها ثمانية من الخيول العربية. ونحن نسير خلفه.

وكان ذلك اليوم من أيام الصيف شديد الحرارة جدًّا في القاهرة، بينما نحن نسير ثلاثة أميال من قصر عابدين إلى مسجد الرفاعي، حيث سيدفن الشاه. وكان والد الشاه دُفِنَ أيضا هنا، قبل أن يعيد الشاه رفاته إلى إيران. ووفقا لتوجيه «أنور» مشيت مع «فرح» للمرة الأولى والوحيدة التي سرت فيها في موكب جنائزي. قال لي «أنور»: افعلي ما تفعله «فرح»، علينا أن نساعدها على اجتياز هذا اليوم الأصعب والأشد حزنًا. وهكذا بقيت إلى جانبها، نسير مع أولادي وأولادها.

وامتد خلفنا، لأبعد مدى استطعنا أن نراه، بقية أولئك الذين احترموا ذكرى الشاه. سار معنا جميع وزراء الحكومة المصرية، وكذلك الرئيس الأمريكي السابق «نيكسون»، وملك اليونان السابق «قسطنطين»، وسفراء من الولايات المتحدة، وفرنسا، وأستراليا، وإسرائيل، وعدد لا يحصى من المواطنين المصريين. واصطف الناس في الشوارع، والشرفات، وعلى أسطح المنازل لمشاهدة مرور الموكب. كانت الموسيقى أعلى من أعلى موسيقى سمعوها من قبل. وكانت هناك زهور أكثر من أن يتخيلها أحد. كانت أضخم جنازة شهدها أي منا في مصر، والفرصة الأخيرة ليرى العالم أن الشاه كان يستحق ما هو أفضل من الطريقة التي عُومِل بها. فمصر، على الأقل، لم تدر ظهرها لصديق»[1].

أتذكر عودتي إلى قصر القبة، بعد ذلك اليوم بالغ المشقة، وأنا أفكر كيف سأخبر الملك أنني تحملت مسئوليتي بشكل جيد، واستطعت أن أحتفظ بمهابتي، ورأسي

---

(١) من بين جميع الملوك، ورؤساء الدول، وأصحاب المقام الرفيع الذين عرفوا زوجي خلال الثلاثين عاما من حكمه، لم يحضر إلى القاهرة أحد لتقديم آخر تحية له، باستثناء «ريتشارد نيكسون» وملك اليونان «قسطنطين». وبعد ذلك كتب الرئيس الفرنسي «فاليري جيسكار ديستان» هذه الكلمات المؤثرة في مذكراته: «نظرت إلى صور الموكب في صحيفة «باري ماتش»، الرئيس «السادات» بظله الطويل النوبي يتقدم الموكب الجنائزي، والغياب الملحوظ للجميع. وأنا أيضًا كنت غائبًا. لم أغفر لنفسي أبدًا هذا القرار. عقلانيا لم أشك أبدا في أن هذا كان مبررًا، ولكن حتى لو كان ذلك ضروريا، ففي أعماقي ـ في المكان الذي يتحقق فيه احترام الذات أو يتحطم ـ مازلت لا أستطيع أن أسامح نفسي على ذلك».

مرفوعا على الرغم من أن الحزن أعماني من بداية اليوم حتى نهايته. كان ذلك غريبا، فلم أستطع تصديق أنه لم يكن موجودا، ولن يكون موجودا بعد ذلك أبدًا. وكان لابد أن أعجب بالأولاد؛ لقد اجتازوا كل ذلك بجلال، فحبسوا دموعهم أو نجحوا في إخفائها.



القسم الخامس

الفصل التاسع عشر

كانت قد بقيت ثلاثة شهور على عيد ميلاد «رضا» العشرين، وهي السن التي يسمح له الدستور فيها بخلافة والده، وخلال هذه الشهور الثلاثة كنت وصية على العرش[1]. وسرعان ما أدركت أن ذلك ليس اسميا فحسب. ففي اليوم التالي لجنازة الملك، كان عليَّ أن أتحمل مسئولية العلاقات التي أقامها مع شبكات المقاومة في أماكن عديدة من العالم. وأراد كل هؤلاء الرجال الذين اختاروا المنفى من أجل خوض المعركة ـ وزراء سابقين، ومسئولين سياسيين، وضباط، ونشطاء عاديين ـ اقتراح خطط، والحصول على نصيحتي أو دعمي لأغراض مختلفة. وفي ذلك الوقت كنت متضايقة قليلًا منهم، لأنهم لم يتركوني في هدوء خلال فترة الحداد، ولكن بعد تفكير عميق، أعتقد أن نشاطهم وحماسهم أنقذاني من اليأس العميق الذي كان من الممكن أن يغلبني.

وتركزت جماعات المقاومة الرئيسية في فرنسا، وبريطانيا العظمى، والولايات

---

(١) نظرا لأنني كنت حاضرة وشهدت أعمق أفكار الملك خلال أيامه الأخيرة، اعتبرت من واجبي أن أعِدَّ الكلمات التالية في اليوم التالي لوفاته. وأعتقد أنها توضح ما كان يشعر به زوجي، وما كان يحب أن يقوله لرفاقه أبناء وبنات وطنه قبل أن يرحل: «في هذا الوقت، وأنا أحيا آخر لحظات حياتي، بعيدًا عن وطني وفي قبضة هذا المرض المرعب، أرسل هذه الرسالة إلى شعبي، الذين يعيشون واحدة من أكثر فترات تاريخهم ظلامًا. تذكروا أن بلدنا اجتاز فترات صعود وهبوط، لكن الهجمات الأجنبية لم تستطع أبدًا أن تطفئ شعلة الثقافة والحضارة الإيرانية. وأنا موقن أن هذه الشعلة سوف تزيل الظلمة التي خيمت على إيران، وأن إحياءً وطنيًّا سوف يتحقق. وأتمنى أن يرفع ابني ـ وهو لا يزال فتيًّا وممتلئًا بالفخر الوطني، مثل جميع الشباب الإيرانيين ـ راية إيران المقدسة، ويحافظ عليها مرفوعة عاليا، بمساندة الشعب الإيراني. وأنا أستودع الله العزيز، وأستودع شعب إيران العظيم، ولي العهد الشاب. وهذه أمنيتي الأخيرة».

المتحدة، وبعضها أيضا في ألمانيا وتركيا. وكان لكل هؤلاء أفكارهم الخاصة حول ما ينبغي عمله لخوض المعركة، وبالطبع أنهم يأملون الحصول على موافقتي. وأراد البعض مقابلتي شخصيًّا وسرًّا. كما كنا نجري اتصالات تليفونية في كل ساعات الليل أو النهار. وأنتظر أحيانًا حتى الثانية أو الثالثة بعد نصف الليل حتى أتحدث إلى الولايات المتحدة. وغالبا ما كانت هذه المناقشات عبارة عن مجادلات صعبة ومرهقة، عليَّ أن أعطي فيها رأيًا أو أطرح خطة من دون أن أكون عليمة تماما بمدى فعالية العملية. كان علينا أن نكافح، حتى لو لم يكن عددنا كبيرا في البداية.

ودعاني الرئيس «السادات» بكرمه المعهود للبقاء في قصر القبة كما أريد. وفي أحد أجنحة القصر، في نهاية رواق ذي نوافذ محطمة تناثرت فيه قطع أثاث مهملة، أنشأنا أول مكتب لنا. وكان ضروريا للغاية من أجل تنسيق وإدارة النشاط الصاعد للإيرانيين في المنفى. وسرعان ما انضمت إلينا فتاتان ـ الأولى «ليلى فولادواند»، ثم «ليليان ريستاك» ـ وتولتا معا العناية بشئون المكتب. وتخلت كلتاهما عن كل ما في حياتها وجاءت لتعمل معنا، وكان تفانيهما الذي لا حدود له لا يقدر بثمن. وانضم إلينا أيضا صحفي فرنسي، ومساعدته «ماري كريستيان» من أجل تنسيق الاتصالات الإعلامية.

ومن أجل استقبال الأشخاص الذين لا يريدون أن يراهم أحد في القاهرة لأسباب أمنية، منحتنا الدولة المصرية تصريحًا باستخدام شقة تبعد مسافة أربعين دقيقة عن قصر القبة. وكانت كل هذه الانتقالات ذهابا وإيابا مرهقة وسط ضوضاء وحر العاصمة. وكان عليَّ دائما بذل جهد حقيقي كي أصمد. واضطررت أيضا لإجراء عملية جراحية مؤلمة في ذلك الوقت، وعلى الرغم من كل ما كنت أعانيه واصلت مقابلة الناس، والاستماع، والمناقشة، محاولة دائما إظهار الاهتمام، ومنح الأمل لأولئك الذين جاءوا لاستشارتي.

وحرصت على حضور ابني الأكبر «رضا» في هذه الاجتماعات، لعلمي أنه سيتولى وحده قريبًا مسئولية تنسيق الأنشطة المختلفة للجماعة الإيرانية في المنفى. وذهبنا إلى الرئيس «السادات» معا نتلمس رأيه ومشورته. والتقينا أيضا الملك «حسين» عاهل الأردن والملكة «نور»، والملك «الحسن الثاني» عاهل المغرب في ذلك الوقت. ورحبوا جميعا بلقائنا واستقبلونا بود. وطوال فترة المنفى وحتى اليوم تظل الملكة «نور» صديقة عزيزة.

وكان أعظم إنجازاتنا خلال تلك الشهور المضطربة إقامة محطة إذاعة سرية، يمكن أن يسمع من خلالها أصوات المنفيين، بما يتيح لنا جمع المعلومات عما يحدث بالفعل في إيران ونشرها، وبث أخبار مجموعات المعارضة المختلفة. وكانت فكرة هذه المحطة الإذاعية قد طرأت لنا عندما كان زوجي حيًّا. وتحدثنا بشأنها معًا، ووافق عليها. وعندما سألنا السلطات المصرية منحتنا أيضا موافقتها. ولكن كانت مهمتنا البدء الفعلي في المشروع. ونظرًا لجو الريبة الذي أحاط بنا منذ أول أيام المنفى مثلت هذه المبادرة خطرا إضافيا. وكنا منتبهين تمامًا لذلك، وأتذكر أننا تجنبنا الحديث عن المشروع داخل القصر، خشية أن نكون عرضة للتنصت. وصار «قمبيز عتابي» مديرا لمكتبي الآن، وإذا أردنا الحديث عن الموضوع كنا نخرج إلى حدائق القصر. فكان لابد من الحفاظ على السرية احترامًا للحكومة المصرية، فضلًا عن أننا لم نرد أن يُعْرَف أنني وراء هذا المشروع. ومع ذلك كان ضروريا تحديد الخط السياسي، ولهجة محطتنا الإذاعية المقبلة، والعثور ـ بالطبع ـ على محترفين شجعان قادرين على إدارتها مخاطرين بحياتهم. وبسبب كل هذه القضايا طلبنا سرا نصيحة ابن خالي «رضا قطبي» الذي أسس وأدار التليفزيون الإيراني. وهو الآن في المنفى بباريس، حيث أنشأ شبكة مقاومة. وكان المبدأ الأساسي توحيد الإيرانيين في المنفى ضد النظام الجديد، بصرف النظر عن الاختلافات بينهم. فهذه الإذاعة لابد أن تكون صوت الجميع، ويستطيع الجميع توصيل أصواتهم.

وتم تعيين رجلين وسيدة لتكوين أول هيئة تحرير صغيرة، سبق لهم العمل في الراديو والتليفزيون الإيرانيين. واستأجرنا شقة في القاهرة باسم مستعار، وانتقل إليها الثلاثة سرًّا. وانتحلوا أسماء أوروبية لتفادي الريبة، على الرغم من أن أصواتهم معروفة في إيران، وكان خروجهم في أقل الحدود الممكنة حتى لا يلفتوا الانتباه. وشمل عملهم جمع الوثائق والشهادات غير المحدودة التي ترد إلينا من مجتمع المنفى ككل، وأيضا من داخل إيران. وتم تسجيل عدد كبير من أشرطة الكاسيت، خاصة في باريس حيث كان لنا مراسلون، ثم أُرْسِلت إلى القاهرة. وكان لنا أيضا مراسلون في الإمارات على الخليج الفارسي، ومسئول إعلام في ألمانيا لديه شبكة مراسلين في إيران. وتلقينا رسائل مكتوبة بحبر سري من بلدنا.

واستغرق العمل تسعة شهور قبل أن نستعد للبث. وأنا أذكر مدى انفعالي ذلك

اليوم عندما جاء السيد «عتابي» ليبلغني أننا نجحنا؛ صوتنا يمكن الآن أن يُسْمَع عبر موجات الأثير. التقطت جهاز راديو صغيرًا، وجريت إلى حجرتي، وأغلقتها على نفسي كي أسمع. واندفعت أفتح النافذة، كنت سعيدة للغاية. كان ذلك الصوت بمثابة خطوة أولى نحو الحرية، انتصارا أول.

وفي نفس الوقت احتفلنا بعيد ميلاد «رضا» العشرين، ومن ثم توليه العرش رمزيًّا، في قصر القبة يوم ٣١ أكتوبر ١٩٨٠. وكانت الحرب الإيرانية العراقية قد اندلعت قبل شهر، ونظرا لإدراكنا جميعًا المصيبة الجديدة التي حلت على بلدنا خفضنا مستوى الاحتفال إلى أدنى حد. وأمام كاميرا تليفزيونية واحدة وصحفي واحد من الإعلام المطبوع، قال ابني الأكبر كلمات الأمل هذه، ضمن أشياء أخرى:

«أبناء وبنات وطني الأعزاء، الأخوات والإخوة، لقد آلت إليَّ هذه المسئولية العليا، بعد الرحيل الحزين لوالدي الجليل، في واحدة من أكثر فترات تاريخنا ظلامًا، وفي الوقت الذي تتعرض فيه مبادئنا القومية والروحية، وقيمنا التاريخية والثقافية، وحضارتنا، لتهديد من الداخل؛ وهو نفس الوقت الذي أدت فيه الفوضى السياسية، والانهيار الاقتصادي، وتراجع مكانتنا الدولية، إلى انتهاك سلامة أراضينا من خلال العدوان الأجنبي الذي ندينه.

وأدرك تماما أنه ما من أحد منكم، بما جبل عليه من الاعتزاز القومي والروح الوطنية، ولا أحد منكم له تمسككم العميق بهويتكم الوطنية، وإيمانكم، والمبادئ المقدسة للإسلام الحقيقي، وقيمكم التاريخية، وإرثكم الثقافي؛ كان يريد وقوع هذه الكارثة. ولذلك، فأنا أشاطركم الألم، متفهما معاناتكم ومستشعرًا دموعكم المحتبسة. وأعلم أنكم، مثلي، تستطيعون رؤية الفجر الواثق ليوم جديد يخترق هذا الظلام. أعلم أيضا أنكم مقتنعون في أعماق أرواحكم وقلوبكم، مثلما كنتم في الماضي، أن تاريخنا الذي يبلغ عدة آلاف من السنين، سوف يكرر نفسه، وينتهي الكابوس. ويأتي النور بعد العتمة. وسوف تقوينا تجاربنا المريرة لنحتشد جميعًا، في مسعى وطني عظيم لإعادة تعمير بلدنا. وبفضل الإصلاحات السليمة والمشاركة النشطة للجميع، سوف نحقق أهدافنا.

وسوف نعيد بناء إيران، حيث تسود المساواة والحرية والعدل. واستلهاما للدين

الإسلامي الحقيقي، الذي قام على القيم الروحية، والحب، والرحمة، سوف نجعل من إيران بلدا أبيًا ومزدهرًا، ليحتل المكانة التي يستحقها بين الأمم».

وكان «رضا» قد أبلغ السلطات في «طهران» قبل بضعة أسابيع استعداده للعودة من أجل محاربة الغزاة العراقيين كطيار مقاتل. وكتب لهم: «**في هذه اللحظة الحرجة من تاريخ بلدنا. أود أن أبذل دمي من أجل إنقاذ حرمة وطننا**». وقضينا الليل في إرسال هذه الرسالة عبر التلكس إلى عدة وزراء في «طهران». فقطع البعض الاتصال، وآخرون قبلوا النص كاملًا، ولكن لم يرد أحد. وأصدرتُ بيانًا عاما أعلنتُ فيه: «**باعتباري إيرانية، ووالدة ولي العهد، وإدراكا مني للمسئوليات التاريخية الواقعة على عاتقي الآن، أود أن أعرب عن الأمل في أن الأحداث المأساوية التي نشهدها اليوم سوف تنتهي قريبا، وأن القوى الأجنبية التي تظن أنها يمكن أن تنتهك حدود إيران من دون عقاب، سوف تتعلم مرة واحدة وإلى الأبد أن هذه الأرض تنتمي إلى الإيرانيين. ولن يسمح الإيرانيون أبدًا بوجود قوات أجنبية على ترابهم**».

وعندما تولى ابني الأكبر مسئولياته، بدأت فترة مضطربة صعبة من حولنا. فعندما علم بعض الأشخاص أنه تم تسليمه السلطة، تحولوا إلى «رضا» فورا وقاموا بزيارته في القصر، من دون حتى أن يمتلكوا كياسة المجيء وتوجيه كلمة لي. كان ذلك مؤلمًا، لكنه كشف عن طبيعة إنسانية واجهتها بابتسامة رثاء. ومع ذلك، واصل آخرون الحديث إليَّ فحسب، كما لو أن شيئا لم يتغير، وأتذكر أنني قررت أن أبدو غير مبالية على نحو واضح تماما، حتى يدرك الشخص أن عليه (أو عليها) توجيه الحديث الآن إلى ابني، الواقف إلى جواري. أردت أن أبيِّن بوضوح تام أنه، من الآن فصاعدًا، جميع القرارات سوف يتخذها الملك الشاب وأنني لم أبق إلى جواره إلا لمعاونته بخبرتي ونصحي.

ولم يلق ذلك تفهما في البداية. وحضر بعض القيادات وتوسلوا إليَّ ألا أنسحب، مشيرين إلى أنني بعد أن كنت أدير الأمور لمدة عشرين عامًا، ليس بوسعي الآن أن أتخلى عنهم في مثل هذا الوقت الحرج. ووضعني ذلك في موقف صعب، حيث لم أكن أريد أن يشعر أولئك الذين وضعوا ثقتهم فيَّ، وجاهدوا من أجل القضية سرًّا، بأنني لم أعد مهتمة بها. وصار عليَّ دائمًا توضيح أنني مازلت مشاركة في المقاومة، ولكن تحت سلطة ولدي الآن. وأقول لهم: «**إذا كنتم تثقون فيَّ، ثقوا في قراري**».

ثم جاءت الضغوط لأتدخل في تشكيل حكومة ولدي؛ كي أقدم شخصا إليه، أو أتفضل باستبعاد شخص آخر. ومرة أخرى، كان عليَّ أن أوضح مدى أهمية أن يختار الملك الشاب زملاءه بنفسه، بترو وعلى نحو مستقل تمامًا من أجل نجاحه. أحسست أن «رضا» يرغب في أن يختبر قدراته، وهو أمر ينبغي تشجيعه بالطبع. **«أمهلوه حتى يجد الأشخاص الذين يشعر أنه يستطيع الثقة فيهم والعمل معهم»**.

وفي هذا المناخ الصعب، حيث يأتي دور الطموحات المتنافسة، حدث ما كنت أخشاه بيني وبين نفسي: حاول البعض إثارة المتاعب بين ولدي وبيني. فقد ظللت على صلة مع جماعات المقاومة المختلفة، لكنني لم أحب أن يقترن اسم ولدي بمجموعة دون أخرى، وهو ما لم يستطيعوا أن يغفروه. وأرادوا جميعًا أن يكسبوا عطف الملك، حتى يستطيعوا أن يستفيدوا من رعايته لهم. ومن ثم حاولوا تحييد نفوذي عبر إقناع «رضا» أنني أتحمل قدرا ضخما من مسئولية سقوط الحكم الملكي، لأن أفكاري كانت «ليبرالية» أكثر من اللازم، وربما أثَّرتُ على زوجي. ونشر هذه الشائعات الخبيثة أشخاص اعتبرتُهم فاسدين، وسببت أعمالهم قدرا كبيرا من الضرر للحكم الملكي. وتألمت كثيرا بسبب كل هذا السباق على النفوذ حول ولدي، الذي مازال صغيرًا. فلم يستطع أن يدرك الطموح، والخيانة، والدوافع الخفية، وراء ذلك. ورأيت أنه سيفهم ذات يوم، وأنه بحاجة إلى وقت لتقييم الأمور، وقلت لنفسي مرة أخرى إنني ينبغي أن أتحمل. أتحمل بكرامة. ففي الأيام التي يبدو لي فيها كل شيء مؤلمًا للغاية، ظالمًا للغاية، أحاول أن أعتصم بما هو أكثر أهمية. وأقول لنفسي: «**نحن نكافح من أجل مستقبل إيران. قضيتنا كبيرة وتستحق كل تضحية نبذلها. وماعدا ذلك ثانوي**».

وبعد بضعة شهور أبدى «رضا» رغبته في الذهاب والعيش في المغرب مع حاشيته. وأدركت أنه يريد الانتقال بعيدًا ليؤكد استقلاله، وهو أمر مشروع تمامًا، ولكن بدا لي أن الرحيل عن مصر التي وفرت له العديد من أسباب الحركة والنفوذ، أمر يدعو للأسف. ربما لا يكون المغرب في صالحه. وقلت له ذلك، ولمَّا لم يبد أنه أقنعه، جمعتُ أخيرًا زملاءنا القريبين حوله لأعلن أنني مستعدة لمغادرة القاهرة بنفسي. وقلت لهم: «**المهم الآن هو إيران، وليس أنا. من الأفضل لمستقبل قضيتنا أن يبقى الملك الشاب في القاهرة. ومن ثم أنا على استعداد للذهاب، إذا كان رحيلي سيجعل** «رضا» **يغيِّر رأيه**». ولم يكن الحال كذلك، وغادر ولدي إلى المغرب كما أراد.

ومازلت أحمل ذكريات مؤلمة عن هذه الفترة كلها، عندما كان لابد من خوض المعركة على جميع الجبهات ـ في نفس الوقت ـ شخصيا وسياسيًا. وأحيانا يصبح الأمر غير محتمل، وعلى الرغم من جميع هذه الصعوبات، استطعنا أن نعيد بناء الحياة العائلية، التي لم نعرفها منذ ذهبنا إلى المنفى. صرنا نعيش جميعًا معًا مرة أخرى ـ على الأقل حتى مغادرة «رضا» ـ في قصر القبة، الذي واصل الرئيس «السادات»، بكرم، تركه تحت تصرفنا. وعاد الأطفال إلى دراساتهم، وكانوا مندهشين من اللطف الذي عاملهم به الجميع ـ مثلما قلت ـ في المدرسة، وفي الشارع، وفي القصر نفسه، حيث كان الجميع مجاملًا تجاههم. فبعد أن جاءوا من الولايات المتحدة، حيث تعرضوا كثيرا للتجريح، خاصة من بعض المدرسين، كانوا مرتاحين لما يلقونه من ابتسامات وتحيات ودية في مصر. وبدا ذلك كما لو أنه عودة إلى أهلنا، عائلتنا ومجتمعنا الثقافي، وساعدنا الحنان الصادق الذي لقيناه على أن نبتسم ونتمتع بالحياة مرة أخرى، على الرغم من أنفسنا تقريبًا.

ومع الحياة معًا مرة أخرى، عاد للأطفال إحساسهم المرح، الذي كان يزيد الحياة اليومية بهجة في قصر «نياوران» في «طهران». فسمعت ضحكاتهم مرة أخرى، وسمعتهم يحكون قصصًا ومزحًا. وأنا أجلس في بعض الأمسيات مع الصغيرين، مثل أي أم أخرى، أتابع واجباتهما المدرسية، وأستمع إلى دروسهما، وأرى وجه «ليلى» يشع ضياء. فبعد كل تلك الشهور المشوشة، حيث عانت من غيابي وهي بعد صغيرة، تستطيع الآن التمتع ببهجة مشاركة زميلاتها بالمدرسة الأفراح، ومشاركتي الاهتمامات.

ونذهب أحيانا للعشاء في مطعم، أو إلى متحف، أو عرض فني. وأحيانا تعد لنا والدتي ـ وكانت معنا أيضا ـ عشاء إيرانيًا. فهي كانت معنا إبان السنوات السعيدة، وظلت معنا خلال منفانا. وكان الأطفال مغرمين بها للغاية. فهي لم تتزوج مرة أخرى، رغم ترملها في سن السادسة والثلاثين. امرأة جميلة، أنيقة للغاية؛ عنيدة ولكنها لم تتذمر أبدًا. لديها دائما كلمة إيجابية مشجعة للأطفال، كما فعلت معي. واعتادت أن تقول: «**تطلعوا إلى الجانب المشرق، وسوف يحققه الله لكم**». فكانت، كمؤمنة، نموذجًا للتسامح تجاه الأديان الأخرى، وأثار كل ما قدمته الثورة الإسلامية امتعاضها. ولأنها من بين من انضموا منذ وقت مبكر إلى المعركة من أجل الاعتراف بحقوق المرأة، قالت

إن «خوميني» سبب أضرارا لا تحصى للإسلام، ولفكرة الدين بحد ذاتها. وتوفيت في خريف ١٩٩٩، بعدما وضعت يدها بصورة خاطفة على كتفي، كما لو أنها تظهر أنها تعرف أنني بجوارها، رغم أنها كانت توقفت عن التعرف على أي أحد.

وزارنا الأقارب والأصدقاء القريبون، وضباط، ومسئولون سياسيون أيضا. ومازلت أحمل ذكريات خاصة للملك «بودوين»، والرئيس «سنجور»، وملكة نيبال. وهكذا، رغم الصعوبات الجمة، كنا نجتمع بشبكات المقاومة المختلفة للتنسيق، فنستمع إليهم جميعًا، ونمنحهم الأمل، وندبِّر الخطط؛ كانت الحياة تفرض نفسها. وبدأنا نتحدث عن الاستقرار بشكل دائم في مصر، عندما علمت في السادس من أكتوبر ١٩٨١، وأنا في باريس لبضعة أيام، باغتيال «أنور السادات». وهذه كلمات كتبتها في ذلك الوقت، وحتى الآن، تدفعني إعادة قراءتها، إلى القنوط الذي أحسسته في تلك الليلة الخريفية:

«باريس، الثانية صباحا. مات الرئيس «السادات»، اغتيل أثناء عرض عسكري. مازلت لا أستطيع التصديق. كم هو صعب أن أكتب هذه الكلمات! جزء مني مات في نفس الوقت. جزء منا. أيها «السادات» العزيز، أود أن أخبرك كم كنت رائعًا، أبًا لأطفالي، وصديقًا لي! كنت قويا مثل الجبل، وهادئًا مثل صفحة الماء. كانت عيناك مليئتين بحب الناس وتفهمهم. يا لها من خسارة لمصر! والعالم! ولنا! لقد لحقت بصديقك، ونحن الآن أيتام للمرة الثانية».

وبعد أربعة عشر شهرًا من موت زوجي، جمعنا الحزن معا مرة أخرى خلف نعش الرئيس المصري. وأدهشتني قوة «جيهان». فرغم أن وجهها كان مضنًى من الألم، مازالت تستطيع أن تجد كلمات ولفتات لتعزية أطفالي.

خسرت مصر مرشدها، وضميرها، وصار القلق العام ملموسًا فجأة. هل ستغرق البلاد في الفوضى؟! كان بإمكانك رؤية الحيرة في عيون الناس. وبعد مغادرة الأولاد، أبلغني الرئيس «حسني مبارك» وقرينته «سوزان» أنني مازلت ضيفتهما. ومع ذلك نُصِحْتُ بعدم مغادرة قصر القبة، بل حتى تجنب الخروج إلى حديقته، فالسلطات لم تعد مطمئنة للجنود الذين يحرسونها. فربما يكون تعصب الإخوان المسلمين القاتل مختبئًا في أي مكان، بما في ذلك تحت سترة عسكرية. وبقينا محبوسين عدة أيام،

نتساءل عما إذا كنا سنصبح ضحايا تمرد آخر. كنا نتوقع الأسوأ، ومتأهبين للمغادرة بسرعة في أي وقت من الليل أو النهار.

وفي الولايات المتحدة، كان «رونالد ريجان» قد تولى الحكم لتوه، قبل أن تطلق السلطات في طهران سراح الرهائن الاثنين والأربعين الباقين في ٢٠ يناير ١٩٨١ [(١)]. وأبلغنا الرئيس الأمريكي الجديد أنني مرحب بي في بلاده. ولولا هذه الدعوة ربما لم نكن لنغادر مصر.

وكانت العودة إلى الولايات المتحدة بعدما عانيناه هناك مؤلمة للغاية بالنسبة لي. وأتذكر الرعب الذي شعرت به أثناء مروري بمستشفى «نيويورك». تذكرت كل شيء فجأة: معاناة زوجي وشجاعته، بينما يهتف المعارضون في الشارع بكراهيتهم، ورحيلنا سرًّا إلى قاعدة «لاكلاند» الجوية العسكرية، وأَلَمي لفكرة أن صغيرتي «ليلى» لن تجدني هناك كالمعتاد عندما تستيقظ.

تبعد «وليامز تاون» مسافة ثلاث ساعات عن «نيويورك» برًّا. فذهبت إلى هناك بالسيارة، وأتذكر كيف تأثرت بمشهد محلات بيع الأطعمة السريعة، هذه الطريقة في الحياة الغريبة للغاية بالنسبة لنا، التي أعادتني إلى أسوأ فترات حياتي.

وكان المنزل الذي اشتراه لنا ولدي خشبيًّا، وهو نموذجي بالنسبة لطالب يعيش بمفرده، لكنه لا يناسب أسرة. وكانت الجدران الخشبية تعني أنك تستطيع سماع الضوضاء، وحجرات النوم صغيرة غير كافية. وفي البداية، لم أجد لدي رغبة في ترتيبها. شعرت كما لو أنني مخدرة.

وأعتقد أنني أدركت تدريجيا مدى فائدة هذا التقاعد الجبري لنا جميعًا بعد عامين من المعاناة والكرب. وبلدة «وليامز تاون» صغيرة يسكنها ثمانية آلاف نسمة، بها شارع واحد رئيسي للتسوق. وبدت بعيدة على نحو غريب عن اضطرابات العالم،

---

(١) بعد توقيع اتفاق الجزائر في ١٩ يناير ١٩٨١، لتحرير الرهائن بين الجمهورية الإسلامية والولايات المتحدة، وتعهدت واشنطن بإعادة كل ما نمتلكه في الولايات المتحدة إلى إيران. والآن لم يعد أي منا ـ الملك أو أنا ـ نملك أي شيء في الولايات المتحدة. ومع ذلك، لاحقتنا الجمهورية الإسلامية طوال أربعة عشر عاما، بدون نجاح كما هو واضح. كما خسرت أيضًا الدعاوى القضائية التي رفعتها ضدنا في إنجلترا وسويسرا.

بلدة ريفية، يبدو فيها الخريف بديعا. ونظرًا لأنني قادمة من زحام القاهرة غير العادي، انتابني الشعور شبه المؤلم بفقدان الحواس فجأة؛ لا يوجد هنا أي صوت، باستثناء صوت آلات الحصاد الكهربائية، ولم يعد هناك أي إحساس بالخطر، وإنما الإحساس بالعالم النقي، الريفي، الآمن تمامًا.

وبمجرد انتهاء الأسابيع الأولى للاستقرار، بدا الأطفال سعداء تمامًا بحياتهم الجديدة، خاصة «ليلى»، التي وجدت بسرعة أصدقاء. وكنا عثرنا لها على مدرسة خاصة، بينما ذهب «علي رضا» إلى مدرسة حكومية. وفي الحالتين لقيا ترحيبًا مع الكثير من العطف، والاهتمام باحتياجاتهما. وعرضت مدرسة «ليلى» أن تدرج دراسة الفارسية ضمن برنامجها الدراسي، حيث لم تكن تدرس هناك بالطبع. أما أنا فصار لدي وقت أكثر أكرسه لهما. فكنت أتابع واجباتهما المدرسية، وأستمع إليهما، وأسعد بالمشاركة في مغامراتهما اليومية الصغيرة.

وقُبِلَت «فرح ناز»، التي اجتازت دراستها الثانوية في مصر، في كلية «بينينجتون» في «نيوهامشاير». ومن سوء حظها قابلت أستاذا كان سفيرًا للجمهورية الإسلامية لدى الأمم المتحدة عندما أُخِذَ الدبلوماسيون الأمريكيون رهائن في «طهران». وأعدت «فرح ناز» ورقة بحثية عن صناعة البترول، كانت عملًا جيدا بالتأكيد، لكن الرجل رفض قبول عملها، مدعيًا أنها لم تعِدُّه بمفردها. ومن الواضح أن هذا الظلم يعود إلى اسمها، وكان بداية حالات رفض أخرى.

وتولى ولدي الأكبر مسئولية إدارة أنشطة المقاومة من المغرب، وهو ما خفف عني قدرًا كبيرًا من مهمات، ابتلعت معظم اهتمامي خلال الشهور التي تلت وفاة زوجي. وظللت على اتصال بالحركة عبر الرسائل، التي تتطلب ردودًا، ومن خلال الاجتماعات المهمة المختلفة أو المحادثات عبر التليفون، ولكن وقتي لم يعد مزدحمًا بالكامل.

وفي ١٩ مارس ١٩٨٢، توفيت الملكة الأم. كانت تعاني من اللوكيميا، وأخفينا عنها وفاة الملك حتى نحافظ على حياتها. وطوال تلك الفترة اضطررت أن أجبر نفسي على إبلاغها أنباء عن ابنها كما لو أنه مازال موجودًا معنا. وقلت فقط إنه ضعيف للغاية ولا يستطيع الحديث في التليفون. وبدا أنها صدقتني، لأنها كانت ضعيفة للغاية هي الأخرى. ودفنت الملكة الأم مؤقتًا في «نيويورك»، بالقرب من حفيدها «شهريار».

وتعلمت تدريجيًّا أن أعيش حياة طبيعية مرة أخرى، أقضي فترة من العام في باريس وفترة في الولايات المتحدة. وبدأت ألعب التنس مرة أخرى، فهو دائما معين قوي في الأوقات العصيبة. وكان هناك مشتل في الجوار، فبدأت أزرع بعض النباتات. وأتذكر كم كنت متلهفة يوميا لرؤية مدى نمو خضراواتي. وكان الناس من حولنا ـ الجيران، ورجال الأعمال، والشركاء في لعب التنس، ورجال الأمن ـ ودودين للغاية، يناديني معظمهم باسمي الأول. ومع ذلك اتضح أن بعضهم ليست لديه أي فكرة عن الأحداث التي مررنا بها لتوِّنا؛ وأغلب الناس لم يكونوا مدركين حتى للاضطرابات الدرامية التي تقع في إيران، وساهم هذا الجهل في إحساسنا بالعزلة. وذات يوم قالت لي بمنتهى الجهل فتاة وهي تتذوق بعض حبات الفستق القادم من الوطن: «**عندما تذهبين إلى إيران المرة القادمة، هل تتكرمين بإحضار بعض منه لي، إنه جيد للغاية**». فما الذي كنت أستطيع أن أقوله لها؟! ومن أين أبدأ؟! وفي نفس الفترة كنت أجري بعض الفحوص الطبية. وبدا أن المرأة التي تملأ صحيفة بياناتي لا تعرفني. فسألتني عما إذا كنت متزوجة، وقلت لها إن زوجي متوفى فكتبت: أرملة. ثم سألتني إن كنت أعمل فأجبت بالنفي. وهكذا كتبت: عاطلة عن العمل، وهو ما جعلني أبتسم وأقول لنفسي: «**لم تكوني لتستطيعين توضيح الأمر بأفضل من ذلك**».

وتلقيت بعض الدعوات الكريمة للعشاء. وكان الناس يتحدثون عن المسرحيات التي شاهدوها في «نيويورك» أو عن أحداث محلية، بينما أبتسم ابتسامة خالية من المعنى، ظانَّة أنني من كوكب آخر بلا شك. نعم، كنت أبذل جهدًا لأضحك، محاولة أن أنظر إلى عزلنا بمنظور واقعي. وكيف يمكنك ألا تضحك أحيانًا؟! ودعاني صديق إيراني في نيويورك ذات مساء للمشاركة في حفلة سمر، بلغت حدًّا أكثر مرارة، فكان يعلق صورة لي في حجرة معيشته، وسأله ضيف كان مديرًا عاما في إحدى الشركات: «**من هذه الفتاة التي في الصورة؟**» فأجاب صديقي: «**إنها ملكتنا**». فرد ضيفه مندهشًا: «**زوجة «خوميني»؟!**».

ومرة أخرى، وأنا في إحدى صالات «نيويورك» الفنية، جاء رجل وتحدث إليَّ بطريقة ودودة: «**قيل لي إنك زوجة الشاه. أنا سعيد للغاية لمقابلتك. هل تمانعين أن ألتقط لك صورة مع زوجتي؟**». أجابت: «**على الإطلاق**». فنادى على زوجته:

«عزيزتي، تعالي حتى أصورك مع زوجة الشاه». ثم بعد التقاط الصورة: **«بالمناسبة، أنت زوجة الشاه، ولكن شاه أي بلد؟»!!**

وفي نفس اليوم، ونفس الصالة الفنية، داهمتني امرأة تتحدث الإيطالية. فقاطعتها: **«آسفة، أنا لا أتحدث الإيطالية»**. فتعجبت: **«ماذا؟ ألست «ثريا»؟** قلت لها: **«لا، أنا من جئت بعدها»**.

وباستثناء هذه الحالات من سوء الفهم لم أنس التعاطف الذي أبداه لي العديد من الأمريكيين. ففي كل مناسبة، كان هناك البعض الذين يجدون اللفتات أو الكلمات الصائبة للتعبير عن تضامنهم. وأنا أفكر في العمال خارج مستشفى «نيويورك» عندما تظاهروا ضد الإيرانيين، الذين كانوا يدعون الله من أجل موت زوجي. وتلقيت عددا هائلا من الخطابات أرسلها أمريكيون عاديون ليخبروني أنهم يعرفون أن الملك توفي، وأنهم حزانى للحالة التي يعيشها بلدنا، وأفكر في «ماري وروبرت» من «أريزونا»، اللذين يكتبان لي بصدق كل عام، وفي «دان» حارس الغابة في «نورث كارولينا»، و«ديفيد» وهو هندي أمريكي.. و«جاري» الذي اختار اسمي الأول لابنته، التي بلغت الآن السابعة والعشرين، وفي كثيرين آخرين. وعلّمني الشعب الأمريكي أن أنظر تجاه المستقبل، وألا أأسف على نفسي. أحب رفضهم العنيد للاستسلام للقدر والدموع واليأس، وإيمانهم الراسخ بالمستقبل.

وفي منتصف الثمانينيات، قررت أن أنهي العزلة التي كانت ثقيلة، ويمكن أن تؤذي تنمية الأطفال في صورتها الأوسع نطاقًا. أردنا أن نكون أقرب إلى «نيويورك»، من دون أن نعيش فيها فعليا. وكنت سمعت كثيرًا عن منطقة «جرينيتش» في «كونيكتيكت»، على مسافة ساعة فقط من «نيويورك». ووجدنا منزلًا هناك أكثر راحة من ذلك الذي في «وليامز تاون»، كبير بما يكفي لنا جميعًا، ومقام وسط حديقة رائعة بها كل الأشجار القديمة التي يمكن أن أتمناها، باعتباري جئت من بلد تعاني فيه الخضراوات كثيرًا من الجفاف. وتعتبر «جرينيتش» بحق ركنا صغيرا من الجنة بالنسبة لأولئك الذين يعشقون الطبيعة والفصول المتغيرة. ولن أشعر بالملل أبدًا من مواسم الخريف حيث يذكرني اللونين الخمري والبرونزي بمواسم الخريف في «طهران».

ولم تكن «ليلى» سعيدة جدًّا لترك دائرة أصدقائها مرةً أخرى، لكنها أحبت

مدرستها الجديدة. أما «علي رضا»، الذي كان في بداية دراسته الجامعية، فقبل بجامعة «برينستون»، وهو ما جعلني فخورة للغاية. وبدأ بدراسة العلوم، ثم تفرغ إلى تاريخ الموسيقى، وهي أحد المجالات التي يعشقها. وصارت «فرح ناز» الآن طالبة علم نفس بجامعة «كولومبيا»، حيث حققت نتائج ممتازة. وكانت تعيش في شقة صغيرة أجَّرتها من أجلها. أما بالنسبة لـ«رضا» فترك المغرب واستقر أيضا في «كونيكتكت»، وهكذا عاودنا مرة أخرى عادة الاحتفال بعامنا الإيراني الجديد كعائلة.

وأخيرًا، بدا أن الحياة ابتسمت لنا فجأة مرة أخرى، بعدما قست علينا فترة طويلة ففي إحدى الأمسيات اتصل بي «رضا» ليقول إنه ينوي أن يخطب. فاجتاحتني موجة من السعادة. كان التقى «ياسمين»، وهي فتاة إيرانية، في وقت سابق. وكان والداها، وهما الآن منفيان في الولايات المتحدة، يمتلكان قبل الثورة الإسلامية أراض زراعية في «زنجان» بالقرب من «طهران». وسعدت أنه قرر أن ينشئ أسرة مع فتاة من ثقافتنا عانت هي أيضا الكثير من أحداث إيران. وكانت قد تركت البلاد وهي في التاسعة، وفقد والداها كل شيء. وهكذا سيكون الشابان متفقين في الفكر منذ البداية.

وبعد بضعة أسابيع، قدَّمَ إليَّ «ياسمين اعتماد أميني». ومن الوهلة الأولى لفت نظري جمالها وذكاؤها، مع طبيعيتها النبيلة. وذكَّرني تحفظها بخجلي عندما قُدِّمتُ إلى الملكة الأم قبل ربع قرن. وفعلت كل ما أستطيع لأجعلها على راحتها؛ أخبرتها كم أنا سعيدة لأنني سأراها إلى جانب ولدي! ثم وصفت لها ـ محاولة ألا أشعرها بالخوف ـ المسئوليات التي ستضطلع بها بمجرد زواجها من الملك الشاب. أردت أن أحميها من أي شيء قد يؤذيها. كانت في السابعة عشرة فحسب، لكنها أظهرت بالفعل أنها تمتلك كلا من قوة الشخصية والهدوء الرزين.

وتقرر إقامة الزفاف في ١٢ يونيو ١٩٨٦. وهي المرة الأولى منذ رحيلنا عن «طهران»، التي نتجمع فيها من أجل حدث سعيد، وأحيت الأمل في المستقبل. غير أننا كنا في وسط الحرب الإيرانية العراقية، واحتراما لمعاناة الشعب الإيراني، قررنا الاحتفال بالزفاف في هدوء ضمن دائرة العائلة. وأرادت العائلتان الالتزام بالتقاليد، على الرغم من كوننا في المنفى. وأرادت «ياسمين» اختيار ثوب زفافها بحيث يصنعه خياط إيراني. وكنت قد اكتشفت فنانا، إيرانيًا أيضًا، أعد صينية البخور الملون

التقليدية. وتولت زوجة أحد رجال حرسنا أمر الزهور، وتم إعداد الأطباق الإيرانية بمعرفة أصدقائنا في الجالية الإيرانية.

وكان الاحتفال جليلًا ومؤثرًا. ولم يكن حول العريسين الشابين سوى نحو ستين شخصا، ولم أندم إلا على أنني لم أجرؤ على دعوة «جيهان السادات»، بسبب حرصي على أن يكون الحفل متواضعا وحذرا. وكان ينبغي عليَّ أن أحطِّم من أجلها القاعدة التي اتبعناها في دعوة القريبين من الأقارب. وخلال الاحتفال الديني، فعلنا شيئًا لم يحدث في زفافي؛ عقدت نساء سعيدات في زواجهن - شقيقتا «ياسمين»: «لادن» و«نيلوفار»، وعمتي «بوران ديبا»، ودكتورة «بيرنيا» - الوشاح التقليدي فوق رأسيّ العروسين، بينما تم مزج قطعتين من السكر فوقه كبشارة بحلاوة الحياة، وخاطت امرأة بعض الغرز في القماش لإسكات لسان الحماة، كما نقول في بلدي.

وأعطى «رضا» زوجته الشابة عملات ذهبية عليها وجه والده وقرآنا صغيرا. وأعطيت «ياسمين» خاتمًا من الألماس. وكنت منفعلة للغاية عندما حان الوقت لأقول لهما بضع كلمات، حتى أنني لا أستطيع أن أتذكر بدقة كيف أعربت عن تمنياتي الطيبة لهما بالسعادة. لكنني أتذكر الإشارة لذكرى زوجي، والتعبير عن مدى الحزن الذي شعرت به لأنه ليس موجودًا في ذلك اليوم الرائع. وفي تعليقاتي القصيرة بعد الاحتفال أشرت إلى «ياسمين» بلقب «شاهبانو» لأوضح أنها الآن سيدة إيران الأولى، وأنني أرغب في التراجع إلى الخلف قليلًا.

وأخيرًا، أَطْلَقَت «ياسمين» الحمام، مثلما فعلت بالضبط قبل سبعة وعشرين عاما.

وبدأت «ياسمين» بمجرد زواجها دراسة العلوم السياسية بإصرار، ثم واصلت دراسة القانون بعد ميلاد ابنتيها. وهي اليوم تعمل محامية، وتهتم بصفة خاصة بالأطفال الذين تخلى عنهم أهلهم، أو الذين يعانون من سوء المعاملة أو الإيذاء الجسدي. وبالإضافة إلى ذلك، أنشأت قبل عشر سنوات مؤسسة لإحضار الأطفال الإيرانيين المرضى على نحو لا يمكن معالجته في الوطن، إلى الولايات المتحدة. وتساعدها الجالية الإيرانية في هذه المهمة، بالتبرع بكل من المال والوقت. ولأن

«ياسمين» لا ترغب أن يعرقل اسمها عمل المؤسسة بأي شكل، عهدت بمسئوليتها إلى أحد أبناء عمومتها.

و«ياسمين» امرأة عصرية ذكية، تمثل معرفتها بالعالم، والثقافة، وسرعة بديهتها سندا مؤكدًا لابني لا يقدر بثمن. وأشعر اليوم أنهما زوجان متآلفان للغاية، ومتقاربان، وعلى وعي تام بالشئون العالمية، وأشعر بثقة أنه إذا تحوَّلَ إليهما الشعب الإيراني ذات يوم، فسوف يكونان قادرين على قيادة البلاد إلى طريق التقدم والتنمية.

وأضافت «ياسمين»، عندما تقدمت في دراستها، إلى سعادة هذا الزواج عندما منحت ولدي طفلتين صغيرتين، يمثل حبهما وتألقهما فرحة دائمة. ولدت «نور» في الثالث من أبريل ١٩٩٢، و«إيمان» بعد عام ونصف العام في ١٢ سبتمبر ١٩٩٣. وتركتُ الآن «كونيكتيكت» لأكون بالقرب منهم. فقد أصبح منزل «جرينيتش» كبيرا وغاليا أكثر من اللازم علينا أنا و«ليلى». وكنت أفكر في البحث عن منزل أصغر، عندما طلبني «رضا»، مقترحًا أن أشتري منزلًا عثر عليه على مسافة أربع دقائق فحسب منهم. وكنت في باريس ذلك الوقت. فأرسل لي صورًا للمنزل، ووافقت على التو. وطلبتني «ياسمين» فورًا، وقالت لي بلطف شديد: «**أعلم أنك لا تحبين أن يدفعك أحد، خاصة بالنسبة لشيء كهذا، ولكن «رضا» والفتاتين سعداء للغاية لمجيئك للعيش بالقرب منَّا، لذلك إذا كنت سوف تغيرين رأيك، فافعلي ذلك الآن من فضلك. لأنه سيكون محبطًا لهم جدًّا إذا فعلته لاحقًا**». تأثرت للغاية حتى أنني أكدت أنني قادمة.

ووضعني عقد التسعينيات في الدور الذي يلائمني كسفيرة للمصالح الإيرانية. فقد اضطلع ولدي بالدور السياسي الذي ورثه كاملًا، كما كنت أتمنى، وجعلت من نفسي تدريجيا حاضرة لتمثيله في رحلة معينة، أو لقاء شخص معين كنت أعرفه في السابق.

ومنذ أن تولى ولدي مكان زوجي، صارت حياتي السياسية تتركز أساسًا على الشرح المتواصل لكل أولئك الذين يتحدثون إليَّ ـ سواء كان رجلًا في الشارع أو شخصًا بالغ الأهمية ـ حول الأوقات المأساوية التي تعيشها إيران اليوم. فأَطَّلِع على كل ما يجري في «طهران» والمحافظات؛ وهي مهمة تستغرق جزءًا كبيرًا من أيامي،

غير أنني أؤديها عن طيب خاطر، لأنني أعتقد أن كل شخص أستطيع إقناعه، هو حليف جديد في تحرير بلدي.

ومن بين جميع الشخصيات البارزة التي التقيتها في المنفى، أحمل أكثر الذكريات صفاء وتأثيرا على الوجدان لـ«فرانسوا ميتران». حيث طلبت اجتماعًا بالرئيس الفرنسي، وسمح به. وللحفاظ على سرية الاجتماع، تم إدخالي سرًّا عبر بوابة في حديقة قصر «الإليزيه». ورحب بي الرئيس، ثم أخذني إلى حجرة الاستقبال. واستقبلني بود ولطف شديدين، وأظهر حرصا شديدا على سماع ما أعرفه عن إيران. وبينما نحن نتحدث، أدركت أن لديه معرفة واسعة بالمشكلات التي أدت لالتهاب ذلك الجزء من العالم، حيث حافظ زوجي على السلام لمدة عشرين عامًا، رغم أوقات التوتر البالغ.

أحمل أيضا ذكرى سارة لمقابلتي مع «نانسي ريجان»، حيث كان «رونالد ريجان» ـ وهو مرشح للانتخابات الرئاسية ضد «جيمي كارتر» الذي أراد الاستمرار فترة ولاية ثانية ـ الوحيد الذي جرؤ على أن يعلن موافقته على زوجي وعلى السياسة التي اتبعها. وتأثرت للغاية بذلك.

وفي إسبانيا ظلت الملكة «فابيولا» والملك «خوان كارلوس» والملكة «صوفيا» أصدقاء أعزاء. ويتصل كل منا بالآخر، وكثيرا ما يدعونني إلى إسبانيا، وعندما يكونون في باريس، نسعد دائما برؤية كل منا للآخر مرة أخرى. ويعتبر الحكم الملكي الإسباني مثلا يحب ولدي «رضا» الاستشهاد به عندما يتحدث عن مستقبل إيران.

وفي كل عام يستقبلني الرئيس «مبارك» وزوجته «سوزان» بمودة وصداقة، عند إحياء الذكرى السنوية لوفاة زوجي. وبفضلهما تبقى مصر في قلبي بلدًا صديقًا لم يتخل عنَّا أبدًا.

وأشعر بالامتنان العميق لصداقة مدام «شيراك»، والاهتمام الدائم الذي أبدته لي. فعندما نلتقي تكلف زوجة الرئيس الفرنسي نفسها دائما العناء لتساندني وتحييني ببعض الكلمات الودودة والمخلصة عن إيران، وأولادي، وعن نفسي. ولن أنسى أبدًا زيارتها عقب وفاة «ليلى». جاءت تحمل الزهور، بلا ضجة، للإعراب عن مشاعرها، وعن مدى إحساسها بي في هذه المأساة.

وينبغي تسجيل شكر أخير للمساندة القيمة التي أبداها لنا في المنفى الأسر الحاكمة في الشرقين الأوسط والأقصى، التي لا أستطيع للأسف ذكر أسمائها بسبب موقفنا السياسي.

وعندما استقر بي الحال في الولايات المتحدة، افتتحت مكتبًا في «نيويورك» وأوكلت إدارته إلى «قمبيز عتابي»، الذي ظل واحدا من أخلص مساعديَّ طوال سنوات المنفى. وينظم هذا المكتب جدول لقاءاتي الدولية، لكنه يتلقى أيضا مئات الرسائل والبريد الإليكتروني الذي يُرْسَل إليَّ يوميًّا. الكثير منها رسائل لإبداء الولاء، والمحبة، ولكن بعضها طلبات للمعونة أو المساعدة من جميع أنحاء العالم، ومن ضمنها إيران، وأنا أقوم بكل ما أستطيع للرد بصورة إيجابية. وأتلقى من إيران طلبات للحصول على تأشيرات لدخول الولايات المتحدة، وتصاريح عمل في البلدان الأوروبية المختلفة، فضلا عن التماسات عاجلة للحصول على أدوية. ومن خارج إيران تصلني رسائل عديدة من مواطنيَّ في المنفى؛ من لديه طفل أو زوجة أو زوج مريض، ومن يحتاج مبلغًا صغيرا من المال على وجه السرعة، وهناك آخرون يبحثون عن عمل ويريدون مساعدة، أو أشخاص على وشك الطرد من بلد ويأملون أن أستطيع التدخل لصالحهم. وفضلًا عن هذه الالتماسات التي لا يسهل تلبيتها، وتستغرق غالبا الكثير من العمل، أتلقى رسائل لا تطلب أكثر من قدر قليل من مشاعري، وفي هذه الحالات يسرني أن أستطيع تقديم المساعدة بسرعة. فعلى سبيل المثال، اتصلت بي مؤخرا ابنة جنرال متقاعد تطلب المساعدة، لأن والدها الذي يعيش في المنفى ببلدة أمريكية صغيرة صار مكتئبًا للغاية.

قالت لي: «**أنت الشخص الوحيد الذي يستطيع رفع معنوياته**». فأجبت: «**نعم، ولكن ما الذي يجب أن أفعله؟**» فكان طلبها: «**اتصلي به من فضلك**». واتصلت بالرجل، وحاولت العثور على كلمات يمكن أن تمنحه الأمل، وفي اليوم التالي اتصلت بي ابنته: «**أوه، أشكرك! أشكرك! مكالمتك التليفونية غيَّرت حياته**».

وتوسَّل إليَّ شاب إيراني كي أتحدث إلى شقيقه، الذي تسرب من المدرسة، وفقد الاهتمام بأي شيء، وهو يغرق في الاكتئاب. واتصلت بالصبي، واستمعت إليه، وتحدثنا. وبعد عام من هذه المحادثة، سررت عندما سمعت من شقيقه أنه أنهى دراسته.

وزادت علاقاتي مع الإيرانيين داخل إيران بدرجة كبيرة، بفضل الإنترنت. وكتب إليَّ كثير من شباب الجيل الذي لم يعرف الحكم الملكي، يطلبون معرفة قصة أهلهم، ويحاولون فهم كيف أمكن أن تغرق إيران، التي كانت متألقة، في ذلك الظلام. والإيميلات التي يرسلونها إليَّ مؤثرة للغاية، وتزخر بالأسئلة والتعبير عن المشاعر الطيبة. وأنا أهتم بالرد عليهم، وأوضح لهم بتعبيرات بسيطة صادرة من القلب ما أعرفه عن المأساة التي مر بها بلدنا، ومازلنا نعيشها. وأهتم بصفة خاصة بإعطائهم الأمل في المستقبل. وأرسل لي صبي صغير في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة رسالة إليكترونية مؤخرا، يخبرني أنه يحبني كثيرًا، وأنه يجب أن يتحدث إليَّ، لكن والديه يخشيان أن تكتشف السلطات الأمر وكتب إليَّ: «**استعرت تليفونًا محمولًا لعدة أيام، اتصلي بي من فضلك**». وتَذكَّرني آخر، طالب هذه المرة، عندما زار «برسبوليس». وطلب مني أيضًا أن أتصل به. وتحادثنا، وفي نهاية المحادثة قال لي: «**أشكرك، لقد منحتني القوة من أجل الاستمرار**».

ومن أعظم أسباب سعادتي مؤخرًا، أنني ساعدت ابنًا في العثور على والده. لقد ظلا منفصلين طوال مشكلات المنفى، ثم فكر الابن في طلب المساعدة مني.

نعم، يتطلب كل ذلك قدرًا هائلًا من الاهتمام، والوقت، والطاقة، ولكن المكاسب متبادلة. فما أبذله كل يوم، يعيده إليَّ بقدر كبير الإيرانيون الذين أحاول مساعدتهم. حيث تمنحني مكالماتهم، وخطاباتهم، وإيميلاتهم القوة على تجاوز معاناتي الخاصة، باسم الأمل الذي أراه فيهم. فهل كان يمكن أن أفعل غير ذلك، وأرفض الاضطلاع بهذا الدور الذي كلفني به كثيرون من مواطنيَّ منذ رحيلنا عن طهران؟ ذات يوم قلت لـ«فرح ناز» بينما أنا مجهدة من العمل: «**لا أعرف إن كان هذا اختياري أم قدري**» فردت «فرح ناز»: «**أعتقد أنه قدرك الذي لا يترك لك خيارا**».

مع وفاة «ليلى» في لندن، العاشر من يوليو ٢٠٠١، سَقَطْتُ في أعمق حالات اليأس الذي لا عزاء له. فلا يمكن للمرء أن يتغلب أبدًا على موت ابن. كانت «ليلى» قد بلغت لتوها الحادية والثلاثين. وكانت دائما مشغولة البال بفكرة الموت، منذ فقدت والدها وهي لم تتجاوز العاشرة. وأقلقني هذا ونحن في «وليامز تاون»، فرتبت لقاء لها مع أستاذ جامعي إيراني، بأمل أن يستطيع العثور على كلمات تخلصها من هذا الهلع. وكانت قد مرت بأوقات أليمة للغاية منذ رحيلنا عن إيران ـ سنوات

من الحداد، وانهيار كل ما قامت على أساسه حياتها ـ وبدأت تعاني من تعب مزمن عندما ذهبت إلى الكلية. وشكت كثيرا من نوبات صداع على وجه الخصوص، ولم تستطع أن تواكب دروسها. ثم بدأت ـ بنصيحة مني ـ تستشير الأطباء، بينما أعددنا مع أساتذتها في الكلية برنامجًا لتخفيف العبء عنها. لكن ذلك لم يساعد بأي حال. ولم تكن سعيدة في الكلية. ولأنها كانت مغرمة جدًّا بالشعر، والأدب، والموسيقى، حاولت إقناعها أن تتبع اهتماماتها الحقيقية، وتترك الكلية، وتهتم بأحد الفنون. وفي وقت من الأوقات رأت أن تصنع فيلمًا من الأفلام المتحركة يعتمد على بعض قصص «الفردوسي» التي أحبتها كثيرًا، ولكن اتضح أن ذلك أمر معقد للغاية. ولم تستطع أن تجد طريقها، وعاودها التعب الذي كان ينهكها من الصباح حتى المساء.

كانت تعاني، وحاولت أن أساعدها. كان صعبًا أن أراها تصارع وحدها مرضًا لم يستطع أي من الأطباء تشخيصه! كل هذه العلل، كل هذا الألم، كان تأثير تعاسة الطفولة التي لم تستطع أن تتخلص منها. طَرَحتُ ذلك، لكنها لم تتحمل أن يقول أحد هذا، أو يجرؤ على ذكر أن مرضها الغامض يمكن أن يكون نفسيًّا. كان ذلك يؤلمها، كما لو كان إنكارًا لكون محنتها حقيقية.

كانت مجروحة بشدة، من الحقد والشائعات، وكل ما كُتِبَ واستمر يُكْتَب عن الحكم الملكي وعن والدها بصفة خاصة. أحبَّت إيران حبًّا وطنيًّا خالصًا، اقترن في قلبها مع حبها لوالدها. وقادها ذلك إلى أن ترد بقدر كبير من العاطفية على أولئك الذين ينتقدون الحكم الملكي في حضورها. وأتذكر كيف كانت تستشيط غضبًا خلال هذه المناقشات، وتصبح منهكة بعدها. ولأنها تركت إيران وهي طفلة صغيرة، ومازالت صغيرة جدًّا، كان من الصعب عليها الجدال بلا توقف مع أشخاص أكبر سنًّا كثيرًا ما يتسمون بالعنف والعدوانية. وكانت مخلصة، وكريمة، وحساسة، وهو ما يعني أنها كانت تعطي الكثير من نفسها لأصدقائها. فهي من يطلبونه عندما يحتاجون سماع كلمات التشجيع؛ الشخص الذي يطلبونه عندما يكونون محبطين. كانت تأتي دائمًا وملء ذراعيها الزهور أو الهدايا لشقيقيها وشقيقتها، ولي ولأولئك الذين في محيطنا، هي من لم تجد أبدًا تعزية لنفسها، عرفت الآن كم كان يوجد في قلوب الإيرانيين من تعزية!

وأجرت فحوصًا، واستشارت كل أنواع الأطباء، ومع استمرار التعب والألم

رغم علاجاتهم، بدأت تقول إنه لن يستطيع أحد علاجها. ثم، كما يحدث دائما في هذه المواقف، صادفت أشخاصًا، أصدقاء، نصحوها باستخدام الحبوب المنومة والمهدئات. كانت مدركة بأنها ليست في صالحها، ولكن عندما تفوق معاناتها قدرتها على الاحتمال، كانت تتناول هذه الحبوب. وبعدها تستطيع النوم ولا تشعر بالألم والتعب. وصارت تتناول منها أكثر فأكثر، مدركة أنها تسحب من فرص حياتها. وعرفنا جميعًا، نحن المحيطين بها، وقلنا لها، ولكننا لم نجد طريقة لإقناعها. وكانت قريبة للغاية من شقيقها «علي رضا»، وسمعته يقول لها بخشونة رجل منزعج: «**اسمعي يا «ليلى»، إذا ظللت على هذا النحو، سوف تموتين**». وكان «علي رضا»، مثلنا جميعًا، يحاول إيجاد طريقة لانتشالها من هذه الدوامة الرهيبة. وردت بأنها تحب الحياة، وأنها لا تريد أن تموت، وأن كل هذه المهدئات تجعلها فقط تنسى لعدة ساعات مرضها الذي يعذبها.

وكان «علي رضا» أكثر من تأتمنه على سرها. فكل منهما يساعد الآخر، ويسانده منذ كانا طفلين صغيرين. وكانت تتصل به، وكثيرا ما ذهبت لزيارته في «بوسطن».

وكان يستطيع أن يسدي إليها النصح، ويسمح لنفسه أن يكون صارمًا معها، وتستمع هي إليه. غير أنها قبيل وفاتها قالت لطبيبها إنها الآن لا تريد إلا أن تستمع إلى شقيقها «رضا» وإلى والدها. فرد الطبيب: «**ولكن والدك لم يعد موجودًا**». ونَقَلتُ ما قالته إلى «رضا»، فأخبرها كم هي عزيزة لديه، وكم هو واثق أنها سوف تتعافى مرة أخرى. وأغضب ذلك «ليلى» جدًا. حيث رأت أن الملك الشاب، الذي تحترمه احتراما شديدًا، لا ينبغي إزعاجه بمشكلاتها الصحية، ولا إخباره بنقاط ضعفها.

كنت في الولايات المتحدة، الأيام التي سبقت وفاتها. وكانت «ليلى» في «باريس» مع الآنسة «كولروخ»، التي بقيت معها منذ طفولتها المبكرة، والتي كانت تدللها باسم «جوجول». واتصلت «ليلى» بي تليفونيا لتخبرني أنها سوف تسافر إلى «لندن»، وأنها تريد أن تذهب وحدها، وأنها تعبت من وجود شخص في أعقابها في كل وقت. وبدأت أقلق فورًا، لأنني أعرف أنها تستطيع الحصول على مهدئات في إنجلترا أسهل كثيرا منها في فرنسا. وطلبنا نصيحة طبيبها النفسي. وكان دائمًا ينصحنا ألا نتركها من دون إشراف، ولكن هذه المرة، ونظرًا لأن «ليلى» أصرَّت كثيرا، قال: «**هذا صحيح، هي تريد فعلًا أن تكون وحدها. سوف نتركها تذهب**».

واتصلت «ليلى» بعد فترة قصيرة من «لندن»، من الفندق الذي تتردد عليه دائمًا. كانت تشعر أنها مريضة جدًّا، ومجهدة، وأن جسدها مشلول من الألم. ونصحني طبيبها ألا أطلبها كثيرا لأنها أخبرته أنها تشعر أن الناس يتابعونها باستمرار، وأن ذلك يضايقها. غير أنها هذه المرة، كانت هي من اتصلت. وتحدثنا، وحاولت العثور على الكلمات المناسبة لتهدئتها، وتخفيف انزعاجها. كان ذلك يوم الخميس. وفي النهاية قلت لها: «**«ليلى»، أنا قادمة. سأكون في لندن يوم الأحد، وسنعود إلى باريس معًا. ألا تريدين أن تطلبي صديقة لتمر عليك أيضًا؟**» وذَكَرْتُ بضعة أسماء، بأمل أن تقول نعم على اسم منهن. لكنها لم ترد أن يراها أحد في تلك الحال الضعيفة، وكانت قد فقدت الكثير من وزنها خلال الشهور الماضية. ورغم ذلك طلبتُ ـ بعد أن أنهيت المكالمة ـ صديقة قديمة كانت تحب «ليلى» جدًّا، وطلبت منها أن تراقبها عن كثب. واتفقنا على ألا تقول أنني كنت على اتصال بها. وهكذا اتصلت هي بـ«ليلى» اليوم التالي، الجمعة، لتسألها عن حالها، وتأثرت «ليلى» بذلك بالتأكيد، لأنها وافقت على أن تحضر إليها الصديقة في وقت ما خلال اليوم. ومع ذلك، غيرت رأيها بعد قليل، وقالت لها: «**لا، تعالي غدًا بدلا من اليوم**».

وعندما اتَّصلْتُ بهذه الصديقة مرة أخرى يوم السبت، أخبرتني أنها لم تصمم خشية أن تغضب «ليلى»، لكنها تأمل أن تراها خلال اليوم. وأضافت أن «ليلى» قالت لها: «**إذا اتصلت مامي قولي لها ألا تطلبني، لأنني سأنام**». وكنت أخشى دائمًا أن أوقظها، لأنها سوف تقول: «**وها أنت، أنا كنت نائمة، والآن سوف أضطر لتناول بعض الحبوب حتى أعود للنوم ثانية**».

وكنت قلقة للغاية عندما وصلت «باريس» يوم الأحد، فكان أول ما فعلته هو أنني اتصلت بصديقتنا في «لندن». كانت لم تستطع بعد أن تقابل «ليلى»، بعدما أرجأت زيارتها، وفي النهاية، امتنعت عن الرد على الاتصالات. ولما شعرت بقلق بالغ، قررت أن أستدعي طبيبًا في «لندن»، كنت أحتفظ برقم تليفونه وعنوانه. فقال: «**أستطيع أن أجد فسحة من الوقت بعد الظهر لأراها في فندقها**».

وفي الوقت الذي كان ينبغي أن يكون مع «ليلى»، اتصلت بالفندق، وكان الطبيب هناك، لكنهم لم يسمحوا له بدخول غرفتها لأن ابنتي علَّقت إشارة «ممنوع الإزعاج» على بابها. وتوسَّلْتُ إليه أن يصرَّ على الدخول، وفي النهاية أقنع الإدارة أن تسمح

له بالدخول. وعلَّقتُ الخط بينما كان يصعد إليها. وبينما أنتظر، اتصلت «فرح ناز» من الولايات المتحدة على خط التليفون الثاني، تريد أن تعرف أخبارا عن شقيقتها، وقلت لها أن تنتظر معي حيث سيعود الطبيب في أي لحظة.

وانتظرنا نحو عشر دقائق. وعندما أبديت قلقي، رد موظف الاستقبال قائلا: «**إنهم مازالوا بأعلى ولم نسمع أي شيء**».

وأخيرًا سمعت صوت الطبيب يتلعثم من الانفعال: «**أشعر بأسف رهيب، لأنني مضطر أن أقول لك هذا، لكن ابنتك ماتت**».

ومع الصدمة والحزن، لم أكن قادرة على الحديث، ومازال عليَّ أن أُبْلِغَ «فرح ناز» في التو واللحظة. صارت الطفلة المسكينة هستيرية، وبدأت تصرخ وتبكي، ولم يستطع أي مما قلته أن يهدئ من روعها. اضطررت أن أتركها هكذا، لأجري مكالمة أخرى، وأطلب من «قمبيز عتابي» الذي كان في الريف بالقرب من «نيويورك» أن يذهب إلى «فرح ناز» فورًا. فمن غير المعقول أن نتركها وحدها وهي حزينة بهذه الدرجة المرعبة.

ثم أردت أن أخبر «رضا»، ورد مساعده على التليفون. وكان «رضا» وسط مؤتمر صحفي. وذهب الكولونيل وأخبره بموت شقيقته. فسيطر على مشاعره وأنهى المؤتمر. ولم يرتسم الحزن على وجهه إلا في النهاية، وهو يبلغ الصحفيين أنه علم لتوه بوفاة «ليلى».

وكان «علي رضا» في سيارته عندما اتصلت به. قلت له أن يركن السيارة، حيث خشيت أن تجعله الصدمة ينحرف، ويسبب حادثا. ولحسن الحظ لم يكن بمفرده. كانت سارة صديقته معه. أردت بشدة أن أكون معه، كما أردت أن أكون مع «فرح ناز»، حتى أستطيع أن أشاطرهما الألم.

لم أستطع أن أحمل نفسي على الاتصال بـ«جوجول». وطلبت من السيدة «مينا عتابي» أن تفعل ذلك من أجلي، فابنتي الصغرى كانت كل حياتها.

وأثر موت «ليلى» بدرجة كبيرة على جميع الإيرانيين في المنفى، وحتى أولئك الذين في إيران. فقد بلغني أنه بمجرد أن ذاع الخبر في شوارع «طهران»، اتجه الناس

إلى قصر «نياواران» ليضعوا الشموع والزهور أمام بوابات القصر. وسرعان ما أقيمت المآتم في أي مكان يمكن أن يوجد به إيرانيون اليوم. فتجمع الآلاف في «لوس أنجيلوس»، وهي بلدة توجد بها جالية إيرانية كبيرة. وهكذا استطاعت «ليلى»، التي مزقها كل ما فرَّقَ الشعب الإيراني، أن توفِّقَ بينهم يوم موتها، حيث تجمَّعوا باسمها.

وفي لندن نفسها، شيَّع العديد من الإيرانيين نعشها إلى المطار، وأردت أن تدفن «ليلى» في «باريس»، حيث دُفِنَت والدتي. وحضر جنازتها أكثر من ألف شخص، وتلقيت في الأيام التي تلت نحو سبعة آلاف خطاب. جميعها حافلة بالانفعال والحزن. وبعد هذه الفجيعة الرهيبة، مازلت أتلقى دائما تعبيرات التعاطف مع «ليلى»، ويزور قبرها يوميا أشخاص غير معروفين يغطونه بالزهور، والكلمات القليلة الزاخرة بالتأثر والأسف.

لا، لا يستطيع المرء أن يتغلب على حزنه لوفاة طفله، وأنا أعيش حدادا في صمت على صغيرتي «ليلى» منذ العاشر من يونيو ٢٠٠١. لديَّ القوة لأعزي جنرالا عجوزا ببضع كلمات، وأعطي الأمل لشباب إيرانيين اقتلعوا من جذورهم، وأستطيع ـ كما يقال ـ مساعدة جالية كاملة طردت من وطنها، غير أنني لم أستطع مساعدة ابنتي. ويُمَثِّل هذا العجز عذابًا مقيمًا، وكل صباح أقول لنفسي: «**يجب أن أجد وقتًا اليوم للاتصال بأبنائي، وحفيدتيَّ. البريد والتليفونات يمكن أن تنتظر. يجب أن أوضح لأبناء وبنات وطني ـ كما قالت لي «ليلى» ذات يوم ـ أنني بعد أن وهبتهم أربعين عامًا من عمري، لديَّ الحق الآن أن أشغل نفسي بعائلتي الخاصة، أبنائي وأحفادي**».

وسرعان ما ستترك «نور» و«إيمان» الطفولة خلفهما، وتنتقلان إلى المراهقة. وقبل بضعة شهور، وبينما أنا أتأهب لأحكي لهما قصة وأمنحهما قبلة قبل النوم، صارت «نور» غاضبة تقريبًا. وجلست في فراشها قائلة: «**ماما يايا، تقولين إننا إيرانيون. وتخبريننا أننا أميرتان، لكننا لا نعرف بلدنا حتى. ما هي فائدة اطلاعنا على كل هذه الصور الفوتوغرافية، وسرد كل هذه القصص علينا، إذا لم نكن نستطيع العودة إلى الوطن**».

ربما كان تعليقها هو ما أمدني بالقوة لكتابة هذا الكتاب. كان عليَّ أن أخبر هاتين الفتاتين الصغيرتين، المحرومتين من بلدهما كيف حدث كل هذا. أن أحاول أن

أشرح كيف كان التاريخ قاسيًا على عمتهما «ليلى»، وظالما لجدهما الذي يريان وجهه الجاد الصامت يوميًّا على مكتب والدهما. وأن أخبرهما أنهما تستطيعان أن تفخرا بأنهما حفيدتاه، وأن تفخرا بأنهما ابنتا رجل يكافح منذ ثلاثة وعشرين عاما الآن كي تستعيد إيران الازدهار والمكانة اللذيْن تمتعت بهما ذات يوم. أن أقول لهما، في الواقع، إنهما تستطيعان الفخر بكونهما إيرانيتين(*).

(*) قررت ألا أذكر أشخاصا معينين حتى أحميهم وعائلاتهم من الجمهورية الإسلامية. وأتمنى أن يتفهموا ولا يلومونني على ذلك.

حاشية

شهدت إيران منذ عام ١٩٢١ تنمية وتحديثا في عهد «رضا شاه»، واستمر هذا التقدم في ظل زوجي، الراحل الآن، بمعاونة أشخاص أكفاء ومخلصين في عدة مستويات من المجتمع. وواصلت إيران العمل نحو الوفاء بتطلعاتها وإمكاناتها. وتحققت خطوات عظيمة في التنمية الصناعية، والزراعية، والتعليم، والصحة العامة، والشئون الاجتماعية، والأنشطة الثقافية. وانتعشت صناعة البترول الإيرانية، واكتسبت الشركة الوطنية الإيرانية للبترول «نيوك» وضعا جديرا بالاحترام بين كبريات شركات البترول العالمية الخمس. وصارت طبقة متوسطة مستنيرة وناشئة عماد الاقتصاد. وكانت حدود إيران آمنة، واكتسبت سياستها الخارجية احترام الجماعة الدولية. وعلى الرغم من أن مصلحة إيران أملَتْ تحالفًا مع الغرب، كانت لنا علاقات متوازنة وودية مع الكتلة الشرقية فضلا عن بلدان العالم الثالث.

وخلال فترة منفاي التي بلغت ربع قرن. لم أتوقف عن التفكير دقيقة واحدة في إيران، الشعب والأرض اللذين أحببتهما أكثر من كل شيء. ومع القمع الوحشي الذي أصاب أولئك الذين خدموا بلدنا، والمعاناة التي اضطر الناجون لتحملها، بدأ انحدار إيران.

وشهدت وأنا ممزقة القلب، خيبة أمل جيل الشباب الذي انضم إلى أكثر رجال الدين تطرفًا في الشوارع من أجل الإطاحة بالنظام الملكي. وانتهك هؤلاء الشباب أنفسهم القانون، بتشجيع من السلطات الإسلامية، واحتجزوا دبلوماسيين أمريكيين رهائن لمدة ٤٤٤ يومًا. وكان طلبة الجامعات والمدارس العليا، وأولئك الذين شهدوا تنمية البلاد قد حلموا بديمقراطية مستنيرة، من دون تقدير مدى التقدم الذي

تحقق بالفعل في هذا الاتجاه. وبمجرد رحيل الملك أزاحت الظلامية البربرية التابعة للعصور الوسطى كل الآمال جانبا. واليوم، يواجه كافة مَنْ يَحْتَجُّون من أجل حقوقهم الأساسية السجن والجلد والتعذيب، والقتل أحيانًا.

كانت البلاد قوية وتلقى الاحترام. وفجأة تغير كل ذلك، واستغل النظام العراقي حل القوات العسكرية الإيرانية، والإعدامات الجماعية الوحشية لكبار قادته، من أجل شن حرب. وكلفت الحرب إيران أكثر من مليون قتيل، وخسائر من بينها آلاف من الأطفال الجنود. فقد أطال «آية الله خوميني» أمد الحرب بغرض إشعال الحماسة الثورية التي فترت. وأسفر هذا الوضع عن استنزاف موارد الاقتصاد، بسبب اقترانه بالعجز التام لرجال الدين الحاكمين.

أما منطقة الخليج الفارسي، التي كانت مشهورة بالسلام والاستقرار في عهد الملكية الإيرانية، تحولت إلى فوضى، وصارت مرتعًا لتربية المتعصبين، والإرهاب الدولي. ومنذ هجوم ١١ سبتمبر المروع في نيويورك، لا يرى العالم كله المنطقة إلا بعين الخوف. واعتدنا، نحن الإيرانيين، أن نفخر بإبراز جوازات سفرنا عندما نعبر الحدود الدولية. واليوم تسري الرجفة في عروقنا بسبب النظرة المستريبة التي تنظر بها إلينا السلطات في أنحاء العالم.

وفي العام الأخير من حكمه، قال زوجي: «**إذا تعرض أمن واستقرار إيران للدمار، فلن تقتصر العواقب على إيران وحدها، ولا على منطقة الشرق الأوسط الحساسة، وإنما ستدفع بالعالم إلى أزمة تعم الكرة الأرضية**».

ماذا فعلوا بإيران؟

كل ما حققناه تم التضحية به وتبديده. على صعيد التعليم والصحة، حيث أدرجنا عشرات الآلاف من الإيرانيين في العمل من أجل المصلحة العامة، كل ذلك الجهد وصل إلى طريق مسدود.

وقوَّض رجال الدين الحاكمون الاقتصاد النشط. واحتكرت مؤسسات عملاقة تديرها الحكومة مجال الصناعة، والتجارة، والعلاقات التجارية على حساب المشروعات التي يديرها القطاع الخاص. وصار البترول، ثروة البلاد النفيسة، في

أيدي حفنة من المتميزين أعضاء النظام، الذين كنَّزوا الثروات على حساب السكان، الذين يتزايد فقرهم. واليوم تتحكم أقلية صغيرة في معظم ثروة البلاد. وسقط الملايين من الإيرانيين تحت خط الفقر المطلق. وأجبر انفلات التضخم الرجال والنساء على السعي للحصول على وظيفة ثانية، وأحيانًا ثالثة. وجرى تجاهل المناطق الريفية لصالح المدن، وتداعت الضواحي الخضراء المشجرة من الإهمال. وصارت آلاف القرى مهملة. ووصل معدل البطالة إلى مستويات غير مسبوقة، بينما في السنوات الثلاث التي سبقت الثورة الإسلامية كان يتم توظيف نحو مليون من العاملين سنويا من آسيا ومن أماكن أخرى.

وكمثل صارخ على حالة الاقتصاد التي تدعو للأسى، فالدولار الذي كان يبلغ ٧٠ ريالًا عام ١٩٧٩ وصل الآن إلى ٨٠٠ ألف ريال. وهناك حالات من الإملاق دفعت بعض الآباء لبيع أعضاء من أجسادهم حتى يطعموا أسرهم. وتحولت فتيات صغيرات للغاية إلى الدعارة، ويلجأ عدد متزايد من الأطفال إلى التسول للحصول على قوتهم اليومي. وانتشر سوء التغذية على نطاق واسع. ومع انعدام الأمل، وانعدام وجود آفاق للمستقبل، لجأ شباب الإيرانيين إلى المخدرات بأعداد بالغة التزايد. ومن المعروف أن البلاد الآن بها ثلاثة ملايين مدمن. ويقال إن ثلث سكان البلاد يعانون من اكتئاب مزمن.

وهاجر ملايين الإيرانيين، والعديد منهم فر مُخاطِرًا بحياته. وهي مأساة بالنسبة للبلاد، ليس فقط من الناحيتين الاجتماعية والسياسية، ولكن أيضا لأنها خلقت استنزافًا للعقول، لا يمكن أن تتحمله البلاد.

لقد حانت اللحظة كي نرفع رؤوسنا ونتطلع إلى المستقبل. وأنا أفكر في النساء بوجه خاص، من أجل قيادة الطريق. ففي ظل الملكية، كان للنساء نفس حقوق الرجال. وحاول رجال الدين إعادة عقارب الساعة إلى الوراء. وأعادوا عقوبة الرجم الوحشية، ومرروا قوانين مهينة تجعل مواطنة النساء من الدرجة الثانية. ولكن على الرغم من عدم المساواة، لم تصمت النساء. ونسمع كل يوم عن أولئك اللاتي يناضلن داخل وخارج بلدنا ضد المهانة، والخوف، والظلامية. وسوف يحققن النجاح بذكائهن وشجاعتهن، وجرأتهن.

وأفكر في الجيل الجديد؛ شباب الإيرانيين، الذين خاطروا بحياتهم داخل البلاد لنيل حقهم في الحرية. وإخوتهم وأخواتهم الذين كبروا في المنفى ولم يعرفوا إيران، وسوف يكتشفونها غدًا، وهم أقوياء بالمعرفة التي اكتسبوها في البلدان التي كانت من الكرم بحيث استقبلتهم ورعتهم. وأنا أعرف أن هؤلاء الشباب، عندما يديرون ظهورهم للخلافات التي فرقت بين أهاليهم، فسوف يجدون الطريق للتجمع معًا. وسوف يفتحون مرة أخرى أبواب بلدنا العريق للضياء، وللجمال، والحياة.

ويشارك ولدي «رضا» في هذه المعركة. فهو يكافح حتى يجد الإيرانيون الحرية في نظام من اختيارهم. نظاما سوف يكون ديمقراطيًّا ومنفتحًا على بقية العالم. ولديَّ ثقة في «رضا». فأنا أعلم أنه سوف ينجح لأن طموحه الوحيد في المعركة التي يخوضها بقوة وذكاء، هو تحقيق مصلحة الشعب الإيراني.

لقد خدعت الثورة الإسلامية أولئك الذين آمنوا بها وفقدت الشرعية. فطوال تاريخنا الطويل اضطرت إيران أحيانا لتحمل عبء ومعاناة الاحتلال، لكن الغزاة لم ينجحوا أبدًا في تدمير هوية بلادي القومية. فالإيرانيون يستمدون القوة من منابعهم من داخل أنفسهم؛ ثقافتهم وتاريخهم، حتى يقاوموا وفي نهاية الأمر يقهرون الباغي. ولدي إيمان لا حدود له في قدرة الشعب الإيراني على تحطيم أغلاله، والسير في طريق الديمقراطية، والحرية، والتقدم. وأعلم أن النور سوف يتغلب على الظلام، وسوف تنهض إيران من بين رمادها.

الملحق الأول

المرأة الإيرانية في ظل العهد الملكي

كانت منظمة المرأة الإيرانية عبارة عن شبكة مكونة من سبع وخمسين جمعية تابعة، وأربعمائة فرع، ومائة وعشرين مركزا في أنحاء البلاد، تقدم الخدمات في ميادين سلامة الطفولة، وتنظيم الأسرة، والتدريب المهني، والمشورة القانونية. ويعمل بها ألفان من المحترفين المهرة، وسبعة آلاف متطوع يقدمون المساعدة لنحو مليون امرأة سنويا. وأدارت المنظمة مدرسة متخصصة للعمل الاجتماعي بغرض تدريب أعضاء المنظمة المستقبليين وفيالق العاملين بالعمل الاجتماعي للقطاعين العام والخاص. وكانت الإنجازات الرئيسية للمنظمة في العقد الأخير من نشاطها، كما يلي:

التعليم

(أ) تم إعطاء الأولوية لحملة محو أمية المرأة. وكان استخدام «الفرق النسائية» لمحو الأمية فعَّالا بوجه خاص.

(ب) بُذِلت جهود متضافرة لتشجيع الفتيات في سن المدارس الابتدائية على الالتحاق بالمدرسة، والاستفادة من التعليم المجاني الإلزامي على كل المستويات.

(ج) في المستوى الجامعي، تم توفير منح دراسية خاصة لتشجيع الفتيات على الالتحاق بالدراسات العلمية والفنية. ووضع نظام الحصة النسبية لمنح الفتيات اللاتي يظهرن اهتماما بالدراسات الفنية أو غيرها من القطاعات المغلقة أمام المرأة ـ معاملة تفضيلية. وكان ثلث إجمالي عدد طلاب

الجامعات من الإناث. وفي العام السابق على الثورة كانت أغلبية المتقدمين لدراسة الطب من الفتيات.

(د) أعدت لجان مختلطة مكونة من أعضاء منظمة المرأة الإيرانية البرامج الدراسية للفتيات، ومجموعة من أعضاء جامعة «طهران» وغيرها من الجامعات الإيرانية.

التوظيف

(أ) أنشأت منظمة المرأة الإيرانية ووزارة العمل برامج خاصة مشتركة للتدريب الإضافي، مصممة لمساعدة النساء على الحصول على وظائف ذات دخل أفضل في المجالات التي تحتاج عمالة ماهرة وشبه ماهرة.

(ب) تم تعديل جميع القوانين في محاولة لتقييد التمييز القائم على أساس الجنس. وأضيف مبدأ «الأجر الواحد للعمل الواحد» إلى جميع اللوائح والقواعد التنظيمية الحكومية للتوظيف.

(ج) صدر قانون جديد يجيز للأمهات العاملات اختيار العمل بنظام الدوام غير الكامل حتى يبلغ أطفالهن سن الثالثة. وتعتبر هذه السنوات الثلاث عملا بنظام الدوام الكامل عند احتساب الأقدمية أو معاش التقاعد.

(د) أصبحت إقامة حضانات لسلامة الأطفال بالقرب من المصانع أو المكاتب ملزمًا بموجب القانون. وبعد أقل من عامين على صدور هذا القانون كانت حضانات جديدة تحمي ثلث جميع الأطفال الذين يستهدفهم القانون، بفضل الجهود المشتركة بين منظمة المرأة الإيرانية وعدة وزارات.

(هـ) تم تمديد إجازة أمومة براتب كامل لتشمل جميع النساء الحوامل منذ الشهر السابع للحمل.

(و) تم تعديل القوانين المتعلقة بالإسكان، والقروض، ومكاسب العمل من أجل تقييد التمييز القائم على أساس الجنس.

الأسـرة

(أ) وفقا لأحكام قانون حماية الأسرة حصلت المرأة على حق طلب التطليق لنفس مبررات الرجل وتحت نفس الظروف، وتولت محكمة خاصة بالأسرة تحديد الحضانة والنفقة. وفي حالة وفاة الأب تعتبر الأم الوصي القانوني. وتم تقييد تعدد الزوجات فعليًا، باستثناء حالات تكون فيها الزوجة الأولى غير قادرة على الإنجاب، أو مريضة مرضا خطيرًا، وفي هذه الحالات لا يستطيع الزوج أن يتخذ زوجة ثانية إلا بعد موافقة الأولى. وعلى الرغم من أن هذا القانون لا يحقق المساواة الكاملة، إلا أنه كان ـ ومازال ـ أكثر تقدمًا من أغلب التشريعات الموجودة في البلدان الإسلامية الأخرى.

(ب) تم السماح بالإجهاض قانونا، بموافقة الزوج. وأجيز لغير المتزوجة أن تطلب الإجهاض حتى الأسبوع الثامن من الحمل.

التمثيل السياسي

(أ) تم اشتراط أن تضم المجالس المحلية التي تراجع مؤهلات المعينين السياسيين في عضويتها سيدة واحدة على الأقل.

(ب) كانت رائدة منظمة المرأة الإيرانية في كل محافظة تعمل في تعاون وثيق مع المحافظ.

(ج) في الانتخابات الأخيرة قبل الثورة أسفرت حملة نشطة عن انتخاب عشرين امرأة في مجلس النواب (المجلس)، وانتخبت ثلاثمائة امرأة في المجالس المحلية.

(د) تقدمت النساء للعمل بوظائف حكومية رفيعة المستوى وحصلت عليها في عام ١٩٧٨، فكانت هناك امرأة في مجلس الوزراء، وثلاثة في اللجان التابعة للوزارات. وبالإضافة إلى الوظائف التقليدية في وزارات التعليم، والصحة والشئون الاجتماعية، قدمت وزارة العمل مع وزارتي التعدين والصناعة أكبر عدد من الوظائف للنساء.

خطة العمل القومي

أنشأت خطة العمل القومي التي وافقت عليها الحكومة في ١٩٧٨ فرقة عمل في كل من الوزارات الاثنتي عشرة، لتصميم، وإنشاء، وتوجيه الجهود في أنحاء البلاد نحو دمج النساء في كافة قطاعات الاقتصاد والمجتمع. وكان كل وزير مسئولاً عن تنشيط البرنامج ورفع تقرير سنوي إلى مجلس الوزراء. ويجتمع كبار مساعدي كل من الوزراء الاثني عشر شهريا، برئاسة وزير شئون المرأة، الذي يعمل باسم رئيس الوزراء. وتراقب لجان المرأة الجهود التي تبذل في كل وزارة وما أحرزته من تقدم.

الأنشطة الدولية

احتلت إيران المرتبة الثالثة عالميا بسبب التزامها بالحركة النسوية العالمية، وبسبب جهودها بالتعاون مع الأمم المتحدة في بحث قضايا المرأة. ويشمل هذا المسئولية عن مركز آسيا والمحيط الهادئ لشئون المرأة والتنمية، الذي أنشئ في «طهران» ١٩٧٩. وكان المفترض أن يعقد في «طهران» عام ١٩٨٠، مؤتمر السنوات الخمس الذي عقد في المكسيك، لتقييم التقدم الذي تحقق منذ مؤتمر الأمم المتحدة لحقوق المرأة ١٩٧٥.

الملحق الثاني
منشور «كورش الكبير»

أنا «كورش»، ملك العالم، الملك العظيم، صاحب السيادة الهائلة، ملك بابل، ملك أرض «آكاد» و«سومر»، ملك الجهات الأربع، ابن «قمبيز»، ملك «أنشان» العظيم، حفيد «كورش»، الملك العظيم، ملك «أنشان»، ومؤسس السلالة الملكية التي أسعد حكمها «بِل» و«نابو»[1]. وعندما دَخَلْتُ بابل، راضيا مرضيًّا، أسست مقعد حكمي في القصر الملكي على أقصى قدر من رضا الجميع ووسط فرح متجدد. ووضع الإله الأعظم «مردوك» حبي في قلوب البابليين. وأنا أحمده يوميا. وتحرك جيشي حتى وسط بابل نفسها من دون عوائق. ولم أسمح لجنودي أن يروِّعوا أرض «آكاد» و«سومر». ووضعت في حسباني تأمين احتياجات بابل وأماكن العبادة الكثيرة بها. ورفعت النير غير اللائق الذي أثقل كاهل البابليين. ورممت مساكنهم المهملة. ووضعت نهاية لتعاستهم. وعندما رأى «مردوك» سيد الجميع أفعالي ابتهج ومنحني بركته ومنحها ابني «قمبيز»، فلذة كبدي، كما منحها لجيشي؛ وحمدنا بدورنا إله المجد. وجلب جميع الملوك المستقرين على عروشهم في أنحاء العالم، من أعالي البحار إلى أدناها، وجميع ملوك البدو من بلاد الغرب، هداياهم من الأموال الهائلة، وقبلوا قدميَّ في مدينتي بابل. وأَعَدْتُ الآلهة التي تم التخلي عن عبادتها تحت حكم «تيجريز»[2] إلى أماكن عبادتها الحقيقية في كل مكان وقمت بترميمها، في بلدات «آشور»، و«سوسا»، و«آكاد»، و«إشنونا»، و«زامبان»، و«مورنو»، و«دير»

---

(١) من آلهة الفرس. (المترجمة).

(٢) آخر حكام السلالة الجوتية، انتهى حكمه عام ٢٠٥٠ ق.م. (المترجمة).

وحتى في أرض الجوتيين[1]. وجمعت السكان معًا، وأعدت بناء مساكنهم. ووفقا لمشيئة «مردوك»، الإله العظيم، أتحت لآلهة سومر وآكاد ـ التي كان «نابونيدوس»[2] قد جلبها إلى بابل فأثار غضب رب الأرباب ـ أن تستقر في معابدها سالمة. عسى أن تشفع لي يوميا جميع الآلهة التي أَعَدْتُ تأسيس عبادتها، لدي «بِل» و«نابو» حتى يطيلا أيَّامي؛ وعسى أن يتحدثوا عني بهذه الكلمات: «**إن الملك التقيّ** «**كورش**» **وابنه قمبيز...**».

(١) سلالة حاكم في بلاد سومر بدأ حكمها عام ٢١٥٠ قبل الميلاد واستمر حكمها قرنًا فقط من الزمان. (المترجمة).

(٢) آخر ملوك بابل، الذي انتهى حكمه بهزيمته على يد «كورش الكبير». (المترجمة).

الملحق الثالث

رسالة إلى شعب إيران من «رضا بهلوي»

قصر القبة، القاهرة، ٣١ أكتوبر ١٩٨٠

باسم الله العلي القدير، طبقا للدستور الإيراني وتعديلاته، أُعْلِنُ رسميا أنني منذ هذا اليوم التاسع من آبان ١٣٥٩ [١] (٣١ أكتوبر ١٩٨٠)، وأنا أدخل عامي الحادي والعشرين ـ مستعد لتولي مسئولياتي والتزاماتي كملك إيران. ونظرًا للظروف الاستثنائية القائمة الآن، فقد تأجل الاحتفال بأداء اليمين الدستورية إلى حين تتيسر ظروف إقامته، ببركة الله.

ومع ذلك، فمن اليوم، أقسم رسميًّا أمام عَلَم إيران المجيد ثلاثي الألوان، وعلى القرآن الكريم، أنني سأهب حياتي كلها، في منصبي الرفيع، لحماية الاستقلال، والسيادة الوطنية، والحقوق المشروعة للشعب الإيراني.

وباعتباري ضامنًا للوحدة الوطنية، سأكون مخلصًا في الدفاع عن الدستور. إن قانوننا الأساسي يحمي حقوق الفرد والمجتمع، ويحدد بوضوح صلاحيات الملك، والسلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية، ومن ثم سوف أؤدي مهمتي، ساهرا على مراقبة احترام وتطبيق مختلف مواد الدستور، واعيًا بما تتطلبه من واجبات، وبهذا أدافع عن النظام الدستوري.

أبناء وبنات وطني الأعزاء، الإخوة والأخوات،

لقد آلت إليَّ هذه المسئولية العليا، بعد الرحيل الحزين لوالدي الجليل، في واحدة

---

(١) وفقًا للتقويم الفارسي. (المترجمة).

من أكثر فترات تاريخنا ظلامًا، وفي الوقت الذي تتعرض فيه مبادئنا القومية والروحية، وقيمنا التاريخية والثقافية، وحضارتنا، لتهديد من الداخل؛ وهو نفس الوقت الذي أدت فيه الفوضى السياسية، والانهيار الاقتصادي، وتراجع مكانتنا الدولية، إلى انتهاك سلامة أراضينا من خلال العدوان الأجنبي الذي ندينه. وأدرك تماما أنه ما من أحد منكم، بما جبل عليه من الاعتزاز القومي والروح الوطنية، ولا أحد منكم له تمسككم العميق بهويتكم الوطنية، وإيمانكم، والمبادئ المقدسة للإسلام الحقيقي، وقيمكم التاريخية، وإرثكم الثقافي ـ كان يريد وقوع هذه الكارثة. وأنا أوقن أنه ما من شعب، مهما كان حاله، يمكن أن يرغب في مثل هذا الشيء.

وأنا أستطيع أن أتفهم معاناتكم وأتخيَّل دموعكم المحتبسة. ولهذا أشاطركم الألم، وأعلم أنكم تستطيعون، مثلي، رؤية الفجر الصادق لسطوع نهار جديد. أعلم أيضا أن لديكم الإيمان الأكيد في أعماق قلوبكم وأذهانكم، مثلما كنتم في الماضي، أن تاريخنا الذي يبلغ عدة آلاف من السنين، سوف يكرر نفسه، وينتهي الكابوس. ويأتي النور بعد العتمة. وسوف نحتشد جميعا، تشحذنا تجاربنا المريرة، في انطلاقة عظيمة للطاقة الوطنية من أجل إعادة بناء بلدنا. ومع الإصلاحات السليمة، ومشاركة الجميع، سوف نحقق أهدافنا. وسوف نعيد بناء إيران جديدة، حيث تسود المساواة والحرية والعدل. ونجعل من إيران بلدا أبيًّا ومزدهرًا، ليحتل المكانة التي يستحقها بين الأمم مستلهمين الدين الإسلامي الحقيقي، الذي قام على القيم الروحية، والحب، والرحمة.

وفي هذا اليوم المهيب والتاريخي، أنحني أمام كل هؤلاء الأبطال المعروفين أو غير المعروفين، عبر القرون، الذين عشقوا مجد إيران، واستقلال بلدهم، والحفاظ على هويتنا القومية ـ عسى أن يرقدوا في سلام إلى الأبد في تراب بلدهم المقدس. أنحني أيضًا أمام شهداء الجيش الإيراني، وجميع أولئك الوطنيين الذين دفعوا حياتهم ثمنا لبقائهم مخلصين لشرف الأمة، خلال رعب العشرين شهرا الماضية. وأنا أشاطر بصدق عائلاتهم حزنها. وأتفهمهم جيدًا، لأنني خسرت بنفسي شخصًا عزيزًا للغاية، مات قبل أوانه في المنفى ووسط معاناة لا توصف. وقضت عليه نوائب بلده بأكثر من مرضه.

وأنا أجِلُّ شجاعة أفراد القوات المسلحة الذين رغم الإهانة والظلم والإذلال

دافعوا ببسالة عن تراب إيران المقدس وسلامة أراضي الوطن. وأنا فخور بالطريقة التي عملوا بها.

وعلى مدار القرون صنع الشعب الإيراني ملاحم مذهلة، وربما صارت الظروف الآن مواتية مرة أخرى لكتابة صفحة ملحمية جديدة؛ سوف تُظْهِرُ للعالم إيران الحقيقية وشعبها. واليوم، وأنا أستهل بمشيئة الله مرحلة جديدة من الوفاء بواجبي الوطني، أبعث لهم هذه الرسالة من أعماق قلبي. وأنا أعلم بالفعل أن ردَّكم سيكون الصدى المخلص لتاريخنا المجيد، الذي يبلغ آلاف السنين.

هيا نحقق وحدتنا الوطنية القائمة على الأخوة، والمساواة، وحب الله. ودعونا نزيل الكراهية، والانتقام، وكافة مظاهر الشر الأخرى.

أحيي جميع الإيرانيين، نساء ورجالًا، ذوي النوايا الطيبة، حيثما كانوا. وأطالبهم بالحفاظ على إيمانهم الراسخ بالمستقبل، والدفاع عن استقلال إيران، وهويتهم الوطنية، وإيمانهم، من دون وجل وتحت كل الظروف. وأطالب جميع الوطنيين الذين يعيشون في إيران أو خارجها بضم الصفوف مرة أخرى لإنقاذ وطننا.

وأستودع الله العلي القدير، مستقبل شعب إيران العظيم، الذي أعرف أن تاريخه المجيد، سيدوم بشرف للأبد. وأسأل الله العلي القدير أن يسبغ علينا رحمته، ويعيننا على إنجاز واجبنا القومي، وتقبل مسئوليتنا نحو البشرية جمعاء، على الرغم من العراقيل الكثيرة التي تعوق طريقنا.

حفظ الله إيران!

«عندما أتذكر ذلك الصباح من يناير ١٩٧٩ يعاودني نفس إحساس الحزن الموجع بكل حدته. كانت طهران تعاني هجوما ضاريا منذ شهور، لكن صمتا متوترا يخيم الآن على المدينة كما لو أن عاصمة بلدنا تحبس أنفاسها فجأة. اليوم السادس عشر من الشهر، ونحن على وشك مغادرة بلدنا...»

تبدأ قصتها كبدايات القصص الخيالية، ففي الحادية والعشرين من عمرها تزوجت «فرح ديبا» شاه إيران «محمد رضا شاه بهلوي». وخلال أيام انقلبت حياتها الهادئة رأسًا على عقب: غطت صحافة العالم حفل تتويجها إمبراطورة لإيران، وبين ليلة وضحاها صارت شخصية مشهورة عالميًا. وشهدت سنوات زواجها الأولى زواجًا قائما على الحب، وتربية أربعة أطفال، وتفانيا في القضايا الاجتماعية والثقافية، على الرغم من دلائل كانت ماثلة في الأفق على وجود انقسامات وطنية خطيرة.
وبعد عشرين عامًا تحول الحلم إلى كابوس؛ هزت البلاد مظاهرات وأعمال شغب، وقررت «فرح» والشاه الرحيل لتجنب إراقة الدماء. ولم ير الشاه المنفي وهو يعاني مرضا خطيرًا وطنه بعد ذلك أبدًا. وسعيا معًا إلى اللجوء للمغرب، وجزر البهاما، والمكسيك، وبنما. واختفيا عن الأعين في مستشفى بنيويورك حيث تلقى الشاه علاجا. حتى منحهما الرئيس المصري «أنور السادات» ملاذًا في آخر المطاف، ثم اغتيل هو نفسه على أيدي الأصوليين بعد ثمانية عشر شهرا فحسب.

قصة السنوات الأخيرة للشاه، واحدة من أكثر الحلقات المؤثرة والمقلقة في أواخر القرن العشرين، حيث بدأت علاقة أمريكا المتوترة مع الشرق الأوسط تكشف عن أسسها الواهية. وللمرة الأولى تحطم «فرح ديبا» - الشاهبانو - زوجة آخر أباطرة إيران حاجز صمتها، وتحكي قصة حبها الموجعة لرجل وبلده. وتطرح «حبٌ باق» رؤيتها الحميمة لعصر من الاضطرابات، لكن الأهم من كل ذلك أنها تظل وثيقة إنسانية قوية لشخصية انحصرت حياتها بين ملحمة ومأساة المعركة الوطنية.



دار الشروق
www.shorouk.com